وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية

عن

افريقية الشرقية

تأليف

المسيو جيان ، رُبان سفينة

Documents

sur l'Histoire, la Géographie et le Commerce

de l'Afrique Orientale

PAR

Mr. GUILLAIN, Capitaine de Vaisseau

نقله الى اللغة العربية ملخصا

يوسف كمال

الطبعة الاولى

طبعت بالقاهرة فى سنة ١٣٤٥ (سنة ١٩٢٧)

الباب الأول

عصر ما قبل التاريخ

العرب واليهود والفينيقيون بسواحل افريقية الشرقيه

معلوم انه كانت لمصر فى عهد فرعون سيزوستريس الثانى * أساطيل كثيرة تمخر عباب البحار ، وانه كان قد أعد العدة لحملة بحرية فحشد لها نحو أربعمائة سفينة استولى بواسطتها على معظم أقاليم البحر الأحمر وجزره ، وأن هذه السفن واصلت السير حتى بلغت الى الهند . ومعلوم أيضاً مما تضمنه العهد القديم فى سفر الملوك ان سليمان الملك أنشأ السفائن المواخر فى عصيون جابر * الواقعة على مقربة من أيلة * ببلاد أدوم * على سواحل البحر الأحمر . وكان حيرام * ملك صور خير معوان له على القيام بهذه الفعال إذ كان ينفذ اليه العمال من عنده ويوافيه بالمقادير الوفيرة من

م — ٣

صنوف الخشب الصالحة لبناء السفن بعد اقتطاعه إياها من الغابات الكثيفة الحافة بالبحيرات الواقعة فى نواحى غرب سوريا وجنوبها الغربى وعلى سواحل فينيقية .

ولقد وصلت تلك السفائن الى بلدة زفر* وجاءت منها بأربعمائة وعشرين تلانا أى وزنة* من الذهب . وردت هذه الرواية فى سفر الاخبار المعروف باسم پراليبومين* ، فما هى إذن تلك البلاد التى بلغت اليها سفن سليمان ملك بنى إسرائيل وما هو البلد المعروف باسم زفر ؟

يقول جيان* ان هناك اختلافاً فى الآراء على حقيقة بلدة زفر ، ولكننا إذا راجعنا تواليف العلامة كاترمير* فلا نلبث أن نفهم أن هناك ثلاثة فروض فى الموضوع راجحة على سائر الفروض غيرها .

أولها أن زفر على الشاطىء الشرقى من قارة أفريقيا

ثانياً — ان زفر على شاطىء ملبار* (بالهند) .

ثالثاً — ان زفر على سواحل بلاد العرب (شبه جزيرة العرب)

أما جيان فيتلخص رأيه بشأن هذه الفروض الثلاثة فيما يلى :

أولا — رده على الفرض الثالث بأنه على افتراض أن

زفر على الساحل الغربى فتكون الشقة التى قطعتها سفائن سليمان الملك قصيرة المدى جداً، ولا سيما إذا قورنت بما ورد فى سفر الملوك الآنف الذكر . فان الذى يؤخذ مما جاء فى هذا السفر هو أن المدة التى كانت تستغرقها تلك الرحلات البحرية فى الذهوب والأوبة تقدر بثلاث سنوات . وزيادة على ما ذكر فان مدينة ظفار* التى حسب العلامة جوسان* أنها زفر والتى هى على مسيرة أيام من الساحل ليست على ما هو ظاهر البقعة التى كان بنو إسرائيل والفينيقيون يقصدون اليها .

ثالثاً — لو كانت بلاد العرب الحد الأقصى لمدى المواصلات التجارية لتلك الأمم لما كانت هنالك حاجة فى وصولهن اليها الى التعويل على الملاحة بالرغم من الأخطار العديدة التى يلقاها المسافرون عادة فى البحر ولكان الأرجح أن يكون الرحيل إلى زفر المذكورة من طريق البر خصوصاً وأن المواصلات البرية بالأبل كانت ميسورة ومألوفة لذلك العهد . غير أننا رأينا أسماء لبعض حاصلات تلك البلاد مذكورة على الألسن كالبهارات والعقاقير وما اليها ، وعلمنا أن البطالسة والرومان كانوا يقصدون إلى شواطىء أفريقيا للبحث عن العاج والذهب ، فلو أنهم دروا

بوجود الذهب فى شبه جزيرة العرب لما تجشموا مشاق السفر فى البحث عنها والحصول عليها الى ما يتجاوز هذه البلاد من الاقطار النائية السحيقة .

أما المصنفون من العرب والترك فلم يذكروا شيئاً ما عن الذهب ببلاد العرب . نعم إن من المسلم به ما قيل من أن سفن سليمان كانت ترسو ببعض مرافىء سواحل بلاد العرب ، ولكن هذا القول لم يكن مقطوعاً به فلا ينهض حجة فى الموضوع . دع أن سفن بنى إسرائيل كانت تأتى فيما عدا الذهب والعاج بالاحجار النفيسة وخشب الجميم* وبالقرود أيضاً وليس هذا الحيوان من حيوانات بلاد العرب .

أما الفرض الثانى وهو احتمال وقوع زفر ببلاد الهند أى على سواحل مابار أو بجزيرة سرنديب* (سيلان) أو ملعقه* أو جزيرة سمطرة* فأنما كان استناداً على أن خشب الجميم هو خشب الصندل وأن التكيم* هو الطير المعروف بالطاؤوس . ولكننا إذ أنعمنا النظر فى هذا الفرض ، بالرغم من ظاهره الذى يفيد الاقناع فأننا نقول إنه لو كانت هذه البلاد هى التى كان يقصد الاسرائيليون أو الصوريون اليها لوجدنا عداد ما كانوا يجلبونه من صنوف

الأموال والبضاعات رقاع الحرير والشيلان والقطانى الفاخرة والمواد العطرية والفلفل والقرفة وما الى ذلك من العقاقير التى كانت تصدر من الهند الى بلاد المغرب . ولكننا لم نجد ذكراً لشيء من هذا سوى الذهب إذ كان هو الغرض المقصود بالذات .

وقال المؤلف بعد ذلك ان ابن بطوطة* وفرشتاه* أشارا فى رحلتيهما الى وجود الذهب فى الهند ، غير أن الجهات التى كان بها النزر اليسير منه لم تكن وقتئذ تورد الى السواحل ما يمكن الاتجار به . أما سن الفيل فمع التسليم بوجودها فى الهند ، إلا أنها أصغر منها فى أفريقيا ، ولم يكن أهل الهند ليهتموا بالاتجار بها . أما خشب الصندل فلم يكن مستعملا فى غير الغرض الذى كان الاسرائيليون يقصدون من أجله الى البلاد التى بها خشب الجميم . فكان سليمان الملك يتخذ هذا الخشب فى صناعة آلات الطرب والأثاث الصالحة لهيكل بيت المقدس . أما كلمة التكيم وهى الكلمة التى عربها بعضهم بطاؤوس ، فأنا لو سلمنا بهذا الفرض وذهبنا الى أن طائفة كبيرة من هذه الطيور جيء بها من تلك البلاد الى فلسطين لتكاثرت وتضاربت فيها بالتناسل ولورد وصفها الجميل فى مصنفات المؤلفين من بنى إسرائيل .

والآن وقد ظهر بطلان الفروض الثلاثة فانى أدلى برأيي فى أصل كلمة زفر موافقاً على ما ذهب اليه كل من دنفيل* وبروس* وغيرهما ممن حققوا موقع زفر فقالوا إنه بالساحل الشرقى من قارة أفريقيا فى الجهة المعروفة الآن ببلاد سوفالية* .

وهذا الرأى هو الأرجح على ما يظهر لما هو مشهور من وفرة الذهب فى هذه الاصقاع ومن أن أفريقيا كانت مشهورة بذلك. قبل استكشاف القارة الامريكية فما لا يسلم به أنه مع علم الفينيقيين والاسرائيلين بذلك كانت سفنهم تقصد الى غير هذه البلاد للبحث عن الذهب ، وبعد ذلك كان الرومان يستحصلون على الذهب من أفريقيا أيضاً وكان العرب يبحثون مثلهم عن هذا المعدن الكريم على سواحل أفريقيا الشرقية فى جزيرة مدغشقر التى أسماها ابن ماجد* بالقُمُر. أما العاج فكان اتجار سكان أفريقيا به فى الازمان القديمة أمراً معروفاً . وبما أن سكان أفريقيا لم يستأنسوا الفيل ولم يستخدموه كسكان الهند فقد كانوا لا يصيدونه إلا للانتفاع بأسنانه .

أما القرود فنى افريقيا منها أنواع عديدة .

وأما طير التكيم فليس هو الطاؤوس على ما أظن وانما

هو الببغاء المختلف الانواع والاشكال بالقارة الافريقية أو هو الطير المعروف باسم دجاج الوادى .

ويجرى هذا المجرى الاحجار الكريمة الوارد ذكرها اذ من المعلوم أن منها بالقارة الافريقية الشيء الكثير .

أما خشب الجميم الذى وهم بعضهم أنه الصندل فالمعروف أن الموجود بالساحل الافريقى ثلاثة أنواع من الخشب النفيس (وهذا ما ذكر فى مؤلفات العرب) أولها خشب البقم* ويعرف بخشب البرازيل والخشب المسمى بالقنا* . والنوع الاول يستعمل فى الصباغة والنوعان الآخران وهما خشب القنا وخشب الساج* فقد ذهب المؤلفون من المشارقة الى أنهما من الاخشاب النفيسة الصالحة فى النجارة الدقيقة ولذا أرى أن أحد هذه الانواع الثلاثة هو ما أسماه المصنفون الاسرائيليون بالجميم وأن بلدة زفر إنما هى بناء على ما تقدم بلاد موسامبيق* وسوفالية التى بالساحل الشرقى من قارة افريقيا .

ونقول علاوة على ما تقدم أن ذهب زفر كان معروفا من الأدوميين قبل داود عليه السلام . وقد جاء فى سفر براليبومين أى الاخبار أن مقداراً وافراً من الذهب كان بخزائن سليمان ، وهو ما يؤخذ منه ان هذا المقدار استخرج

منها قبل عهد هذا الملك وقبل العهد الذى جاء التجار فيه من شمال بحر الحبشة وطافوا برأس البهار* ثم نزلوا جنوباً الى سوفالية ووقفوا على أسرار التجارة فمن هم إذن البحارة الذين أطلعوا الفينيقين والاسرائيليين على تلك الاسرار وعلى جغرافية تلك البقاع البعيدة ؟

فاذا نظرنا الى الموضع الجغرافى لشبه جزيرة العرب وعلمنا كيف أن هـذه البلاد مقابلة للساحل الافريقى والهندى معاً عرفنا نظام هبوب الرياح خلال السنة الواحدة فى الأوقات المختلفة وطائفة من الاسباب أهمها وفرة الخيرات فى قارة أفريقيا وإلمام العرب بعلم الفلك وطريقة استخراج الاتجاهات بالشمس والكواكب أدركنا أن العرب هم أول من احتل من الأجانب السواحل الأفريقية .

ومما يذكره التاريخ أن حاصلات الهند من العقاقير وما اليها كانت تصل بطريق البحر الى مصر وغيرها من بلدان أفريقيا فمن ذا الذى كان يجلبها اليها اذن ؟ أما الهنود فقد كانت عقائدهم الدينية تحول دون اغترابهم عن نهرهم المقدس . وكذا المصريون فانهم وان بلغوا فى البحر الى الهند الا أنهم كانوا باغترابهم يرمون الى المقاصد السياسية . ومما دونته التواريخ وحفظته بطون الاوراق أن القوافل الآتية

من منى * وجره * على الشاطىء الغربى للبحر الاخضر (الخليج الفارسى) وحضرموت على المحيط الهندى وكذا من سبية * ومن اليمن كانت تجتمع فى مدينة بترا * وكانت تتجه من هذه النقطة الى جهات مختلفة منها مصر وفلسطين وسوريا عن طريق ارسينوة * وغزة وصور والقدس ودمشق وعن طرق اخرى تصل كلها الى البحر الابيض المتوسط . ولما تقدم العرب فى فن الملاحة فيما بعد أصبح الشطر الأوفى من تلك البضائع ينقل بحراً وكذا كل ما كان يجلبه أهل سبأ أو (السبئيون) * من سواحل شرق أفريقية فى سفائن عربية يسيرها ربانون ونوتية من العرب أنفسهم .

وجاء فى أسفار التاريخ أن نيأرك * الذى ندبه الاسكندر المقدونى للطواف فى بحر الهند والتجوال فى أنحائه عثر بسواحل جدروزيا * على ما يثبت وجود الملاحة العربية لذلك العهد ، كأسماء عربية أطلقت على بعض المدن وسفن عربية وربان عربى يرشد الى مسالك السفن فى البحار . ومن هذه الاسماء كلمة جزيرة واهتدى بالساحل على مقربة من نهر الهندوس الى قوم يعرفون باسم عربتاك * وهو ما يفيد ان الملاحة فى البحرين الأحمر والهندى كانت بايدى العرب وأن البطالسة لما أرادوا نقل البضاعة الى بلادهم فى سفنهم

عبرت هذه السفن بوغاز باب المندب* ولكنها وقفت بأرض سبأ* حتى أن البطالسة اليونانيين صاروا يعتقدون أن ما كانوا يجدونه بهذا البلد إنما هو من محصوله فى حين أنه كان مجلوبا اليه من الخارج . فيظهر بالاختصار مما سبق أن بلاد العرب كانت مركز التجارة بين المشرق والمغرب . وان العرب هم الذين استكشفوا لأول مرة تلك البلاد الكائنة جنوبى بوغاز باب المندب أو لغاية سفالية على الاقل ، ثم ان باقى الامم لم تصل الى هذه البقاع الا بعدهم وبواسطتهم . اذن يتضح أن كل الأمم الاخرى مثل الاسرائيليين وأهل صور والمصريين واليونان والرومان وأخيراً البرتقاليين لم يكن حلولهم بتلك الاراضى الا أمراً مؤقتاً . أما العرب فهم الذين تواصل وجودهم بها ، كما كانوا هم السابقين لغيرهم اليها .

وهنالك أمر آخر وهو هل يجوز أن يكون مجىء الفينيقيين الى الشاطىء الافريقى الشرقى من الطريق الغربى أى أنهم طافوا حول القارة من المحيط الاطلنطى* ، وأنهم مروا أولا من بوغاز جبل طارق ؟

قال هيرودوتس أن نيخاؤوس فرعون مصر أرسل جماعة من الفينيقيين عن طريق بحر الحبشة وأمرهم بأن يطوفوا حول القارة الافريقية وأن يعودوا الى مصر عن

طريق جبل طارق* ففعل الفينيقيون ذلك . ولما حل الخريف كان وصولهم الى لوبيا* حيث زرعوا القمح ، وبعد الحصيد سافروا بحراً وعبروا جبل طارق فوصلوا الى مصر فى السنة التالية وقالوا انهم رأوا الشمس الى يمينهم لما كانوا فى البحر يطوفون حول لوبيا فهكذا عرف موقع لوبيا لأول مرة وهذا ما يذهب اليه الكثير من المتأخرين ومنهم الدكتور فنسان* وان يكن الأمر على عكس ذلك فى نظرنا .

ويقول فنسان نقلا عن هيرودوتس * أيضاً أن اكزرسيس* ملك الفرس عهد الى ساتاسب * الطواف حول قارة أفريقيا ماراً ببوغاز قادس* وأنه قتله لعودته دون أن يتم المهمة التى ناط به أداءها. وقد قيل أخيراً إن العرب نزلوا فى الاعصر السالفة بشواطىء المحيط الهندى فنفذوا الى جهات لم يعرف عنها قدماء المصريين والرومان واليونان شيئًا ما ، وأن البرتقاليين لما جاءوا الى تلك الشواطىء وجدوا أنهم استوطنوا جهات موسامبيق * ولكن لم يثبت أنهم وصلوا الى أبعد من ذلك فى اتجاه رأس الرجاء الصالح حيث لم يذكر ذلك المؤلفون العرب فى تخطيط البلدان .

فاذا فرض أن العرب سبقوا الفينيقيين على الشاطىء فمما لا شك فيه أن الفينيقيين كانوا أدرى من العرب بفنون

الملاحة وأكثر منهم إقداماواقتحاما . بل ربما كانوا أول من طاف بالقارة الافريقية وأنهم بلغوا فى سبيل تحقيق هذه الغاية الى أقصى نقطة واقعة فى جنوبها حيث لم تك لهم ثغور فى البحر الاحمر . ويدخل فى باب الاحتمال أيضاً أن يكون العرب قد طافوا من الشرق الى الغرب ، ولكن يرجح أنهم لم يواصلوا السير بحراً لعدم توافر الخيرات بالشاطىء الافريقى الغربى حتى ما يمكن أن يقرب مما كان ميسرا لهم الحصول عليه دون كلفة بالشاطىء الافريقى الشرقى أو بالشاطىء الهندى .

فاذا عدنا الى مازعمه جوسلين فى هذا الصدد فأنا نجد أنه يشاطر هيرودوتس فى نظريته وإن خالفها فى بعض النقط : فهو يقول أولا أنه كان يستحيل على الاقدمين أن يعلموا أن أفريقيا شبه جزيرة لو لم يطف أحد بها .

ثانياً — قال الفينيقيون ان طوافهم بافريقيا استغرق ثلاث سنين وأن هذا القول ينهض دليلا على أنهم طافوا بهذه القارة

ثالثاً — قول الفينيقيين أنهم رأوا الشمس الى يمينهم فى اثناء رحلتهم حول القارة برهان على أنهم طافوا بها

وأهم ما يستحق الذكر فى نظرنا قصتان ، الاولى ما

جاء فى مؤلف بيوميوتيوس ميلا* المقتبس من مصنف ضائع يعزى تصنيفه الى كرنيليوس ميلا*. فانه بعد الكلام على أتيوبيي مروى* أنشأ يصف شواطىء أفريقيا من بوغاز باب المندب حيث قال :

« يمتد الشاطىء الى الجنوب الغربى ابتداء من باب المندب ، وهو غير جدير بالذكر ، اذ هو عبارة عن سهول متسعة أو جبال شامخة . وهو أقرب الى ضفه النهر شبهاً منه الى شاطىء البحر لارتفاعه وقلة انبطاحه . ويكون فيما يلى هذا المقسم متماديا فى الطول وقحلا »

ولقد تساءل الكثيرون زمنا طويلا عما اذا كان البحر يمتد الى جنوب هذا الشاطىء أو إذا كان يحيط بالقارة أو هل تمتد أفريقية القاحلة الى حيث لانهاية . ولكن تبين فيما بعد أن هانون* الذى أرسله القرطاجيون بعد أن جاز مضيق جبل طارق أوغل فى جزء كبير من المحيط وأنه لما وجد نفسه فى بحر لامدى له واوشكت مؤونته أن تنفد عاد من حيث أتى .

واذ لم يذكر جيان خبر هانون هذا فقد آثرنا إيراده نقلا عن ادوارد شارتون* فى كتابه الموسوم « الرحالة الاقدمون والمحدثون » ، قال :

رحلة

هانون السائح القرطاجى

رحل هانون* وهو ملاح من أهل قرطاجة* مشتطا سواحل لوبيا حتى بلغ الى ما وراء بوغاز جبل طارق . وقد صنف هذه القصة فى معبد بعل* . طاب القرطاجيون من هانون أن يسيح بحراً فيما وراء جبل طارق أى أعمدة هرقول* وأن يؤسس مدنا لوبية فينيقية، فسافر بأسطول مؤلف من ستين سفينة لكل منها خمسون مقذافاً .ويقال ان هذه السفن كانت تقل نحو ثلاثين ألف نسمة رجالا ونساء فضلا عن المؤن . قال هانون ما ملخصه : «أنه بعد أن سافر يومين فيما وراء جبل طارق أسس على شاطىء لوبيا فى بقعة منبسطة من الأرض مستعمرة سميث ثيما تيريوم*

ومنها وصل الى نقطة من بلاد لوبيا سميت باسم سولويس*
وان هذه النقطة كثيرة الاشجار ، فبنى فيها معبداً لنبتون*
إله البحر . ومن رأس سولويس اتجهنا الى جهة المشرق
فررنا بعد مسيرة نصف يوم ببحيرة مجاورة للبحر يكثر
فيها الغاب والافيال والضوارى . وفيما يلى هذه البحيرة
بمسيرة يوم واحد أسسنا عدة مدن أو نقط وهى كاريكوس،
موروس ، سيت ، اكرا ، مليته ، أرامبيس . وتقدمنا الى
الامام حتى بلغنا الى نهر ليكسوس* العظيم وينبع من بلاد
لوبيا بالقرب من بلاد القبائل الرحالة، فوجدنا بهذه النقطة
سكاناً من الليكسيين يشتغلون بتربية المواشى فبقيت عندهم
زمناً وعقدت معهم محالفة . وفيما وراء هذه الأمم أى فى
داخل البلاد يوجد الأثيوبيون ، وهم أمة متوحشة تكثر
فى بلادها الحيوانات الكاسرة وبها الجبال العالية ، ويقال
ان نهر ليكسوس ينبع بها . وقد قال لنا الليكسيون ان تلك
الجبال يسكنها أقوام التروغلوديت* وهم أسرع من الخيل
إذا ركضوا . فبعد أن أخذنا من الليكسيين أناساً يلمون
بلغات أهل البلاد ، سرنا يومين على ساحل هابط الى الجنوب
ثم تابعنا المسير الى الشرق اربعاً وعشرين ساعة فوجدنا
بداخل خليج جزيرة صغيرة طول دائرتها خمس استادات*

فاسميناها سيرنا* وتركنا بها رجالا. ولما نظرت فى مفكرنى تأكد لى أن سيرنا تبعد عن جبل طارق بقدر بعد هذه النقطة عن قرطاجة ثم واصلنا السياحة فبعد أن عبرنا النهر المعروف باسم كريتيس* بلغنا الى بحيرة تحتوى ثلاث جزر أكبر من سيرنا. وقد أمضينا يوماً للوصول منها الى داخل البحيرة، وكان يحيط بها جبال شاهقة ورأينا فيها أناسى يلبسون الجلود ويسكنون الغابات فرشقونا بالاحجار واضطررنا الى الانسحاب فسرنا بطول هذه البحيرة حتى وصلنا الى نهر آخر أعرض من الأول ويكثر به أفراس البحر* والتماسيح ثم عدنا الى جزيرة سيرنا.

ومن ثم واصلنا السير الى جهة الجنوب فاستغرقت سياحتنا اثنى عشر يوماً. وبطول الشاطىء سكان من الحبشان الاثيوبيين، وقد جفلوا عند رؤيتهم إيانا ثم أخذوا يكلموننا بلغة لم يفهمها المترجمون الذين كانوا فى رفقتنا.

وفى اليوم التالى استكشفنا جبالا عالية مجللة بالغابات الكثيفة والاشجار اللطيفة الشذا. فسايرنا هذه الجبال يومين أوغلنا بعدهما فى خليج كبير ينتهى بسهل، وكنا نرى فى أثناء الليل اللهب يتصاعد من كل الجهات متقطعاً تارة وكبيراً أو صغيراً تارة أخرى. وواصلنا السير بعد ذلك

بطول الشاطىء أربعة أيام تباعا ، ففي اليوم الخامس وصلنا الى خليج كبير . وكان يسمون الرأس الكائنة بمدخل الخليج باسم هيسبيرمسيراس* أي رأس المساء. وكان بهذا الخليج جزيرة كبيرة فيها بركة ماؤها ملح أجاج وبوسطها جزيرة نزلنا بها . وفي النهار لم نشهد إلا غابة . ولكن لما حل الليل رأينا النيران متقدة فى جهات كثيرة متفرقة وسمعنا صوت المزامير ودق الطبول والدفوف وجلبة أناس عديدين فنزل الروع فى أفئدتنا وأردنا التعجيل بالفرار ، فرفعنا المراسى وأبحرنا نشتط السواحل بطول أرض تعبق بالروائح الزكية وينبدلع فيها لسان اللهب فتساقط منه على البحر مواد نارية فكانت الأرض تحتدم حرارة بسببها حتى أنه كان يستحيل على الانسان أن يمشي فوقها فعجلنا بالابتعاد عن هذه الجهات وواصلنا السير فى سياحتنا فبدت الأرض لنا كأنها مغطاة ببساط من نار. وكان اللهب يتصاعد من نقطة واحدة فيخيل لنا كأنه فى صعوده يبلغ الى الكواكب ودام الحال كذلك أربع ليال . فلما أسفر الصبح علمنا أن هذه النقطة كانت جبلا عالياً اسمه ثيون أوخيما* أى مركبة الآلهة ، فبعد أن مررنا بتلك البقعة الرديئة بقينا فى سير متواصل ثلاثة أيام فوافينا رأساً بمدخل الخليج المسمى نوتوسيراس* أى قرن

الجنوب . وبأقصى هذا الخليج جزيرة بها بحيرة وأخرى تشبه فى شكلها الجزيرة التى كنا استكشفناها من قبل . فلما رسونا على هذه الجزيرة وجدنا بها قوماً من الهمج المتوحشين وكان النساء فيهم يزيدون عدداً على الرجال وكانت شعورهن طويلة مرسلة وكان المترجمون يسمونهن الغوريلا* أو (غورغاد) فاقتفينا أثرهم ولم نقبض على رجل منهم إذ كانوا يفرون بسرعة مدهشة للاختفاء فى فجوات الجبال ويلقون علينا الحجارة . وقد تيسر لنا القبض على ثلاث من النساء كن بعد شد وثاقهن يتخلصن من قيودهن ويعضضننا فاضطررنا الى قتلهن وحفظنا جلودهن . ولما بدأ زادنا ينفد عدنا فى اتجاه قرطاجة » اه .

ولما وصل هانون الى قرطاجة نقش هذه القصة على جدران معبد بعل مولوخ*

وقد اختلف متقدمو العلماء ومتأخروهم فى تحديد أقصى نقطة وصل اليها هانون فقال بعضهم أنه وصل الى خليج غينا . ويقول فيفيان دى سان مارتان* فى مؤلفه الخاص بتاريخ الجغرافيا أن المباحث الدقيقة تجعلنا نعتبر هذه النقطة خليج شيربرو* الكائن فى جنوب سييرا ليونى* بين درجتى ٧ و ٨ من العرض الشمالى .

ويؤكد ثبيوس* أن أودوكس *الفار من غضب لاثير* ملك اسكندرية خرج من الخليج العربى مواصلا السير والسرى بحراً حتى بلغ الى قادس* وعليه فيكون الناس قد وقفوا على شيء من أحوال شواطيء هذا البحر .

واليك بيان استكشافات أودوكس المومأ اليه كما أورده يوميونيوس ميلا حيث قال نقلا عن الأول :

«يوجد فيما يلى السواحل القاحلة السابقة الذكر قوم من البكم لا يعبرون عن مرادهم إلا بالاشارة ولبعضهم ألسنة يقدرون على النطق بها وليس للبعض الآخر ألسنة كما أن شفاه غيرهم متلاصقة لا تتحرك ومابها سوى فتحة ضيقة تحت الخياشيم وبهذه الفتحة يشربون مستعينين على ذلك بأنبوبة . أما الاطعمة فانهم يدخلونها فى أفواههم بحركة الشهيق قطعاً صغيرة أو حبة حبة إذا كانت بقولا . وكانت النار قبل وصول أودوكس الى هنا مجهولة من أولئك الناس فلما رأوه يوقدها أمامهم لأول مرة سروا كل السرور وكانوا يقبلون اللهب ويضمون الجمر الملتهب الى صدورهم ولا يطرحونه على الأرض إلا إذا آلمهم بحرارته »

وبعد ذلك يتكون خليج متسع توجد به جزيرة كبيرة يقال ان سكانها كلهم نساء شعرانيات* تلدن من

غير أزواج ويخفن الناس . هذا ما قاله هانون، والظاهر أن ما قاله صحيح لا غبار عليه فانه قتل جملة من هؤلاء السكان وسلخ جلودهم وجاء بها معه .

وبعد هذا الخليج يرى الانسان بركاناً عالياً لا تكف النار عن الانبعاث من جوفه وهو ما يسميه اليونان ثيون أوخيما أى مركبة الآلهة الى غير ذلك مما قال أودوكس ولا يستحق الذكر منه هنا إلا ما روى عن أودوكس أنه بدأ سياحته فيما وراء الخليج العربى وانه لم يذكر مما يهمنا الوقوف عليه منها سوى أنه وصل الى جزيرة القرود ، وقد نسج على منوال هانون القرطاجنى ولكنه زاد على قصته غلطات خاصة به . وهناك قصة أخرى منسوبة الى أودوكس السالف الذكر

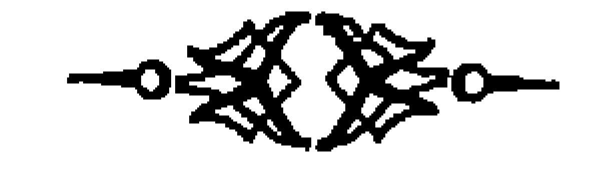
وقد جاء فى عدد جورنال آسيا* الصادر فى لندن بتاريخ ابريل سنة ١٨٢٠ ما نصه :

رأس الرجاء الصالح

الملاحون الفينيقيون

« استكشف حديثاً بضاحية رأس الرجاء الصالح شىء لا بد أن يهم المؤرخين ، يعنون به . ذلك أنه بينما كان بعضهم

يحفرون فى مغارة عثروا على سفينة مصنوعة من شجر السنديان * ، ويقال انها من عهد الفينيقيين . فاذا صح ذلك فلا يبقى أثر للشك فى أن أهل صور ، قدو صلوا الى أقصى نقطة أفريقية فى الجنوب » .



الباب الثاني

العصر الروماني اليوناني

صلات الملاحين اليونان والرومان بسواحل شرق افريقية

يقول المؤلف :

وذلك ما تشهد به الآثار التاريخية اليونانية من أن اليونان لم يعرفوا شيئاً كثيراً عن تلك البقاع ولكن يظهر أن هوميرس* الشاعر من أهل القرن التاسع قبل المسيح، كان يلم بقليل من أحوال الهند ولم يذكر سوى أمتين أثيوبيتين لون بشرتهما أسود . أما هيرودتس الذى كان عائشاً بعد هوميرس بأربعة قرون فهو أول من وصف الأثيوبيين بطول الشعر أكثر من غيرهم من سكان الاصقاع الغربية ، وهو أول من ذكر شيئاً عن رحلات الفينيقيين وسياحتهم فى عهد فرعون مصر نيخاؤوس** كما سبق شرحه .

وهو أيضاً أول من ذكر رحلة الطواف التى قام بها سيلاكس * وكاريادر * الذى نزل بناء على أمر داريوس بن هستاسب * فى نهر الهندوس وبلغ منه الى البحر وطاف بشواطىء بلاد العرب ثم وصل بعد أشهر الى وسط البحر الأحمر. وإن لم ينقل التاريخ الينا شيئاً يفيدنا أكان للفرس سفن فى المحيط الهندى والخليج الفارسى. أما فى البحر الابيض المتوسط فقد كان نوتية أساطيلهم البحرية من الفينيقيين والقبرصيين والمصريين . وقد وصف هيرودوتس الأقاليم الأفريقية الحارة بما يفيد اعتباره إياها غير صالحة للسكنى وكان المفروض أن المحيط يحيط بالقارة الأفريقية على مسافة قصيرة من البحر الأحمر . وبعد هيرودوتس نورد شيئاً عن كتزياس * وكان طبيباً لارتكزرسيس * ملك الفرس . وذلك بعد هيرودوتس بستين سنة وكان معاصراً لكزينوفون * فقد أوغل كتزياس الآنف الذكر فى داخل البلاد الهندية وكان وصوله اليها براً ولكنها قصة أقرب الى الخرافة منها الى الحقيقة إذ لم يعلم لنا شىء عن بحر الهند الا فى عهد الاسكندر الاكبر بعد كتزياس بسبعين سنة . وكان أرسطو * هو أول من قال بكروية الارض وأن محيط دائرتها أربعمائة الف استادة ويظهر أنه أول من ابتكر فكرة

الطواف فى المحيط الاطلنطى إذ زعم أن شواطىء اسبانيا تقرب من شواطىء الهند. ومن أهم ما دونه ذلك الفيلسوف أنه أشار الى جزيرتى تايروبان* وفيبول* وقال إن إحداهما بالهند والاخرى ببحر بلاد العرب وهذا ما جعل ملطبرون* يقول ان المحدثين من علماء تخطيط البلدان أبدوا دهشهم من أن يذكر أرسطو جزيرة ثايروبان قبل عهد البطالسة بزمن طويل ويذكر فى الوقت نفسه جزيرة مدغشقر التى كان العرب يسمونها فامبولون* ولو أن اسم سيبيلا* الذى كان يطلق أيضاً على فامبول حمل الناس على الاعتقاد بوجودها فى الشرق . ولم يترق فن الملاحة فى البحر عند اليونان ولا علم الجغرافيا الا فى عهد اسكندر الاكبر فقد توثقت فى هذا العهد روابط التجارة بحراً بين الهند وسواحل بلاد العرب وأفريقيا وسواحل مصر ، ولو أن رقى الملاحة فى البحر الأحمر سار ببطء حينما كان زمامها بأيدي العرب .

ومما لا شك فيه أنه كان يوجد بمدرسة اسكندرية مجموعات جغرافية عديدة ذات أهمية كبيرة ولكن الحوادث السياسية والدينية وغيرها أفضت الى ضياعها واندثارها . ولو أن المؤرخين الرومانيين ذكروا شيئاً عنها لتيسر لنا الى

حد ما أن نقف على ساسلة تتابع الحوادث . وبهذه الكيفية نستطيع الوقوف على شيء من آثار ايراتوستين* وأغاثرسيد* وأرتيميدور* وهيبرقة* .

ومما نقل الينا بهذه الواسطة أن ثيموستين* وصل بحراً الى جزيرة سرنى. ومع أن تحديد موضع هذه الجزيرة غير مستطاع الآن من المهم ان نعلم أن كلمة سرنى كلمة قرطاجية الأصل تفيد معنى النهاية والختام . وقد ذكر هانون القرطاجى الجزيرة المذكورة فى رحلته .

وإذا صح ما قاله الدكتور فنسان نقلاعن باليناس* فأن ثيموستين كان يقدر طول البحر الأحمر بمسيرة أربعة أيام بحراً .

وأما ما نقله استرابون* وبليناس وديودورس الصقلى* عن أغاثرسيد فهو أن تجارة مصر في عهد البطالسة كانت منتشرة بين أرسينوة (السويس الحالية) وبطولمائيس ثيرون* الواقعة على مسافة قليلة جنوبى الدرجة ١٠َ ١٨ْ من الشاطىء الغربى للبحر الأحمر وعلى بعد ثلثمائة وخمسين ميلا شمالى بوغاز باب المندب .

وزعم بعضهم أن بطليموس فيلاذلفوس* أى قبل هذا العهد بمائة سنة كان يعرف قسما كبيراً من شاطىء

أفريقيا ، ولكن يظهر جلياً من قول أغاثرشيد أن السفن المصرية كانت فى أكثر الأحوال لا تصل الى تلك البقاع البعيدة .

ويقول استرابون نقلا عن إراتوستين ان بوغاز باب المندب كان فى ذاك العهد مفتوحاً للتجارة ، ويقول نقلا عن أرثيميدور أن المواصلات كانت تمتد الى الرأس الجنوبى المسمى قرن الجنوب* ويظهر أيضاً أن أغاثرشيد كان عالماً باتجاه الشاطىء الأفريقى فيما يلى ذلك البوغاز . ولذا ذكر انحراف الشاطىء الى جهة المشرق . ولكنه لم يظهر جلياً أكان يقصد بوصفه ذكر الانحراف الخفيف الواقع قريباً من البوغاز أو الانحراف الكبير الكائن فيما يليه الى رأس جردفون . ومع ذلك فان صلات المصريين بالعرب فى تلك الأزمان أوقفتهم بلا ريب على حقائق كثيرة من جغرافية شواطىء بحر أريثرة* . ولكن العرب كانوا متفوقين فى الملاحة وما زالت البضائع تنتقل على سفنهم وما برح المصريون فى حاجة اليهم للحصول على العقاقير والحاصلات والمصنوعات المرغوب فيها عندهم . وكان العرب يأتون بتلك الأصناف الى ثغر أرسينوة وميوس هورموس* وان يكن قد نسب الى بطليموس فيلاذلفوس انه رقى الملاحة وجلب فى سفنه

البضاعات من الهند فانما أصل ذلك ما نقل عن أثينيوس * من أنه كان يرى عبيداً من أهل الهند فى الحفلات الرسمية والعامة ، ولكن كلمة هندى لا تعنى فى الحقيقة أناساً من بلاد الهند اذ كانوا وقتئذ يخلطون بين اتيوبيي لوبيا واتيوبيي الهند . وكلمة هندى كان لها معنى واسع النطاق إذ كان يعنى بها الرجال سمر اللون سواء أكانوا من آسيا أم من أفريقيا حتى أن التجارة مع العرب سميت زمناً طويلا بالتجارة الهندية ولا يعلم أحد أكان العبيد المدعوون بالهنود أفريقيي الأصل ومجلوبين من سواحل البحر الأحمر أى من حيث كان البطالسة يجلبون الفيلة ويستخرجون معدن الذهب .

ومما لا شك فيه أن البطالسة كانوا مهتمين بالملاحة فى البحر الأحمر ومجدين فى التغلب على العرب فى تلك الجهات حتى أنهم حاربو النبط * . ويقول استرابون نقلا عن أرثيميدور المعاصر لبطليموس لاثير * وذلك قبل المسيح بمائة سنة وأربع سنين ان الحركة التجارية المصرية كانت تمتد على الشاطىء الافريقى الى قرن الجنوب . ويقول الدكتور فنسان ان هذه النقطة هى رأس بكسوس . أما جيان فيزعم أنها رأس الخيل .

أما العرب فقد أسسوا فى ذلك الوقت بل وفى أزمان سابقة نقطا تجارية مهمة بالشاطىء الأفريقى الشرقى وفيما يلى خليج عدن بالبلدان التى كانت تحت حكم الملك مفرتيس* وان ثغر موسيلون* الكائن فى الشمال الغربى من رأس جردفون كان يزاحم ثغور أرض آسيا وحضر موت .

ولما أخذ اغسطوس* مصر وجعلها جزءاً من الدولة الرومانية شجع الرومان التجارة والملاحة فى تلك الاصقاع وأيدوهما، فقدا كتفوا بفرض الضرائب على ما وجدوه من الاموال بداخل البلاد التى استولوا عليها ولو أنهم فكروا أيضا فى الفوز على غيرهم باحتياز تلك الخيرات الواردة من الخارج كما تشهد به الحوادث الكثيرة كتجريدة ايليوس جاليوس* على بلاد العرب واثيوبيا والتروغلوديت* فهذا مما يثبت بجلاء أن الرومانيين كانوا يريدون انتزاع التجارة من أيدى العرب. ولكن اخفاقهم فى هذا السعى لانهزامهم أمام جيوش ملك بترا كان من بواعث تعطيل تقدم الرومانيين نحو بحر الهند عصراً طويلا ، ويقول استرابون أن هذه التجريدة الرومانية لم تأت بفائدة ما حتى ولا بمعلومات جغرافية جديدة . ولكن الرومان تبينوا أحوال هبوب الرياح وتقلباتها فى المحيط الهندى وتمكن هيبال* من الايغال فى البحر بعيداً عن

الشواطيء فى طريق كان يجهله اليونان والرومان، وذلك بعد المسيح بنصف قرن تقريباً . فأثرت جرأة هذا الرجل فى حالة الملاحة والتجارة تأثيراً شديداً اذ استطاع الرومان بعد ذلك من الطواف حول أفريقيا دون الاحتياج الى معونة الملاحين من العرب . وقد أطلق اليونان اسم هيبال المذكور على رياح الصيف أو الرياح التى تهب من الجنوب الغربى * .

اما الحوادث وكل ما كان خاصاً بالملاحة أو التجارة مما حدث بعد الذى تقدم ايراده وكذا البيانات والمعلومات الجغرافية الجديدة فقد عرفناها من مصنفات بطليموس الفالوذى * ومن مصنف آخر معروف باسم (الطواف ببحر ارثرة) لانه كان منسوبا لأريان النيقوميدى. فاذا نقبنا فى هـذه المصنفات تنقيباً دقيقاً وقفنا على ما كان اليونان والرومان يعرفونه من شؤون تلك البلاد ، حتى ذلك العهد .

أما بطليموس الفالوذى فقد كان عائشاً فى عهد الأمبراطور الرومانى أدريانوس ولكننا نجهل عهد ظهور المصنف المعروف باسم (الطواف ببحر ارثره) .

فلو كان هذا المؤلف تأليف أريان حقاً لأيقنا وجود هذا المؤلف فى عهد من خلف تراجان أو ترايان * . ولكن ما عليه الرأى فى وقتنا هذا هو أن هذا المصنف ليونانى

مصرى ظل اسمه مجهولا .

فعلى افتراض أن هذا اليونانى يسمى أريان فايس فى هذا شىء من الدلالة على تاريخ ظهور هذا المصنف . على ان العلماء طال بينهم الاختلاف فى ذلك فزعم دودول* أن هذا الكتاب كتب فى سنة مائة وواحد وستين من الميلاد المسيحى وقال سولت* انه كتب بين سنتى سبعة وسبعين وتسعة وثمانين من الميلاد وقرر الدكتور فنسان وتابعه سوميز* على رأيه أن هذا المؤلف ظهر فى السنة الرابعة والستين تقريباً بعد الميلاد ، ورأى ليترون* انه من عهد سبتموس سفيروس* (سبتيم سيوير) . ولكن صاحب التأليف الذى عنه نقلنا ومنه اقتبسنا وهو الربان جيان يقول انه اذا اعتمدنا على ما قاله بطليموس الفالوذى عن نقطة شاطئية كائنة جنوب ربطة* وهى آخر ما بينه المؤلف الثانى فى رحلة طوافه ، فلا يدل هذا على ان تصنيف بطليموس جاء بعد تأليف رحلة الطواف . وهذا فضلا عن انه فى عهد مؤلف رحلة الطواف ربما كانت پراسوم* معروفة بهذا الاسم أو باسم آخر .

ولكن هذا المؤلف الذى كان يصف خط سير تجارى ممكن التحقيق بحراً ربما لم يعتقد ان الواجب عليه

ذكر نقط جغرافيه لادخل لها فى الغرض الخاص الذى كان يرمى اليه ، وفضلا عما ذكر فان ماجاء بهذا الوصف يدل على صحة هذا التفسير حيث انه قال بعد كلامه على ربطة ان أسواق أزانيا * ربما كانت آخر نقط من الارض القارة . ثم قال وبعد تلك النقط ينحدر المحيط الى جهة الغرب ويمر بشواطىء أثيوبيا ولوبيا وافريقيا ويتصل بالبحر الغربى . وهنا ينتهى وصف المؤلف فى تأليفه المذكور .

وهل لم يكن هناك مايدعو الى الاعتقاد بان مصنف بطليموس الفالوذى أقدم من رحلة الطواف اذا قارنا رأى هذا المؤلف وغلطه فيما يتعلق بانحدار الشاطىء نحو الجنوب الشرقى بالمشاهدات البسيطة الصحيحة الواضحة فى العبارات التى سبق ذكرها وهى قوله : « ثم يمر المحيط بشواطىء أتيوبيا الخ حتى يتصل بالبحر الغربى » ؟ فكيف اخطأ بطليموس الجغرافى فى نقطة مهمة كهذه فى حين ان كتاب رحلة الطواف كاد يصف الحقيقة بعينها .

فعلى كل حال ومع انه يظهر ان بطليموس الفالوذى كان اقل الماما بالحقيقة من مؤلف رحلة الطواف فلسنا نزعم ان بطليموس قد سبق هذا المؤلف بمدة طويلة . وانما يظهر انهما كلاهما كتبا مؤلفيهما بناء على روايات متناقضة

متباينة . اما مسألة معرفة أيهما السابق للآخر فالأمر باق من غير حل .

ومن المعلوم أنه قبل بطليموس بأكثر من قرن كانت جغرافية تلك البحار والبقاع معروفة بمقدار مايستفيد منها هذا المؤلف فى تصنيف مؤلفاته . فالنتيجة التى يصح لنا استنتاجها مما تقدم هى أن كون رحلة الطواف أقدم أو احدث أهم مستند يمكن مراجعته ليعلم الانسان حالة الملاحة والتجارة والمعلومات الجغرافيه فى عهد قياصرة الرومان ، وذلك فيما يختص بالشاطىء الشرقى لافريقيا . فان ما جاء برحلة الطواف مكتوب على وجه ما من الصحة والتحقيق يجعلنا نعتقد انه مكتوب بيد شخص شاهد بنفسه مارواه بالكتابة .

ونقول نحن فى هذا المقام أن بعض العلماء يزعم ان ما نسب لبطليموس الجغرافى من المصورات الجغرافية * ليس كله من وضعه الخاص . اما ان مؤلفات تلك الأزمان كانت مبنية على روايات مأثورة عن الغير فهو ما لا يستغرب لأنه حتى فى القرون الوسطى كانت المصورات الجغرافية وبالخصوص ماعمل منها عن الجزء الأفريقى الأوسط والغربى مبنى على روايات واساطير ، وأن واضعيها

اعتمدوا على الخرافة والباطل. ومما يستوجب الدهشة ان تلك المصورات عملت حديثا وبعد ان وجدت مصورات ومؤلفات تكاد تكون حقيقية قبل عهدها وبعد ان اتقنت المعلومات الفلكية والجغرافية لدرجة ما . وكان المنتظر ان لا تؤدى تلك المعلومات الى مثل هذه الغلطات الفاحشة.

يقول جيان : ولنعد الى ملخص رحلة الطواف السابقة الذكر فنقول ان السفن المصرية كانت تسافر من ميوس هورموس ، وهو ثغر كائن على الشاطىء الغربى للبحر الأحمر عند الدرجة ٢٧ تقريباً من العرض الشمالى ويعين اغاترشيد مركزها بالثلاث الجزر المعروفة عند الجغرافيين المعاصرين لنا بالجزائر اليافطيه* ، أو من ثغر برينيس* وهو ثغر آخر كائن جنوبى الأول باربع درجات تقريباً . وهذان الثغران كانا يتصلان بمدينة قفط اى قوبتوس القديمة الواقعة على النيل . وكانت السفن المسافرة الى شاطىء أفريقية تبحر فى شهر يوليو لتستطيع الخروج من بوغاز باب المندب فى ريح موافقة لها ولتوغل بالخليج الخارجى أى على شواطىء مملكة عادل قبل الموعد الذى تبتدىء فيه الرياح الشرقية . فكان الملاحون فى سياحتهم هذه يمرون ببلدة بطوليمائيس ثيرون الواقعة على سواحل الحبشة . وتلك المدينة هى التى

أسسها بطليموس فيلا ذلفوس. ثم ثغر أدوليس* الواقع على مسافة درجة واحده ونصف جنوبى الأولى. وكانوا يمرون بعد ذلك من البوغاز الواقع على الشاطىء الغربى منه ثغر ديرى* الذى ذكره بطليموس وتعنى هذه الكلمة باليونانية الرقبة، ثم كانوا يتبعون شاطىء عادل. ومذكور فى رحلة الطواف أن على هذا الشاطىء بين بوغاز باب المندب ورأس جردفون مدينة أفاليتيس* التجارية وهى مدينة زيلع الحالية على مايؤخذ من تحقيقات الدكتور كولى*. أما بطليموس فيقول إنها على مسافة خمسين أو ستين ميلا من البوغاز. ثم مدينة ملاو* الكائنه على بعد ثمانمئة استادة أى ثمانين ميلا من الأولى، وبناء على زعم الدكتور فنسان تكون هذه المدينه هى أصل مدينة زيلع الحاليه. ثم موندوس* وهى تبعد بقدر الف استادة، ثم موسلون أو موسيلون كما ذكرها بليناس أو موزيلون كما ذكرها بطليموس. وهى تبعد مسافة يومين أو ثلاثة بحراً أى مائة أو مائة وخمسين ميلا، فكانت مدينة موسيلون مركز تجارة عظيمة على الشاطىء المذكور. ومن هذه الكلمة اشتقت عبارة التجارة الموسيلينية. وكانت التجارة بهذه المدينة مهمة جداً وكان من ضمن مايصدر منها الى الخارج

القرفة . وذلك برهان كاف على أن العرب وهم الملاحون الوحيدون الذين وصلوا الى جزيرة سرنديب كانوا هم دون سواهم القابضين على زمام التجارة .

وبعد مدينة موسيلون كانت تذكر مدينة نيلو بطولوميون* ثم تاپا تيجه* ثم دنون الصغرى* ثم دفنون الكبرى أو أكناى* . ولم يرد فى كتاب رحلة الطواف بيان مواضع هذه المدن أو القرى . وبعد ذلك كان يذكر رأس البهار* حيث ينتهى شاطىء عادل وهى الجهة الموصوفة فى رحلة الطواف بالبربرية .

وهنا تبتدىء البلاد الخاص بها هذا البحث ولذا نترجم عبارة صاحب رحلة الطواف المذكورة حرفياً .

يقول هذا المؤلف :

ثم تنجذب الأرض الى الجنوب فيلاقى الانسان سوق البهار ثم أقصى طرف للقارة البربرية شرقا وهو أبوكوب* ومرساها معرض للأمواج وخطر فى بعض الأوقات لانه معرض لرياح الشمال . والدليل على أن العواصف تتكاثر بها هو أن الانسان يرى قاع البحر متعكراً متغير اللون . فاذا حصل ذلك فر الناس الى الجهة المعروفة باسم تابه* . وهنا ذكر المؤلف أنواع البضاعة الموجودة بها ثم قال : وبعد تابه

وعلى مسافة أربعمائة استادة اذا سار الانسان بطول شاطىء شرسونيز* يوجد مركز آخر معروف باسم أبونة* وهنا وصف أنواع التجارة ومنها العبيد.

وبعد أبونة يمتد الشاطىء الى الجنوب. وهنا توجد أبوكوب الكبرى وأبوكوب الصغرى ومراسى جيدة وانها كانت ست مراحل الى الجنوب الغربى ثم شاطىء صغير وشاطىء كبير بست مراحل أخرى وبعد ذلك تتتابع مراسى أزانيا وأولها المرسى المسمى سيرابيون*. ثم مرسى نيكون* وبعد ذلك أنهار عديدة وموانىء أخرى بعضها يبعد عن بعض بمراحل يقدر كل منها بيوم وعددها سبعة الى جزائر بيرالاؤن* ثم القنال أو مايسمونه بالقنال الجديد*. وبعد ذلك وفى اتجاه الجنوب الغربى قليلا ثم بعد مرحلتين ليلا ونهاراً وفى اتجاه الجنوب توجد جزيرة مينوتيزياس* وتبعد عن القارة بنحو ثلثمائة استادة تقريباً وهى منخفضة وكثيرة الأشجار، وبها أنهار وأطيار مختلفة الأنواع وسلاحف جبلية. وليس بها من الحيوانات الوحشية إلا التمساح وهو لا يهجم على الناس. وبها قوارب صغيرة مربوطة الأجزاء بعضها ببعض، وهى قطعة واحدة وتستعمل فى صيد السمك والسلاحف. وبهذه الجزيرة يصيدون

السلاحف بسلال يرصونها كالشبك . وبعدهذه الجزيرة على مسافة يومين يوجد بالقارة آخر مركز تجارى هو المعروف باسم ربطه* وهو اسم مشتق من تلك القوارب الصغيرة المربوطة أجزاؤها بعضها ببعض . ويكثر هنا سن الفيل ودرق السلاحف أو ترسها . ويسكن هذه البلاد أناس طوال القامة وكلهم مستقلون ، كل شيخ مستقل بقبيلته وببلاده ، ولكن البلاد خاضعة لما يسمونه بلاد العرب الأولى* ويحكمها الملك المعفرراى* ويولى هذا الملك أناساً من أسرة موسى* وهؤلاء يسفرون سفنا بقيادة نواخيذ العرب ولهم تجارة بهذه البلاد وأهل وقرابة ويعرفون لغة اهلها. (وهنا ذكر المؤلف أنواع البضاعات) وقال: إن هذه النقطة هى الأخيرة للقارة وواقعة الى يمين القادم من برينيس وفى هذا المكان يتجه المحيط الى الجنوب ، ثم يمر من شواطىء أثيوبيا ولوبيا وأفريقيا ويتصل بالبحر الغربى .

وبمساعدة الايضاحات التى يمكننا الحصول عليها سواء من الأوصاف الجغرافيـة أو الخاصة بالرياح وغير ذلك مما أوضحه لنا الأقدمون يمكننـا إلى حد ما تطبيق تلك الأوصاف القديمة على البيانات الجغرافية الحديثة وما اليها ، للتحقق من مواقع الجهات المنصوص عليها فى تلك القصص

أو المؤلفات.

ونقول إن فى الجزء الكائن بين بوغاز باب المندب ودرجة ١٩ من العرض الشمالى تهب الرياح من الجنوب بين شهرى اكتوبر ومايو فتعقبها رياح الشمال بين يونيو وسبتمبر فلا بد للسفن المسافرة من ميوس هرموس أو برينيس أن تبحر فى خلال الأشهر الأخيرة إذ يقول مؤلف رحلة الطواف ان السفن كانت تسافر فى شهر يوليو.

وفى الخليج الخارجى (خليج عدن) أى من بوغاز باب المندب الى رأس البهار تهب رياح الشرق فى النصف الأول من شهر أكتوبر. فالسفن المتوجهة الى شرق هذا الرأس ينبغى أن تمر عليه قبل أول نوفمبر. وكذا السفن المتجهة الى الجنوب مدفوعة بالريح الشماليه الشرقيه. وذلك الى منتصف ابريل بلا انقطاع ودون أن تغير اتجاهها، اذا كانت السفن القاصدة إلى الشاطىء الأفريقى الشرقى تسافر فى هذا الفصل.

فيستنتج من ذلك أن الرياح التى كان يخشى بأسها الملاحون كانت تهب من اتجاه واحد ولذا كانوا يلتجئون الى ثغور محمية من جهة الشمال الى الشرق.

وفى أشهر نوفمبر ودسمبر وينابر حتى نصف فبراير

تكون شدة الرياح عظيمة بحيث انها تسير السفن بسرعة تتراوح بين ميلين ونصف وثلاثة أميال فى الساعه باعتبار أن هذه السرعة لأبطأ السفن وأصغرها فى حجم الشراع. وفضلا عن ذلك فان للتيار الذى يتبع الشاطىء باتجاه الريح سرعة متوسطة قدرها ميل وثلث فى الساعة، من رأس حافونى الى ماوراء رأس اسود* بعشرين فرسخاً تقريباً ومن هنالك الى رأس دلغادو* . فان هذه السرعة لاتقل عن ميلين الى ثلاثة فى الساعة حتى اذا كانت الريح ضعيفة، وعن المسافة الأولى يفرض أن سرعة هذه السفينة أربعة أميال تقريباً فى الساعة وعن المسافة الثانية أنها خمسة أميال على الأقل. فيستنتج من ذلك أن المسافة الأولى ستة وتسعون ميلا مسيرة ليلة ونهار وتقدر المسافه بثمانية وأربعين ميلا لمدة نهار فقط، وفى الحالة الثانية مائة وعشرين ميلا لليلة ونهار أو ستين لنهار فقط.

وإذ علمت لنا المسافات بالكيفية الموضحه آنفاً فلنبحث بالاختصار عن الأوجه الجغرافية للوصول الى حل المسألة التى نحن بصددها فنقول:

إن المسافة بين راس حافونى* ووارشيخ* لايوجد بها بروز إلا فى نقطتين وهما رأس مأبور* وراس الخيل* وهو

المعروف برأس عواد * أو رأس عوض ورأس أم روتى *
وتلتجىء السفن وقت هبوب الرياح الجنوبية الغربيه خلف
رأس مأبور ورأس الخيل. ومن المراسى الجيدة أيضاً رأس
مأبور سريره * ودار صلاح * ووادى نجال * حيث ينعرج
الشاطىء الى الداخل ويكون شبه خليج . وربما كانت
هذه النقط ومنها رأس مأبور ورأس الخيل هى المذكورة
فى رحلة الطواف باسم أبوكوب * الكبرى وأبوكوب
الصغرى باقليم آزانيا. وأول مرسى جنوبى حافونى هو
وارشيخ . ونظراً لطبيعة الأرض والشكل الطبيعى للشاطىء
لا نظن انه كان يوجد فى وقت من الاوقات مرسى آخر
شماليه . ولكن من وارشيخ إلى نهر الجب * توجد مراسى
طبيعية صغيرة تستحق الذكر أكثر من المدن الموجودة
فى تلك البقاع الآن حيث إن هذه المدن احدث عهدا من
كتاب رحلة الطواف (يريد المؤلف أن يقول أن المدن
الحالية لم تكن كلها موجودة فى ذاك الوقت .)

وعلى الجزء الكائن بين رأس حافونى وخط الاستواء
لا توجد مجار مستديمة للمياه تصب فى المحيط. والنهر الوحيد
الذى يمكن ذكره طبقاً لماجاء فى وصف آزانيا القديمة هو نهر
الجب . لانه لايحتمل أن يكون مؤلف رحلة الطواف

قد سقط السقطة المعزوة الى الجغرافيين العرب واعتبر أن مجرى الماء الذى يمر على مسافة بضعة فراسخ فيما وراء مدن مقدشو* ومركا* وبروه* يجرى فى وسط احد المراسى المذكورة أيضاً .

ولنبدأ الآن بتعيين مواقع الجهات الوارد ذكرها فى رحلة الطواف .

أما سوق البهار فهو أقصى طرف للقارة البربرية ومرساها مواجه للشرق فلا شك فى أن هذا المرسى واقع فى احدى جهات رأس الأسير* وجردفون* وأما السوق أو المدينة فنى الانبعاج المتجه الى الشرق والكائن بين هذين الرأسين والذى يسميه العرب باسم وادى طحون* فمن جهة فن الملاحة يظهر لنا أن خليج بنة* كان يفضل كمرسى على وادى طحون . ولكن كلا المرسيين معرض لرياح الشمال ولذا كان الرسو بهما خطراً أحياناً اى متى هبت الريح من الشمال الشرقى . وتدوم هذه الريح عادة من ثلاثة أيام الى خمسة ، فلا شك أن هذين المرسيين هما المقصودان بما جاء فى رحلة الطواف إذ يقول مؤلفها أن السفن كانت تلتجىء إلى الجنوب من رأس تابه الكبير ، وهو محل فى حمى من الرياح وكانت به سوق .

إذن فرأس تابه الكبير لايمكن أن يكون الا الطرف الشمالى الغربى من شبه جزيرة حافونى ومرساه هو الخليج الكائن شمالى شبه الجزيرة هذه والمسمى خور هردية* الكائنة بطرفها الشمالى فى الوقت الحاضر قرية يقول مؤلف رحلة الطواف انها على بعد أربعمائة استادة من تابه . وعلى شاطىء شرسونيز يوجد مركز تجارى آخر معروف باسم أبونه .

فاذا قسنا مسافة أربعمائة استادة أى ثلاثة عشر فرسخاً من مرسى خور هردية وبطول شاطىء شبه الجزيرة كما هو مذكور بكتاب رحلة الطواف لوصلنا الى الخليج الجنوبى لحافونى وقد كان محلا تقصده فى كل الأزمان السفن الآتية من الهند أو من الخليج الفارسى أو العربى ، تلك السفن التى كانت تجلب البضاعة الى الشاطىء الشرقى للقارة الأفريقية لأنه مرسى جيد واق للسفن فى زمن هبوب الرياح الشمالية الشرقية . ولاتوجد نقطة أخرى بين هذه وبين وارشيخ تتوافر فيها مثل هذه المزايا . فيكون الخليج الجنوبى لحافونى اذن هو الذي كان يسميه صاحب كتاب رحلة الطواف بأبونه ، وجاء فى هذا الكتاب انه فيما يلى أبونة يمتد الشاطىء الى الجنوب وتوجد جزائر ابوكوب

الكبرى والصغري باقليم آزانيا، ذات المراسى الجيدة والأنهار وعلى مسافة ست مراحل بحرية فى اتجاه الجنوب الغربى .

ومما يستحق الذكر فى صدد أقليم آزانيا كما جاء تسميته بهذا الاسم أى بلاد آزان هو ان جزءاً من الشاطىء الكائن بين رأس حافونى ورأس الخيل يعرف عند العرب بير الخزائن فلابد أن كلمة آزانيا هى تحريف لكلمة خزائن العربيه البحتة . ولكن مؤلف كتاب رحلة الطواف كان يطلق هذا الاسم (آزانيا) على الشاطىء الشرقى كله بدلا من أن يسمى به الجزء المعروف الآن بالخزائن وهو الجزء السابق وصفه . أما الأنهار المنصوص عليها فى كتاب رحلة الطواف فلا وجود لها فى هذه الجهة وربما كان صاحب كتاب رحلة الطواف يقصد بالأنهار الأودية التى تجارى السيول والغدران التى تتكون فى فصل الأمطار فقط وأهمها وادي نجال . ولنذكر أيضاً أن الست المراحل التى تقدر بستة وتسعين فرسخاً من ابتداء أبونة توصلنا إلى ضواحى عبية* . هنا مجرى ماء لاتجرى فيه المياه الا فى زمن الأمطار . ومع ذلك فان لهذا المجرى أهمية خاصة لاعتباره لحد الفاصل بين أراضى المجرتين* والأبجل* ؟

ويبقى فى مجرى هذا النهير شيء قليل من الماء تستقى منه القبائل لمواشيها فى زمن الجفاف . وبعد هذه المراحل الست فى الجنوب الغربى اذا حسبنا ستا أخرى لمعرفة طول الشاطىء الصغير والشاطىء الكبير نرى أن هذا الأخير ينتهى الى مسافة صغيرة فى شمال رأس أم روقى وبعد هذه النقطة يجب أن تعتبر المرحلة عشرين فرسخاً وذلك كما سبق بسبب شدة التيار . وجاء فى كتاب رحلة الطواف أيضاً أن مراسى آزانيا تتوالى بعد الشاطىء الكبير وأولها مرسى سرابيون وبعدها مرحلة واحده .

اذن نجد على مسافة عشرين فرسخاً تقريباً من التى حددناها كنهاية للشاطىء الكبير المرسى الصغير المسمى وارشيخ وهو مرسى مأمون لابد وأن السفن التى كانت تلتجىء اليه . وفى وقتنا هذا لايرى بهذا المكان سوى أكواخ ولكن كان بها فى الزمن الماضى مدينة لاتزال آثارها مدفونة فى الرمل . وكانت المدينة خربة حتى وقت حلول البرتقاليين فى هذه البقاع ، يستدل على ذلك من تسميتهم اياها باسم بندل فلهو* أى المرسى القديم . يؤخذ من هذا أن مدينة ابونه التى وصفت فى كتاب رحلة الطواف كأنها أول مرسى لمقاطعة آزانيا هى وارشيخ

المذكورة . أما مرسى نيكون فتكون اذن بين مقدشو ومركا . وربما كانت هى كندر شيخ* وهى مكان أكبر من وارشيخ ومرسى جيد للسفن . ويرى فيها الزائر آثار بلد مشيد بالاحجار وسط الأكواخ التى يسكنها الصوماليون فى الوقت الحاضر . فاذا قسنا خمس مراحل أخرى بعد نيكون المذكورة فانا نصل أولا الى ثغر بروه* ثم الى جوره* الكائنة بين بروه ومصب الجب والمرحله الثالثة توصلنا الى مصب الجب نفسه والمرحله الرابعة الى شط برغاو* . وهو النهير المعروف باسم درنفورد* والمرحله الخامسة الى جزائر بيرالاؤن والى القنال أو القنال الجديد فنكون وصلنا الى جزائر كويو* وباته ومندره* ولامو* المنفصله عن القاره بخليج صالح للملاحة فيه .

وربما سمى هذا الممر باسم القنال الجديد نظراً لكون الملاحين فكروا فى المرور به بعد أن كانوا يمرن بالمحيط ليصلوا من جزيرة الى أخرى من الجزائر المذكورة آنفاً .

وجاء أيضاً بكتاب رحلة الطواف أن فيما وراء هذا القنال وبعد مرحلتين كاملتين الي الجنوب يجد السائح جزيرة ضيقة معروفة باسم مينوتيزياس التى تبعد عن القارة بثلاثمائة استادة وهى منخفضة كثيرة الأشجار الخ .. فاذا

سرنا من ابتداء جزائر بيرالاؤن والقنال الجديد المذكور وقطعنا المسافة الواردة فى كتاب رحلة الطواف على وجه التقريب نجد الثلاث الجزر الآتيه وهى پمبا * وزنجبار ومافيا * فلا بد أن احدى هذه الجزر الثلاث هى المقصودة بكلمة مينوتيزياس ولكن ليس فى الطاقة أن نعرف على وجه الضبط انها المقصودة بالذات فاذا طبقنا الأوصاف الواردة فى كتاب رحلة الطواف على هذه الجزر وذلك بالرغم مما يوجبه هذا الجهد من الانتقاد والاعتراض واذا اعتمدنا على المسافة الوارد بيانها بكتاب رحلة الطواف أيضاً . فيمكننا أن نقول بوجه التقريب أن جزيرة زنجبار كانت هى المراد من اسم مينوتيزياس .

وجاء أيضاً بالكتاب المومأ اليه أنه توجد فيما يلى جزيرة مينوتيزياس على مسيرة يومين بالقارة آخر محطة تجارية لمقاطعة آزانيا وهى مدينة ربطه .

فاذا سرنا يومين وقدرنا مسافة مسير كل يوم بعشرين فرسخاً وصلنا تقريباً إلى مصب نهر أوفيجى *

ولم يرد فى كتاب رحلة الطواف ذكر أنهار بالقرب من ربطه بل اكتفى المؤلف ببيان المسافة التى تفصلها عن مينوتيزياس كما لم يرد وصف أية وجهة نظر جغرافيه خاصة

تساعدنا على تقدير استنتاجنا .

أما التفاصيل التى وردت فيما يختص بالتجارة وحركة الملاحة فى تلك المحطة التجارية فيمكن تطبيقها على نقطة أو مصب أوفيجى، والقوارب الصغيرة المربوط بعض أجزائها ببعض كما هو مذكور فى ذلك الكتاب توجد فى وقتنا هذا بربطه ومعروفه بام طبا * وهى التى تنقل المحصولات بين أوفيجى وزنجبار . ويكثر هنا سن الفيل وقرن الخرتيت وكذا درق السلاحف . ويزرع أيضا الأرز والدخن ، فمن المستطاع والحالة هذه اعتبار هذه النقطة كأنها مدينة أو محطة ربطه المذكورة فى كتاب الرحلة الآنف الذكر .

وهنا ختام الكلام على كتاب رحلة الطواف وتطبيق ماجاءبه على المعلومات الجغرافية الحالية لتعيين البلاد والقرى والمراكز والمراسى التى ورد ذكرها فى هذا المصنف المعزو إلى أريان . فان آخر نقطة يبحث عنها هذا المؤلف إنما هى نقطة ربطة الآنفة الذكر .

اما إذا بحثنا فى تأليف بطليموس الفالوذى الجغرافى فأنا نجد انه يختلف من كتاب رحلة الطواف اختلافا بينا .ومصدر هذا الاختلاف هو الغلطات التى تعثر فيها بطليموس والتى يمكن اسنادها إلى جهله بالحقيقة . وهو ما

يحملنا على اعتبار ان تأليف بطليموس اقدم من كتاب رحلة الطواف المسند إلى أريان المجهول تاريخ حياته .

أما غلطات بطليموس الفالوذى فربما كان سببها الرئيسى اعتماده على أزياج البحرية الصوريين (الفينيقيين) فقد أدى تمحيص هذه الأزياج وتحقيقها الى العثور على أغلاط جغرافية جمة وأغلاط أخرى فى تقدير المسافات وغيرها . وزيادة على ماتقدم فأن بطليموس زعم أنه حصل على بياناته ومعلوماته من الملاحين العرب والتجار رأساً، وهو ما يناقض رواية الملاحين الصوريين الخاطئة أيضاً فمن هذه الأوجه تفضل رواية كتاب رحلة الطواف على تصنيف بطليموس المذكور .

ويقول جيان فى كتابه الآنف الذكر بالصحيفة ١٤٥ :

ولكن يجب ألا نؤاخذ على هذه الغلطات لأن المدنية اليونانية الرومانية قامت بواجبها خير قيام فيما يختص بتقدم الجغرافيا وباقى المعلومات البشرية فطاليس* وأنكزاجور* وأرسطو* قد اشتبهوا فى كروية الارض أو تخيلوا هذه الكروية وأراتوستين هو أول من عرف درجة العرض المار بجزيرة رودس ووجد طريقة لقياس محيط كرة الارض . وهيبرقه كانت له الباع الطولى فى علم الفلك وعرف الناس

أنه يمكن تطبيق قياس السماء على سطح الكرة التي تحيط هي بها وكان ماران* وديوسقوريدس* أول من رسم مصوراً جغرافياً ، ثم بطليموس الفالوذى الاسكندرى فانه أول من اخترع طريقة لتحديد مواقع الجهات . وفى الفترة التى انقضت بين عهد طاليس وبطليموس جغرافى بيلوزه* كان نطاق العلم مازال آخذاً بالاتساع ، ولكنه كان فى الوقت الذى دوّن فيه بطليموس مؤلفاته مابرح قائماً على آساس ضعيفة يرجع ضعفها ووهنها إلى الاغلاط والاخطاء . غير أنه مع توالى الأزمان صححت غلطات العالم بطليموس وبقيت القواعد التى وضعها متبعة زمناً مديداً فأعانت كثيراً على تقدم علم الجغرافيا وفن الملاحة إعانة ثمينة .

يقول جيان : قد أسدل التاريخ بعد ذلك ستار الصمت على الحوادث والمعلومات الخاصة بتلك البلاد الى حد أن القس كوزماس* لم يطالعنا ، وهو الذى ذكر أموراً شتى عن تجارة الهند فى القرن السادس من الميلاد ، بما نستطيع أن نعلم منه هل تلك التجارة كانت فى قبضة يونانيي مصر أو هل ظلت التجريدات التجارية مستمرة بشواطىء أفريقيا الشرقية . وكانت الديانة المسيحية فى عهده متسلطة على العقائد وكانت تحملهم على معارضة الحقائق العلمية حتى أن

كوزماس حرر مؤلفه الموسوم بطبوغرافية العالم المسيحى إدحاضاً لتلك الأراجيف الشنيعة التى كان البعض يزعم بمقتضاها أن الأرض كروية . وهو مايدل على الجهل الذى كان سائداً على الناس بعد عهد بطليموس وتأليف كتاب رحلة الطواف بأربعة قرون .

والى القارىء ترجمة عبارة من كتاب كوزماس المذكور استشهاداً به على جهل أبناء عصره . قال :

« تنقسم الأرض الى ثلاثة أقسام وهى آسيا ولوبيا وأوروبا ، فآسيا هى بلاد الشرق . أما لوبيا فهى الجزء الجنوبى لغاية المغرب ثم أوروبا وهى الجزء الشمالى لغاية الشاطىء الغربى . ويؤخذ من أقوال العلماء الأجانب فى الموضوع ان أربعة خلجان تخرج من المحيط وهى أولا خليجنا الممتد من قادس الى المغرب ويطيف بالأملاك الرومانية . ثم الخليج العربى أو الأريثرى وكذا الخليج الفارسى وكلاهما يتقدم من بلاد الزنج الى الأجزاء الشرقية والجنوبية للقارة ، من ابتداء البقعة التى تعرف باسم البربرية حيث تنتهى بلاد أتيوبيا .

فبلاد الزنج كما يعلمه المشتغلون بالملاحة فى بحر الهند كائنة فيما يلى البلاد التى تجاب منها الاعطار والمعروفة باسم

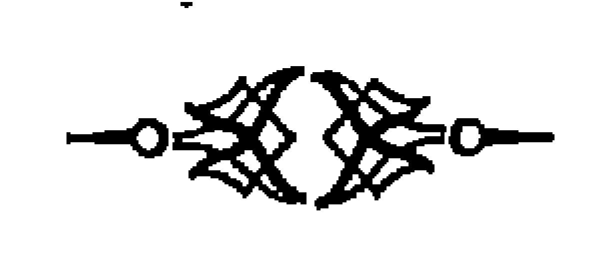
البلاد البربرية التى يحيط بها الأقيانوس ويدخل منها الى الخليجين . أما الخليج الرابع فيمتد من الجزء الشمالى للقارة الى جهة المشرق ويعرف باسم بحر الخزر أو هرقانيـة . فالملاحة مستطاعة فى هذه الخلجان دون سواها بخلافها فى الاقيانوس فانها مستحيلة سواء أكان بسبب هياجه المستمر أم بسبب الأبخرة الكثيفة التى تحجب أشعة الشمس وانتشارها فى أرجائه التى لا حد لها . ولقد أوردت هذه الأوصاف كلها لأنى شهدت بنفسى جزءاً منها ولأن روايتى عنها مأثورة عن رجل معروف بالأمانة والصدق . ولقد سافرت بحراً لأسباب تجارية فى ثلاث من هـذه الخلجان وهى خليج الممتلكات الرومانية والخليجان العربى والفارسى، فبالاستفهام من رجال الملاحة والأدلاء البحريين استطعت الحصول على معلومات صحيحة عن الجهات . فقد قطعنا مسيرة يوم فى اتجاه بلاد الهند الداخلية وأوغلنا حتى وصلنا الى البلاد البربرية التي تقع فيما يليها بلاد الزنج، وهذا هو اسم مدخل الأقيانوس . وبما اننا كنا فى سيرنا منحدرين الى جهة اليمين رأيت طيوراً يسمونها الصوفا* تبلغ ضعف حجم الحدأة على الأقل ، وشهدت فى الوقت نفسه أن الجو قد تغير فصار رديئاً ، وكنا جميعاً خائفين .

وكان العارفون بالملاحة يقولون إنا على مقربة من الأقيانوس فكانوا يصيحون بالرّبان ، وكان قابضاً على دفة السفينة ، أن اتجه الى اليسار . وأن ادخل الخليج خشية أن تدفعنا الأمواج الى الأقيانوس فنهلك ، لأن الأقيانوس بطغيانه على الخليج كان يثير فيه أمواجاً هائلة . فلما تراجعت الأمواج منه كانت تجذب السفن معها الى الأقيانوس وتدفعها اليه ومثل هذا المنظر مروع مخوف ، فأن الذعر كان يستولى على المسافرين وكانت الطيور التي أوردنا فيما تقدم اسمها تحلق فوق رؤوسنا وتتبع السفينة أينما سارت . وكانت هى البرهان القائم لنا على وجودنا بالقرب من الاقيانوس .

ولنذكر بهذه المناسبة ان المسافر بحراً حول رأس جردفون قبيل الوصول اليه وبعيده ، وبخاصة أثناء هياج البحر ولو قليلا ، يجد غالباً أن الأمواج فى تلك الجهه أشد مما تكون فى الجهات التالية أى فى جنوب ذلك الرأس .

وهناك عبارة أخرى من هذا القبيل فى صحيفة ١٥١ من تأليف جيان يقول هذا المؤلف فيها أنه فى عهد الدولتين الرومانية والبيزنطية كان يونان مصر وغيرهم يجهلون تلك البلاد التي نحن بصدد الكلام عليها ، واستمر جهلهم هذا فلم يستيقظوا ولم يستفد العلم من علماء مدرسة الاسكندرية

الشهيرة ولا ممن خلفوهم بشيء ماس بموضوعنا هذا الا عند ظهور النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) فزهت أنوار العلم بتبلج أنوار الديانة الاسلامية، واليك البيان .



الباب الثالث

العصر الاسلامي

انشاء العرب ممالك مستقلة صغيرة على سواحل أفريقية الشرقية

لما دالت دولة الرومان وثل عرشها وبدأت تنسلخ عنها المتلكات البعيدة عنها قبل القريبة منها أضاعت من يدها فى الآن نفسه صولجان التجارة بالبحر الأحمر وخرجت بلاد السواحل ومنها سواحل اليمن من قبضتها ولكن جاء الحبشان فاستولوا على بعض أرض اليمن وقبض تجار الفرس وقتئذ على زمام التجارة وانتشروا فى الارجاء ببلاد اليمن حتى لقد استنجد فى سنة ٦٠١ الميلادية أو ماحواليها سيف بن ذى يزن الحميرى بكسرى الثانى لاستنقاذ اليمن من الأحباش فارسل اليه كسرى جيشاً عن طريق البحر ونزل هذا الجيش إلى البر بالقرب من عدن وحدثت معركة قتل فيها مسروق

الحبشى* وانتهى بذلك حكم الحبشان على ذلك الجزء من شبه جزيرة العرب بعد أن دام اثنين وسبعين عاماً ثم عين الفرس ولاة على اليمن وظلوا كذلك الى قيام صاحب الرسالة (صلى الله عليه وسلم) بدعوته .

وفى عهد التحاق اليمن بالفرس استرد العرب مركزهم التجارى فكانت سفنهم تنقل البضاعات إلى سقطرة وسواحل بلاد عادل وغيرها من سواحل أفريقيا الشرقية . ولكن لم يكن للعرب الى ذلك الحين بتلك السواحل سوى بعض مراكز تجاريه ، لانهم لم يكونوا أسسوا مراكز سياسية ذات هيئات نظامية خاضعة للقوانين ومدبرة الامور بادارة ثابتة . ولم تصبغ حركتهم فى تلك الجهات بصبغة استعمار أو فتوح

ولما ظهر النبي محمد تبدلت الحال غير الحال إذ لم ينقض أكثر من قرن ونصف على وفاته حتى كان الاسلام قد مدّ رواقه على قارتى آسيا وأفريقيا غير أن الاتحاد الذى وصى النبي أصحابه بتوثيق عروته وتمتين عقدته بينهم لم يدم طويلا فقد أخذت المنازعات بعد وفاته والحروب الداخلية تمزق أحشاء الدولة العربية الاسلامية ، فأخذ بعض العرب لهذا السبب يهاجرون إلى خارج جزيرتهم فكانت فكره

الهجرة سبباً من الأسباب التى طوحت بعرب اليمن وعمان الى سواحل أفريقيا الشرقية . ويؤخذ من أقوال المؤرخين أن سلالة زيد أى الزيديين كانوا أول من هاجر إلى تلك السواحل وعمر بها المدن . وهؤلاء المؤرخون يعتمدون فى قولهم هذا على قصة تاريخية عثر عليها دون فرنسيسكو ألميدا* لما استولى على مدينة كلوا وكان الزيديون أنصار زيد ابن على المعروف بزين العابدين بن الحسين بن على بن عم النبي. ويقال إن سبب هجرة اولئك الأنصار انكسارهم فى واقعة الكوفة حيث قتل زيد فى عهد هشام بن عبد الملك .

فلما حل الزيديون بالقارة الأفريقية بدأوا يحتشدون طوائف قليلة العدد ثم انتشروا فى تلك البلاد .

ولو راجعنا مؤلف العلامة تيفيت* لوجدنا أنه ينسب انتشار الدين الاسلامى فى أفريقيا الشرقية إلى مداخلة حمزة ابن عبد الملك . فاذا فرضنا أن هذا المؤلف يريد أن ينسب ظهور الاسلام بتلك الأقطار الى بعض الخلفاء من بنى أمية، فان انتشار الاسلام بشرق أفريقيا كان قبل عهد هجرة الزيديين بنصف قرن تقريباً . ولم يؤيد المحققون فى التاريخ أقوال تيفيت كما أن مؤرخى العرب لم يذكروا شيئاً يعول عليه فى بحثنا هذا ولكن مما جاء ذكره إنه كانت هنالك صلة

بين بلاد العرب وزنجبار ، وذلك بناء على ماعلمناه من حادث وقع فى ابتداء حكم الخليفه أبى العبـاس المنصور الملقب بالسفاح . وتحرير الخبر أنه لماثار أهل الموصل على العباسيين أمر الخليفه يحيى أخاه بقمع الثورة . فقتل من نسائهم ورجالهم نحو أحدعشر الفاً . وكان فى جنده أربعة آلاف زنجى من زنجبار وهذا دليل ناهض على وجود صلات فى ذلك العهد بين شبه جزيرة العرب وسواحل أفريقيا الشرقيه التى كانت مستورداً للعبيد قبل الاسلام بازمان طويله .

وهنالك براهين أخر من هذا القبيل كالتى وردت فى كتاب النويرى وأبى الفدا فانه يؤخذ من المؤلف الأول أن جزءاً من جيش الخلفاء العباسيين ببغداد كان مؤلفاً فى القرن التاسع من الميـلاد من زنوج زنجبار . وأن هؤلاء الزنوج ثاروا على الخليفة مرة وكادوا يخلعونه . ويقول أبو الفدا ان فى سنة ٢٥٦ أو ٢٥٧ هجريه أغارت عصابة من زنوج زنجبار عـلى الجزء الجنوبى من العراق وأنهم استولوا على مدينة بصره ونهبوها .

كل هذه القصص لاتفى بالمقصود من غير ريب لأنهالا توقفنا على شىء من حالة العرب بسواحل أفريقية وقد قال المسعودى فى كتابه ، وكان قد جاب أصقاع سواحل أفريقيا

الشرقية، بعد أن أورد ماقاله بطليموس عن منابع نهر النيل ومجراه :

« فرأيت فى جغرافيا النيل مصوراً ظاهراً من تحت جبل القمر ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنى عشر عينا فتنصب تلك المياه إلى بحيرتين هنالك كالبطائح ثم يجتمع الماء منها جاريا فيمر برمال هنالك وجبال ثم يخترق أرض السودان مما يلى الزنج فيتسع من خليج يصب فى بحر الزنج وهو بحر جزيرة قنبلو* وهى جزيرة عامرة فيها قوم من المسلمين إلا أن لغتهم زنجية غلبوا على هذه الجزيرة وسبوا من كان فيها من الزنج لغلبة المسلمين على جزيرة أقريطاش من البحر الرومى وذلك فى مبدأ الدولة العباسية وتقضى الدولة الاموية ومنهم الى عمان فى البحر نحو من خمسمائة فرسخ على مايقول البحريون حزراً منهم لذلك لا على طريق التحصيل والمساحة . وذكر جماعة من نواخذة هذا البحر من السيرافيين والعمانيين وهم أرباب المراكب أنهم يشاهدون فى هذا البحر فى الوقت الذى يكثر فيه زيادة النيل بمصر قبل الاوان بمدة يسيرة ماء يخرق هذا البحر ويشق قطعة منه من شدة جريانه يخرج من جبال الزنج عرضه أكثر من ميل عذبا حلواً يتكدر فى إبان الزيادة بمصر وصعيدها فيها الشوهان وهو التمساح

الـكائن فى نيل مصر »

الى أن قال :

« وله خليج متصل بأرض الحبشة ويمر الى ناحية بربرا من بلاد الزنج والحبشة ويسمى الخليج البربرى طوله خمس مائة ميل وعرض طرفيه مائة ميـل وأرباب المراكب من العمانيين يقطعون هذا البحر الى جزيرة قنبلو من بحر الزنج وفى هذه المدينة مسلمون بين الـكفار من الزنج »

الى أن قال :

« ومنتهى هؤلاء فى بحر الزنج الى جزيرة قنبلو على ماذكرنا والى بلاد سفالة والواق واق من أقاصى أرض الزنج والاسافل من بحرهم ويقطع هذا البحر السيرافيون . وقد ركبت هذا البحر من مدينة سنجار من بلاد عمان ، وسنجار قصبة بلاد عمان ، فى جماعة من نواخذة السيرافيين وهم أرباب المراكب وركبت فيه سنة أربع وثلثماية من جزيرة قنبلو الى عمان وذلك فى مركب احمد وعبدالصمد أخوى عبد الرحيم بن جعفر السيرافى » الخ ...

حقاً ان ماسبق ايراده عن المسعودى لم يكن الا قصة موجزة عن رحلاته فى مياه أفريقيا الشرقية ولـكنه يوقفنا على بعض الشيء من أحوال بحر الزنج وهو البحر الذى ذكر

كوزماس فى تأليفه أنه غير صالح للملاحة . ومن جهة أخرى فقد عرفنا عن المسعودى أن الجزء الواقع وراء الجهات التى وردت فى كتاب رحلة الطواف المنسوب الى أريان أو ماجاء بجغرافية بطليموس الفالوذى الوصول اليه ميسور، وهو مايؤكد قولنا (اى قول القومندان جيان) أن العرب كانوا قابضين على زمام الملاحة فى بحر الزنج وان كلمة زنجيوم التى ذكرت فى مصنف كوزماس وكلمة زنجيس المذكورة فى مؤلف بطليموس ليست الا تحريفاً للكلمة العربية ، وفضلا عما سبق فأننا نجد فى تأليف المسعودى تلك البقعة المتطرفة التى كانت أقصى ماعرفه العرب بشرق القارة الأفريقية الا وهو اقليم سوفالية والذى سماه العرب بالذهب نسبة الى أهم محصولات تلك البلاد .

ومن أهم مايؤثر عن المسعودى وجود جزيرة اسمها قنبلو يسكنها المسلمون من قرن ونصف قرن تقريباً . والواقع أن العهد الذى حدّده المسعودى كتاريخ لقيام العرب بفتح هذه الجزيرة ، أى ابتداء حكم العباسيين ، يختلف بسنوات قليلة عن عهد هزيمة زيد . وعلى كل حال فمن الممكن اعتبار حادث نزول العرب فى جزيرة قنبلو بمثابة أنه نتيجة لهجرة الزيديين الى الشاطىء الأفريقى الشرقى .

ولكن أية جزيرة من الجزر المعروفة اليوم تكون هي جزيرة قنبلو السالفة الذكر بما أن المسعودى جاء اليها بنفسه ولا يكون ثمة شك فى صحة وجودها ؟

إذا نظرنا الى البيانات التى أوردها عنها الرحالة المذكور فأنا نجد

أولا — أنها موجوده فى بحر يصب به فرع من فروع النيل

ثانياً — أنه كائن على مسافة خمسماية فرسخ من عمان

ثالثاً — انها واقعة على مسيرة يوم أو يومين من القارة

رابعاً — ان اهلها من الزنوج والمسلمين وكلهم فى حكم أمير مسلم ويتكلمون بلغة الزنوج فانبحث فى هذه البيانات بياناً بعد آخر حتى نصل إلى الحل المطلوب .

أولا — بعد أن قال المسعودى أن فرعاً من فروع النيل يصب فى بحر الزنج زاد على ذلك أن هذا البحر هو بحر جزيرة قنبلو .

ففى الأمر إشكال اذ أيعنى المسعودى أن النهر يصب فى مياه الجزيرة أم يريد أنه توجد فى بحر الزنج حيث يصب فرع من النيل جزيرة تعرف باسم جزيرة قنبلو ؟ نقول ربما كان هذا التفسير هو الأصح طبعاً غير أن المسعودى لم يعين

شيئاً بالتحديد لان بحر الزنوج عظيم وبه جزر عديدة كما يشهد به المسعودى نفسه . ولكن إذا وجب أن نبحث عن جزيرة قنبلو أمام مصب نهر مهم فأنه لاتوجد سوى جزيرة واحدة تتوافر فى وصفها هذه الشروط وذلك استناداً على المسافة التى عينها المسعودى وهى جزيرة القمر الكبيرة (ياقوت) أو الانجزيجه * وهى كائنة فى الحقيقة على مسيرة يومين من القارة ومقابلة لمصب نهر ليفومه * أو روفومه ولكن هذا النهر ليس فرعا من النيل ولا هو مايشير اليه المسعودى وربما كان المقصود هو نهر الجب . هذا فضلا عن أن وصف المسعودي لاينطبق على نهر الجب ولا على أى نهر من أنهار بلاد الزنج ويظهر لنا أنه لايجب الالتفات الى وصف المسعودى لهذا النهر . اذن نظن انما يقصده المؤلف المذكور بالجزيرة هو جزيرة القمر . أما النهر فنهر ليفومه .

يقول المسعودى ان جزيرة قنبلو تبعد عن عمان بخمسمائة فرسخ ولكن المسعودى يقول إن هذه المسافه مقدرة على وجه التقريب لا بالقياس الهندسى. وبما ان الجزر الأخرى واقعة على مسافات أطول من خمسمائة فرسخ فهى مما لايهمنا البحث فيه

ثالثاً — أن جزيرة قنبلو تبعد عن القارة بمسيرة يوم

أو يومين

فلنبدأ بقولنا ان مثل هذه البيانات لا يمكن أن يختلف عن الحقيقة الا قليلا ولكنها تنحي عن موطن بحثنا كل الجزر الكائنة بجوار الشاطىء لان أكثرها يرى من القارة وهى واقعة على مسيرة بضع ساعات منه ولولا أن للبيانات التى يذكرها المسعودى جذبات تحملنا على التسليم بها لا مكننا ان نزعم أن جزيرة قنبلو هى إحدى جزر پمبا او زنجبار او مافيا ، لانه على مايؤخذ من حوادث سلاطين كلوا يظهر أن العرب المسلمين احتلوها قبل زمن رحلة المسعودى . واحداها وهى مافيا ينطبق عليها بعض تلك الاوصاف حيث انها كائنة تجاه مصب نهر أوفيجى الذى ظن الناس عهداً طويلا أنه ينبع من بحيرة نياسا فى حين ان منبعه قريب من هذه البحيرة . ولكن مافيا لا تبعد عن القارة الا بقدر القنال الذى عرضه ثلاثة فراسخ ونصف فرسخ وبينها وبين القارة جزيرة أخرى تقسم هذه المسافة إلى قسمين .

أما زنجبار وپمبا فمنفصلتان عن الشاطىء بستة فراسخ أو ثمانية ولا ينطبق هذا على ماذكره المسعودى الذى قدر المسافة بمسيرة يوم أو يومين .

رابعاً — كون جزيرة قنبلو كانت مسكونة بقوم من

المسلمين والزنج تحت حكم الاسلام وأن أهلها يتكلمون لغة الزنوج ، فمن هذه الوجهة قد اطلعنا على الاسباب التى لاجلها لايمكن اعتبار جزر بمبا وزنجبار ومافيا انها جزر قنبلو ولا يمكن القول بان الجزيرة المقصودة هى جزيرة مدغشقر ولو ان العالم رينو يميل الى اعتبار ان هذه الجزيرة هى جزيرة قنبلو، فكيف لم يذكر المسعودى كلمة عن عظم مساحة هذه الجزيرة لو كانت هى المقصودة ؟ ومن أين لنا أن نسلم بنظرية فتح المسلمين لمدينة مدغشقر فى العهد الذى كان همّ العرب بالمهاجرة فيه لا يسمح لهم بالتفكير فى فتح جزيرة واسعة النطاق مثلها ؟ ثم ألم يكن لسكان مدغشقر لغة تختلف بالمرة عن لغة سكان أفريقيا ، وهذا فضلا عن بعدها بمسيرة ثلاثة أيام على الاقل بالسفن التى كانت شائعة الاستعمال وقتئذ ؟

وعلاوة على ماتقدم فأن العرب فى العهد الذى كتب المسعودى فيه مؤلفه لم يكونوا يستطيعون العبور من القارة الى الجزيرة دون أن يمروا بجزائر القمر فكيف يكون المسعودى قد لزم السكوت عن هذه الجزائر أى القمر ؟

وهاك الآن رأينا (أى رأى القومندان جيان) ولو اننا لانذهب الى تأييده بصفة قاطعه :

إنا نعتقد أن هناك أدلة قوية على أن المقصود بجزيرة

قنبلو هو إحدى جزر القمر وبالأخص الجزيرة الغربية منها التى أسميناها القمر أو أنجزيجه . وقد قلنا إنها واقعة تجاه مصب مجرى نهير ليفومه وأنها على مسيرة يوم أو يومين من الشاطىء . أما ضيق نطاق هذه الجزيرة وطبيعة حاصلاتها فليسا مما يبرر عدم رسو السفن القادمة من عمان أو سيراف عليها . وأرض انجزيجه والجزر المجاورة لها شديدة خصبة وتربتها جيدة ويكثر فيها درق السلاحف . وتقذف أمواج البحر بالعنبر على السواحل . وانتشار شجر النارجيل (جوز الهند) فيها يسمح بعمل الحبال الصالحة للملاحة منها، وتوجد بها الأخشاب الصالحة لبناء السفن وترميمها . ومن المحقق انه يوجد بجزر القمر الكبيرة شيء من المعادن والعاج ولكن سكانها كانوا يبحثون عن هذين الصنفين على سواحل أفريقية ليبيعوها التجار الذين كانوا كثيرى التردد على بلادهم والاختلاف اليها .

ومع هذا فان هناك سبباً يمنعنا من اعتبار الجزيرة الكبرى من جزر القمر انها قنبلو . ذلك لأن بها بركاناً لم يذكره المسعودى فى تاريخه . و لسكوت المصنفات العربية التى ألفت بعد زمن المسعودى لا يمكننا الجزم فى هذا الموضوع بصفة قاطعة .

واليك مايقوله المسعودى عن بلاد الزنج :

«وقد قدمنا الذكر فى الزنوج والاجناس من الاحابش الذين صاروا عن يمين النيل ولحقوا بأسافل البحر الحبشى وقطعت الزنج دون سائر الاحابش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذى يصب الى بحر الزنج فسكنت الزنج فى ذلك الصقع واتصلت مساكنهم الى سفالة وهى أقاصى بلاد الزنج واليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين وهى غاية مقاصدهم فى أسافل بحر الزنج كما أن أقاصى بحر الصين متصل ببلاد السيلا وقد تقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب وكذلك أقاصى بحر الزنج وبلاد سفالة وأقاصى بلاد الواق واق وهى أرض كثيرة الذهب كثيرة العجائب خصبة حارة واتخذها الزنج دار مملكة وملكوا عليهم ملكا سموه وقليمى وهى تسمية لسائر الاعصار على ماقدمنا آنفاً ويركب وقليمى وهو يملك سائر ملوك الزنوج فى ثلثماية الف فارس ودوابهم البقر وليس فى أرضهم خيل ولا بغال ولا إبل ولا يعرفونها وكذلك لايعرفون الثلج ولا البرد ولا غيرهم من الأحابش وفيهم أجناس محددة الاسنان يأكل بعضهم بعضاً ومساكن الزنج من حد الخليج المتشعب من أعلى النيل الى بلاد سفالة والواق واق ومقدار مسافة مساكنهم واتصال مقاطنهم فى

الطول والعرض نحو سبعماية فرسخ برا وأودية وجبالا ورمالا والفيلة بارض الزنج فى نهاية الكثرة وحشية كلها والزنج لاتستعمل شيئاً منها فى حرب ولاغيرها بل تقتلها .

فمن أرضهم تجهز أنياب الفيلة فى كل ناب منها خمسون وماية منّ بل اكثر فيجهز الاكثر منها من بلاد عمان الى أرض الصين والهند فالزنج مع كثرة اصطيادها لماذكرنا من الفيلة وجمعها لعاجها غير منتفعة بشيء من ذلك فى آلاتها وانما تتحلى الزنج بالديد بدلا من الذهب والفضة وما ذكرنا من دوابهم انها البقر وانهم عليها يقاتلون بدلا من الابل والخيل وهى بقر تجرى كالخيل بسروج ولجم .

«فلنرجع الآن الى أخبار الزنج وأخبار ملوكها وأما تفسير ملوك الزنج وهو (وقليمى) يعنى بذلك ابن الرب الكبير لأنه اختار لملكهم والعدل بينهم فتي ما جار الملك عليهم فى حكمه وحاد عن الحق قتلوه وحرموا عقبه الملك ويزعمون أنه إذا فعل ذلك فقد بطل أن يكون ابن الرب الذى هو ملك السموات والارض ويسمون الخالق عزوجل (ملكنجلو) وتفسيره الرب الكبير والزنج أولو فصاحة فى السنتهم وفيهم خطباء بلغتهم»

فمما يوجب الدهش أن المسعودى لم يذكر شيئاً عن البقعة

التى كان يتجربها مواطنوه . ومما لا يقبله العقل أن يكون
قد ساح سياحته هذه بقصد مشاهدة جزيرة قنبلو دون
سواها وأن السفن التى كانت تحمله لم ترس على جهة أخرى
من الجهات . ولكن ما يصح التسليم به أنه لعدم اعتزام
هذا الرحالة درس الجهات التى مرّ بها لم يذكر النقط التى
أسسها العرب أو التى استكشفوها منذ عهد بعيد بل اكتفى
بأيراد الروايات التى سمعها عن البلاد الداخلية . أما سكوته
عن إقليم السواحل فمما يستدعى الأسف لان الزمن الذى
ساح المسعودى فيه كان عهداً لتأسيس عاة مدن صارت فيما
بعد من أهم مراكزهذه الشواطىء وأرفعها شأناً ومقصودنا
الكلام الآن على مقدشو وبروه وماندة ومنبسى وكلوا .

فأن مالدينا من البيانات والأخبار عن عهد تأسيس
بعض هذه المدن والحوادث التى وقعت بها ليست مذكورة
فى غير المصنفات الآنفة الذكر . ولقد نقل الينا يوحنادى
بارروس* ماسنذكره هنا مترجمين أهم أجزاء الرواية
البرتقالية لكى نرى مانستطيع أن نستخرجه منها .

قال : «إن جماعة كبيرة العدد من العرب أصلها من مدينة
مجاورة للأحساء الواقعة على الخليج الفارسى بضواحى
البحرين نزلت فى ثلاث سفن بقصد الهجرة تحت قيادة

الأخوة السبعة الذين فروا من جور سلطان تلك المدينة فهبطت تلك الجماعة شاطىء أزان* .

وكانت مقدشو* أول مدينه تأسست وقتئذ ثم تلتها مدينة بروه . وهى التى كانت فى عهد احتلال البرتقاليين جمهورية تحت سيادة اثنى عشر شيخاً وكان هؤلاء سلالة السبعة الاخوة الذين أسسوها ، فصارت مقدشو مملكة قوية ذات شوكة ونفوذ على عربان السواحل وكان سكانها الأول من الزيديين قد أبوا الخضوع لحكامها من العرب المتأخرين ، لاختلاف فى مذاهبهم . فلما عجزوا عن مقاومة خصومهم هاجر الزيديون الى داخل البلاد واختلطوا بالكفار وانتحلوا عاداتهم وتزوجوا منهم ومزجوا دمهم بدمهم فتكونت بهذا الامتزاج أمة خليطة من عرب وزنوج متوسطة بين الأمتين سواء أكان ذلك من جهة العنصر والعقيدة أم من جهة البلاد التى احتلوها والتى كانت متاخمة من الجهة الشرقية لأراضى المسلمين . أما من جهة المغرب فتاخمة لأراضى أبناء تلك البلاد فكان هؤلاء المختلطون من سماهم العرب بالبدو .

أما سكان مقدشو فكانوا أول من وصل الى بلاد سفالية بسفنهم . واستخرج الذهب منها . وكان عثورهم على

شاطىء سفاليه بطريق المصادفة والجزاف على أثر هياج العواصف وإلقائها بأحدى سفنهم على هذا الشاطىء .

أما تاريخ تأسيس مدينتى مقدشو وبروه فلم يعثر عليه فى أى مؤلف إنما يقول العالم دى هربلوت* نقلا عن عبد المتعال* الفارسى العالم فى تقويم البلدان أن مقدشو أسست فى عهد خلفاء مصر (الفاطميين) ومعلوم أن أسرة هؤلاء الخلفاء بدأت بالحكم فيها سنة ٢٩٦٠ من الهجرة وفى مؤلف بارروس الآنف الذكر بيان آخر فى موضوع تأسيس مدينة كلوا ولكن لما كانت قيمة هذه الرواية ترتبط بالحادث الذى هى منسوبة اليه فلنبدأ بتحديد الزمن أولا قائلين بناء على ماجاء فى الرواية الخاصة بكلوا إنه بعد تأسيس مدينتى مقدشو وبروه بأكثر من سبعين سنة أى حوالى سنة اربعمائة للهجرة كانت مدينة شيراز* تحت حكم الملك حسن وترك هذا الملك بعد وفاته سبعة أبناء .

وكان أحدهم وهو المسمى بعلى" محقراً مرذولا من بقية اخوته لأنه كان ابن جارية حبشية . بينما كانت والدة الستة الآخرين من سيدة تمتّ إلى بعض أمراء فارس . ولكن كان علىّ هذا رجلا هماماً . وقد أراد الخلاص من كراهية اخوته له واضطهادهم إياه فعول على الاستيطان بارض يطيب

له العيش فيها . فركب فى جزيره هرموز سفينة وجعل أهله وذويه فى سفينة أخري وسافر متجها الى شواطىء زنجبار وكانت مشهورة بمناجم الذهب فرساً على مقدشو وبروه.

ولكنه وجد بها من العرب من كان مذهبهم يخالف مذاهب الفرس (يريد المؤلف أنه وجد بها سنيين وهو شيعى المذهب) واذ كان مراده الوحيد أن يؤسس مملكة وأن يكون هو سيدها المطلق فقد واصل سيره بطول الساحل حتى نزل فى بر كلوا فلما وجد أن خصوبة أرضها واكتناف المياه بها مما يقيه شر عادية جيرانه اشترى الجزيرة من أهلها المقيمين بها فى مقابل أقمشة كانت معه على شرط أن ينسحبوا الى القارة . وقد وفوا بهذا الشرط فأخذ يشيد الحصون للدفاع عن نفسه ضد غارات الكفار أو الزنوج والمغاربة الذين استوطنوا البلاد بجوار أملاكه. وبالأخص ضد سكان جزائر صونجو* وشنجا* الذين كان نفوذهم يمتد الى منبانا* التى كانت تبعد عن كلوا بمائة فرسخ . ولما كان على رجلا عاقلا بصيراً بالعواقب فقد أسس فى زمن قصير مدينة عظيمة حصينة سميت بالاسم المعروفة به اليوم أى كلوا ولما شعر بأنه أصبح فى مدينته مصونًا عزيز الجانب فقد أخذ يمد نطاق حكمه على الامم المجاورة . فارسل بأحد ابنائه الى

منفية ولقب هذا الابن الشاب بالسلطان وتوارث أخلافه هذا اللقب فاصبحت مملكة على ممتدة من ناحية الشمال فيما وراء جزيرة بمبا وفى الجنوب الى سفالة التى اهتدى اليها اهل كلوا بالمصادفة أيضاً كما اهتدى اليها قبلهم سكان مقدشو على ما ذكرناه آنفاً .

ومفهوم انه الى سنة تسعمائة وستة هجرية بلغت مدد من خلفوا عاياً على هذه المملكة ٥٣٠ سنة على غير انقطاع منها سنتان حكم فيها الامير ابراهيم الذى كان لايزال حاكما منذ عهد قريب من المدة التى انتهينا فيها من وضع هذا الحساب ولكن القصة لم تشر الى شيء عن مدة حكم رأس الأسرة ولا عن تاريخ وصوله الى كلوا .

ونورد هنا تاريخ أسرة على وتعاقب أعضائها من بعده فى دست الملك كما أثبته جيان بالتفصيل فى كتابه (صحيفة ١٧٨ وما يليها) :

لما مات على بن حسن خلفه ابنه على بومال* فحكم اربعين سنه دون أن يترك عقباً نخافه على ابو سلقيت* ابن اخى المتوفى وإذن فيكون هو الامير الشاب الذى فتح منفية* وكانت مدة حكمه أربع سنوات وستة أشهر، نخلفه ابنه داود ولكن خصمه مطاطه مندلينه* الذى ملك شنجا

أخرجه من كلوا بعد ان تولى الحكم أربع سنوات . فانسحب داود الى منفية حيث توفى . فاقام مطاطه بكاوا ابن عم له اسمه على ابو بكر ، طرده منها البارسيون (أى قوم على) بعد سنتين وأقاموا بدله حسين سليمن ابن عم داود المتوفى . فحكم سليمن ستة عشر سنة نخلفه ابن عمه على بن داود وحكم ستين سنة ثم توفى نخلفه حفيده على . وكان على هذا شريراً ، ففى السنة السادسة من حكمه ثارت الأمة عليه وألقت به حياً فى بئر . وبدلت منه أخاه حسن ابن داود فحكم أربعا وعشرين سنة . ثم خلفه سليمن وكان من الاسرة المالكة ، ولكنه كان شريراً فبعد السنة الثانية من حكمه ثارت الامة عليه وقطعت رأسه ونصبت بدلا منه ابنه داود الثانى الذى جىء به من سفالية وكان حاكما عليها وجمع من المال وهو فيها الشىء الكثير فاستقر فى دست الحكم اربعين سنة ، ثم مات نخلفه ولده سليمن حسن فقام فى عهده باعمال هامة جليلة ونصب نفسه حاكما على سفالية وعلى جزر پمبا ومنفية وزنجبار وعلى جزء عظيم من سواحل القارة الافريقية .

ولم يكتف بالفتوحات بل صرف همته الى تحسين المدينة وشيد بها حصنا بالاحجار الرصينة والجص . وأحاطها

بالأسوار والابراج والمقاصير . وكانت مدينة كلوه الى عهده مشيدة كلها تقريباً بالاخشاب وقد قام بجميع هذه الاعمال الجليلة فى مدى ثمانى عشرة سنة وهى مدة حكمه . وبوفاته خلفه ابنه داود الذى دامت مدة حكمه سنتين ثم ابنه الثانى المسمى تالوت* وحكم عاماً واحداً . ثم ولده الثالث حسين وحكم خمسة وعشرين عاماً . وإذ لم يعقب حسين هذا فقد خلفه أخوه على بوى* الذى عاش عشر سنوات وكان أسعد الجميع حظاً . إذ تمكن من اتمام كل ما كان مشروعاً فيه من الأعمال ، فخلفه ابن عمه أبو سليمان فظل فى دست الحكم أربعين سنة ثم تلاه على داود الذى حكم أربع عشرة سنة ثم حفيده حسن الذى حكم ثمانى عشرة سنة . وكان أميراً هماماً فلما مات خلفه ابنه سليمن الذى قتل غيلة بعد أن ظل فى الحكم أربع عشرة سنة فخلفه ولده داود وحكم مدة سنتين . ثم أخوه حسن وبلغت مدة حكمه أربعا وعشرين سنة . ولما مات حسن ولم يترك عقباً آل الملك الى داود الذى بقى قابضاً على زمام الامور سنتين لغياب أخيه بمكة . ولقد أعاد اليه زمام الحكم عند عودته . فحكم داود هذا أربعا وعشرين سنة خلفه بعدها ابنه سليمن الذى لم يستقر فى الحكم أكثر من عشرين يوماً وقد تولى الحكم على أثره عمه

حسن ست سنوات وستة أشهر . وإذ لم يترك عقباً فقد خلفه ابن أخيه سليمن الشهير بتالوف* فحكم سنة وخلفه أخ له اسمه سليمن فحكم سنتين وأربعة أشهر ثم عزله عمه سليمن الذى حكم بدلا منه مدة أربع وعشرين سنة وأربعة أشهر وعشرين يوماً وجاء على اثره فى دست الحكم ابنه حسن فحكم أربعا وعشرين سنة خلفه من بعدها أخوه محمد العادل الذى ساس الأمور مدة تسع سنوات فولده سليمن مدة اثنتين وعشرين سنة ومات سليمن دون أن يترك عقباً فحل محله عمه اسماعيل بن الحسن الذى بلغت مدة حكمه أربع عشرة سنة وبوفاته نصب والى المدينة نفسه فى السلطنة ولكن حكمه لم يدم أكثر من سنة واحدة حل فى الحكم بعدها بدلا منه ذاك الذى كان فى عهده يشغل المنصب الذى كان يشغله هو قبل استيلائه على صوجان الملك. على أن مدة حكمه لم تتجاوز السنة الواحدة ، فبايعت الأمة محموداً ملكا لها وكان محمود هذا رقيق الحال مع انه من الاسرة المالكة فماقه فقره عن مواصلة الحكم فتنازل عنه بعد عام فوقع اختيار جمهور الامة على حسن ابن الملك اسماعيل فحكم عشر سنوات ، ثم خلفه سعيد فحكم مثل هذه المدة . وبعد موت هذا استولى والى المدينة على زمام

الملك فتولاه عاماً واحداً . وكان قد عين والياً بدلا منه أخاه محموداً وكان لمحمود ثلاثة أولاد وكان الملك يخشى بأسهم فأقصاهم عن كلوا ليكونوا ولاة على البلاد التابعة له ، فجعل يوسف على سفالية وهو الذى كان يحكم هذا الأقليم لما جاءه بيرودى نهايا * وأقام بها حصناً عملا بارادة الملك عما نويل صاحب البرتقال . فاقام أهل كلوا عبد الله بن الملك سعيد بدلا من الملك المغتصب فحكم سنة وستة أشهر . وحينما وافته المنية اختار والى كلوا حسناً ابن الحاكم السابق . الذى كان اغتصب صولجان الملك عقب وفاة الملك سعيد غير أن الامة لم ترض بهذا الاختيار وفضلت على الملك الجديد رجلا من السلالة الملكية اسمه شومبو * فحكم عاماً واحداً فاختارت حسناً الذى سبق أنها لم ترض بتنصيبه بادىء ذى بدء فحكم خمس سنوات أعقبه بعد انقضائها ابراهيم ابن السلطان محمود المتوفى وقد حكم عامين ثم بدل من ابن اخيه واسمه الفضائل * ولم تكن مدة حكمه طويلة .

وكان للفضائل ولد واحد من جارية فقبض والى المدينه على زمام الحكم . ولكنه لم يجهر بالملكية ولم يظهر بمظاهرها وكان ثمة ولد من ابناء سليمن المتوفى هو فى الآن نفسه ابن عم للفضائل . أما ابراهيم الحاكم فمع أنه كان قابضاً على

زمام السلطة فى كلوا فان الامة لم تزد فى تلقيبه على لقب الامير . ولكن الظروف اسعفته بالبقاء فى مركزه لحضور البرتقاليين ومنهم بدرو ألفاريز كبرال* وجوان دى نوفا* ثم فاسكو دى غاما* فالزمه هذا الاخير الاعتراف بتبعيته لملك البرتقال وكان ذلك فى أثناء رحلته الثانية (أى فاسكو دى غاما) بتلك البحار التى كان فتح مغلق أبوابها لبلاده .

(عود الى أصل الموضوع) قال جيان : ومما هو بعيد الاحتمال فى سبيل الاستشهاد بما تم من الاعمال على عهد علىّ الاول أنه حكم أقل من عشر سنوات فاذا ضمت هذه المدة الى الخمسمائة واحدى وثلاثين سنة التى سبقت الاشارة اليها فيكون المجموع خمسمائة واحدى وأربعين سنة قمرية بين وصول كبرال البرتقالى الى كلوا وعهد تأسيس على بن الحسن لهذه المدينة .

ومن الممكن فى هذه الحالة تحديد تاريخ إنشاء مدينة كلوا بأنه يرجع الى عام ثلاثمائة وخمس وستين من الهجرة النبوية . غير أننا اذا سلمنا بذلك فانا لا نلبث أن نظهر التناقض بين هذا الشطر من الرواية الذى يعين مدة حكم سلاطين كلوا والرواية الاخرى التى تجعل سنة أربعمائه هجرية كأنها التاريخ الذى كان يعيش فيه حسن الشيرازى

والد أبى على مؤسس هذه الممالك القوية ، وذلك ما لم يكن المراد من كلمة «تقريباً» الواردة فى روايه بورروس البرتقالى المدة المنحصرة بين عام ثلاثمائة وخمسة وستين وعام أربعمائة فاذا طرحنا سبعين عاما وهى من هذه المدة اذ المعلوم أن تأسيس مدينة مقدشو كان قبل كلوا فيكون تاريخ تأسيس مدينة مقدشو راجعاً الى عام مائتين وخمسة وتسعين للهجرة .

وبناء عليه يمكن الرجوع بتاريخ استقرار العرب المسلمين بسفالية الى المدة المحصورة بين سنة خمسمائة وعشر وخمسمائة وعشرين من الهجرة .

وبعد أن تكلم القومندان جيان على ما كان العرب عليه بعد اليونان من الجهل بعلم الجغرافيا واقتصارهم على الاساطير والروايات وذكر قلة اكتراثهم بالدقة فى رسم مصوراتهم الجغرافية وايراد وصف البلاد فى مؤلفاتهم بشىء من البيان والتحديد قال :

ولقد كتب المسعودى عن حالة الملاحة فى بحر بربره وبحر الزنج ماياتى :

« والعمانيون من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربرى وهم يعرفونه ببحر بربرا وبلاد حفونى وأنه أكثر فى المسافة مما ذكرناه وموجه عظيم

كالجبال الشواهق وأنه موج أعمى يريدون بذلك أنه يرتفع كارتفاع الجبال وينخفض كأخفض مايكون من الأودية لاينكسر موجه ولا يظهر من ذلك زبد ككسر أمواج سائر البحار . ويزعمون أنه موج مجنون وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد فأذا توسطوا هذا البحر وحلوا بين ماذكرنا من الامواج يرفعهم ويخفضهم يرتجزون فى أعمالهم فيقولون :

بربرا وحفونى وموجك المجنون
حفونى وبربرا وموجها كما ترى»

وذكر المسعودى فى قوله عن بحر الزنج وملاحيه ، وهم نوتية عمان وسيراف ، قصتين لغرق سفن من سيراف فلم يقف عند هذه النقطة ليثبت هذا الرحالة المؤرخ أن النوتى إذا عبر بحر بربره وأوغل فى بحر الزنج فلا مناص له من مشاهدة تلك الجبال المغنطيسية التى كانت تفكك أجزاء السفن إذ تجذب اليها مساميرها وكل مافيها من معدن بل ومن غشيان ظلمات البحر من بعد ذلك وهى تحجب كل شيء عن نظر الانسان فكان لابد أن تذهب السفينة بمن فيها وما فيها ضياعاً حتى الأبد .

وقال جيان بعد ذلك :

ان الروايات العربية الأصلية التى بين أيدينا تتألف منها سلسلة متصلة الحلقات بدايتها القرن العاشر من الميلاد ونهايتها القرن الخامس عشر فيتيسر لنا إذن أن نتتبع من قرن الى آخر تقدم المعلومات واتساعها ولكن الذى يوجب الأسف هو أن هذا التقدم لم يكن مطرداً بنسبة السنين التى مضت .

فقد بدأنا قصتنا بالمسعودى وهو من أهل القرن العاشر وكان يعاصره مؤلف عربى آخر وهو أبو زيد الحسن ولم يكن أبو زيد هذا جواب آفاق بل مؤلفاً كما قال عن نفسه اقتصر على جمع قصص تاجر اسمه سليمن* وغير وبدل من كيان الروايات التى نقلها اليه السياح الذين جابوا البحار الشرقية . والذى ذكره لايختلف عما رواه معاصره الآنف الذكر حتى ليعتقد من يطلع على كلامه أنه نقل عنه .

قال أبو زيد يصف بلاد الزنج :

« وبلاد الزنج واسعة وكلماينبت فيها من الذرة وهو أقواتهم وقصب السكر وسائر الشجر فهو اسود عندهم ولهم ملوك يغزو بعضهم بعضاً . وعند ملوكهم رجال يعرفون بالمخزمين قد خزمت أنوفهم ووضع فيها حلق ركب فى الحلق سلاسل فاذا كانت الحرب تقدموا وقد أخذ بطرف

كل سلسلة رجل يجذبها ويصده عن التقدم حتى تسفر السفراء بينهم . فأن وقع الصلح وإلا شدت تلك السلاسل فى أعناقهم وتركوا والحرب فلم تقم لهم قائمة . ولم يزل أخدهم عن مركزه دون أن يقتل وللعرب فى قلوبهم هيبة عظيمة فأذا عاينوا رجلا منهم سجدوا له وقالوا هذا من مملكة ينبت بها شجر التمر لجلال التمر عندهم وفى قلوبهم .

« ولهم الخطب وليس فى الامم لخطبائهم بألسنتهم وفيهم من يتعبد فيستتر بجلد نمر أو جلد قرد ويأخذ بيده عصا ويقبل نحوهم فيجتمع اليه منهم جمع فيقف على رجله يوما الى الليل يخطب فيهم ويذكرهم بالله جل ذكره ويصف لهم أمور من هلك منهم . ومن عندهم تحمل النمور الزنجية وفيها حمرة وهجانة ولها كبر وسعة .

« وفى البحر جزيرة تعرف بسقوطرا وبها منابت الصبر الاسقوطرى وموقعها قريب من بلاد الزنج وبلاد العرب وأكثر أهلها نصاري . وسبب ذلك أن اسكندر لما غاب على ملك فارس كان يكاتبه معلمه ارسطوطاليس فيعرفه ما وقع عليه من الارضين . فكتب اليه يؤكد عليه فى طاب جزيرة فى البحر تعرف بسقوطرا وأن بها منابت الصبر وهو الدواء الاعظم الذى لا تتم الايارجات إلا به وأن

الصواب أن يخرج من كان فى هذه الجزيرة ويقيم فيها من اليونانيين من يحوطها ليحمل منها الصبر الى الشام والروم ومصر . فبعث اسكندر فاخرج أهلها عنها وانزل جمعاً من اليونانيين فيها وتقدم الى ملوك الطوائف إذ كانوا عند قتله دارا الكبير* طوع يده بالاحتفاظ بهم فكانوا فى صيانة حتى بعث الله عيسى عليه السلام فبلغ من بهذه الجزيرة من اليونانيين أمره فدخلوا فى جملة ما دخلت فيه الروم من التنصر وبقاياهم بها الى هذا الوقت مع سائر من سكنها من من غيرهم » اه ، نقلا عن النسخة المحفوظة بدار كتب باريس الاهلية .

وبعد هذين المؤلفين بمائة عام تقريباً نرى البيرونى* يروى على مسامعنا شؤون التجارة التى كانت بين سفالية والهند والصين . وهى التجارة التى أغنت مدينة سومنات* الواقعة على ساحل الجوزرات* بالهند والتى كانت مرسى للسفن .

وبعد البيرونى ظهر كاتب آخر أفاض فى الكلام على النقط الجغرافية ووصف أهل البلاد التى نحن بصددها وفاق فى هذا الباب غيره . نريد به الشريف الأدريسى الجغرافى من أهل القرن الثانى عشر الميلاد ، فان له فى تخطيط البلدان

والمصورات الجغرافيـة مصنفـاً معروفاً يبن فيـه الهند والأقاليم التي على سواحل هـذا البحر وكذا شاطىء بلاد عادل والشاطىء الشرقي للقارة الأفريقية مبيناً فيها كل ذلك بخط منحن يبتدىء ببوغاز باب المندب ويمتد تارة الى شمال خط الاستواء وطورا الى جنوبه ويصل الى بحر الصين.
والظاهر من عبارة الأدريسي أنه كان يستمد بمؤلفات هيبرقة وبطليموس الفالوذى فيما يختص باتجاه سواحل أفريقيا الشرقية ، وكذا بفكرة بعض المتقدمين من العلمـاء الطبيعيين الذين كانوا يعتقدون أن الأرض غير صالحة للسكنى جنوبي خط الاستواء . وهو مايفيد على كل حال أن كتاب الادريسي كان مختصراً ووافياً على اختصاره لاحتوائه كل ما كان يلم به علماء عصره عن أفريقيا الشرقية.
ولذا نثبت عبارته كما هي ولـكننا نلفت نظر القارىء الى ان الادريسي الف كتابه وهو في حاشية ملك صقلية* ولم يسح في بلاد المشرق ولم يتخط شواطىء البحر الأبيض المتوسط.
قال الأدريسي :
« الأقليم الأول ـ إن هذا الجزء السادس من الاقليم الأول يتضمن من ناحية الجنوب مدينة قرفونة ومركه والنجا وهذه البلاد الثلاثة من بربرة واليها تنتهي عمالتها وهي

على البحر اليمانى وأكثر قرى بربره أكثر عيشهم من لحوم السلاحف البحرية وتسمى عندهم السند ومن جوه الى قرفونة يومان فى البحر وعليها جبل عظيم يمتد فى جهة الجنوب ومن قرفونة الى ترمة ثلاثة أيام بحراً وينتهى منها جبل خاقونى وهو جبل له سبعة رؤوس خارجة ويمتد تحت الماء أربعين يوما . ويلى رؤوس هذا الجبل مدن صغار كالقرى يقال لها الهاوية . ومن خاقونى الى مركة على الساحل ثلاثة مجار صغار فى البحر سبعة أيام . وعلى مرحلتين من مركة فى البرية واد يمدّ بمدّ النيل وعليه يزرعون الذرة . ومن مركة الى بلد النجا على البحر يوم ونصف وعلى البر أربعة أيام والنجا آخر أرض بربره ومن النجا الى قرفونة (قربوه) ثمانية أيام وهى مدينة صغيرة على البحر ومنها الى بدونة ستة أيام وهى قرية كبيرة مسكونة آهلة وأهلها يأكلون الضفادع والاحناش من القاذورات التى تعاف الناس أكلها وهذه الأرض أيضاً يليها بلاد الزنج ثم أن قرفونة وبدونة مدينتان وأهلهما كفرة وهما يتصلان ببلاد الزنج على ضفة البحر المالح .

«وهذه البلاد المذكورة تقابل بلاد اليمن من جهة الشمال ويليها عرض البحر وعرضه هناك ستمائة ميل ويكون أكثر من هذا وأقل على قدر خروج أجوان البحر فى

البراری وعلى قدر دخول القراطيل فی البحر . وفيما تضمن
هذا الجزء المتصل فی هذا البحر أربع جزائر منها جزيرتان
فی جهة المشرق واسم الجزيرة الواحدة منها حرتان والثانية
مرتان وهما فی جون الحشيش وسنستقصی وضعها فی موضعه
ان شاء الله تعالى ومنها جزيرة سقطری التی ينسب الصبر
اليها وبينها وبين الساحل مجريان بالريح الطيبة ويقابلها من
بلاد اليمن مدينة مرباط وحاسد .

«وسنذكرها فی موضع ذكرها بحول الله تعالى
والجزيرة الرابعة تسمى جزيرة قبلا وهی فی ناحية الغرب من
هذا البحر وهی خالية لكنها كثيرة الشجر وفيها جبال ممتدة
وعرة وفيها ضروب وحوش ودواب مضرة وفيها أيضاً عين
ماء جرارة تصب فی البحر وربما سقط الى هذه الجزيرة من
أخرم اليها من بلاد اليمن أو من مراكب الحبشه يتعيشون
بها وهی تقابل الحصن المعروف بمحلاب حكم ، من ساحل
اليمن ... وأما جزيرة سقطری فهی جزيرة واسعة القطر
جليلة القدر هينة الارض بامية الشجر وأكثر نباتها الشجر
الصبری ولاصبر يفوق صبرها فی الطيب يجد بحضر موت
والشحر وغيرهما . وهی كما قلناه تتصل من جهة الشمال
والغرب ببلاد اليمن بل هي محسوبة منه ومنسوبة اليه

وتقابلهما من جهة بلاد الزنج بدونه وندوه وأكثر أهل مدينة سقطرى نصارى والسبب فى ذلك ... » الخ (نقلا عن النسخة المحفوظة بدار الكتب الملكية بالقاهرة)

وقبل أن ننتقل الى الفصل التالى الذى واصل الأدريسى فيه وصف الشاطىء الشرقى نجتهد أولا فى استخراج الحقيقة من النقط التى وصفها ومما هو معلوم منها لنا الآن، فنجد أن أربع نقط مهمة من النقط الموجودة على مصوراتنا الجغرافية الجديثة مذكورة فى الأدريسى وهى سقطرة* ومركه* وملندة* ومنبسة* . أما سقطرى التى كتبها الأدريسى بهذا الرسم فهى ولاشك الجزيرة المعروفه لنا والتى استكشفها دييجو فرناندس بيريره* . ومما لاريب فيه أن مركه ينطبق عليها وصف الأدريسى إذ قال انها كائنة على مرحلتين داخل البلاد وعلى هذا البعد من نهر فياض بالماء كالنيل تزرع الذرة على ضفتيه . وهذه الأوصاف تنطبق على نهر استكشف مجراه منذ سنوات الملازم كرستوفرو* . وقد سماه هذا الضابط بنهر هينز* . وفى الوقت الذى ترجم فيه المسيو جوبير* كتاب الأدريسى كان هذا النهر مجهولا . ولكنه كان مذكورا فى بعض تواليف العرب ويسمى فيها باسم نيل مقدشو . وكان نهر الجب النهر الوحيد المعروف

ن هذا الجزء من الشاطىء . وكان هذا هو السبب الذى لأجله غلط المترجم فى اعتقاده ان نهر الجب هو النهر الذى ذكره الأدريسى . نعم إن المسافه التي قدرها الأدريسى بين النهر والمدينة أكثر من الحقيقة باربع أو خمس ساعات لكن سيتضح فيما بعد ان الأدريسى قد سقط فيما يختص بتقدير المسافات فى اخطاء أفحش من تلك . وان ليس لوصفه فى غير هذا المكان الدقة التى وصف بها مركه . وعلى كل حال فقد اتضح لنا مما سبق أن مدينة مركه كانت فى السنوات الأولى من القرن الثانى عشر من الميلاد فى عالم الوجود .

أما مدينتا منبسة وملنده فلم يذكرهما الأدريسى إلا فى كلامه على جزيرة سقطرة . وقد ذكرها كما لو كانت تجاه هاتين المدينتين . وهناك فى الموضوع غلطة أخرى للأدريسى ، سببها انه اعتبر اتجاه زنجبار فى الغرب والشمال الغربى ثم شرقا وفى الجنوب الشرقى ابتداء من شاطىء بلاد عادل . بدلا من أن يعتبر وجودها فى الجنوب الغربى بحيث تكون مع هذا الشاطىء زاوية حادة . ولذا وضع جزيرة سقطرة فى الجزء الجنوبى من خليج طرفه الشمالى الشاطىء الغربى وجنوبه شاطىء زنجبار . وغلط أيضاً فى مواقع المدن والمسافات الفاصلة بين ملنده ومنبسة وسقطرة .

فاذا اعتبرنا مثل هذه الغلطات التى غلطها الأدريسى حتى فى وصف أقرب الجهات المعروفة منذ الأعصر السالفة فانا نجد أن المسافات التى قدرها ليست بصحيحه . ويتضح لنا أيضاً أنه وان أمكننا تطبيق بعض أسماء الجهات العديدة التى ذكرها على مدن أو بلاد معروفة لنا الآن فانه يتعذر علينا فى الوقت نفسه أن نعين موقع ما هو غير معلوم منها لدينا . وهذه الاستحالة فى محلها وظاهرة من الوصف الذي نقلناه عن الأدريسى .

وبما أن مواقع الجهات غير معينة بخطوط العرض ولا بخطوط الطول فليس بالامكان وجودها على مصوراتنا الجغرافية الجديدة الا إذا بدأنا بحثنا من نقطة تطابق تماماً وصف الأدريسى وطبقنا على المصورات الجغرافية المسافات التى جعلها هذا المؤلف بمثابة فاصل بين نقطتين . ولكن مما يدعو الى الحيرة تقدير تلك المسافات التى لم يوضح فى الفصل الأصلى كيفية تقديرها . لان الأدريسى لا يفسر معنى كلمتى يوم أو مجرى المستعملتين كمقاييس للملاحة البحرية . بل أن كلمة يوم فى نظره تعنى مدة من الزمن وكلمة مجرى تعنى متوسط مسافة تقطع فى زمن معين . فاذا اعتمدنا على تفسير فريتاخ تكون كلمة يوم اثنتى عشرة ساعة أو أربعا

وعشرين ساعة . أما كلمة مجرى فيكون معناها المسافة التى تقطعها السفينة فى مدة يوم واحد .

ولكن هل يجب تقدير اعتباره سفر اليوم باثنتى عشرة ساعة أو باربع وعشرين ساعه ؟ وإذ لزم الأدريسى الصمت عند هاتين النقطتين فقد بحثنا فى النص الأصلى لنستنتج من مقارنة عدة عبارات متشابهة بعض الأدلة على حقيقة هذا الأمر ولما وجدنا أن الأدريسى كان يستعمل أحيانا كلمة يوم فقط وفى ظروف أخر عبارة يوم بليلته ، ظننا أن كلمة يوم فقط تعنى اثنتى عشرة ساعة أما عبارة يوم بليلته فتعنى أربعا وعشرين ساعه .

وأما كلمة مجرى فقد وجدنا فى جزء من العبارة المنقولة عنه وهى السابقة الذكر جملة تعيننا على تقدير مسافة المجرى . فالأدريسى يقول إن سقطرة تبعد عن الشاطىء (ولا شك أنه يقصد شاطىء بلاد العرب) بمجريين اذا كانت الريح طيبة موافقة . ومعلوم لنا أن المسافه مائتا ميل بحرى تقريباً بين هذه الجزيرة وأقرب نقطه من شاطىء بلاد العرب . فيتضح أن مسافة مجرى يمكن تقديرها بمائة ميل بحرى فاذا فرضنا الآن ان المدة التي تستغرق لقطع المسافة كلها هى أربع وعشرون ساعة كانت سرعة السفينه

أكبر بقليل من أربعة أميال فى الساعة الواحده .

وعلى افتراض اننا وصلنا الى تقدير المسافة المتوسطة للمجرى الواحد ، وبما ان الملاحة على السواحل الشرقية للقارة الافريقية لاتكون عادة الا فى زمن هبوب الرياح الشديدة فان المسافة التي تقطع فى ظرف أربع وعشرين ساعة يجب اعتبار انها هى المجرى وكذا يجب تقدير مسافة النهار بنصف مجرى . وبناء عليه فيكون من الواجب تقدير مسافة النهار بخمسين ميلا بحريا . ومسافة اليوم ليلته ونهاره بمائة ميل وهذا بصرف النظر عن سرعة التيار .

ومع إقرارنا بان هذه الاعتبارات جميعها ليست على نصيب من الصحة فأنها الأدلة الوحيدة التى بين أيدينا ، ولهذا نبدأ بتحليل وصف الأدريسى باتخاذنا مدينة مركه نقطة أساسية ، لأنها الجهة الوحيدة المعروف لنا موقعها .

يقدر الأدريسى المسافة بين مركه وجبل خاقونى* بثلاثة مجار صغيرة أى اقل من ثلثمائة ميل بقليل . فاذا اعتبرنا سرعة التيار ميلا ونصفاً فى الساعة وحسبنا أن السفينة تسير ستين ساعة وبعض ساعة فانا نجد أن المسافة تزيد مائة ميل تقريباً وإذن فالمسافة الحقيقية بين النقطتين المذكورتين تكون أربعمائة ميل . فاذا قسنا هذه المسافة على الخريطة مبتدئين

من مركة لوقع جبل خاقونى بين رأس عوض ورأس الخيل:
والحقيقة انه لاتوجد جبال فى هـذا المكان لأن الشاطىء منخفض على مدى بعيد جداً . وليس على أقل من ثمانين ميلا دون النقطة التى نكون قد وصلنا اليها وبناء على هذا الوصف تكون الأرض العالية المعروفة فى يومنا هذا بجبل الحراب * . فهل يجب أن نهمل المسافة الصغيرة الفاصلة بين هذا الجبل ومركة .

وليس بالامكان اعتبار هذا الجبل المستطيل ذى القمة المعتدلة كأنه جبل خاقونى وهو نفس الجبل الذى يصفه الأدريسى بان له سبع قمم . إذن فهذه هى الغلطة الأولى .ولو سرنا على هذا القياس من النقطة التى وصلنا اليها واعتبرنا أنها خاقونى فأن مسافة مائتى الاميال (بما فيها سرعة التيار) المكونة للمسافة بين ترمة* حيث يبتدىء الجبل وقرفونة* لوجدنا أن قرفونة هذه هي رأس مأبور . ثم اذا أردنا أن نبحث عن موقع النجا التى يقدر الادريسى المسافة الفاصلة بينها وقرفونه بثمانية أيام أى خمساية وأربعين ميلا وفرضنا أن قرفونة هى رأس مأبور ومتجهين نحو الجنوب لوجدنا أن موقع النجا هو موقع بلدة وار شيخ الحالية أى قبل مركة بستين ميلا . مع أن وصف الأدريسى يستدعى أن يكون

موقع النجا فيما وراء مركة بيوم ونصف .

وبناء على هـذه النتائج المخيبة للآمال لمخالفتها ما تقدم من الفروض نرى أنه لا ضرورة الى التوسع فى البحث فى وصف الأدريسى لأنا قـد استنتجنا بعـد البحث الدقيق والتمحيص أنه لا يمكن الاعتماد على وصفه فى تعيين النقط المعلومة لنا فى الوقت الحاضر حتى على وجه التقريب . ولنكتف فقط بتطبيق الأوصاف التى ذكرها الأدريسى عن بعض النقط وما يطابق منها الجهات المعروفة لنا فى الوقت الحاضر . ولهذا الغرض نرجع الى النقط التى سبق ذكرها وهى جوة* وقرفونة وترمة وخاقونى والنجا وبدونة فنقول :

يظهر أن جوة كانت على الشاطىء الشمالى من بلاد السومال (تلك البلاد التى سماها الجغرافيون العرب ببلاد البربر) وبين بندر قاسم* وأم رعية* وهى التي اعتبر المسيو جوبير أنها توجد حيث موقع مدينة بندر دجوه* على مصور دانفيل الجغرافى . والذى يبدو لنا أن هذا لا يطابق الواقع. نعم ان المؤلف بعـد أن وصف الشاطىء الغربى من البحر الأحمر وذكر أسماء بعض مدن بلاد الحبشة تناول الكلام على بلاد البربر قائلا : « وهى تحت حكم الأحباش وأول

مدينة بها هى مدينة جوه وبعدها قرفونة ثم ترمة حيث يبتدىء جبل خاقونى وبعده مركة » الخ

فمهما يكن غلط الأدريسى من جهة الترتيب فأنه لاشك فى أنه يعتبر فى تخطيطه أن الأرض متجهة من المغرب الى المشرق حالة كونها كما نعلمه متجهة من الشمال الى الجنوب .

إذن فلا بد أن تكون جوه واقعة على الشاطىء قبل قرفونة وإذن تكون قبل خاقونى التي لم تكن فى الواقع إلا شبه جزيرة حافون : ذلك الرأس الذى اعتبر دانفيل أن بندر دجوة كائن فى جنوبه . وليس بالامكان اعتبار أن جوه هى بندر دجوة ، وإلا لأمكن اعتبار جبل جردفون كأنه الجبل الشاهق الذى قال الأدريسى عنه أنه مشرف على بلاد قرفونة وممتد الى الجنوب وتيسر القول بأن هنالك شبهاً بين كلمة كرفونة المرسومة فى بعض كتب أخرى « كركونة » و «ترفونة » وبين « جردفون» .

وعلاوة على ماذكر فليس من قبيل المصادفة والجزاف أن يذكر الجغرافيون العرب نقطتين متجاورتين يسمونهما جزدفون وحافون . ولو حصل التسليم بصواب ماتذهب اليه لكانت الحقيقة بالنسبة لكرفونة أن تكون كرفونة

مجاورة لرأس جردفون وربما كان الأصح أن نعتبر هذه النقطة واقعة غربي جردفون أكثر منها جنوبيها وذلك اذا اعتمدنا تقدير الأدريسى للمسافة الفاصلة بين قرفونة وترمة التي يبتدىء فيها جبل خاقونى بثلاثة أيام .

أما تسميته الجبل بخاقونى فما لاشك فيه أنها خطأ يرجع إما الى جهل المؤلف أو الى غلط المترجم ونحن أى (جيان) نعتبر أنه حافونى أى الاسم الذى سمى به ابن سعيد وغيره من المؤلفين فى تخطيط البلدان الجبل ذا السبع القمم أى ذا السبعة الرؤوس المذكور فى تأليف الأدريسى .

فاذا صح هذا القول فلا شك فى أنه شبه جزيرة حافون ذات السبعة الرؤوس المعروف كل منها فى وقتنا باسم خاص . ولقد وقع خطأ شبيه بما سبق وهو أن البلاد ذكرت كأنها موجودة فى الجبل فصحة كلمة « الهادية » هى الهاوية* . وذلك اعتماداً على قول ابن سعيد وأبى الفداء . أما كلمة حوية فهى اسم قوم من بلاد السومال كانت بلادهم على عهد الأدريسى تحوى شبه جزيرة حافون ثم اكتسحوا فيما بعد الى داخل البلاد .

أما النجا وبدونة فليس فى استطاعتنا أن نتكلم عنهما إلا بناء على فروض وتخمينات غامضة . واذا سلمنا بالمسافات

التي قدرها الأدريسى فانه يتبين لنا أن النجا واقعة قبل مركة اذا اتجه السائر اليها من الشمال الى الجنوب . ولكن الادريسى يصفها باعتبار أنها واقعة بعد مركة حيث يقول إن النجا التابعة مثل مركة لبلاد البربر هى آخر نقطة لهذه البلاد . فاذا تمسكنا بقول الأدريسى وقسنا مسيرة يوم ونصف للمسافر بحراً وهى المسافة بين مركة وهذه المدينة فأنا نجد أن النجا تقع حيث توجد وارشيخ . ولكن الأمر حقيقى وجدير بالنظر . وأخيراً نجد أن قرية بدونة الكبيرة التي قال الادريسى عن أهلها أنهم يأكلون الضفادع والثعابين وتتاخم أرض بلاد الزنج وجاء وصفها فى الفصل الآتى وتوجد على مسيرة ثلاثة أيام من بروه ربما كانت على مصب نهر الجب وهو النهر الذى اعتبره الجغرافيون العرب فرعا من النيل أو حدا تبتدىء بلاد الزنج من بعده .

إذن يكون نهر الجب الحد الفاصل بين البلدين بناء على قول الأدريسى .

ولننتقل الآن الى الجزء السابع من جغرافية الأدريسى حيث نجد ما يأتى :

« الاقليم الأول — أن هذا الجزء السابع من الاقليم الأول يضمن فى حصته ووجب له قطعه من البحر الهندى

وجملة جزائر مفرقة فيها أنواع من الأمم وعلى جنوبه بلاد الزنج ونحن الآن نريد بعون الله أن نذكر جميع ذلك ذكراً شافياً ونأتى به على استقصاء فنقول إن هـذا البحر بحر الهند وعلى ضفته مدينة بروه وهم آخر بلاد الكفرة الذين لايعبدون شيئاً وأنهم يأخذون الاحجار القائمة فيدهنونها بدهن السمك ويسجدون لها ومثل هذه السخافة وماجانسها هو تعبدهم واعتقادهم الفاسد وهم على ذلك ثابتون وبعض هذه البلاد فى طاعة ملك بربره وبعض فى طاعة الحبشة ومن بربره على الساحل الى مدينة بدونة ثلاثة أيام فى البحر . وهى مدينة خراب قليلة العمارة وحيشة المساكن قذرة البقاع وعيش أهلها من السمك ولحوم الصدف والضفادع والاحناش والفيران والورل وطعم حنش وغيره لها من الحيوانات التى لاتؤكل وهم يتصيدون فى البحر عوما من غير مركب ولا دنوى فى ساحل وانما يتصيدون بالسباحة بشباك صغار يصنعونها من النبات ويربطونها فى أرجلهم ولهم أحبال وأنشوطات يجذبونها بأيديهم اذ أحسوا بأن الحوت دخل فى شباكهم بصنعة قد أحكموها وحيل قد هندسوها وعرفوها ويضعون فى شباكهم أحناش الطين وبها يطعمون الحوت ومع هذا وانهم فى هافة وفقر وضيق حال ولكن

الله حبب المواطن الى أهلهـا فهم قد قنعوا بذلك ورضوه لأنفسهم وهم فى طاعة الزنج . ومن هذه المدينة على الساحل الى مدينة ملندة من بلاد الزنج ثلاثة أيام فى البحر بلياليها وملندة على ضفـة النيل على خور مـاء عذب وهى مدينة كبيرة وأهلها يحترفون بالصيد براً وبحـراً فيصيدون فى البر النمور والذئاب ويصيدون فى البحر ضروباً من الحيتان فيملحونها ويتجرون بها . وعندهم معـدن حديد يحتفرونه ويعملونه وهو جل مكسبهم وتجارتهم . وأهلها يزعمون أنهم يسحرون الحيتان الضار حتى لايضر إلا من أرادوا ضرره والنقمة منه وان السباع والنمر لاتعدو عليهم بما يسحرونها »

الى أن قال :

« وملندة على ضفـة البحر وهم على جون ماء عـذب . وهى مدينة كبيرة وأهلها متحرفون بالصيد براً وبحراً . يتصيدون الحيتان فيملحونها وعندهم معدن خديد يحفرونه . ويعملونه . وهو جل مكسبهم وتجارتهم وأهلها يزعمون انهم يسحرون الحيوان الضار حتى لايضروا الا لمن ارادوا ضره والنقمة منه وأن السباع والنمور لاتعدو عليهم بما يسحرونها به واسم الساحر عندهم المقنفا ومن هذه المدينـة الي مدينة

مليسة على الساحل مسافة يومين وهى للزنج وأهلها متحرفون باستخراج الحديد من معادنه والصيد وكلابهم حمر تغلب كل الدواب وجملة السباع وهى فى نهاية من القهر لها وهذه المدينة على البحر وعلى ضفة ماء عذب كثير يدخله المراكب مسيرة يومين وليس عليه شيء من العمارة اكثر من ان الوحوش تسكن فى غياض من ضفتيه معا ، فهم يصيدونها هناك كما قدمنا ذكره . وفى هذه المدينة سكنى ملك الزنج وأجناده يمشون رجالة لان الدواب ليست عندهم ولا تعيش عندهم .

« ومن منبسة الى قرية اليابس* فى البر ستة أيام ومجرى ونصف فى البحر وقرية اليابس قرية كبيرة آهلة بالناس جامعة وهم يعبدون الرجيم . والرجيم طبل كبير كالبتية مجلد من واحد ويربطون فى ذلك الجلد شريطاً يجذبونه به فيكون له صوت هايل يسمع على ثلاثة ايام أو نحوها ومدينة اليابس هى آخر عمالة الزنج ويتصل بها أرض سفالة الذهب فمنها على الساحل الى مدينة تسمى نبهنة ثمانية ايام فى البر ومجرى ونصف فى البحر وذلك لان بين هذين المدينتين جون كبير يأخذ فى الجنوب يتسعون عن الطريق قصداً . وبين هاتين المدينتين فى البحر جبل عال عريض له

مجرد والماء . قد حفر جوانبه من كل جهة بالموج يصوت به صوتاً هائلا وهذا الجبل يجتذب الى نفسه من المراكب مالاصقه فالمسافرون يتنحون عنه ويفرون منه . ومدينة نبهنة أيضاً من سفالة ويتصل بارض الهند قرى كثيرة : كل قرية منها على خور وجميع بلاد الزنج بضائعهم الحديد وجلود النمور الزنجية وهي جلود حمر لينة جدا عندهم دواب وانما يتصرفون بانفسهم وينقلون امتعتهم على رؤوسهم وعلى ظهورهم الى مدينتي منبسة وماندة فيبيعون هناك ويشترون وليس للزنج مراكب يسافرون فيها ، وانما تدخل اليها المراكب من عمان وغيرها الى جزائر الزنج فيبيعون بها هناك ويشترون متاعهم ويشترون متاع الزنج وأهل جزاير الرانج يسافرون الى الزنج في زوارق ومراكب صغار فيجلبون منها امتعتها لانهم يفهم بعضهم كلام بعض . وللعرب في قلوب الزنج رعب عظيم ومهابة فلذلك متى عاينوا رجلا من العرب تاجرا أو مسافراً سجدوا له وعظموا شأنه وقالوا له بكلامهم هنيئاً لكم يا اهل بلاد التمر وان المسافرين في بلادهم يسرقون أبناء الزنج بالتمر يخدعونهم به فينقلونهم من مكان الى مكان حتى يقبضوا عليهم ويخرجوهم من بلادهم الى البلاد التي يكونون بها وأهل بلاد الزنج كثيرو العدد

وصاحب جزيرة كيش من بحر عمان يغزو بمراكبهم بلاد الزنج فيسبي منها خلقاً كثيراً » .

وقبل أن نبحث فى الجزائر المذكورة فى هذا الفصل فلنقف هنيهة ولننظر الى ماسبق لعلنا نجد فى وصف الأدريسى شعاعا من نور يهدينا الى الصواب .

ذكر هذا المؤلف ست جهات مهمة فى هذا الجزء من الفصل السابع للأقليم الأول منها ثلاث يمكننا ان نجدها على مصوراتنا الجغرافية ولو بالتقريب وثلاث اخرى لم تزل مجهولة لنا بالمرة . فالثلاث الأولى هى بروه ومانده ومليسة* .

فاذا تساءلنا بادىء ذى بدء عما هى مدينة بروه وهى النقطة الاساسية التي نبدأ بحثنا منها ووجدنا كلمة براوه التي تشبه هذه الكلمة فانا نحسب انفسنا سعداء اذ نعتقد أنا عرفنا هذا البلد ، ولكنا نجد فى الوقت نفسه أن بروه (وذلك نظراً لموقعها الجغرافى المبين على مصوراتنا الجغرافية الحالية) واقعة قبل بدونة المعتبرة فى الفصل السابق كأنها آخر مدينة بأكثر من مائة ميل ولكنا نعتمد الآن على تشابه الأسماء أكثر منا على المسافات المذكورة فى تأليف الأدريسى ولهذا نبحث فى البيانات التى أوردها هذا

المؤلف لعلنا نهتدى فيها الى شىء جازم فى الموضوع.

يقول الأدريسى ان بروه واقعة بطرف بلاد الكفرة ولكنه لم يوضح لنا أين تبتدىء بلاد الكفرة ولا أين تنتهى ، غير أنه يقول انجزءاً من هذه البلاد تابع لملك البربر . وأن الجزء الآخر تابع للحبشة فيجب بناء على ذلك أن نعتبر أن هذه البلاد هى الأراضى الواسعة الكائنة بين نهر الجب والحبشة وخليج عدن أو بربره وبحر الهند . وفى وقتنا هذا تسكن هذه الأراضى أمتان مختلفتان وهما السومال شرقا والجلا غربا . وكانت الأمتان فى عهد الأدريسى معروفتين باسم كفرة لأن الاسلام لم يك قد دخل تلك البلاد فى ذلك العهد بعد . ولم يذكر الأدريسى سكان جهات كرفونة وبدونة بوصف أنهم كفرةاللهم بعض مدن من الساحل كمقدشو ومركه وبروه التى أسسها المسلمون العرب فكان أهلها مسلمين طبعاً ، غير أن هذه المدن كانت كما قال الأدريسى عن بروه واقعة ببلاد الكفرة . اذن فهذا البيان لايخلو من الفائدة . ولكن أيمكننا الاعتماد على ان بروه الواقعة بالشاطىء تبعد عن بدونة بثلاثة أيام ؟

كلا لأننا علمنا مما سبق ما هى أخطاء الأدريسى فى

المسافات ثم ما هى فى الحقيقة مدينة بدونة ؟ أنعتبرها بدونة المذكورة فى الفصل السالف الذكر باعتبار أن موقعها على مسيرة ستة أيام من النجا ؟ إن من المتعذر ان يقف الانسان على فكرة صحيحة فى هذا الصدد فضلا عن ان وصف مدينة بدونة فى الفصل السادس من مؤلف الأدريسى لايجعلنا نستطيع الحكم بانطباقه على هذه القرية أو على مدينة النجا الصغيرة .

ولقد ظننا أننا نهتدى الى شىء حينما وجدنا كلمة ملندة، فان هذه المدينة مخربة فى وقتنا الحاضر . غير أنها كانت زاهية قبل حضور البرتقاليين ، وموقعها معلوم عندنا. وبحسب ماهو مبين فى مصوراتنا الجغرافية الحالية يكون موقعها فى درجة ١٥َ ٣° من العرض الجنوبى ولكننا وجدنا أن هذه النقطة الاساسيه لاتصلح أساساً لتعيين موقع بروه أو بدونه .

والواقع أن الأدريسى يقدر المسافة بين بدونة وملنده بثلاثة أيام بلياليها . فالمسافة المعينة بالملاحة ، بصرف النظر عن التيار ، يجعل مركز بدونة على بعد أكثر من ستين ميلا شمال الجب اما بروه (المفروض انها قبل بدونة بثلاثة أيام) فتقع على بعد مائة وخمسين ميلا شمال بروه المذكورة

الآن على المصورات الجغرافية . فمن المحتمل ان هذه المدينة الأخيرة هى التى كان الأدريسى يسميها بيروه المرسومة هكذا « بروات » فى كتابه (المخطوط) رقم ٣٣٤ والمرسومة بروه فى النسخة المرموز لها بحرف B . ففى هذه الحالة ليس الغلط فى التشابه اللفظى بل ان معلومات الأدريسى بعلم الجغرافيا لم تكن تطابق الصواب وتقديره للمسافات كان باعثا على الخطأ .

ثم ان مدينة منبسة يقدر الأدريسى بعدها عن ملندة بيومين . فلو كان التقدير يعنى مسيرة يومين براً لكان تقديره قريباً من الواقع . ولكنه لم يوضح شيئاً فى هذا المعنى . ولهذا كان مما لاريب فيه ان تقديره المسافة كان بالسير براً وطولها مائة وخمسون ميلا تقريباً مع حساب دفع التيار . والمسافة الحقيقية الكائنة بين هذين البلدين درجة واحدة أى ستين ميلا . ولا شك فى ان ملندة ومنبسة كانتا فى ذاك العهد مدينتين عامرتين معروفتين للناس جميعاً وكان المتوقع أن يصفهما الأدريسى وصفاً ادق مما وصفهما به واضبط .

ويقول الأدريسى ان آخر مدينة من بلاد الزنج هى اليابس* المتاخمة لسفاليه . وقد حدد مركزها بأنه على مسيرة

ستةأيام براً أى أنه مجرى ونصف فقط مع حساب دفع التيار بحراً .

فمسافة مجرى ونصف من موقع منبسة يجعل اليابس* بقرب مصب نهر أوفيجى غربى جزيرة مافيا فتكون نبهنة* التى تبعد بقدر مجرى ونصف عن هذه المدينة الأخيره واقعة فيما يلى أى ابعد من رأس دلجادو .

ولولا علمنا بان هذه المواقع محدودة على طريق الخيال لذهب الظن بنا ، اعتماداً على تحديد الأدريسى لموقع اليابس ان نهر أوفيجى كان معتبراً وقتئذ كحد جنوبى لبلاد الزنج .

وقد اختلف الجغرافيون العرب فى تعيين حدود بلاد الزنج فالمسعودى مثلا وغيره اطلقوا اسم بلاد الزنج على الأراضى جميعاً الكائنة بين مصب الجب ورأس كورينتس* وآدخلوا فى هذه البلاد منطقة سفالية . والبعض الآخر كالأدريسى وابن سعيد كانوا يخرجون منطقة سفالية منها . ولكن لم يعين أحدهم النقطة التى يبتدىء بها هذا الأقليم الأخير .

ومع هذا فما وضحناه بخصوص موقع اليابس يشبه بعض الشىء ماذكره الأدريسى فى وصفه لمنبسة فقد قال ان منبسة كائنة بالقرب من خليج فسيح تقطعه السفن فى

يومين أى مسافة مائة وخمسين ميلا . ولا توجد بشاطئيه مساكن لكثرة الضوارى فيهما ، فلا شك ان مدينة اليابس كانت واقعة خارج هذا الخليج . والخليج الذى ذكره الأدريسى ليس إلا المنحنى الذى يتكون من الشاطىء من ناحية جزيرة واسين* وهو المنحنى الذى ينتهى برأس بونا* والذى يبلغ طوله مائتى ميل تقريباً . وهذا مما يحملنا على البحث عن موقع اليابس فيما يلى هذا الرأس ونعتقد ان زعمنا فى محله .

اما الجبل المعروف باسم عجود* وهو القائم بين هذه المدينة الأخيرة وتهنة* ووصفه الأدريسى بانه يجذب اليه السفن التى تدنو منه ، فيمكن اعتباره رأس دجادو الحالى . وهو رأس عال بعيد الأطراف عن الأرض والتيار من حوله شديد جداً . وقد ظن الشارح هارتمان* ان الأرديسى كان يقصد بكلامه جبلا من جبال المغنطيس التى ينسب اليها الجغرافيون العرب خصية الجذب ، فرأيه لا يخالف مذهبنا . لأن تلك الجبال المنسوبة اليها خصية الجذب المغنطيسى لاتوجد الا حيث يكون التيار شديداً .

غير أن هنالك صعوبة ، فانا إذا فرضنا صحة ماذهبنا اليه من اعتبار ان جبل عجود هو رأس دجادو ، فقد تبقى ان

نعرف ماهو ذلك الخليج الكبير المفروض وجوده بين اليابس وتهنة* والذى يضطر المسافرين الى الحيد عن طريقهم أثناء سيرهم براً بين هاتين النقطتين . وربما كان الأدريسى يقصد بهذا المنحنى خليج مكندانى * وبعض مجاري المياه الكبرى كنهرى لندى* وليفومه اللذين كانت مصباتهما الواسعة تضطر المسافرين الى البحث عن نقط لاتبلغ مجارى النهرين فيها اتساعا عظيما فيعبرونها بسهولة . ولكن هذا التأويل غير حاسم للاشكال .

ومما يستدعى الأسف أن تكون البيانات الواردة فى وصف الأدريسى غير وافية اذ كيف ينسى ذكر مدينة كلوا . وقد كان تأسيسها سابقاً على عصر الأدريسى بمائتى سنة تقريباً . وكانت جزر پمبا وزنجبار ومافيا تابعة لها ، وهو لم يذكر شيئاً من ذلك ؟ ومما يلاحظ على الأدريسى أيضاً نقص بيانه عن مدينة مقدشو فى حين انه ذكر مدينتى مركه وبروه اللتين كانتا تابعتين لمقدشو . وهذا وذاك لما يدل على ان الأدريسى كان جاهلا بحقيقة أفريقيا الشرقية . والظاهر أنه لم يهتم بالاستعلام عن تلك البلاد اهتماما كافيا ، ولو توافرت عنده المسهولة .

ولنبدأ الآن بالكلام على الجزر المذكورة فى الفصل

السابع من مصنف الادريسى . قال : .

« ويقابل بلاد الزنج الساحلية جزاير تسمى جزاير الرانج وهى كثيرة وارضها واسعة وأهلها سمر جدا وكل مايزرع بها من الذرة وقصب السكر وشجر الكافور ولونه اسود . وجزيرة سندره وتكسيرها على ماذكر الف ميل ومائتا ميل وبها مغائص للجوهر وبها أفاويه الطيب ، والتجار يدخلون اليها . ومن جزاير الرانج الواقعة فى هذا الجزء الذى نحن فيه جزيرة الانجبه مدينتها التى يسكن فيها أهل تلك الجزيرة تسمى الانفوجه بلغة أهل الرانج وأهلها اخلاط والغالب عليهم انهم مسلمون فى هذا الوقت وبينها وبين مدينة اليابس من ساحل بلاد الزنج مجرى واحد ودورها أربعماية ميل وأكثر عيشهم من الموز والموز عندهم خمسة الوان ...

« وهذه الجزيرة يقسمها من العرض جبل يسمى جبل وبره وهو جبل منيع يأوى اليه المنقطعون من المدينة وهم هناك خلق كثير وجمع غزير وربما قطعوا طرق المدينة وهم ممتنعون فى اعلى هذا الجبل متحصنون فيه عمن طرقهم من ناحية صاحب الجزيرة وفيهم خفة ونجدة وهم متمكنون من الاسلحة والعدد ولهذه الجزيرة أيضاً عمارات متصلة وقرى

كبيرة فيها مواشيهم ويزرعون بهـا الارز . ويقال انه لما اضطرب أمر الصين بالخوارج وكثر الظلم والتخليط بالهند صير أهل الهند تجاراتهم الى الرانج وغيرها من جزائرها وعاملوا أهلها يأنسون اليهم لعدلهم وحسن معاشرتهم ومعاملتهم وسماحة تجاراتهم فهى كذلك عامرة والمسافر اليها كثير وبالقرب من هذه الجزيرة فى البحر جزيرة صغيرة فيها جبل عالى الذرى لا يصل احد الى أعلاه ولا الى شىء منه لاحراقه كل ماقرب منه وذلك أنه يظهر منه بالنهار دخان عظيم وبالليل نار يتقد ويخرج من اسفله عيون فمنها باردة عذبة ومنها حارة وعامة . وبالقرب من جزيرة الرانج المذكورة جزيرة كرموة وأهلها سود الالوان يسمون بالمؤمنين ولباسهم الأزار والفوط وهم أهل دعارة ونجدة ويحملون السلاح وبها يمشون فى طرقهم وربما ركبوا فى مراكبهم وتعرضوا للسفن فاكلوا متاعها وقطعوا على أهلها ومنعوا من الدخول اليهم الا اقواما بأعيانهم لايخافون عاديتهم وشرهم وبينها وبين ساحل الزنج مجرى ليلة وبينها وبين جزيرة الرانج المساة انفوجه مجرى يوم » اه

ولو تذكر القارىء ماقلناه فيما تقدم عن مصور الأدريسى الذى كانت تتلخص فيه فكرة الجغرافيين

وتنطوى معلوماتهم لذاك العهد فيما يتعلق بالقسم الجنوبى من أفريقيا لاستطاع بالرغم مما وقع من التخليط فى روايته ان يتبين الصواب والخطأ وان يقف على اسباب ذلك التخليط .

ولقد جاء فى وصف الأدريسي وغيره ان القارة الأفريقيه تمتد من ناحية المشرق الى الجنوب الشرقى من بلاد الصين . ويدخل فى هذه المسافة أغلب الجزر الكبيرة الكائنة بين درجتى ٥و١٢ . وهى تلك السالسلة الطويلة من الجزر التى تدخل ضمنها جزيرة مدغشقر وجزاير سونده وملوقه* . وكان فى نظر اولئك الجغرافيين ان كل هذه القارة الهائلة منفصلة عن سواحل بلاد العرب والهند بخليج طويل يبتدىء ببوغاز باب المندب ويمتد الى وسط بحر الصين . وقد اعتبروا هذا الخليج ضيقاً جداً . ولا سيما فى الجزء الكائن به جزيرة مدغشقر والساحل الجنوبى لبلاد الهند . ولذا رأيناهم يعينون موقع ملندة ومنبسة أمام سقطرة وعلى امتداد شاطىء عدن . وبحسب نظريتهم هذه فيما يختص بالشاطىء الشرقى لأفريقيه كانوا يغلطون فى الجزر ويخلطون فيها فيبدلون من بعضها ببعض وكانوا تارة يعتبرون ان بعضها جزء من القارة ، فكانت الأسماء والموقع

الجغرافى والمساحة واللغة والعادات والمحصولات تنسب الى البلاد خطأ فيسند الى بعضها ماهو خاص بغيرها والعكس بالعكس .

ثم ان الادريسى وان لم يذكر بعض جزر بحر الهند فقد ذكر جزر الرانج وعين موقعها والمسافة الفاصلة بينها والساحل . وقد رأيناه يذكر اسم جزيرة كرموه اوسرنده * فلنر الآن هل كرموه المذكورة ليست مدغشقر فى حالة ما اذا لم تكن احدى جزر القمر وهذا اقل احتمال .

اما جزيرة الأنجبة * فان ماوجدناه من التشابه والتطابق بين وصف الأدريسى لها ووصف جزيرة ملغاش * يدعونا الى الحكم بان هذه الجزيرة هى المقصودة بالأسم الأول ولكن لما كان الأدريسى يعتبر الأنجبة على مسافة مجرى واحد من اليابس الكائنة بشاطىء بلاد الزنج فتكون هذه المسافة قريبة جداً من التي بين جزيرة القمر الكبيرة والساحل نفسه . وفضلا عن ذلك فكلمة أنجزيجه وهو اسم هذه الجزيرة بلغة اهلها يختلف قليلا عن كلمة أنفوجه * وهو اهم مدينة فى جزيرة الأنجبه . اما من جهة المساحة فليس هناك أية جامعة للشبه بين مساحة القمر الكبيرة وجزيرة الأنجبه المذكورة فى كتاب الأدريسي . وكذا من جهة

النباتات والمحصولات التى نسبها الأدريسى الى الجزيرة التى ذكرها. ثم إنه لم يذكر فى وصف الأنجبه ذلك البركان الموجود بجزائر القمر ولكن قال إنه موجود بجزيرة أخرى.

ومع ذلك فالأدريسى قد وصف جزيرة سيلان وكذا مدغشقر وجزيرتين او ثلاثا من جزر القمر، فيما عرفه هذا العالم الجغرافى من احوال الزنج وبحرها.

ولقد كانت بيانات الادريسى مبهمة جداً لاتؤذن بتطبيق ماقاله عن جزيرة الرانج على أية جزيرة أخرى. ولقد اجتنبنا البحث فيما جاء بالادريسى عن الجزر الكائنة وراء جزيرة كرمديت* أو كرموه لأنها ليست كائنة ببحر الزنج. أما الجزر التى يسميها الأدريسى بجزر القرود وجزيرة القطربه* أو قعلورية* فليس فى استطاعتنا ان نعين موقعها ولو بالتقريب لعدم انطباق وصفها على الجزائر التى نعرفها فى مياه أفريقيا الشرقية.

والآن نعود الى الأدريسى فيما يختص بسفاليه فقد قال:

« ان هذا الجزء الثامن من الاقليم الاول تضمن بقية من ارض سفاله فيها مدينتان كالقرى وبينهما قرى صغار

ودواوين رحالة كالعرب . فأما المدينتان فهما جنطمة ودندمة وهما على ضفة البحر وهما صغيرتان كالقرى الجامعة وأهلها فى ذاتهم قلة وفى نفسهم أذلة وليس بأيديهم شىء يتصرفون به الا الحديد وذلك ان بلاد سفاله يوجد فى جبالها معادن الحديد الجيد الكثير وأهل الرانج وغيرهم من ساكنى الجزائر المطيفة اليهم يدخلون اليهم ويخرجون من عندهم الى سائر بلاد السند وجزائره فيبيعونه بالثمن الجيد لأن بلاد السند اكثر تصرفهم وتجاراتهم بالحديد ومع ذلك وان كان الحديد موجوداً فى بلاد الهند ومعادنه بها يعنى بلاد سفاله هو اكثر واطيب وارطب لكن الهنديون يحسنون تركيب واخلاط الأدوية التى يسبكون بها الحديد اللين فيعود هندياً منسوباً الى الهند . وبها ديار الضرب للسيوف وصناعهم يجيدونها فضلا على غيرهم من الامم وكذلك الحديد السبتى والشربدنى واليمانى كلها تتفاضل بحسب هواء المكان وجودة الصنعة واحكام السبك والضرب وحسن الصقل والجلاء ولا يوجد شىء من الحديد أمضى من الحديد الهندى وهذا شىء مشهور لايقدر أحد على انكار فضيلته . وبين جنطمة ودندمة مجريان فى البحر وفى البر سبعة أيام وهذه احدى قواعد

سفاله . ويتصل بأرض سفالة ثلاث مـدن احداها تسمى صيونه . وهى متوسطة القدر وأهلها جماعات من أهل الهند والزنوج وغيرهم وهى على ضفة البحر وهذه المدينة على خور تدخله المراكب المسافرة اليها ومنهـا الى مدينة بوخة على الساحل ثلاثة مجار وكذلك من صيونه الى دندمة من أرض سفالة فى جهة الغرب ثلاثة مجار فى البحر وفى البر نحو من عشرين مرحلة بينهما غبا كثيراً ذهباً فى جهـة الجنوب فتعوق عن الطريق المستقيم ومن مدينة بوخة الى جنطمة فى البحر مجرى واحـد وفى البر أربعة أيام وبجميع بلاد سفاله يوجد التبر الذى لايعـدله شىء من التبر فى الطيب والـكثرة والعظم وهم مع هذا يفضلون النحاس على الذهب ومنه حليهم وهـذا التبر الموجود فى أرض سفاله كبير المقدار يشف على غيره لانه يوجد منه فى التبرة ستة مثاقيل ومثقالان واكثر وأقل وعلى قـدر الرمل وهم يسبكونه فى المواطن بنار ارواث البقر ولايحتاجون فيه الى جمع بزيبق ولا غيره ممـا يفعله أهل المغرب وذلك أنهم يؤلفون أجزاء تبرهم ويجمعونه بالزيبق وتبر أبيض سفاله لايحتاج الى ذلك بل ينسبك بلا صنعة تدخله » اهـ

ثم انتقل الادريسى الى جزر روبيهات* وهو اسم

ربما كان يصف به تلك الجزر العديدة الواقعة بين مدغشقر وسرنديب أو الشاطىء الهندى .

ولنكتف بقولنا إننا لم نعثر فى هذا الوصف على شىء ممكن تطابيقه على جزيرة مدغشقر ولنزد على ذلك أن ماذكره الأدريسى من وجود شجر النارجيل بتلك الجزر لاينطبق على جزيرة مدغشقر . ولم يأت به الى هذه الجزيرة الا من مائتى سنة تقريباً . ولا نظن أن جزيرة القمر التى ذكرها الأدريسى يمكن أن تعنى مدغشقر . وسنرى فيما يأتى اذا كان وصف جزيرة القمر التى ذكرها الجغرافيون بعد عهد الأدريسى يغير رأينا .

ولنعد الى ماذكره الأدريسى عن سفالية . قال :

« الجزء التاسع من الاقليم الاول — فنقول ان هذا البحر الهندى جنوبه قطعة من أرض سفاله التى قدمنا ذكرها وقرى وعمارات فنها مدينة جنطمه وهى مدينة صغيرة وبها يوجد التبر كثيراً وهو غلتهم وشغلهم وإياه يطلبون رمنه معائشهم وأكلهم السلاحف البحرية ولحوم الصدف وعندهم الدرة قليلا وهى على خور كبير يدخله المراكب وليس لأهل جنطمة مراكب ولا دواب يتصرفون عليها وانما يتصرفون بأنفسهم ويستخدم بعضهم

بعضاً وأهل القهر (القمر؟) وتجار بلاد الهراج يدخلون اليهم ويجالسونهم ويتحدثون معهم ومن مدينة جنطمة الى دغوطه فى البحر ثلاثة أيام ومنها الى جزيرة القهر مجرى واحد .
ومدينة دغوطة احد بلاد سفالة التبر وهى على خور كبير وأهلها عراة لايستترون بشىء من الثياب لكنهم يتسترون بأيديهم عند التقائهم بالتجار الداخلين اليهم من سائر الجزائر المجاورة لهم ونساؤهم محتجبات لايدخلن الاسواق ولا المحافل لأنهن عراة فهن لذلك يلزمن أمكنتهن اللاتى يأوين اليها وبها مدينتان صغيرتان وساكنها قليل وذلك لضيق عيشها وتكدر رزقها واسم الواحدة منهن دَدُق واسم الثانية نبهنة وبينهما قرية كبيرة تسمى دغوغه وهم سودان قباح الصور ومشوهو الخلقة وكلامهم نوع من الصفير وهم عراة لايستترون بشىء والداخل اليهم قليل وأكلهم الحوت والصدف والسلاحف »

فبناء على الترتيب الذى رتب الأدريسى عليه وصفه وجعله بلاد الواق واق مرتبطة بسفالية نظن أنه جعل سفالية فيما وراء الواق واق . ولكن لنبحث أولا عن بلاد الواق واق فأنا نجد مايحملنا على الاعتقاد بوجود هذه البلاد بين سفالية وزنجبار كما يظهر لك فى التعليل الآتى :

لقد كان الأدريسى الجغرافى العربى الوحيد الذى ذكر مدن هذه البلاد وعين أسماءها فى حين لم يذكرها غيره إلا باعتبار أنها مجموعة جزر . فالمسعودى مثلا ذكر بلاد الواق واق باعتبار انها متاخمة لسفالية وجعل حد بلاد الزنج أرض سفالية وبلاد الواق واق وذكر مايفيد كون هذين البلدين من البلدان الكثيرة الغزيرة موارد الذهب وانهما آخر نقطة وصلت اليها السفن العمانية والسيرافية . ويقول الأدريسى إن اقايم سفالية متاخم لأرض الواق واق . ويؤيد ابن الوردى رواية المؤلفين الآنف ذكرهما بقوله إن سكان سفاليه مجاورون لبلاد الواق واق وان أرض بلاد الزنج تمتد الى سفالية وبلاد الواق واق والذى يلوح لنا أن الجمع بين بلاد الواق واق وأرض سفالية ، كما ورد فى المسعودى وابن الوردي ، كلما أرادا تعيين حدود زنجبار أو نهاية خط الملاحة فى بحر الزنج ، أنهما كانا يظنان كل الظن أن بلاد الواق واق لم تك واقعة بعد سفالية ، وانها لم تك منفصلة عن أرض الزنج بأرض سفالية ، إذ لو كان الأمر بخلاف ذلك لذهبا الى ان بلاد الزنج تمتد الى سفالية . ونقول أيضاً أن ابن سعيد العالم الجغرافى لم يذكر بلداً ما فيما يلى دغوطة التى يعتبر أنها آخر مدينة لبلاد

سفالية . ويقول إن هـذه المدينة واقعة فى جنوب جبل الندامه وشماليه وان السفن لاتقرب منها إلا وتتكسر على صخورها .

« فان زل المركب عن بحر الهند ودخل الى هـذا الخليج وحملته المياه والرياح الى أن يرى هذا الجبل ندم على مافرط فيه من الاحتياط واستسلم للقضاء فأما ان تنكسر عليه واما أن يدخل خلفه فلا يخرج ولا يعلم ماجرى عليه » اهـ . (نقلا عن نسخة ابن سعيـد المحفوظة بدار الـكتب الاهلية بباريس)

فـكيف يستطيع المرء أن يصـل الى مدينة ددق* وياناعانا* ودغدغه* اذا كانت هذه الاخيرة واقعة فيما وزاء دغوطه كما قال الأدريسى .

وتلفت الأنظار الى النقص فى وصف هذين العالمين الجغرافيين للشـاطىء فالأدريسى يقف عنـد تهنة التى يحتمل أن تكون بجوار رأس دلجادو وفى جنوبه والى مدينة دندمه* الواقعة على بعد ثلاثة مجار قبل مصب نهر زمبيز . أما ابن سعيد فـلم يذكر شيئاً ما عن الأرض الـكائنة بين بنينه* وصيونه* وقال إنهما منفصلتان عن بعضهما بمسافة اثنتى عشرة درجة . وهذا مايحملنا على

الاعتقاد بأن هــذه المسافة هى الساحل الـكائن بين نقطه واقعة فى شمال رأس دلجادو ومصب نهر زمبيز .

ومن جملة هذه الاعتبارات يمكن أن يوخذ أن بلاد الواق واق ربمـا كانت واقعة فى المنطقة التى أشرنا اليها ولاحظ جيان المؤلف أنه توجد وراء موسامبيق وشمالها أى بالأراضى الـكائنة بين هذه الجزيرة ورأس دلجادو وعلى عهدنا الحاضر أمة كبيرة معروفة باسم ماقوا* مفرد واقوا أو واماقوا وهذه التسمية تقرب كثيراً فى لفظها من كلمة الواق واق الخ .

هــذا اذا كان ماقاله الأدريسى والسعودى وابن الوردي يفيــد أن هؤلاء المؤلفين الثلاثة يريدون بأرض الواق واق جزءاً من القارة الأفريقية .

ولمـا كان الأدريسى لم يبين موقع مدن هذه البلاد بوجه ما فقد أصبح ميسورا لنا القول بأن موقعها الحالى هو على شاطىء موسامبيق .

وسنرى الآن ماالذى نستطيع أن نستخرجه من قوله عن بلاذ سفاليه .

يقول الادريسى إن احدى المدن الشهيرة فى سفاليه هى دندمه وثلاث مــدن أخرى كانت على حدود هذه

البلاد إحداها صيونة . ففى المسألة قولان ، قول جوبير فى ترجمته للأدريسى أن هذه المدينة واقعة على خليج كبير تقصد السفن الأجنبيـة اليه ، وقول هارتمان فى ترجمته للأدريسى نفسه أنها واقعة على ساحل البحر عند مصب نهر كبير تدخله السفن التي تقصد الى المدينة . والى القارىء عبارة الأدريسى بنصها :

« ويتصل بأرض سفالة ثلاث مدن احداها تسمى صيونة وهذه المدينة على خليج تدخله المراكب المسافرة اليها »

ونحن لاندرى أى التعبيرين أكثر انطباقاً على الاصل العربى ولكن اذا صح قول هرتمان فالنهر المذكور يكون نهر الزمبيز أو احد فروعه وفى هذه الحالة تكون صيونة أصل سينا * البعيدة بثلاثين فرسخاً تقريباً عن ساحل البحر ، وبثمانية عشر فرسخاً عن رأس الدلتا المتكونة من الفرعين الأصليين لهذا النهر . فأذا سلمنا بما سبق بيانه أمكننا أن نفرض ان جنطمـة * كائنة على مصب نهر ليكونجو * وعليه فيكون موقع دندمه بالتقريب فى المكان الحالى لمدينة كليمانى * ثم بوخة * بالقرب من الشاطىء حيث يصب نهر الزمبيز وهذه النقطة هى المعروفة الآن باسم

لوابو* .

ولـكن هذه الفروض كلها ليست صحيحة حتما لأن شكل الشاطىء تغير منذ العهد الذى صنف الأدريسى فيه مؤلفه ولأن مدنا كانت واقعة وقتئذ على الشاطىء توجد الآن بداخل الدلتا أو فى السهول ذات المستنقعات التي هى فى الوقت الحاضر جزء من سواحل تلك البلاد .

أما فيما يختص بمدينة جبسطه* التى أشار الأدريسى الى مقادير الذهب التى كانت ترد عليها وانها واقعة على خليج كبير ، وبما قاله عن حالة أهلها وتجارتها البحرية فبالامكان تعيين موقعها على وجه التقريب بأنه فى الجهة التى وجد البرتقاليون فيها سوق سفاليه العظيم .

فنى العهد الذى صنف الأدريسى فيه مصنفه كان تجار العرب من أهل مقدشو يقصدون سفالية وكانت آنئذ تحت سيادة سلطان كلوا كما سبق لنا بيانه فى تاريخ سلاطين كلوا . وبما أن مدينة دغوطه كانت معتبرة كأنها واقعة على مسيرة ثلاثة أيام وثلاث ليال من جبسطه فيجب أن نبحث عن موقعها حول رأس كورياتتس الحالية وربما كانت فى الخليج الـكائنة به فى وقتنا هذا مدينة إنهمبانى*

ولـكن قولنا هذا لايعدو ان يكون إلا فرضا من

الفروض وانما نريد القرب ماأمكن من الحقيقه بتقريب بيانات الأدريسى اليها ومقارنتها بها

ويتلخص هذا البحث كله فى النتيجة الآتية وهى أن فى وصف المسعودى ترجيحاً على وصف الأدريسى من جهة ماأحاط علمنا به عن تجارة بعض الجهات وعاداتها وصناعاتها ثم من جهة تعيينه مواقع مركه وبروه وملنده ومنبسه فى القرن الثانى عشر من الميلاد .

وفى أوائل القرن الثالث عشر صنف ياقوت الحموى كتاباً باللغة العربية* وكان رحالة وتاجراً ، وكان مصنفه هـذا معجما فى تخطيط البلدان أسماه معجم البلدان ويعتبره العارفون من أهم ماصنفه العرب فى هذا الموضوع . وقد وجدنا به أسماء مدن مقدشو والجب وكلوا التي لم يذكرها علماء تخطيط البلدان المتقدمون على عهد ياقوت .

قال ياقوت فى معجمه : « مقدشو، بالفتح ثم السكون وفتح الدال وشين معجمة ، مدينـة فى أول بلاد الزنج فى جنوب اليمن فى بر البربر فى وسط بلادهم وهؤلاء البربر غير البربر الذين هم بالمغرب . هؤلاء سود يشبهون الزنوج جنس متوسط بين الحبش والزنوج وهى مدينة على ساحل البحر وأهلهـا كلهم غرباء ليسوا بسودان ولا ملك لهم انما يدبر

أمورهم المتقدمون على اصطلاح لهم واذا قصدهم التاجر لا بد له من أن ينزل على واحـد منهم ويستجير به فيقوم بأمره ومنها يجلب الصندل والآبنوس والعنبر والعاج هذا أكثر أمتعتهم وقد يكون عندهم غير ذلك مجلوباً اليهم »

وقال ياقوت عن الجب انها « مدينة قرب بلاد الزنج فى أرض بربره يجلب منها الزرافة وجلودها يتخذها أهل فارس تعالا » اهـ .

وقال عن كلوا وكتبها كلوه : « موضع بأرض الزنج مدينه » اهـ .

أما النقط الأخرى الكائنة على الشاطىء الأفريقى الشرقى ، تلك الجهات التى توجد أسماؤها بمعجم ياقوت فلم يزد هـذا شيئاً عنهـا على ماورد بكتاب الأدريسى وانما يلاحظ أنه وصف سفاليه باعتبار كونها مدينة والحال أنها بلد أو قطر كما وصفها به من سبقوه . قال ياقوت : « ان سفالية هى أقصى مدينة فى بلاد الزنج » ولنضف الى قوله هذا أنه ذكر جزيرة القمر فقال (وهو منقول عن معجم البلدان) : « والقمر أيضاً جزيرة فى وسط بحر الزنج ليس فى ذلك البحر جزيرة أكبر منها فيها عدة مدن وملوك كل واحـد يخالف الآخر يوجد فى سواحلها العنبر وورق

القمارى . وهو طيب يسمونه ورق التانبل وليس به ويجلب منها الشمع أيضاً » اهـ .

فنحن نرى أن القليل من الوصف الذى جاء به لذو أهميــة من جهة الواقع وربما كان سبب ذلك صلة الــكاتب برؤساء عمان وتجارها .

وجاء من بعد ياقوت ابن سعيد ، وهو مؤلف جغرافى صنف كتابه فى منتصف القرن الثـالث عشر ومن مصنفاته الــكتاب الموسوم بتخطيط البلدان نبحث الآن فيما أورده فيه عن سواحل شرق أفريقيا مع رعاية ترتيب البلدان بحسب تسلسلها ووضعها الجغرافى أى مبتدئين من الشمال الى الجنوب . ولبيان اغلاطه نورد ما ارتآه العلامة رينو* فى ذلك الوصف .

قال رينو : « ان ابن سعيد يصف الشاطىء الشرقى لأفريقيا وصفا يتناول رأس الرجاء الصالح . وقصته الجديرة بالتفات الجغرافيين اليها والتى توقفنا على بيانات جديدة عن النوع الملابى* لاتخطىء الا فى نقطتين . احداهما ان ابن سعيد لاستناده على نظرية بطليموس الفالوذى كان يعتقد أن القــارة الأفريقية تنحدر الى الشرق بدل انحدارها الى الغرب فيما يلى خط الاستواء ببضع درجات وكان من جهة

أخرى يعتقد ان جزيرة مدغشقر هى جزر سيشل وأنها تمتد جنوبى سيلان وأنها تحتوى جزءاً من سومطره* وجاوه*. فكان يظن ان هذا المجموع تتألف من جزيرة القمر أو مالاى*. وكان يذهب الى ان جزيرة القمر تصل الى المحيط الذى يسميه الأدريسى بالبحر الراتنجى وكان يسميه ابن سعيد بالبحر الأسود وكان يظن فوق هذا وذالك ان مضيق موسامبيق ينحدر الى الجنوب الشرقى بدلا منه الى الجنوب الغربى وذلك بين القارة الأفريقية وجزيرة القمر وانه لاينتهى الا فى البحر المحيط. وهذا المذهب يفضى الى اعتبار ان رأس الرجاء الصالح كائن بالجنوب الشرقى من الصين ».

ولتنتقل الآن الى وصف ابن سعيد فقد قال :

« الجزء الأول، الفصل الرابع (الذى يقول المؤلف فيه بعد الكلام على المدن والأنهار والجبال الكائنة بالجزء المسكون جنوبى خط الاستواء).

« وبربره قاعدة البرابر التى ذكر امرؤ القيس خيلهم ورقيقهم مستحسنا وقد أسلم اكثرهم (فلذلك عدوا فى بلاد الاسلام) وهذه المدينة حيث الطول ثمان وستون درجة والعرض ستة ونصف ونيل مقدشو لايزال يصعد

فى هذا الجزء حتى الى عرض إحدى عشرة درجة حيث الطول ستة وستون ثم ينحدر على شرقى بربرا ويبقى بينها وبينه نحو درجة ثم ينحدر على شرقى مقدشو وفى هذا الجزء من مدن بربرا وهى اول مدنهم على ساحل البحر الهندى فرفونه (هكذا) وموضعها على جون فى اول ركن البحر حيث الطول أربع وستون درجة وثلاثون دقيقة والعرض عشرون دقيقة وشرقها من مدنهم على جون مرتفع برمه (هكذا) حيث الطول ست وستون درجة والعرض درجة وفى شرقيها حافونى الجبل المشهور عند المسافرين يظهر داخلا فى البر جنوبا نحو مائة ميل ويدخل فى البحر نحو مائة وأربعين أخذ الشمال بتعريج للشرق وفى الظاهر منه سبعة رؤوس تعدها المسافرون على بعد ويطوون البشارة اذا جاوزوها وخاصوا من هذا الطرف .

« وفى شرقيه من بلاد بربرا المشهور على البحر مركه حيث الطول تسع وستون درجة وثلاثون دقيقة والعرض درجة وعشر دقايق واهلها مسلمون وهى قاعدة الهاوية التى تنيف على خمسين قرية وهى على شاطىء نهر يخرج من نيل مقدشو ويصب على مرحلتين من المدينة وشرقيها ومنه فرع يكون خوراً لمركة وفى شرق ذلك مدينة الاسلام

المشهورة فى ذلك الصقع المترددة الذكر على ألسن المسافرين وهى مقدشو حيث الطول اثنتان وسبعون درجة والعرض درجتان وهو على بحر الهند ومرساها غير مأمون فى الانواء .

« الجزء الخامس فى أوله على اثنتى عشرة دقيقة من الجزء الرابع وعرض درجتين مصب نيل مقدشو وهو عابر على ارضها يبقى بينها وبينه نحو اثنى عشر ميلا ويصب فى بحر الهند وهو فى رأى العين أقل من نيل مصر بالقرب من مقدشو ولكنه عميق ويخرج منه ماء يضعف ماءه .

« قال ابن فاطمة ، وخروج هذا النيل من بحيرة كورا* تحت خط الاستواء من جبل المقسم لنيل مصر وذلك عند طول احدى وخمسين درجة وخمسين درجة وعرض نصف درجة فى الاقليم الاول وهو معوجا ومستقيما يخرج منه من الانهار ماتصير به تلك الجهات كالديار المصرية فى السكر والموز وكالهند فى المقل والنارجيل والفوفل منه يسقى ذلك وغيره وهم يزرعون مرتين عليه وعلى المطر ويصب بالقرب من مقدشو فى شرقيها ويكون طوله نحو ألفى ميل وفى شرقى هذا النيل آخر حد البلاد البربرية وأول حد بلاد الزنج » اهـ

ونحن نجد فى الوصف الذى ذكرناه نقطا كثيرة ورد ذكرها فى مؤلف الأدريسى . دع وصف مدينة مقدشو. ولكن اذا كانت رواية ابن سعيد عن موقع قرفونه وبرمه فلست اشك فى ان ماذكره الأدريسى باسم ترمة لايضاد نظريته التى لم تكن فى نظرنا سوى نظرية جديدة لأن خطوط الطول والعرض التى ذكرها ابن سعيد بدلا من أن تجعلنا نصحح غلطات الأدريسى تزيد الأمر غموضاً وإشكالا اذا اعتمدنا عليها وأخذنا بها وما هى الا خطأ لايصح الرجوع اليه ولا الاعتماد عليه .فى بيان المواقع المنسوبة الى بعض الأماكن ولننظر الآن ماذا يمكننا أن نستنتجه منها .

إن النقطة الأولى التى يبدأ بها ابن سعيد هى بربره قاعدة بلاد البربر وبعدها قرفونه وهى مدينة أخرى بأرض البربر ومعين وجودها فى خليج كائن فى ابتداء بحر الهند أى فى النقطة التى يتغير فيها اسم البحر ويسمى ببحر بربره . فبناء على هذا يظهر ان قرفونه واقعة بجوار رأس جردفون. ولكنا إذا اعتبرنا ماقيل عن موقع بربرة وقرفونة فان موقع المدينة الأخيره يكون بالتقريب جنوب بربره وعلى بعد أربعمائة وعشرين ميلا منها وعلى درجة ثلاثين غربيها ومع

ذلك فاذا لم يمكن تطبيق ماجاء فى وصف قرفونة من حيث الطبيعة على نقطة بجوار جردفون فان الخلاف لا يكون من جهة المسافة المعينة إذ ان المسافة بين بربره وجردفون أربعمائة ميل وبضعة أميال . إذن نعتبر ان قرفونه هى نقطة كائنة بالقرب من رأس الاسير أو جردفون . ثم باستمرارنا على خطة ابن سعيد ، وإنما باتجاه الى المغرب لا الى المشرق كما قال ، نجد ان برمة أو برما هى احدى النقط الكائنة بين جردفون وخاقونى وفيما وراء شبه الجزيرة هذه نفرض وجود مركه التى سكانها مسلمون (وهذا مالم يذكره لنا الأدريسى) وهى عاصمة بلاد الهاوية . ويظهر لنا ان هذين الوضعين المنسوبين الى مركه واقعيان ومنطبقان على مااستطعنا الحصول عليه من المعلومات فى أثناء وجودنا بها . أما قول ابن سعيد انها كائنة على نهر يتفرع من نيل مقدشو فقد أمعن ابن سعيد فى الخطأ فى ذلك أكثر من الأدريسى إذ زعم الأدريسى ان مركه على مسيرة يومين من النهر فبالغ فى المسافة وأخطأ ابن سعيد بالعكس اذ اعتبر ان المدينة قريبة جداً من النهر . اما مايختص بالنهر نفسه فقد أصاب الأدريسى فى قوله ماقال عنه واخطأ ابن سعيد فى وصفه كل الخطأ . ونحن نعلم ان النهر الذى يجرى فيما

وراء مدينة مركه ليس فرعاً من النهر الذى سماه العرب بنيل مقدشو . وانما هو هذا النهر بعينه . وليس هذا النهر نيل مصر . كما أنه لايتصل على مانعلم بالبحر عند مقدشو ولا فى جهات مروره خلف مدينة مركة ونعلم أيضاً أن مياهه تتبدد أى تتسرب الى الرمال على مدى أربعين فرسخاً فى الجهة الجنوبية الغربية لمدينة مركه .

وذكر ابن سعيد موقع مركه مع بيان خطوط الطول والعرض . ومما هو جدير بالذكر ان درجات العرض لاتختلف عن الحقيقة إلا بمقدار ٣٢ دقيقة . أما تقديره للخطوط الطولية فلا نستطيع أن نقول شيئاً عنه لأننا لاندرى فى أية نقطة جعل جغرافيو العرب الخط الأول للزوال الوسطى ، ولكن باستطاعتنا اذا قارنا جملة من خطوط الطول بعضها ببعض أن نحكم بصحتها على وجه خاص ، فنتيجة مثل هذه المقارنة فيما يختص بمركه ومقدشو اللتين يختلف خط زوال احداهما عن خط زوال الاخرى بمقدار ٣١ دقيقة مما يجعلنا نرى أنها كانت تختلف فى نظر ابن سعيد بمقدار ٣٠َ ٢ْ وهذا بالنظر الى قرب النقطتين احداهما من الاخرى حتى مع ملاحظة نقص الوسائط التى كانت تستعمل وقتئذ لتعيين خطوط الطول ، لأن هذا

التقدير كان قائماً بوجه عام على المسافة التى كان يقطعها المسافر والاتجاه الذى كان يتوخاه الوصول من نقطة الى أخرى . والحقيقة أن المسافة الفاصلة بين مقدشو ومركه ليست الا اثنى عشر أو أربعة عشر فرسخاً . ولا ينحصر غلط ابن سعيد فى تقدير المسافات فحسب فقد أخطأ خطأ فادحا فى تعيينه مواقع الجهات . مثال ذلك أنك بالجهة الساحلية التى كان ماقاله عنها يطابق الصواب لو ذكر أنها متجهة الى الشرق تراه يعتبر موقع المدينة البحرية قرفونة على أربعمائة وعشرين ميلا فى الجنوب الغربى لبربره بانحدار ربع درجة الى الجنوب ومدينة برمه على ثلثمائة واربعين ميلا فى الجنوب الغربى من المدينة المذكورة . وبسيره على هذه الخطة المنحرفة عن الصواب من جهة الترتيب تجده يجعل موقع مركة قبل مقدشو حتى مع تعيينه لهذه المدينة خطاً شمالياً يجعلها فى شمال مركة وكذا خطاً طولياً يبالغ فى جعله شرقى مركة . وهذا برهان على أنه كان قد تحصل على معلومات من نوتية السفن عن الموقع الخاص بهاتين النقطتين . ولا بد أن يكون هؤلاء قد أوقفوه على حقيقة ترتيب الشاطىء وكذا انحداره الى الجنوب الغربى .

ولا شك فى أن ربابنة السفن الذين أوغلوا فى بحر

الهند كانوا لايجهلون ذلك ولــكن يظهر ان ابن سعيد كان موقنا بصحة طريقته فلم يدرك أن مدينة مقدشو اذا كان موقعها شرقى مركه فانه يترتب على هذا الاعتبار أن تكون متقدمة الى البحر قبل مركة .

وللاختصار نقول إن مدينة مقدشو وان لم تذكر إلا بالاسم فى وصف ابن سعيد فان طريقته فى الـكلام عليها تكفى لاقناعنا بأنه فى العهد الذى كان هذا الرحالة يصنف فيه كتابه كانت هذه المدينة ذات أهمية .

ولنزد على ماتقدم أن ابن سعيد قد ذكر ضمنا مدينتى النجا وبدونه كما ذكر الأدريسى مدينة مقدشو فلم يقل عنهما شيئاً والآن نرجع الى وصف مدينة ابن سعيد فقد قال :

« ويكون فى هــذا الجزء الخامس من مدن الزنج المشهورة ملندة حيث الطول احــدى وثمانون درجــة ونصف درجة والعرض درجتان ونصف درجة وعشرون دقيقة على جون وفى غربيها خور كبير ينزل اليه نهر من جبل القمر وعلى شاطىء هذا الخور عمائر كبيرة للزنج وفى الجنوب عمائر القمر وفى شرقى ملنــدة الحرانى وهو جبل مشهور عنــد المسافرين يدخل البحر نحو مائة ميل آخذاً

للشمال بتشريق ويظهر فى البر آخذا نحو الجنوب مستقيما نحو خمسين ميلا ومن غرائبه ان ما فى البر منه فيه معدن حديد يعم بلاد الزنج ويسافر به الى غيرها وما فى البحر منه حجر المغناطيس الجاذب للحديد وفى هذه المدينة شجرة الزنج (الزنجبيل ؟) وسكنى ملكهم فى مدينة منبسة وبينها نحو درجة وهى على البحر وفى غربيها خور كبير تدخله المراكب نحو يومين فتمتد نحو ثلثمائة ميل وفى هذا الجزء والمفازة التى بين الزنج وسفاله . . . »

(نقلا عن النسخة المحفوظة بدار الكتب الاهلية بباريس)

فلم نعثر فى الوصف السابق على ماوجدناه فى كتاب الأدريسى من وصف بروه وبدونة بل فقط على مدينتى ملندة ومنبسة فأنهما هما المذكورتان فيه وعلى شىء من أرض السواحل الواقعة قبلهما وبعدهما . وفضلا عن الغلطات السابقة الذكر فأن بامكاننا أن نذكر أيضاً الخليج الوشيك الوجود غربى مانده وهو خليج فرموزه * الذى يصب فيه نهر الأورى أو العوزى * . وأما جبل الحرانى الذي فرض وجوده شرقى ملنده أى خلفه أو فى الجهة الجنوبية الغربية فاذا نظرنا الى حالة الأرض الطبيعية فانا نجد ماقاله ابن

سعيد شبيهاً بهـذا الجزء اشارة الى الأراضى المرتفعة التى كانت تبتدىء من وراء منبسة فى النقطة المعروفة بجبال راباى* والتى تصل بجـوار البحر الى قرب جزيرة پمبا . ويؤكد الناس أن فى تلك الجبال معادن مختلفة ليس الحديد احدها . أماجزء جبل الحرانى الداخل فى البحر بمسافة مائة ميل ومعادنه المغنطيسية فليس هـذا الا حديث خرافة ابتكره ابن سعيـد . ولننقل أيضاً عن ذلك الملك الزنجى الذى ذكر ابن سعيد أنه مقيم بمنبسة أن الظاهر أنه شيخ تلك المدينـة وأنه كان يشاطر السيادة على بلاد الزنج مع رؤساء المراكز العربيـة الأخرى التى أسسها المهاجرون المسلمون على اختلاف أصولهم ممن سبق ذكرهم ، ولكن يستنتج من رواية ابن سعيد أن شيخ منبسة كان ذا شوكة فى ذاك العهـد وان المدينة كانت مدينه ذات شأن .

أما الخليج الواقع غربى منبسة وهو الذى تمخر فيه السفن يومين والذى يبلغ طوله أكثر من ثلثمائة ميل فهو الذى ذكره الأدريسى وفصلنا خبره فيما سبق وان كان يجب على ابن سعيد أن يقول عنه إنه واقع شرقى منبسة ليكون بهذا القول قد عين له الموقع الذى يشغله بالنسبة الى طبيعة الشاطىء ، ولكن من المحتمل أن يكون الملاحون قد

ذكروا له أنه فى الغرب فصدق قولهم فسجل ماقيل له دون أدنى ترو ولا تمحيص ، بل دون أن يلاحظ كيف يمكن وجود هذا الخليج الذى يبلغ طوله أكثر من ثلثمائة ميل بين منبسة وملنده أى المدينتين اللتين لاتبعدان عن بعضها الا بمسافة درجة واحدة بحسب قوله .

أما الصحراء التى تفصل بلاد الزنج عن سفالية فلا يمكن أن تكون فى نظرنا سوى أرض فسيحة لم يكن يدرى ابن سعيد عنها فتيلا ولكننا نتساءل لماذا لم يذكر ابن سعيد (وقد نقل كثيراً عن الأدريسى) قريتى اليابس وتهنة اللهم الا إذا كانت مدينة بنينة هى مدينة البانس وهذا ماسنحققه فيما يلى .

قال ابن سعيد وذلك بعد أن ذكر الصحراء التى يزعم وجودها بين بلاد الزنج وسفالية :

« ومن مدن سفاله بتينة (بنينة ؟) وهى ذيل جون عظيم يدخل فى البر من خط الاستواء أربع درجات وعرض رأسه بالتدوير درجتان والمدينة حيث الطول سبع وثمانون درجة وعشر دقائق والعرض درجتان ونصف وفى غربيها داخلا للشمال والمشرق عجرد ، وهو جبل طوله فى البحر نحو مائة ميل وللموج فيه أصوات هايله وهو يجتذب

لنفسه ماقاربه والمسافرون يأخذون حذرهم منه ولهذه المدينة خور طويل يصب فيها نهر يأتيه من جبل القمر وهو فى شرقيها ويكون طول الخور والنهر شهراً وعليه الغياض والعمائر .

« الجزء السادس فيه على البحر الهندى عمائر السفاليين ومالم يشتهر من مدنهم الى أن يكون عليه قاعدتهم وهى صيونه حيث الطول تسع وتسعون والعرض درجتان ونصف وهى على خور كبير ينزل منه نهر من جبل القمر الى غربيها فى جون كبير هى فى شرقيه طوله من خط الاستواء خمس درجات ونصف وفى هذه المدينة ملك السفاليين وهم والزنج يعبدون الاوثان والحجارة التى يصبون عليها دهن السمك الكبار . وأكثر معائشهم من الذهب والحديد ولباسهم جلود النمور ، والخيل لاتعيش عندهم فعسكرهم رجالة . وذكر المسعودى ان الزنج يقاتلون على البقر كما تقاتل النوبة على المهارى . ومن شرق هذه المدينة يدخل خليج القمر من بحر الهند الى اقصى العمارة فى الجنوب واتساعه هنالك نحو مائتي ميل وعلى هذا النوع وما قاربه يمر كالقوس الى الجنوب والمشرق الى ان يغرب فى جبل الندامة الذى يأتى ذكره . ومن شرق صيونه جبل الملطم وهو كبير يمتد مع

ساحل الخليج نحو مائتى ميل وستين ميلا كثيراً مايلطم المراكب التي تخرم بها الريح الشمالية فيه فالمسافرون يتحفظون منه فأن شرقوا عنه فقد خاصوا وان دخلوا فى الخليج جنوبا احتالوا فى ان يخرجوا بالريح الجنوبية ليلا تحملهم المياه والرياح الى جبل الندامة فيهلكوا » اه

والآن نأتى على ذكر الجزء التالى لكى نتمم وصف سفالة وأفريقيا الشرقية :

« الجزء السابع ، فيه ينتهى بر السودان المتصل من أقصى المغرب الى جبل الندامة ثم يكون البحر عامراً لما فى شرقهم بطول جزيرة القمر واول جبل الندامة اول هذا الجزء حيث الطول مائة وثمانون درجة ودقيقة ويقال ان علوه فى البحر نحو ثلثة أيام وهو ممزوج بالغبرة والحمرة ويمتد مع أول العمارة حيث العرض ست عشرة درجة نحو عشرين يوما ويكون منه مع البحر نحو أربعة عشر يوما وآخره حيث الطول مائة وسبع عشرة درجة ونصف والبحر المحيط الداخل من الشرق والجنوب يصوب فى ركنه الجنوبى وفى شماليه خليج الممر فأن زل المراكب عن بحر الهند دخل الى هذا الخليج وحملته المياه والرياح الى الم يرى هذا الجبل ندم على مافرط فيه من الاحتياط واستسن

للقضاء فأما ان تكسر عليه واما ان يدخل خلفه فلا يخرج
له خبر ولا يعلم ما جرى عليه . ويقال إن هنالك دردورات
لا تزال تدور بالمركب حتى تغرقه ويسمى المسافرون فى بحر
الهند ذلك المكان بحر الخراب وبحر سهيل ، لأنهم اذا
وصلوا اليه رأوا سهيلا مقارنا لرؤوسهم وتحت هذا الجبل
من شماليه على خليج القمر مدينة دغوطه وهى آخر مدن
سفالة وآخر العمارة فى البر المتصل الى هذا البحر وهى حيث
الطول ماية وتسع درجات والعرض اثنتان وعشر درجات
ولها من شماليها خور ينزل من نهر من جبل القمر ويقال ان
منبعه مشارك لمنبع نهر صيونه » اﻫ .

قد شاهدنا ان اليابس وبنينة كائنتان وراء خليج كبير
وبقرب جبل يسميه أحد الجغرافيين عجود والثانى عجرد .
فأذا حسبنا الست الدرجات الطولية التى يقدر بها ابن سعيد
المسافة الفاصلة بين منبسة وبنينة واعتبرناها عرضية أى
طبقناها على حالة الشاطىء الطبيعية تكون بنينة واقعة حيث
توجد كلوا أوكلوه ، أى حيث ظننا موقع مدينة اليابس
التى جاء ذكرها فى مؤلف الأدريسى . أما منتهى جبل
عجود الممتد فى البحر الى الشمال الشرقى بمسافة مائة ميل فهو
رأس دلجادو . وقد ينطبق عليه مايرويه ابن سعيد من أن

أمواج البحر تنفجر على صخوره وكذا جاذبيته للسفن . ومما يمكن توجيهه من الاعتراض على زعمنا هـذا هو أن الأدريسى يعتبر اليابس ببلاد الزنج فى حين أن بن سعيد يعتبر موقعها بأرض سفالية . ولكن هـذا الاعتراض لا أهمية له فى نظرنا ، أفلا يظهر من الغلطات التى لاحظناها أن ابن سعيد اعتبر بلاد سفالية ممتدة الى الشمال كثيراً أو أن الأدريسى اعتبر بلاد الزنج ممتدة الى الجنوب أكثر مما هى فى الواقع بحيث أن احدهما اعتبر وقوع النقطة التى ذكرها فى منطقة لم تك هى واقعة بها ؟ وهذه الغلطة تنسب الى ابن سعيد خصوصاً لأنه بعد إذ ذكر فى نهاية الفصل الخامس مدينة بنينة باعتبار كونها من مدن سفالية ، قال فى الفصل السادس وذلك فى الكلام على مساكن سكان سفالية الكائنة على بحر الهند انه لا توجد مدينة أخرى قبل عاصمتهم المسماة صيونة إذا لم تك بنينة من مدن سفالية .

وهناك صعوبة أخرى وهى : إذا فرضنا أن هاتين المدينتين أو أن هذه المدينة وحدها كانت موجودة بالقرب من مدينة كلوا التى كانت أهم منها من كل الوجوه فلا بد أن يكون الأدريسى وابن سعيد قد ذكرا هذه المدينة الأخيرة ومع ذلك فانهما لم يقولا عنها كلمة إلا إذا فرضنا

فرضاً آخر ، وهو أن حقيقه الثلاثة الاسماء اسم واحد . وليس هذا الفرض بمستحيل لأننا نعلم أن لبعض جهات أفريقيا الشرقية اسماء عديدة . وأن الأسماء التي كانت تسمى العرب بها الجهات كانت غير التى كان يسميها بها أهلها . وأن العرب كانوا يطلقون اسم الجزيرة الخضراء على زنجبار ، حالة كون أهلها يسمونها الأنجبة ولذا يحتمل أن يكون الأمر كذلك بالنسبة الى كلوا . ولو أننا لانستطيع القول بأن فرضنا هذا صحيح فأنا نجده أكثر احتمالا من الرضى بسكوت الأدريسى وابن سعيد على هذه المدينة الأخيرة التى كانت عظيمة الأهمية وقلما كانا يؤلفان مصنفيهما . وبما أننا نعتبر قولنا هذا حلا لمسألة بنينة فلنعد الى البحث فى جهات سفاليه التى يتكلم ابن سعيد عنها .

إذا قسنا على الخريطة الاثنتى عشرة درجة التى يقول ابن سعيد أنها المسافة الفاصلة بين بنينة وصيونة فأن النقطة التى نصل اليها تكون رأس الدلتا لنهر زمبيزة* ، فلو فرضنا فى هذه الحالة أن مدينة صيونه كانت هنا لكانت واقعة على خليج كبير هو الذى يبتدىء فيما وراء جزائر أنجوكس* وينتهى عند جزر بازاروت* وهو خليج يصب فيه نهر يجرى غربى المدينة أى نهر الزمبيز ، وهو النهر المفروض

نزوله من جبال القمر (ومعلوم أن نهر زمبيز يمتد فى داخل البلاد حتى يصل الى سلسلة من الجبال مجاوره لبحيرة نيانزا الكبيره) .

ومع أن الجغرافيين العرب لم يدققوا فى وصفهم ولم نعلم عنهم بمواقع الجهات على وجه الضبط ولكن لابد أن تكون مدينة صيونه بناء على ماجاء فى وصفهم على الضفة اليمنى من النهر وقبل مصبه بقليل . وربما كانت مدينة سينا التى ذكرها الأدريسى هى المقصودة باسم صيونه الآنفة الذكر .

وكما لم يذكر ابن سعيد شيئاً ما عن مدينتى جنطمة ودندمة فأنه لم يذكر أيضاً فيما وراء عاصمة سفالية لامدينة بوخة* ولاجسته بل اكتفى بذكر مدينة دغوطه وقد اتفق مع الأدريسى على اعتبارها آخر مدينة لبلاد سفالية .

أما بلاد الواقواق التى اعتبرها المؤلف المومأ اليه واقعة فيما وراء دغوطه فأن ابن سعيد لم يذكرها إذ كان يعتقد ان دغوطه كانت آخر نقطة معمورة فى تلك الجهات .

أما موقع مدينة دغوطة فرأى ابن سعيد فيه يؤيد رأينا فيما قلناه عن وصف الادريسى أى أنها تقع بالقرب من رأس كيوريانتس المالية وفى شماله لأن جزء الشاطىء

الكائن بين سفالية وهذا الرأس يظهر لنا جلياً بمساحته وبما يحتويه من عروق الذهب المنبثة فى الأرض إذ أن ابن سعيد يعتبر أن جبل الملطم يبتدىء شرق صيونة ويمتد بطول القناة على مسافة مائتين وستين ميلا تقريباً ويجذب السفن التي تقذف بها ريح الشمال الى تلك الجهات . فأذاصح ماقلناه عن جبل الملطم فان رأس كوريانتس تكون ابتداء جبل الندامة حيث تنتهى قناة القمة * وهو الجبل الموصوف بان جزءه الجنوبى يحده المحيط والذى كان نوتية العرب يرون أن الملاحة غير ميسورة بعده وأنهم ان فعلوا ذلك تحطمت سفنهم على الشاطىء أو ابتلعتهادردورات بحر الخراب .

يظهر لنا مما سبق أن جغرافية ابن سعيد وكذا جغرافية الأدريسى تقفان عند رأس كوريانتس ومع ذلك ففى مصنفيهما متناقضات خطيرة . فأنا وان تكن المدة الفاصلة لزمنى المؤلفين لاتتجاوز قرناً واحداً مع أن ابن سعيد قد استمد بكثير من أقوال الأدريسى نرى أن ابن سعيد لايذكر عن مدن اقليم سفالية التى ذكرها الأدريسى سوى صيونة ودغوطة . ثم ان هنالك نقصين وتحريفا فى الأسماء وقع فى تأليف ابن سعيد فيما يخص

بربرة وبلاد الزنج . فهل ننسب هـذا الخلاف الى التغيير الذى حصل للشاطىء فى مدة قرن من الزمن بين عهدى العالمين الجغرافيين المذكورين ؟

فأذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يوضح لنا ابن سعيد سبب الزيادة والنقصان فى روايته ؟ لأننا اذا راجعنا الجزر المذكورة فى تأليف ابن سعيد والمفروض وجودها فى بحر أفريقيا الشرقية فانا نجد أولا جزيرة القمر وقـد ابتدأ المؤلف بالكلام عليها فى الفصل السادس من الجزء الأول وهو الفصل الذى يبحث فيه عن البلاد المسكونة فيما يلى خط الأستواء . وهاك ماقاله عن هذه الجزيرة :

« ومن مدن جزيرة القمر الطويلة والعريضة التى يقال أن طولها أربعة أشهر وعرض الواسع منها ينيف على عشرين يوماً ليرانه ذكر ابن فاطمة انه دخلها وأنها للمسلمين كمقدشو وأهلها مجموعون من الاقطار وهى بلد حضر واملاع (هكذا) وأشياخها الذين يديرونها يدارون صاحب مدينه ملاى التى فى شرقيهم . وليرانه على البحر حيث الطول مائة ودرجتان غير دقائق والعرض نصف درجة ودقيقتان . وهى على خور كبير ينزل من الجبل فى الجـزء السابع الى غربيها وعلى خمس درجات منها مدينه

ملاى فيها ملك من ملوك الجزيرة وقد يكون سلطاناً مستولياً على جميع الجزيرة أو أكثرها وذلك قليل لبعد المسافات وتشتيت الازا (هكذا) والفرق وهى فى عرض ليرانه وفى غربيها خور ينزل من النهر الكبير النازل الى ليرانه

« وفى هذا الجزء السابع من مدن جزيرة القمر التى هى قواعد لملوكها دهمى وهى حيث الطول ماية واثنتا عشرة درجة ونصف والعرض ثلث درجات وينزل الى شرقيها خور مادته من النهر الكبير ويتقوس دخله البحر منها حتي يكاد يلاصق خط الاستواء الى أن يكون على آخر القوس مدينه بابق وهى أيضاً من قواعد ملوك الجزيرة وموضوعها حيث الطول مائة وثمانى عشرة درجة ونصف والعرض درجة وفى شرقيها جزيرة تصب الى هذه المدينة طولها نحو درجتين من الغرب الى الشرق ووسعها قريب من درجة وفى شرقى بابق النهر الكبير المقوس وهو نهر ليرانه ونزوله من جبل الغيون وهو جبل طوله ثمانى مراحل من المغرب الى المشرق ينزل من عيونه خمسة أنهار صغار الى قوس هذا النهر الكبير فيتقوس ويصب فى نهر ... وبحر بلبق وفى شرقى بابق جزيرة سرنديب »

فنرى أن الفرق بين الخطوط الطولية التى عينها ابن

سعيد تحديداً لموقع بلبق* ومركه يجعل بين هاتين المدينتين مسافة أكبر ببضع درجات من المسافة الكائنة بين مركه والنقطة الساحلية الكائنة على نفس الخط الطولى الذى يمر بالطرف الجنوبى لجزيرة مدغشقر . فأذا فرضنا مافرضه ابن سعيد من امتداد القارة الأفريقية فى اتجاه الخط الطولى لكانت مدينة بلبق كائنة شرقى الجزء الجنوبى لجزيرة مدغشقر ولما كانت جزءاً من هذه الجزيرة . إذن لاحاجة لتدقيق البحث فى هذا الموضوع لايجاد الحقيقة فى هل تعتبر جزيرة مدغشقر أنها هى جزيرة القمر ، ولو فرض أن الجزء السابق وصفه من جزيرة القمر هو جزيرة مدغشقر لكان الجزء الكائن فيما وراء هذا أى شرق بلبق لايمكن اعتباره فى هذه الحالة إلا أنه جزر الملاى الكبيرة التى اعتبرها ابن سعيد كأنها جزيرة واحده .

واذ قد اطرحنا جانبا فكرة احتمال انطباق وصف الأدريسى لجزيرة القمر على أية جزيرة بأفريقيا الشرقية فقد ظننا ، بالبحث فى الأوصاف التى ذكرها الجغرافيون الآخرون ، أنا ربما نستطيع أن نغير رأينا بشأنها فقد آن وقت البدء فى هذا البحث .

إن الجغرافيين العرب غير متفقين لاعلى رسم كتابة

اسم هذه الجزيره ولا على أصل اشتقاقها فقد كتبه بعضهم وفيهم الأدريسى القمر بضم القاف والميم وكتبه غيرهم ومنهم ياقوت وابن سعيد بسكون الميم ونسبوا اسم الجزيرة الى قوم القمر الذين هاجروا اليها . وجاء غيرهم ومنهم ابن الوردى* والبقوى* فسموا الجزيرة باسم القمر بفتح القاف والميم .

والخلاصة أن الجغرافيين العرب كانوا مع اختلاف الأسماء التى استعملوها لايقصدون إلا جزيرة واحده .

فأذا ذهبنا الى هذا الفرض المبدئى استطعنا الأيغال فى البحث وان نقول أية جزيرة هى ؟ وللوصول الى الحل المرغوب نرى أن هناك أمرين مهمين يمكن الاستدلال بهما ، أحدهما الموقع المنسوب الى الجزيرة . والثانى الاوصاف التي يصفها الجغرافيون بها .

فأذا تمسكنا بالموقع الذى عينه الأدريسى وابن سعيد لها بالنسبة الى شاطىء سفالية فأول مايظهر لنا هو أن هذين المؤلفين كانا يقصدان جزيرة مدغشقر ولكننا إذا راعينا غلطهما فى الانحدار الذى ذكراه عن شاطىء أفريقيا وهو الغلط الذى جعلهما يفرضان أن ساحل سفالية مواجه لسواحل آسيا الجنوبية والجزر الواقعة بجوارها فمن المحتمل

ان يكون قصدهما بجزيرة القمر احدي هذه الجزر ولكنما نذكر أن هذا التغيير فى الوصف الحقيقى لتلك القارة التى توجد الجزر متفرقة ومبعثرة بجوارها لم يكن مقتصراً على وصف الجزر الآسيوية بل تناول الجزر الأفريقية وهى فى نظرهما موضوعة خيالياً فى مواقع غير صحيحة أيضاً. فجزيرة مدغشقر مثلا ولو أنها اعتبرت كما لو كانت مجاورة لسواحل أكثر مما هى فى الواقع اعتبرت فى الوقت نفسه كأنها واقعة على مسافة لم تبلغ الى هـذا الحد من الغلو والمبالغة نظراً لبعدها عن دغوطة وسفالية. ولهذا يجدر بنا أن نستنتج مما تقدم أن جزيرة مدغشقر كانت ممتازة على الجزر الاسيوية وأنه لايجب التردد أمام تحديد الجغرافيين العرب لجزيرة القمر بمبالغتهم فى اعتبار موقعها بالشمال الشرقى أكثر من الحقيقة، وانما سبب تعيينهم هذا الموقع على الشمال المتقدم غلطهم الواضح. ومن جهة أخرى فأن وصف كل من الادريسى وابن سعيد لجزائر القمر من حيث طبيعة الأرض لايتيسر تطبيقه على مدينة مدغشقر. فقد قال الادريسى:

« وملكها لايحجبه ولايقوم بخدمته فى طعامه وشرابه وجميع أوامره إلا المخنثون يلبسون الثياب النفيسة من

الحرير الصيني والعراقى وفى يمين كل واحـد منهم سوار ذهب وهم يتزوجون الرجال عوضاً من النساء ويخدمون الملك بالنهار ويرجعون بالليل الى أزواجهم وفى هذه المدينة زرع ونارجيل وقصب السكر والتامبول . وفى هـذه الجزيرة يصنع نبات الحشيش وأهلها بيض قليلو اللحى مثل الاتراك ويزعمون أن أصلهم من الترك »

فكل هذه الأوصاف لاتنطبق على جزيرة مدغشقر ولا على سكانها حتى فى العهد الذى كان الأدريسى يكتب فيه مصنفه . لأنه حتي بفرض أن أقواماً من الملايو هاجروا الى الجزيرة وبفرض أن العادات المذكورة فى هذا الوصف كانت نتيجة هـذه الهجرة فللانسان أن يتساءل كيف أن هذه العادات الخاصة بالملايو لم تبق لدى سكان الجزيرة من الهوفا* التى تنسب اليهم والتى بقيت بالجزيرة حافظة لكيانها وفى عزلة عن بقية الناس والأمم الى ابتداء القرن التاسع عشر .

وربما كانت الحقيقة أن هذه المهاجرات (أى الملايوية والصينية) الى تلك الجزائر لم تحصل وانما ظن أنها حصلت لأن جغرافيي العرب ظنوا أن هـذه الجزر واقعة بقرب الشاطىء الأسيوى . واعتبروا بعضها كما لو كان هو جزائر

هرقند* والبعض الآخـر كما لو كان جزائر رانج . وما سبق هو كل مايمكن قوله عن الجزيرة أو عن جزء من الجزيرة التى سماها الأدريسى باسم جزيرة القمر . أما ماقاله عن جزيرة ملايو فبعيد عن الاحتمال بل أبعد عنه من غيره أن يكون المقصود به جزيرة مدغشقر . وما ورد بمعجم ياقوت من البيانات المبتورة لايمكن أن يرشدنا الى الحقيقة فى هـذا البحث . أما قوله ان القمر جزيرة واقعة فى وسط بحـر الزنج أى البحر الذى يخاطه أكثر جغرافيي العرب ببحر الهند أو بحر الحبشة أو بحر الصين فلا يعد فى نظرنا وجيها أو أنه يعنى وجود هـذه الجزيرة فى مياه زنجبـار وسفالية أو فى بحر الصين بالتخصيص أكثر مما جاء بالأدريسى أو ابن سعيد . وربما كان ياقوت متفقاً فى الرأى مع هذين الجغرافيين من حيث انحدار القارة الأفريقية الى جهة المشرق . وبمـا أنه لم يقرن بيانه السابق بأى وصف خاص فليس باستطاعتنـا القول بأنه كان يشير الى جزيرة مدغشقر وربما صدق رينو فى قوله أن مايرمى اليه ياقوت كان خاصاً بأكبر جزيرة من جزر القمر وهى التي سميت باسمها مجموعة الجزر التى ليست هى الا إحداها وقد سبق لنا الكلام عليها .

أما جزيرة القمر التي ذكرها ابن سعيد فأنا تقبل أن تكون المدينتان المذكورتان فى الوصف الخاص بالجزيرة وهما ليرانه* ودهمى* من مدن مدغشقر ولدينا برهان كاف على رجحان هذا الرأى وهو أن ابن فاطمة يعتبر أن ليرانه كانت تابعة لمقدشو إذ يقول إن هاتين المدينتين كانتا تابعتين لحاكم اسلامى واحد . وان اقتناعنا ليكون أقوى لو تأكد لنا أن ابن فاطمة حل بليرانه مسافراً من نقطة أيا كانت على الساحل الأفريقى أو لو علمنا مقدار المدة التى استغرقها سفره .

ولكى يتيسر ادراك أنه إذا زار هـذه المدينة وكان سفره لا عن طريق قناة القمر بل من شاطىء عمـان أو الخليج الفارسى أو البحر الأحمر لاعتبرت ليرانة إحـدى مدن جزر الملايو المعتبر أنها واقعة تجـاه القارة الأفريقية بسبب الانحدار الذى نسب الى شكل الساحل الأفريقى بهتانا وافتراء . يضاف الى ذلك أنه لو تأكد لنا أن النقطة التى سافر منها ابن فاطمة هى أحد ثغور الساحل الأفريقى لوجب علينا أن نعلم هل كان يطلق اسم القمر على الجزيرة التى كانت بها المدينة التى زارها ولما علمنا بشأنه الا ما نقله جغرافيو العرب اللاحقون له لاسيما وأن الشىء القليل الذى

أثر عنه غير واف بالمرام .

ولو كان هذا الرحالة قد حل بجزيرة ملغاش فى أثناء رحلته لزيارة ليرانه ، وهو لم يصف الجزيرة المذكورة إلا باعتبار كونها جزيرة كبيرة المساحة ومجاورة لسواحل سفالية ، فأن رأى ابن سعيد باعتباره مدينة ليرانة إحدى مدائن جزيرة القمر لايعتبر الا نتيجة نفس الطريقة التى وصفناها فى ابتداء انتقادنا .

وبالاختصار فأن ما كتبه الأدريسى عن تلك الجزيرة التى سماها بجزيرة القمر لايمكن تطبيقه على غير جزر ملايو فى حين أنه جمع بعض الأوصاف الخاصة بجزيرة ماغاش فى وصفه جزيرة الأنجبة .

أما ابن سعيد وهو الذى سمى هذه الجزيرة الأخيره باسم الأنفوجه فلا ريب فى أنه اكتفى بنقل ماقاله الأدريسى عن القمر وانما بصيغة أخرى .

ولقد أضاف الى ذلك اسماء المواقع الجغرافية لبعض المدن ولكن لم يعرفنا الموقع الحقيقى لتلك الجزيرة ولم يقل لنا فى الوقت نفسه أن هذه الجزيرة هى مدغشقر .

ولهذه الأسباب نبقى مرتابين فى الحقيقة . ولبيان رأينا فى هذا الموضوع نقول إن الجغرافيين العرب مع

علمهم بوجود جزيرة كبيرة تجاه بلاد سفالية ، دع أن علمهم
بوجود جزيرة اسمها القمر بزعم أنها كائنة وراء بحر هرقند
وبسبب اعتقادهم الكاذب من حيث اتجاه الساحل الافريقي ،
قد خلطوا الجزيرة التي سمعوا أنها موجودة ببحر أفريقيا
بجزيرة القمر ثم نسبوا الى الأولى مابلغهم من الأوصاف
عن الثانيه :

أما الجزر الأخرى المذكورة في وصف ابن سعيد
وتدخل في نطاق دائرة إختصاصنا فقد رتبها المؤلف
المذكور قسمين . سمى القسم الأول منها بجزر المند*
والقسم الثاني باسم جزر رانج* واليك ماقاله ابن سعيد :

وفي آخر الاقليم الأول بحر تقع فيه جزاير المند وهي
معروفة بكثرة النارجيل وأعظمها جزيرة كلوه ، هكذا
يعرفها الآن المسافرون وهي كثيرة ذكرها بطليموس
وسماها جزيرة المند وهم اخوة الهند والسند ولكن لم يرزقوا
من حظ الشهرة مارزق الهند والسند . وقد ذكر ابن فاطمه
ان الزنج تغلبوا عليهم وأخرجوا منهم كثيراً الى بر السند
وأبقوا الباقين رعايا وفي هذه الجزيرة من المدن المشهورة
في الكتب ثلث على ثلثة أنهار فالأول كلوه وبها صاحب
هذه الجزائر ومنها الاقلاع واليها الحط وهي في غربي

الجزيرة وجنوبيها حيث الطول أربع وثمانون درجة ونصف
والعرض سبع درجات وخمس وخمسون دقيقة وفى الجانب
الشرقى الجنوبى مدينة المند وفى الغربى الشمالى مدينة كنك
ودور الجزيرة الف وأربع ماية ميل وهى تقارب التربيع
وفيها دخلات من البحر وفى غربيها جزاير صغار خاملة
الاسماء . ومن جزائرها المذكورة فى الكتب جزيرة
القطرية وهى فى غربيها طولها من المغرب الى المشرق مايه
وستون ميلا وعرضها نحو ستين ميلا وأهلها على طريق
الهند وطريق بحر فارس لايزالون يقطعون على المراكب
وبين البحر الذى بينها وبين جزيرة كلوه مجرى وثلث وفى
جنوبيها جزيرة القرود وهى مدورة ذات جبال واشجار قد
غلب عليها القرود وأهل الجزيرة التى تقاربها يتحيلون فى
صيدها ويحملونها الى البلاد فيبيعونها . ودور هذه الجزيرة
نحو ست ماية ميل وستين ميلا وهى فى ركن جزيرة كلوه
الجنوبى الغربى بينها وبين البحر مجريان وفى جنوبيها من
جزاير كلوه جزيرة كرموه دورها نحو ثلاثمئة وثلاثين ميلا
وأهلها سود قطاع بمراكبهم وفى شرقيها سمتاً جزيرة البركان
فيها جبل لاتزال النيران تتقد فيه ليلا والدخان يصعد منه
نهاراً على منزع بركان صقلية وسكانها زنوج ودورها نحو

ثلاثمية ميل وتتلو هـذه الجزائر المصاقبة لـكاوه جزاير الرانج وهى مشهورة فى ألسن المسافرين وأعظمها جزيرة سريره طولهـا من الشمال الى الجنوب أربع ماية ميل وعرضها فى كل طرف من الجنوبى والشمالي نحو مايه وستين ميلا وفيها من البحر دخلات ومدينتها سريره فى وسطهـا ، يدخل اليهـا جون من البحر وهى على نهر وموضوعهـا حيث الطول ثمان وثمانون درجه ونصف والعرض ثلث درجات واربعون دقيقة ولها مدائن غير مذكورة . وجزاير الرانج بعدها جزيرة انفوجه لصاحبهـا من العدد والعدد مايستطيل به فى أكثر الأوقات ويستولى على جزاير الرانج بسببه . وفى الجانب الجنوبى مدينة الجبليه وأكثر عيش أهل هذه الجزائر من الموز وطول جزيرة انفوجه نحو مايه وسبعين ميـلا ووسعها داير على تسمين ميلا وعرض المـكان الذى بينها وبين جزيرة سريره نصف مجرى وفى جنوبى سريره وشرقيها من جزاير الرانج الصغار ما لا يعد كثرة وأكثرها مسكون بالسودان والقليل من هذه الجزائر هو الداخل فى هـذا الجزء الخامس وعند انتهائه يكون خط الاستواء فيه أرين وقد تقدم ذكرها »

(نقلا عن النسخة المحفوظة بدار كتب باريس الأهلية)

ولكى يسهل على القارىء التأكد من ان وصف ابن سعيد لجزائر الهند ورانج لايصلح لنفى أوجه الشبهة التى بيناها حينما بحثنا فى وصف الأدريسى للجزر التى سماها باسم رانج ، وان كل مانستطيع استنتاجه من مقارنة الوصفين أحدهما بالآخر هو ان الجزر التى وصفها ابن سعيد (بصرف النظر عن تقسيمه إياها الى قسمين وضمه الى احدهما جزيرة كلوه) هى نفس الجزر التى وصفها الادريسى ترانا نفرض أن جزر قطريه والقرود وكرموه وبركان وسريره* وأنفوجه الواردة فى مصنف ابن سعيد هى بالترتيب جزر قطريه والقرود وكرمده أو كرموه والجزيرة التى لااسم لها وشربوه والأنجبة الوارد ذكرها فى مؤلف الأدريسى .

ولنزد على ماسبق أن ابن سعيد بأيراده خطوط العرض دون تعيين أو تسمية ونظراً لما ينسبه من المساحة لعدة من الجزر الآنفة الذكر قد صعب علينا معرفتها أكثر من سلفه .

أما جزيرة كلوه التى ذكرها ابن سعيد فليس فى استطاعتنا أن نجد فى وصفه إياها ماينطبق انطباقا صحيحاً على جزيرة كلوا المعروفة والكائنة على شاطىء زنجبار .

لأن مانحله ابن سعيد لهذه الجزيرة من الموقع والأوصاف الخاصة والطبعية يحملنا على الاعتقاد بوجودها فى جزء من بحر الهند هو المحيط بسواحل الجوزرات واقليم السند.

وبدهى ان بعض علماء تخطيط البلدان وفى طليعتهم شمس الدين* يسمون هـذا الجزء من بحر الهند باسم بحر السند أو سند مند أو المند وقصدهم من ذلك أنه يحيط هذه البلاد الثلاث. وبعبارة أخرى أفلا يكون من الخطأ أيضاً أن نرى كلمة الزنج مذكورة فى العبارة التى بها يروى المؤلف (عن ابن فاطمة) هجرة الهنديين من بلادهم والتجائهم الى بلاد السند ؟ وهل ليس لنا أن نحسب استعمال كلمة زنج بدل هنود جهلا أو سهواً ؟

وجملة القول فأنه بالنظر الى الموقع الجغرافى الذى عينه ابن سعيد بل والى المساحة التى ذكرها والاوصاف الطبيعية التي وردت فى بيانه يتضح أن الجزيرة التى أسماها هـذا المؤلف كلوا إنما هى شبه جزيرة الجوزرات أو شبه جزيرة قوج* لاجزيرة كلوا الواقعة على الشاطىء الزنجبارى.

أما هذه الجزيرة الأخيرة فلم تأتنا المصنفات العربية فى تخطيط البلدان عنها ببيان ما اللهم ذلك النزر اليسير فى

معجم البلدان لياقوت إذ قال : « إنه اقليم من أقاليم بلاد الزنج »

وبعد وفاة ابن سعيد ظهر مصنف جديد فى تخطيط البلدان لزكريا بن محمد المعروف بالقزوينى * . وهذا المصنف يتضمن شيئاً من البيان عن الشاطىء الأفريقى فهو من هذه الوجهة أقل فائدة من مصنف ابن سعيد .

وكان أبو الفداء اسماعيل سلطان حماه من أعيان المصنفين فى ذلك العصر وقد اشتهر بمصنفاته فى تخطيط البلدان ولكن ماأورده فيها من البيانات والمعلومات حجة فى أيدينا ناهضة على بطء حركة العلم عند الشرقيين . فقد اقتصر أبو الفدا (فيما يختص بالساحل الأفريقى) على النقل عن ابن سعيد ، على أنه لم يوف النقل حقه ، ولو ان مركز أبى الفدا الاجتماعى كان يسمح له بتوسيع نطاق معلوماته وخدمة العلم أكثر ممن تقدموه . ولأنه لم يفعل ذلك نقول إن الوصف الجغرافى لأفريقية الشرقية ظل لدى جغرافيي العرب كما كان فى عهد الأدريسى ، فأنهم لم يزيدوا على معلوماته شيئاً يذكر . ومنهم شمس الدين والنويرى * والعمري * وابن الوردى وحمد الله * .

أما العرب الذين اهتموا بعلم الجغرافيا فى القرنين

الرابع عشر والخامس عشر من الميلاد فقد كانوا قليلى العدد ذكر رينو منهم عبد الرشيد بن صالح الملقب بالبقوى ، وعبد الرزاق السمرقندى* . ولم يتصد هذا الأخير للكلام على الجزء الأفريقى الذى نحن بصدد الكلام عليه .

اما البقوى فربما كان النزر اليسير الذى أورده عن بعض نقط الساحل المذكور أقل بكثير من الذى أورده سلفه إلا فى نقطة واحدة وهى جزيرة أسماها البقوى بنجويه* وكتبت أيضاً ليخونة وكتبت فى معجم ياقوت لنجويه وهذه الجزيرة المسماة بالأسماء الثلاث وصفت بوصف واحد أمكننا أن نطبقه على جزيرة زنجبار المعروفة لنا فى الوقت الحاضر . وفضلا عن ذلك فأن كلمة أنجويه وهو الأسم المعروفة به هذه الجزيرة بلغة السواحلية تنطبق كثيراً على عبارتين مذكورتين فى تأليف البقوى ، عن اسم الجزيره (جزيرة زنجبار) والى القارىء ماجاء بتأليف البقوى :

«جزيرة كبيرة من بلاد الزنج وبها إقامة ملكهم وجميع السفن التي تتاجر على هذا الشاطىء ترسو اليها وبها كرم يطرح ثلاث مرات فى السنة»

اما ياقوت فبعد ان وصف جزيرة أنجوية بهذا

الوصف عينه قال :

« قد انتقل أهلها الآن عنها الى جزيرة اخرى يقال لها تنباتو أهلها مسلمون »

فأوصاف هذين المصنفين تنطبق على جزيرة زنجبار وما جاء فى آخر وصف ياقوت منها ينطبق على انه يوجد بالشمال الغربى لجزيرة زنجبار جزيرة أخرى أصغر منها بكثير اسمها تنباتو كان للعرب المسلمين بها قلعة ، ففى استطاعتنا إذن اعتبار جزيرة زنجبار عداد الأمكنة التى ذكرها المصنفون العرب فى تواليفهم الجغرافيه . وبعدذكر هذا البيان القصير المقتبس من كتاب البقوى نعتقد أننا استخرجنا من تواليف أولئك المصنفين كل ماتحتويه من وصف الساحل الأفريقى الشرقى لمدة التسعة القرون التى تلت ظهور النبي محمد (صلعم) وهى المدة التى أسميناها بالعهد الاسلامى لأنها المدة التى كان المسلمون فى خلالها فى اتصال دون غيرهم من الأمم الأخرى بتلك الاقطار اى البقاع التي كان لهم عليها النفوذ التام والسلطان الذى لايمارى بل والسيادة الحقيقية على اطرافها عقب انصراف الهمم فى ذلك العهد الى الدعاية للديانة الاسلامية وحصر التجارة فى أيديهم بما كان لهم من المراكز العديدة التي أسسها من قبل

فيها ابناء جلدتهم .

ولقد ظهر لنا جهل المؤلفين المسلمين بأحوال تلك البقاع مع أنه كان يجب أن تكون مؤلفاتهم قدوة لأهل أوربا ودليلهم فى طريق الالمام بأحوال أفريقيا الشرقية واتمام عمل جغرفيي مدرسة اسكندرية الذين لم يصفوا سوى شطر صغير منها. وكان بعضهم ينكر امتداد هذا الساحل نحو الجنوب والبعض الآخر لايعرف ذلك الا خيالا ، ولظل العالم المتمدين غارقا فى نفس الجهل لولا ان العالم الأوربى قد أخرج من ابنائه من خاض غمار البحار بحذق ومهارة فكان من أمرهم ان ابرزوا الحقائق الجغرافية من خدورها ، نذكر منهم الرحالون دياز* وكولمب* وغاما وماجلان* وغيرهم .

ولقد حصل فى الواقع تقدم جزئى على أثر الرحلات التى قام بها بعض الرحالة الماهرين كالبندقى ماركو بولو* والمغربى أبو عبد الله محمد المعروف بابن بطوطه الذين ساعدت رحلاتهم أهل أوربا على التفكير فيما وراء بيانات الجغرافيا القديمة . وبعض الرحلات وبخاصة رحلة ماركو بولو كانت مما استفز خريستوف كولمب الى عمله المعروف . أما العرب فقد اقتصروا على البلاد التى تأصلت

فيها عقيدتهم الدينية أو أخذت تجارتهم فيها مغرساً طيباً مجديا . وبالنظر الى أن الحقائق لم تعلم الا بعد زمن فقد كان مارواه كل من ماركو بولو للاوربيين وما كتبه ابن بطوطة بعيداً عن الصواب والصدق فى نظر أهل زمنهم .

ولم يتكلم ماركو بولو على اقليم ساحل أفريقيا الا تلميحاً . ولكن ابن بطوطه الذى ساح بعده بنصف قرن تقريباً شهد بنفسه جملة من بلاد الشاطىء الأفريقى . ولما كان لبعض ماورد فى رحلته مساس بما نحن بصدده من البحث فقد آثرنا إيراده بحروفه لنستخرج منه مايمكن أن يحقق بعض آرائنا .

لنأخذ عبارة المؤلف الخاصة برحلته من زيلع الى مقدشو والسواحل وهى سياحته التى قام بها سنة ٧٣١ هجرية الموافقة (١٣٣٠ ـ ٣١ ميلاديه) ومن المحتمل أن ذلك كان فى شهر يناير أو فبراير سنة ١٣٣١ وهو أوان اشتطاط السفن تلك السواحل . قال ابن بطوطه :

« ثم سافرنا من زيلع فى البحر خمس عشرة ليلة ووصلنا مقدشو وهى مدينة متناهية فى الكبر وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين فى كل يوم ولهم أغنام كثيرة وأهلها تجار اقوياء وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها التى

لا نظير لها ومنها تحمل الى ديار مصر وغيرها . ومن عادة
أهل هذه المدينة انه متى وصل مركب الى المرسى تصعد
الصنابق وهى القوارب الصغار اليه ويكون فى كل صنبوق
جماعة من شبان أهلها فيأتى كل واحد منهم بطبق مغطى فيه
الطعام فيقدمه لتاجر من تجار المركب ويقول هذا نزيلى
وكذلك يفعل كل واحد منهم ولا ينزل التاجر من المركب
إلا الى دار نزيله من هؤلاء الشبان إلا من كان كثير
التردد الى البلد وحصلت له معرفة أهله فأنه ينزل حيث شاء
فاذا نزل عند نزيله باع له ماعنده واشترى له ومن اشترى
منه ببخس أو باع منه بغير حضور نزيله فذلك البيع مردود
عندهم ولهم منفعة فى ذلك . ولما صعد الشبان الى المركب
الذى كنت فيه جاء الىّ بعضهم فقال له أصحابى ليس هذا
بتاجر وانما هو فقيه فصاح بأصحابه وقال لهم هذا نزيل
القاضى وكان فيهم أحد أصحاب القاضى فعرفه بذلك فأتى الى
ساحل البحر فى جملة من الطلبة وبعث الىّ أحدهم فنزلت
أنا وأصحابى وسلمت على القاضى وأصحابه وقال لى بسم الله
نتوجه للسلام على الشيخ فقلت ومن الشيخ فقال السلطان
وعادتهم ان يقولوا للسلطان الشيخ فقلت له إذا نزلت
توجهت اليه فقال لى إن العادة إذا جاء الفقيه أو الشريف أو

الرجل الصالح لاينزل حتى يرى السلطان فذهبت معهم اليه كما طلبوا .

« ذكر سلطان مقدشو

وسلطان مقدشو كما ذكرناه انما يقولون له الشيخ واسمه أبو بكر بن الشيخ عمر وهو فى الأصل من البربره وكلامه بالمقدشى ويعرف اللسان العربى ومن عوائده أنه متى وصل مركب يصعد اليه صنبوق السلطان فيسأل عن المركب من أين قدم ومن صاحبه ومن ربانه وهو الرئيس وما وسقه ومن قدم فيه من التجار وغيرهم فيعرف بذلك كله ويعرض على السلطان فمن استحق أن ينزله عنده أنزله ولما وصلت مع القاضى المذكور وهو يعرف بابن البرهان المصرى الاصل الى دار السلطان خرج بعض الفتيان فسلم على القاضى فقال له بلغ الامانة وعرف مولانا الشيخ أن هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز فبلغ ثم عاد وأتى بطبق فيه أوراق التنبول والفوفل فأعطانى عشرة أوراق مع قليل من الفوفل وأعطى للقاضى كذلك وأعطى لأصحابى واطلبة القاضى مابقى فى الطبق وجاء بقمقم من ماء الورد الدمشقى فسكب علىّ وعلى القاضى وقال إن مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة وهى دار معدة لضيافة الطلبة فأخذ القاضى

بيدى وجئنا الى تلك الدار وهى بمقربة من دار الشيخ
مفروشة مرتبة بما تحتاج اليه ثم أتى بالطعام من دار الشيخ
ومعه أحد وزرائه وهو الموكل بالضيوف فقال مولانا يسلم
عليكم ويقول لكم قدمتم خير مقدم ثم وضع الطعام فأكلنا
وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن يجعلونه فى صحفة خشب
كبيرة ويجعلون فوقه صحاف الكوشان وهو الأدام من
الدجاج واللحم والحوت والبقول ويطبخون الموز قبل
نضجه فى اللبن الحليب ويجعلونه فى صحفة ويجعلون اللبن
المريب فى صحفة ويجعلون عليه الليمون المصير وعناقيد
الفلفل المصير المخلل والمملوح والزنجبيل الاخضر والعنبا
وهى مثل التفاح ولكن لها نواة وهى إذا نضجت شديدة
الحلاوة وتؤكل كالفاكهة وقبل نضجها حامضة كالليمون
يصيرونها فى الخل وهم اذا أكلوا لقمة من الأرز أكلوا
بعدها من هذه الموالح والمخللات والواحد من أهل
مقدشو يأكل قدر ماتأكله الجماعة منا ، عادة لهم ، وهم فى
نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها ثم لما طعمنا انصرف عنا
القاضى وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى الينا بالطعام ثلاث مرات فى
اليوم وتلك عادتهم فلما كان فى اليوم الرابع وهو يوم الجمعة
جاءنى القاضى والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتونى بكسوة

وكسوتهم فوطة خز يشدها الانسان فى وسطه عوض السراويل فأنهم لايعرفونها ودراعة من المقطع المصرى معلمة وفرجية من القدسى مبطنة وعمامة مصرية معلمة وأتوا لأصحابى بكسى تناسبهم وأتينا الجامع فصلينا خلف المقصورة فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضى فرحب وتكلم بلسانهم مع القاضى ثم قال باللسان العربى قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وآنستنا وخرج الى صحن المسجد فوقف على قبر والده وهو مدفون هنالك فقرأ ودعا ثم جاء الوزراء والامراء ووجوه الاجناد فسلموا وعادتهم فى السلام كعادة أهل اليمن يضع سبابته فى الارض ثم يجعلها على رأسه ويقول أدام الله عزك ثم خرج الشيخ من باب المسجد فلبس نعليه وأمر القاضى أن ينتعل وأمرنى أن أنتعل وتوجه الى منزله ماشياً وهو بالقرب من المسجد ومشى الناس كلهم حفاة ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب وكان لباسه فى ذلك اليوم فرجية قدسى أخضر وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان وهو متقلد بفوطة حرير معتم بعمامة كبيرة وضربت بين يديه الطبول والأبواق والأنفار وأمراء الاجناد أمامه وخلفه والقاضى

والفقهاء والشرفاء معه ودخل الى مشوره على تلك الهيئة
وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد فى سقيفة هنالك
وفرش للقاضى بساط لايجلس معه غيره عليه والفقهاء
والشرفاء معه ولم يزالوا كذلك الى صلاة العصر فلما صلوا
العصر مع الشيخ أتى جميع الاجناد ووقفوا صفوفاً على قدر
مراتبهم ثم ضربت الاطبال والانفار والابواق والصريانات
وعند ضربها لايتحرك أحد ولا يتزحزح عن مقامه . ومن
كان ماشياً وقف فلم يتحرك الى خلف ولا الى أمام فاذا
فرغ من ضرب الطبلخانة سلموا بأصابعهم كما ذكرناه
وانصرفوا . تلك عادة لهم فى كل يوم جمعة واذا كان يوم
السبت يأتى الناس الى باب الشيخ فيقعدون فى سقائف
خارج الدار ويدخل القاضى والفقهاء والشرفاء والصالحون
والمشائخ والحجاج الى المشور الثانى فيقعدون على دكاكين
خشب معدة لذلك ويكون القاضى على دكانة وحده وكل
صنف على دكانة تخصه لايشاركه فيها سواه ثم يجلس الشيخ
بمجلسه ويبعث عن القاضى فيجلس عن يساره ثم يدخل
الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه وسائرهم يسلمون وينصرفون
وان كانوا ضيوفاً جلسوا عن يمينه ثم يدخل المشائخ والحجاج
فيجلس كبراؤهم ويسلم سائرهم وينصرفون ثم يدخل الوزراء

ثم الأمراء ثم وجوه الأجناد طائفة بعد طائفة فيسامون وينصرفون ويؤتى بالطعام فيأكل بين يدى الشيخ القاضى والشرفاء ومن كان قاعداً بالمجلس ويأكل الشيخ معهم وان أراد تشريف أحد من كبار أمرائه بعث عنه فأكل معهم ويأكل سائر الناس بدار الطعام وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم فى الدخول على الشيخ ثم يدخل الشيخ الى داره ويقعد القاضى والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات فما كان متعلقاً بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضى وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى وهم الوزراء والأمراء وما كان مفتقراً الى مشاورة السلطان كتبوا اليه فيه فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عادتهم دائماً »

وان تكن جملة من الأوصاف الخاصة التى أوردها ابن بطوطه عن مدينة مقدشو لاتنطبق على الواقع فى نظر الرحالة العصرى ولكننا نشك فى أن ذلك السائح العظيم قد راعى الأمانة فى رواية ماشاهده فى وقت زيارته تلك المدينة وما لانشك فيه ان التغييرات التى طرأت على الحالة السياسية والعلاقات التجارية بمدينة مقدشو وبغيرها من

مدن السواحل قد أحدثت تغييراً محسوساً فى الأخلاق والعادات بل وفى ثروة السكان . وسنذكر فى البابين التاليين أسباب هذه التغيرات من ابتداء القرن السادس عشر من الميلاد .

أما المدة السابقة على هذا التاريخ فسنورد بشأنها ماوقفنا عليه من أقوال الرواة فى أثناء وجودنا بتلك الجهات وفيها ما يؤيد أقوال ابن بطوطه ويعززها . ومن هذه الروايات الخاصة بكلوا مايتعلق بتأسيس مدينة مقدشو . فالمنازل المشيدة بالأحجار على الطراز العربى حلت محل المبانى بالأخشاب وكذا المساكن المتخذة من القش المغطى بالجلود كانت من صناعة المهاجرين من المسلمين الأولين وهم الزيديون . ثم تشكلت هيئة حكومية وانحصر الحكم بطريق التوراث فى أسرة شيخ القبيلة الذي كان رئيساً لجماعة المهاجرين الجدد وسميت هذه الأسرة الحاكمة باسم اسرة المظفر نسبة الى رأسها ومؤسسها .

والأراضى الكائنة بين مجرى الجب الجنوبى والبلاد المعروفة الآن باسم شبلة* كانت على مايقال عظيمة العمران وقتئذ . وكانت قبيلة الأجران* تشغل جزءا من هذا الأقليم وبخاصة الجزء المحيط بالمدينة العربية . أم

قبيلة الأجران فكانت من أهم قبائل الهاوية وكان بعض الزيديين قد لحموا انسابهم بأنسابها وكان بين الأجران والسلاطين من أسرة المظفر صلات حسنة بل ونفوذ على هؤلاء القوم لما كان لآل المظفر على من سواهم من الامتياز الأدبي . دع أن الأجران كانوا يستفيدون من اتساع نطاق التجارة بمقدشو إذ كانت أسواقها مفتوحة لهم كما كان الأجران العنصر العامل على جلب البضائع الواردة على الأسواق العربية الساحلية . وكانت لهم جمال تسهل لهم النقل وتقرب المسافات البعيدة ، ومع ذلك فكان حكام مقدشو على حذر من الأجران . حتى كان المنادون فى كل ليلة يخرجون بعد صلاة العشاء لينادوا فى الناس أن يبرح الغرباء منهم المدينة وان لايبقى بها غير سكانها . ثم كانت تقفل أبواب شطر المدينة المشيد بالأحجار وهو قسم منها كان مقراً لاقامة الأشراف دون سواهم .

وفى عهد أسرة المظفر نمت ثروة مقدشو نمواً محسوساً فأصبحت بمثابة عاصمة لجميع البلاد المجاورة ومركزاً للأقاليم العربية الصغرى التى كانت تسكنها على طول الشاطىء عشائر أهلها من مقدشو . وهكذا وجدت مدن بروه ومركه وجليب* وكندر شيخ* وجزيرة وارشيخ* .

وكان الناس يردون على مقدشو من تلك البلاد فى مواعيد معينة من السنة فيجتمعون فى مسجدها الكبير ويقيمون به صلاة الجمعة وهذا ماتقل الينا عن أهميـة تلك المدينة فى العهد السالف الذكر .

وهذا مانعلمه عن مملـكة مقدشو التى ذكرت فيما كتبه البحـارة البرتقاليون الأول وكـذا ماجاء من ذكرها فى تواليف جغرافيي القرنين السادس عشر والسابع عشر بعـد الميلاد أما ماقاله الجغرافيون العرب فلا يثبت قط بمجموع الروايات . وينطبق بعض ماجاء فى معجم ياقوت الذى ألف قبل رحلة ابن بطوطه بأكثر من قرن على بعض ماقاله هذا الرحالة فأن ما قاله ياقوت عن عرى السكان ينطبق على الجزء الأهلى من السكان الذين كان عددهم بلا شك أكثر من عدد الاشراف .

وقال ابن المجـد الموصلى* فى تأليفه المسمى مزيل الارتياب ان مقدشو مدينة كبيرة . وذكر ابن سعيد أهميتها أيضاً فى قوله إن اسم هذه المدينة يرد دائماً على ألسنة الرحالين فى الشاطىء الشرقى لأفريقيا . وسيرى القارىء فى الباب الآتى ما كانت هذه المدينة عليه فى عهد حلول البرتقاليين بهذا الشاطىء .

ولكن يمكننا القول بأن مابقى من المدينة القديمة فى وقتنا هـذا أى بعد ابن بطوطة بأكثر من خمسمائة عام . يدل على ما كانت عليه قديماً من الجلال وحسن الرونق . ومن مساجدها الكثيرة التي أصبحت اطلالا دارسة ولم يبق منها سوى مئذناتها القائمة فى وسط الأطلال والرمال لايوجد سوى مسجد واحد لايزال حافظا لكيانه الأصلى وفى هذا المسجد كتابة تبين تاريخ تأسيسه وهو سنة ٦٣٧ هجرية الموافقة ١٢٣٩ ميلادية أى قبل مرور ابن بطوطه بنحو قرن من الزمان وبسنوات قليلة بعـد التاريخ الذى وصف ياقوت الحموى فيه أهل المدينة بأنهم فى حالة تقرب من حالة الهمج والمتوحشين . وفى هذا الدليل الناهض على أن ماجاء بكتاب ياقوت من الوصف ينطبق على حالة البلاد فى أزمان أقدم من الزمن الذى كان يؤلف فيه معجمه .

وكانت بداية انحطاط مقدشو وتقاص ظلها على أثر سقوط أسرة المظفر بسبب إغارة قبيلة الأبجل* عليها وهذه القبيلة من افخاذ قبائل الهاوية السومالية وكان اسم شيخ مقدشو أو سلطانها الحاكم عليها وقتئذ من أسرة المظفر هو فخر الدين آخر سلاطين تلك الأسرة صاحبة

الفضل فى تأسيس مقدشو وازدهارها وثروتها . وأول من حكم من قبيلة الأبجل على مقدشو هو الشيخ عمر جلوله وقد بقى الحكم فى أسرته بالتوراث . ولا يمكننا أن نعين بالتحقيق تاريخ استيلاء بنى الأبجل على مقدشو فان البيانات التى أوردها ابن بطوطه عن السلطان الذى كان حاكما على مقدشو فى وقت رحلته وما ذكره من أصله البربرى وقاله من أن لقبه هو ابن عمر يحملنا على الظن أن هذا السلطان ابن عمر جلوله السابق الذكر . ولكن هنالك أسباباً تمنعنا من الاعتماد على هذا الفرض لأننا لو سلمنا بهذا الزعم لحق علينا افتراض ان إغارة بنى الأبجل كانت فى آخر القرن الثالث عشر . ولما كان هذا الحادث الخطير يعد حديثاً فى وقت مرور ابن بطوطه بالبلاد فقد كان الواجب أن يورده فى رحلته ، ثم انه لو كان الامر كما فرض لكانت مقدشو فى قبضة بنى الأبجل على عهد حضور البرتقاليين اليها فى سنة ١٥٠٧ بما يزيد على مائتى سنة والحقيقة انه فى سنة ١٥٠٧ بل بعدها بمدة طويلة كانت هذه المدينة زاهية زاهرة . وليس فى وسعنا أن ندرك كيف بقيت كما كانت لمدة تزيد على مائتى سنة بعد أن حلت حكومة بنى الأبجل الهمجية محل بنى المظفر . وفضلا عن

هـذا فقد روى لى بعضهم أنه لم يحـكم مقدشو من بنى
الابجل الا تسعة شيوخ من عمر جلوله الى السلطان الحالى
فأذا نظرنا الى المدة التى مضت من عهد سياحة ابن بطوطه
وجدنا أنها طويلة جداً لاستغراقها حكم ثمانية حـكام فقط
ومن ثم يؤخذ ان المدينة فى فرض ابن بطوطه لم تزل تحت
حكم بنى المظفر . ويبدو لنا فى الآن نفسه أن مارواه هذا
الرحالة عن عادات البلاد والحفلات التي شهدها ومظاهر
الأبهة والجـلال التى كانت تحف بشخص السلطان أمر
لاريبة فى صحته ولا جدال

ولنعد الآن الى ابن بطوطه كى نثبت هنا ماكتبه
عن منبسة ، قال :

« ثم ركبت البحر من مدينة مقدشو متوجهـا الى
بلاد السواحل قاصداً مدينة كلوا من بلاد الزنوج فوصلنا
الى جزيرة منبسه وهى جزيرة كبيرة بينها وبين أرض
السواحـل مسيرة يومين ولا برّ لهـا وأشجارها الموز
والليمون والأترج ولهم فاكهة يسمونها الجموز ، وهى شبه
الزيتون ولها نوى كنواه الا أنها شديدة الحلاوة ولا يزرع
عند أهل هذه الجزيرة وانما يجاب اليهم من السواحل
وأكثر طعامهم الموز والسمك وهم شافعية المذهب أهـل

دين وعفاف وصلاح ومساجدهم من الخشب محكمة الاتقان وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان فيستقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عود رقيق فى طول الذراع والأرض حول البئر والمسجد مسطحة فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه وتوضأ وجميع الناس يمشون حفاة الاقدام »

أما هـذه البيانات فقليلة وليست بذات أهميـة من حيث طبيعة الارض فأن ابن بطوطه لم يمض بمنبسة سوى ليلة واحدة وهى فترة من الزمن لم تكن بكافية لدرس هذه النقطة أو للنظر فى مساحة الجزيرة أما ماقاله عن المسافة بينهـا وأرض السواحل فمما يدعو الى الظن بأن البقعة التى كانت تسمى وقتئذ بهـذا الاسم تعنى الجزء المنخفض من الساحل الممتد من رأس بونا* الى ضواحى رأس دلجادو . أما فى وقتنا هـذا فان بلاد السواحل تبتدىء من الجب .

أما البيانات الأخرى فيبدو لنا أنها فى مكانها من الصواب نظراً الى المدة التى زار فيها الرحالة المذكور مدينة منبسة . والواقع أنه فى بداية القرن الرابع عشر لم تكن

لهذه الجهة عين الأهمية التى صارت لها فيما بعد . ذلك لأنه حدث فى خلال القرن السادس عشر ان أحد شيوخها وهو شيرازى الأصل استوطن الجزيرة من زمن مديد واغتصب المدينة من حكم سلطان زنجبار وجعلها بلداً مستقلا ثم زادت بعد ذلك الممتلكات التابعة لمنبسة وتناول حكمها البلاد الصغيرة المجاورة لها وبخاصة بلاد ملندة . وغير هذا فأنه لما كان ضيق مساحة منبسة الصغيرة حائلا دون توريد البقول الكافية فقد كان أهلها للحصول عليها يجلبونها من يمبا أو من البلاد الساحلية وهذا مايثبت قول ابن بطوطة فيما يتعلق بجلب البقول من السواحل . ولقد صدق أيضاً فى قوله إنه لم تك لمنبسة أراضٍ على الساحل لأنه فى وقت مروره بها لم تكن الأراضى المحيطة بخليج منبسة مسكونة بالوانيكا* والواديجو* كما هى فى الوقت الحاضر .

وقد كانت هجرة تلك القبائل الداخلية الى السواحل فى عهد البرتقاليين على مايقال ولابد أن ذلك حدث فى ابتداء القرن السابع عشر . ولغاية هذا التاريخ كانت الأراضى الواقعة فيما وراء جزيرة منبسة متروكة للقبائل النهابة والرحالة كالذين ذكرهم المؤرخون البرتقاليون باسم

زمبوس* وقالوا عنهم إنهم أغاروا على جزيرة كلوا فى عام ١٥٨٨ وخربوها ثم أغاروا على منبسة فى عام ١٥٨٩ واتفق ان إغارتهم هذه وقعت فى الوقت الذى كانت فيه الدونيمة البرتقالية تهاجم فيه منبسة بقيادة تومى دى سوزا كوتنهو*

وبالاختصار فما نعلمه عن مدينة منبسة يرجع الى عهد أحدث من عهد رحلة ابن بطوطة . والظاهر ان ماقاله عنها يطابق حقيقة الحال عن هذه المدينة حينما وصل اليها فى رحلته وسنرى الآن ماذكره عن كلوا ، قال :

« وبتنا بهذه الجزيرة ليلة وركبنا البحر الى مدينة كلوا وهى مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ولهم شرطات فى وجوههم كما هى فى وجوه الليميين من جنادة . وذكر لى بعض التجار ان مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا وان بين سفالة ويرفى من بلاد الليميين مسيرة شهر ومن يوفى يؤتى بالتبر الى سفالة . ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عماره وكلها بالخشب وسقف بيوتها الديس والامطار بها كثيرة وهم أهل جهاد لأنهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب .

« ذكر سلطان كلوا

« وكان سلطانها فى عهد دخولى اليها أبو المظفر حسن ويكنى أيضاً أبو المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه . وكان كثير الغزو الى أرض الزنوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ويصرفه فى مصارفه المعينة فى كتاب الله تعالى ويجعل نصيب ذوى القربي فى خزانة على حدة ، فأذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جماز ومنصور بن لبيدة بن أبى نمى ومحمد بن شميلة بن أبى نمى . ولقيت بمقدشو تبل بن كبيش بن جماز وهو يريد القدوم عليه وهـذا السلطان له تواضع شديد يجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف .

« حكاية من مكارمه

« حضرته يوم جمعة وقد خرج من الصلاة قاصداً الى داره فتعرض له أحد الفقراء اليمنيين فقال له : يا أباالمواهب، فقال : لبيك يافقير حاجتك ؛ قال اعطنى هـذه الثياب التى عليك ، فقال نعم أعطيكها ، قال الساعة ، قال نعم الساعة . فرجع الى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثياباً سواها

وخلع تلك الثياب ، وقال للفقير ادخل فخذها فدخل الفقير وأخذها وربطها فى منديل وجعلها فوق رأسه وانصرف فعظم شكر الناس للسلطان على ماظهر من تواضعه وكرمه وأخذ ابنه ولى عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له ذلك فأمر للفقير أيضاً بعشرة رؤوس من الرقيق وحملين من العاج ومعظم عطاياهم العاج وقلما يعطون الذهب .

« ولما توفى هذا السلطان الفاضل الكريم رحمة الله عليه ولى أخوه داوود فكان على الضد من ذلك ، اذا أتاه سائل يقول مات الذى كان يعطى ولم يترك من بعده مايعطى . ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة وحينئذ يعطيهم القليل حتى انقطع الوافدون عن بابه . وركبنا البحر من كلوا الى مدينة ظفار الحموض وهى آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندى »

وتنطبق إيضاحات السائح المذكور عن كلوا كل الانطباق على ماسبق بيانه للقارىء من تاريخ سلاطين كلوا والذى يؤخذ من هذا التاريخ ان السلطان المتولى الأمر فى سنة ٧٣١ هجرية كان هو السلطان حسن كما قال ابن بطوطة فى رحلته . وخاف هذا السلطان أخوه داود

عقب مرور ذلك الرحالة بها باثنى عشر عاماً تقريباً .

أما مايختص ببلاد الليميين التى كانت بها مدينة يوفى*
والتى قال عنها ابن بطوطة بناء على مانقل اليه انها كائنة على
مسيرة شهر من مدينة كلوا فلم يعلم لنا موقعها ولا موقع
البلاد التى كانت هذه المدينة واقعة فى حدودها

ومما يدعو الى الأسف ان ابن بطوطة لم يتوسع فى
البحث فى علاقات مملكة كلوا من جهتي السياسة والتجارة
مع أنها كانت فى ذلك الوقت أهم مركز اسلامى بالساحل
الزنجى وكانت حركة الاستعمار الأسلامى بالغة مبلغها
الأقصى شدة واتساعاً .

ولقد كان باستطاعته أن يوافينا ببيانات جغرافية
أكثر من غيره ولكنه لم يذكر عن المدينة سوى القليل مع
انه أقام بها . واذا سلمنا بالرواية التاريخية المذكورة آنفاً
فأنا نلفى أقواله عنها بعيدة عن مواطن الصواب .

والظاهر من تلك الرواية التاريخية ان ماذكره ابن
بطوطه من ان بيوت المدينة كلها كانت مشيدة
بالأخشاب غير صحيح لأنه قبل حلوله بها بنحو مائة
وثلاثين سنة كان بها حصن ومساكن مشيدة بالأحجار
وكان ذلك على عهد السلطان سليمن حسن . فابن بطوطة لم

يذكر القلعة والمبانى الأخرى كما أنه لم يذكر ان موقع المدينة كان فى جزيرة . ولم يكن ذلك بخاف عليه دون ريب وهو لم ينس قبل هذا الوصف فى كلامه على منبسة ،

على أن كتاب رحلة ابن بطوطه غير خلو من الفائدة بالرغم من ذلك النقص فانه يحتوى بيانات صحيحة وأوصافاً دقيقة للجهات التى زارها اذا قيست بما احتوته منها مصنفات العرب الاخرى فى تخطيط البلدان بل اذا قيست بما كتبه هؤلاء عن مقدشو ومنبسة وكلوا . فانه اذا ضاهينا ماذكروه من ذلك بما كانت عليه أحوال المدن فى العهد الذى دونت فيه هذه المصنفات يثبت أن انتقادنا اياها فى مكانه من الصواب والعدل .

ولنختم جملة البيانات التى استخرجناها من تواليفهم ببضع كلمات عن مدينتى لامو ومقدشو نقلا عن كتاب المنهل الصافى لأبى المحاسن فقد ورد فيه بناء على ما ذكره المقريزى لهذا المؤلف من أن رجلا ولد فى سنة ٧٨٠ هجرية (١٣٨٣ ميلادية) وكان قاضياً بمدينة لامو وهى بلد من بلاد الزنج الكائنة على بحر بربره وعلى مسافة عشرين مرحلة تقريباً من مدينة مقدشو ، وان هذه المدينة طمرت بالرمال على عمق بضع قامات . الى أن قال واليك ما ذكره المقريزى

عن هذا القاضى :

« رأيت بخط الشيخ تقى الدين المقريزى فى ترجمته هذا الرجل قال : قد مر بمكة وأنا بها يعنى صاحب الترجمة فى اخريات سنة تسع وثلاثين وثمانمائه فبلوت منه معرفة بالفقه على مذهب الامام الشافعى وبالفرائض بحيث أنه يحل كتاب الحاوى مع عبادة ونسك . أخبرنا أن القردة غلبت على مدينة مقدشو من نحو سنة ثمانمائة حتى ضايقت الناس فى مساكنهم وأسواقهم وصارت تأخذ الطعام من الأوانى وغيرها وتهجم الدور على الناس وتأخذ ماتجد من آنية الطعام فيصير صاحب الدار يتبع ذلك القرد ولا يزال يتلطف به حتي يرد الأناء بعد أكل الطعام واذا هجم القرد الدار ورأى امرأة منفردة وطئها . قال ومن عادة متملك مقدشو أن يقف أرباب دولته تحت قصره فأذا تكاملوا فتحت طاقة بأعلا القصر فتقع أهل الدولة على الأرض يقبلونها فأذا قاموا وجدوا الملك قد أشرف عليهم من تلك الطاقة فيأمر وينهى ويصرف أمور دولته . فلما كان فى بعض الأيام وقفوا على تلك العادة للخدمة فلما فتحت الطاقة قبلوا الأرض على عادتهم وقدموا فأذا القرد قد جاس على مرتبة الملك وأشرف عليهم .

«قال وتمر القردة طوائف طوائف كل طائفة منها لها كبير يقدمها وهى بأجمعها تمشى من خلفه بتؤدة وترتيب . قال فيرون من تسلط القرد عليهم عقوبة من الله تعالى .

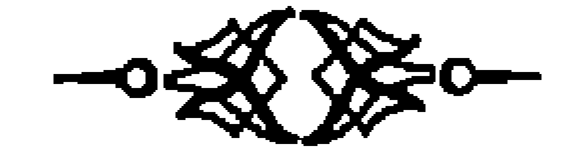
« قال وأن البحر يلقى بساحل لامو العنبر فيأخذه الملك وأن البحر ألقى مرة قطعة عنبر بلغت زنتها ألف رطل ومائتي رطل . قال وشجر الموز عندهم كثير جداً وأنه عدة أنواع منها نوع تبلغ الموزة منه فى الطول ذراعاً وأنه يعمل عندهم من الموز دبس يقيم أكثر من سنة ويعقدون منه أيضاً حلوى ـ انتهى كلام المقريزى بعد ان ذكر شيئاً كثيراً من هذا وهو ثقة والعهدة عليه فيما نقل » (نقلا عن أبى المحاسن من النسخة المحفوظة بدار كتب باريس الأهلية)

والشيء الوحيد الذى يستنتج من قول المقريزى وأبى المحاسن أن مدينة لامو كانت موجودة فى سنة ١٣٨٣ وأنها تأسست فى عهد أقدم من ذلك حتي يقبل أن فى سنة ١٣٨٣ كان بها سكان مسلمون وكان لهم قاض عالم بالشرع الأسلامى .

ويقول القومندان جيان ما ملخصه:

ان هـذا هو أقصى ماأمكننا الوقوف عليه فى المصنفات العربية التى لم تكن موفية بالحاجة فى حين أن

مصنفيها كانوا أولى من غيرهم بأن يزودونا البيانات الصحيحة عن بلاد كانت فى قبضتهم . وبينا كان أبو المحاسن وهو آخر من ذكرناهم من المؤلفين الشرقيين يكتب مانقلناه عنه كانت السفن البرتقالية تتقدم بطول الشاطىء للقارة الأفريقية عن طريق ذلك الرأس المشهور بعواصفه والذى ما كاد البرتقاليون يستكشفونه حتى اسماه ملكهم يوحنا الثانى (صاحب البرتقال وقتئذ) برأس الرجا الصالح .



الباب الرابع

العهد البرتقالي

البرتقاليون يقيمون حكمهم على سواحل شرق افريقيا

أقامت فتوحات الاسلام سداً منيعا فى وجوه الامم الأوربية دون طريق الهند ولكن أنظار اليونان والطليان كانت لاتزال متجهة الى أرض مصر التى كانوا يقبضون على زمامها فى العصور الخالية وكانوا يرون فيها الحاجز المنيع دون وصولهم الى ما كانت تطمح اليه أبصارهم من السيادة على البحار والملاحة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى .

فكر المسيحيون آنئذ فى الحروب الصليبية التي كان من أخص نتائجها اتساع نطاق القوى البحرية عند البنادقة ونشاط حركة تجارتهم بالرغم من مزاحمة الجمهوريات والحكومات المجاورة والمعادية لها كجنوة مثلا .

وقد اخترعت البوصلة فى ذاك العهد واختراعها منسوب الى فلافبو جيوجا* وكان من أهل أمالفى القريبة من نابلى. ولكن هذا الاختراع لم يبدل من أحوال الملاحة تبديلا سريعاً لأن النوتية كانوا قد اقتصروا فى استعمالها بادىء ذى بدء على اعتبار أنها أداة ثانوية لا أداة أصلية فى الاسترشاد فى خضمات البحار. ولكن اتفق ان استكشافها جاء فى وقت كانت أوربا شديدة العناية فيه بتوسيع نطاق نفوذها بالخارج . وبينا كانت البندقية وجنوه تغصان بالاموال الزاخرة التى هاجت حسد البلاد الأخرى ظهرت امة غربية كانت طامحة الى الشرق منذ زمن طويل.

وبعد أن اخرج العرب من بلاد اندلس التى اعتاد سكانها مشاهدة ما كان يجلب اليها فى عهدهم من نفائس الأعلاق ونوادر التحف حرمو النظر اليها والتمتع باقتنائها منذ أفل نجم العرب ودالت دولتهم فيها فأخذوا يفكرون فى الاستحواز من جديد على تلك النفائس من مصنوعات الشرق وحاصلاته وغيرها مما كانت تقصر مجهودات البنادقة والجنوبين عن استيراد ما يفى منها بحاجات الراغبين فى احرازها . ومن ثم عنت لدول البحار فى اوربا فكرة فتح ممر لها الى جهة الهند من ناحية بحره المحيط .

وكان البرتقاليون فى طليعة الأمم التى ألقت بنفسها فى غمار الاستكشافات البحرية العظيمة .

وكان الملك هنرى البرتقالى المشهور بسعة العلم وشدة الشغف بالملاحة قد عرف شيئاً كثيراً عن بلاد غينا* وسكان أفريقيا الداخلية . وادرك احتمال الوصول الى تلك البلاد بطريق المحيط فعزم على مكافحة هذه الصعاب مهما بلغت وكان الملك هنرى لم ينفك منذ خمس عشرة سنه عن ان ينفذ فى كل عام سفينة لاستكشاف سواحل أفريقيا الغربية ولكن رجال سفنه هذه لم يصلوا الا الى رأس نون* ووقفوا دون رأس بجادُر* وفى سنة ١٤١٨ تطوع اثنان من النبلاء فى بحرية هنرى وانبريا لتحقيق هذا الغرض فاشتطا السواحل، غير ان الجهود التى بذلاها ذهبت هباء تجاه تيار رأس بجادر . الا أن الحظ الذى خانهما عاد فآتاهما وساعدهما على قضاء لبانتهما . ذلك ان هبت عاصفة شديدة اقصتهما عن الساحل وطرحتهما بعيداً حتى أيقنا الهلاك . فلما هدأت العاصفة رأيا جزيرة فاسمياها بورتو سانتو أي ثغر السلامة .

وقد حفز هذا الحادث دون هنرى لبذل مجهودات جديدة، فقد أنفذ الى الجزيرة تجريدة بحرية مؤلفة من

ثلاث سفن بقيادة زاركوفاز* وبارنولوميو بيريسترللو* .
وبينا كان هذان الربانان بتلك الجزيرة شهدا عند الأفق
نقطة سوداء فقصدا اليهافوجدا أنها جزيرة غير عامرة وانها
كثيرة الغابات والاحراش ، فأسمياها بهذه المناسبة باسم
ماديره من ماديره التى معناها باللغة البرتقالية الخشب أو
الغابة . ولم يتقدم البحرية البرتقاليون فى مدة الخمس عشرة
السنة التى اعقبت هذا الاستكشاف الى ماوراء الجزيرة
المستكشفة حتى حلت سنة ۱٤۳۳ فتمكن رجل يدعى جيل
إينس* من الطواف حول رأس بجادر ولما عاد الىأوربا قال
ان الملاحة سهلة فيما وراء هذا الرأس .

وكان الملك دون هنرى قد استحصل من البابا مارتان
الخامس على عقد هبة أبدية بكل الاراضى والجزر التى
تستكشف بين رأس بجادر والهند وبراءة الرحمة والغفران
لكل من هلك فى أثناء العمل لتحقيق أمانى تلك البعثات
ألا وهى انتزاع تلك البقاع من براثن الوثنية .

وفى سنة ۱٤٤٤ عهد دون هنرى الى أنتام كونسالف*
ونونو ترستام* بمهمة مواصلة تلك الاستكشافات فتقدم
ثانيهما حتى بلغ الى رأس بلان أى الرأس الأبيض الكائنة
على بعد مائة وخمسين فرسخاً تقريباً من رأس بجادر . وفى

بعثة ثانية استكشف جزيرة أرغين* وبعض جزيرات السكاب فير (الرأس الأخضر) واستكشف السواحل حتى وصل الى سييراليونه*.

ولما عاد الى البرتقال وقد جلب معه بعض العبيد وتبر الذهب من ريودى أورو* وهى خليج صغير كان رسا به غونسالف اشتد حرص البرتقانيين واعتزوا وافتخروا وكانوا فى خلال تلك المدة قد تدربوا ومهروا فى فن الملاحة فلما انتشرت تلك الأخبار بأوربا قصد الى البرتقال كثير من البحرية الأجانب ولاسيما من الايطاليين فرحب الملك دون هنرى بكل من كان له إلمام بعلم الفلك والملاحة منهم. وفى سنة ١٤٤٤ أرسل فيسنت دى لاغوس* وألويز دا كادا موستو البندقى* لاستكشاف سواحل أفريقيا فتوجهت تلك السفن الى الرأس الأبيض والى غمبيا* وهناك كان الجنوي انتونيو دى نوفا* الذى أنفذه دون هنرى للغرض نفسه. أما كادا موستو فقد قام برحلتين على هذه السواحل وارسلت بحارة غيرهم الى تلك البلاد وبواسطتهم تمكن دون هنرى من ان يجعل لمملكته مستعمرات واسعة ويؤسس تجارة عظيمة، وقد مات فى سنة ١٤٦٣ فى السبعين من عمره وبرهن بعمله للعالم على انه

من المستطاع بدون ريب أن تمخر السفن فى المحيط الاطلنطى الجنوبى .

وفى خلال تلك المدة التى اهتم الملك المتوفى فى أثنائها بهذا الامر لم يستكشف سوى الف وخمسمائة ميل بطول الشاطىء الغربى ولم يبعد أحد من رجاله بعد وفاته عن الدرجة السادسة أو الثامنة من العرض الجنوبى وراء خط الاستواء .

وفى عهد الملك دون ألفونس أي فى سنة ١٤٦٩ حصل التاجر فرناندوغومز * على امتياز بالاتجار فى بلاد غينا وتعهد بأدارة شؤون خمسمائة فرسخ من السواحل الجنوبية وبهذه الكيفية استكشف جزر فرناندوبو * وجزيرة برنس وسان توماس وأنوبون * .

وفى خلال المدة بين سنتى ١٤٦٣ و١٤٨١ استكشف البحارة البرتقاليون كل سواحل غينا وكذا الخلجان وجهات بنين * وبيافرا * والجزر المجاورة لها وتقدموا حتى وصلوا الى الحد الشمالى لمملكة الكونغو .

ولما تولى الملك جان الثانى ازداد حماس البحارة البرتقاليين فطلب هذا الملك من البابا تأييد الامتيازات والحقوق التى التى منحت لسلفه دون هنرى واستحصل من ملك انكلترا ادوارد الرابع على وثيقة بالكف عن كل تدخل

فى جهات السواحل المتنازل عنها من قبل البابا لملك البرتقال .

وفى سنة ١٤٨٤ وصل غاما الى ما وراء رأس سانت كاترين ووصل الى مصب ذلك النهر العظيم الذى كان معروفاً عند سكان تلك البلاد باسم زاير* وسمى بعد ذلك باسم نهر الكونغو .

وفى رحلة ثانية شرع فى استكشاف الجهات الساحلية التى وراء هذا النهر ولكن لم يعلم لنا المكان الذى وصل اليه .

وقد بثت هذه النتائج فى الملك جان روح الاقدام والنشاط فتأهب لانجاز مشروع كبير اذ اعتزم مواصلة الجهود حتى يبلغ الى بلاد الهند براً وبحراً فى آن واحد . فكلف كلا من پرو دا كوفيلهام* وأفونسو دى بايفا* بالبحث عن طريق يخترقان فيه أفريقيا وآسيا لكى يصلا الى الهند وجهز من جهة أخرى ثلاث سفن إحداها للمؤن تحت إمرة بارتولوميو دياز* وكان من رجال حاشيته .

فسافر بارتولوميو قاصداً الى الساحل الغربى لأفريقيا فى آخر أغسطس سنة ١٤٨٦ ، فلما وصل الى سييرا پاردا* الكائنة على درجة ٢ تقريباً من مدار الجدى وعلى بعد مائة وعشرين فرسخاً تقريباً من ابعد نقطة استكشفت حتى ذلك الوقت واتجه بجنان ثابت نحو الجنوب . ولكن

العواصف طوحت به الى جهة الشرق فرسا على أرض أسماها دوس فاكيروس* أى أرض رعاة البقر وبمناسبة ما وجده عند أهل البلاد من القطعان الكثيرة ، وكان إذ ذاك على بعد أربعين فرسخاً شرقى الرأس الذى كان يبحث عنه وكان قد طاف حوله وهو لا يدرى . ثم استمر فى طريقه الى جهة الشرق حتى وصل الى جزيرة أسماها سنتا كروز* ، ثم الى خليج دالاجوا* . ولكن كانت سفينة المؤن قد انفصلت عنه وشحنت عنده المؤونة وضجر رجاله فعقد بارتولوميو النية بالرغم من هذه المصاعب على التقدم فى مدى خمسة وعشرين فرسخا كان لا يزال فيها يبحث عن الرأس (رأس الرجاء الصالح) .

وهنا الشاطىء ينحدر الى الشرق فلما سار البرتقاليون فى هذا الاتجاه وصلوا الى نهر أسموه ريودو أنفانتى* وهو النهر المعروف باسم نهر السمك ، وعند هذا الحد اعتزم البرتقاليون الوقوف والاستقرار ولحسن حظهم ادركتهم فيه سفينتهم الثالثة التي كانت أضلت الطريق .

وبعد ان عين بارتولو ميو بدقة موقع الرأس عاد الى لشبونة (عاصمة البرتقال) فى دسمبر سنة ١٤٨٧ بعد إذ أسماه أوكابوتورمنتوزو* تذكاراً للعواصف الشديدة التى

هبت عليه فأسماه الملك أوكابو دى بوا إسپرانسا أى رأس الرجاء الصالح .

أما المبعوثان اللذان سافرا براً عن طريق فاس وتلمسان والطور وبلاد العرب وعدن فأن أحدهما وهو كوفيلهام وصل الى الهند أما الثانى فذهب الى بلاد الحبشة . وقد وصل أولهما الى كاليكوت* وكنانور* وجوا ثم الى سفالية ليرى معادن الذهب . وعلم أن پايفامات بمصر فسافر الى بلاد الحبشه وعزم على البقاء بها ولما حضر رودريجو دى ليما* الى الحبشة سفيراً من قبل ملك البرتقال فى سنة ١٥٢٥ وجد بها هذا الرحالة وقد قوس ظهره الهرم .

وكان كوفيلهام قد كتب لملك البرتقال يقول ان بالامكان الوصول الى بلاد الهند بحراً عن طريق رأس الرجاء الصالح واكد له فى رسالته أن النوتية من الهنود والعرب يعرفون تلك البلاد معرفة تامة .

وبعد استكشاف رأس الرجاء الصالح بعشر سنوات جهز الملك عما نويل ثلاث سفن تحمل ستين رجلا وجعلها تحت قيادة فاسكو دى غاما فسافر هذا فى ٨ يوليو من عام ١٤٩٧ قاصداً الى جزائر الرأس الأخضر ثم واصل السير فى طريقه الى الجنوب حتى رسا بخليج القديسة هيلانه . ولما برح

هذه النقطة وصل بعد مضى يومين الى أقصى نقطة جنوبية من الساحل الأفريقى . وهنا عاكسته رياح الجنوب فاستمر مواصلا السير بطول الساحل الجنوبى حتى رسا فى خليج القديس بليز ومنه وصل الى جزيرة ساتتا كروز التي هى الحد الأقصى لاستكشافات دياز ، ورجاء الاهتداء الى البلاد التي زارها كوفيلهام براً استمر غاما فى طريقه وسار مشتطا الساحل دون ان يبعد عنه وكان ينزل الى البر أحيانًا ليتزود الأخبار والتعليمات فوصل الى بلاد سفاليه وكان يظن انه سيجد بها كوفيلهام وفى أوائل مارس من عام ٤٩٨ رسا امام موسامبيق . فقابل أهل البلاد غاما . بمظاهر الود واكرموا مثواه ومن معه ظنا منهم ان البرتقاليين من المسلمين وقد جاءوا من بلاد المغرب . وكان سكان جهات موسامبيق وثنيين ، ومنهم عرب مسلمون وكانت سفنهم مزودة بآلات الاهتداء كالبوصلة وخرائط بحرية وآلات لأخذ ارتفاعات الشمس . واتصل بعلم غاما هنا ان موسامبيق تابعة لسلطان كلوا وان بها واليا معينا من قبله . وكان اسمه الوالى الحاكم وقتئذ زاكويجه * فقيل لغاما ان كلوا هى اشهر ثغور كل هذه البلاد ، وان السفن تجيئها من بلاد العرب والهند وتجلب اليها البضائع الكثيرة

والخيرات الوفيرة وذكر له شيئاً عن بلاد سفالية وما يستخرج منها من الذهب فطلب غاما بعض الربابنة ليوصلوه الى كاليكوت فانفذ معه والى البلد اثنين منهما .

ولكن العلاقات بين غاما وأهل البلاد توترت ثم انقطعت حينما علم هؤلاء ان البرتقاليين قوم من النصارى وبرز لهم العرب بالعداء فاضطر غاما الى الاقلاع بسفنه متجها صوب كلوا دون ان يتمكن من الرسو عليها فنصحه الدليلان بالتوجه الى منبسة وقالا له أن بها نصارى . وكانت تلك المدينة حصينة بالمدافع وفيها حامية وكانت البقول والمؤن والماء الصالح للشرب والماشية متوافرة بها وكانت جيدة المناخ طيبة التربة مشيدة المنازل على طراز حسن . ولذا اعتزم التوجه اليها غير أنه أيقن فيما بعد أن دليليه إنما أرادا خيانته وخدعه فابتعد عن البلد قاصداً الى ملنده .

وهناك وجد حاكماً يدعى وجراج* لم يستطع الخروج اليه من قصره لطعونه فى السن فأوفد اليه ولده علياً فقابله غاما مقابلة حسنة . وطابت لغاما الاقامة بهذه الجهة ثم أرفق بعض الادلاء الماهرين به لمساعدته وطلب اليه ان يمر بملندة بعد رحلته ببلاد الهند لأن فى عزمه ان يبعث بوفد رسمي الى ملك البرتقال ليحالفه محالفة ودية .

وفى ٢٢ ابريل برح غاما بلدة ملندة فبعد بضعة أيام مر بخط الاستواء وفى ٢٨ مايو سنة ١٤٩٨ رست السفن بقربة من كاليكوت . فتحققت بذلك أمانى دون هنري .

وبعد أن أقامت السفن البرتغالية فى مياه الهند زمناً طويلا عادت الى الساحل الأفريقى الشرقى من الشمال الى الجنوب وأطلقت المدافع على مدينة مقدشو وهدمت عدداً كبيراً من المنازل واغرقت بعض السفن ثم رست بملنده حيث أخذت المؤن اللازمه والهيئة الموفدة وأبحرت بعد خمسة أيام .

وفى يوم ٢٢ ابريل سنة ١٤٩٩ وصلت الى جزيرة زنجبار فرحب أهلها بالبرتقاليين رغم كونهم من المسلمين وزودوهم حاجتهم من الغذاء والفاكهة ومرت السفن بعد ذلك بطول شاطىء موسامبيق وأخذت ذخيرتها من الماء فى سانت بليز ثم طافت برأس الرجاء الصالح ورست بترسيرة* حيث مات أخ لفاسكودى غاما كان يدعى بولص ووصلت السفن الى لشبونة فى شهر ستمبر سنة ١٤٩٩ فكوفىء غاما أحسن مكافأة وكان قد هلك الثلثان من نوتيته .

وقد اغتبط الملك عمانويل بهذا الفوز العظيم وافتخر به

وكان هذا الاغتباط والافتخار مما حفزه الى تجهيز تجريدة بحرية كبرى جعلها مؤلفة من ألف وخمسمائة جندى كاملى السلاح والعدة والمدافع والمؤن والذخيرة بقيادة رجل من الأعيان اسمه بدرو الفاريز كبرال * فأبحر بدرو فى ٨ مايو سنة ١٥٠٠ فما وصل الى جزيرة سان جاك حتى فصلت العواصف إحدى سفنه وأقصتها عن بقية السفن ودفعتها الى نقطة من السواحل لم تك معروفة . وكان ذلك فى ٢٤ أبريل فسمى كبرال هذه الأرض الجديدة باسم سانت كروا واذا بها بلاد البرازيل . وقد برحها فى ٥ مايو وفى يوم ٢٨ منه اغرقت عاصفة اربعاً من سفنه وواصلت السفن الباقية السير فى طريقها فهبت عاصفة أخرى وفرقت بين السفن بعضها البعض وزلت احداها عن الطريق فوصلت الى الخليج العربي فعاد الربان الى بلاد البرتقال بعد أن لم يبق معه سوى ستة من رجاله وقصدت السفن الست الاخرى الى موسامبيق ورست بها فى ٢١ يوليو .

ولماتذكر سكان هذه المدينة معاملتهم غاما بالجفاء والعداء ورأوا أن قوما تصحبهم قوات عظيمة تظاهروا لهم بالوداد وحب التقرب منهم لزموا السكينة وارتاح البرتقاليون لذلك وأخذوا ربانا وذهبوا قاصدين الى كلوا .

وكان كبرال يسير على مقربة من الساحل فاستكشف جزراً عديدة وكانت كلها تابعة لسلطان كلوا ووصل الى هذه المدينة فى يوم ٢٦ يوليو . وهنا سلم كبرال ما كان معه من الرسائل المسلمة اليه من ملك البرتقال للسلطان ابراهيم الذى كان حاكماً على كلوا فى ذلك العهد فتدخل العرب فى الامر وافهموا السلطان أن البرتقاليين قوم ذوو حرص وطمع وانهم يريدون الاستيلاء على البلاد . فماطل ابراهيم فى عقد المحالفة وتهيأ للذود عن المدينة . فأبلغ عمر اخو شيخ مانده الى كبرال حقيقة الواقع فأقلع كبرال قاصدا الى ملندة فأحسن شيخها الهرم لقاءه ومعاملته وأرسل مؤنا كثيرة الى سفنه وكان كبرال قد جلب معه الهيئة الموفدة من الشيخ مع غاما الى بلاد البرتقال وكانت الهيئة تحمل الهدايا الفاخرة التى ارسلها الملك عمانويل برسم الشيخ فتسلمها منهم مغتبطاً وألح على كبرال بالمقام أياماً فى بلاده يريد بذلك الاستعانة به على شيخ منبسة وكان أمنع منه ركناً وأوفر مدداً وكان الشيخ يخشى أن يقتص منه ويعاقبه على ما أظهره من الولاء والود للبرتقاليين وكان قد خسر كثيراً من رجاله وأمواله فى حروب مع صاحب منبسة ولكن كبرال كان يروم الذهاب الى بلاد الهند فأبى أن يطيل

اقامته فى ملنده ولكنه أنزل الى البر رجلين ناط بهما الذهاب الى الحبشة لدرس عادات أهلها وجمع بيانات ومعلومات عن ملكها الذى يدين بالنصرانية ويعرف فى أوربا باسم القس يوحنا فغادر كبرال بلدة ملندة فى ٧ أغسطس قاصداً الى بلاد الهند وظل بها حتي سنة ١٥٠١ ثم عاد الى البرتقال فوصل اليها فى آخر يوم من شهر يوليو.

وقبل عودته الى وطنه كان الملك عمانويل قد أنفذ الى بلاد الهند أربع سفن بقيادة جوان دى نوفا فرست على موسامبيق وكلوا وملندة واستكشفت فى طريقها جزيرة الكنسبسيون وفى عودتها استكشفت جزيرة القديسة هيلانة.

وفى سنة ١٥٠٢ أرسل الملك عمانويل فاسكو دى غاما الى بلاد الهند ثانياً، على رأس عشر سفائن، ثم خمس سفن أخرى بقيادة القومندان فيسنت سودرى* وقد عهد اليها الطواف فى بحر الهند ومحاربة السفن العربية. فسافرت من بلم القريبة من لشبونة فى العاشر من فبراير وتبعتها تجريدة ثانية من خمس سفائن تحركت فى ٥ ابريل بقيادة دون استفام داغاما*. وكان عمانويل يرمى الى الفتح وادخال البلاد المستكشفة تحت حكمه وادماجها فى ممتلكاته والقضاء

على أعداء المسيحية وادخال سكان الهند الشرقية فى الديانة النصرانية .

أما فاسكو دى غاما فبعد أن رسا بسفالية وقف بمياه موسامبيق مرة أخرى وكان الشيخ الذى أساء اليه وخشن فى معاملته فى رحلته الأولى قد مات فأحسن خلفه معاملة البرتقاليين وبنى غاما بموسامبيق سفينة خصصها لمراقبة السواحل ثم انتقل الى كلوا ورسا بها وأدركه أخوه هناك بسفنه فبلغ عدد السفن التى تحت إمرتهما تسع عشرة سفينة فارتاع ابراهيم لمرآها وبادر بطلب الصفح من القائد البرتقالى فسجنه غاما ثم أخلى سبيله بشرط أن يؤدى الى ملك البرتقال جزية من الذهب وكذا أخلى سبيل محمد عنكونيج * وكان ذا منزلة فى بلاده . ولما أطلق سراح ابراهيم أبى أن يدفع المبلغ المعين ، وكان يعلم أن غاما سينتقم من محمد فأفضى محمد الى غاما بأسرار ابراهيم وأطلعه على دخيلته وأدى اليه المبلغ المطلوب من ماله الخاص فأخلى غاما سبيله وعزم على الرحيل الى ملندة . ولكن حالت الرياح دون تحقيق أمنيته فذهب بسفنه الى خليج يبعد عنها بخمسة عشر فرسخا ومنه اتجه صوب بلاد الهند . ولما دنا من البر التقى بسفينة كبيرة من سفن سلطان مصر محملة بالأفاويه والاطعمة الطيبة .

وكان بها قوم يقصدون الى مكة لأداء فريضة الحج ، فأمر غاما سفنه بمهاجمتها . وبعد أن نهب ما كان بها وذبح كل ركابها إلا عشرين طفلا أمر بأغراقها . وقد أفضى تصرف غاما على هذا الوجه الى المعارك التي حدثت فيما بعد بالمحيط الهندى بين النصارى والمسلمين .

وكان الملك عمانويل يواصل إرسال التجريدات فيتبع التجريدة بأخرى وكان كل من الأخوين أفونسو وفرانسسكو ألبوكرك* على رأس ثلاث سفن فسافرا فى سنة ١٥٠٣ لأمداد البرتقاليين وملك كوشيم* ببلاد الهند . وكانت تجريدة أخرى سافرت لمراقبة البحر الأحمر ومطاردة السفن العربية التى كانت تروح وتغدو فيه وفى بحر الهند . ونيطت هذه المهمة بأنطونيو دى سلدانها* . فانفصلت إحدى سفنه الثلاث التى كانت بقيادة ديوغو فرناندس بريرا* بسبب هبوب العواصف وألقت بها الرياح على شاطىء ملنده . وفيما كان بريرا يقصد الى الخليج العربى استكشف جزيرة سقطرة فقضى الشتاء بها .

أما انطونيو دى سلدانها فزل عن طريقه لجهل الربان ورسا على جزيرة سان توماس الواقعة على خط الاستواء . وعند رحيله منها هبت الرياح ففصلت عنه

سفينة أخرى بقيادة رودريجو لورنسو رافاسكو* فوصل هذا بسفينته الى موسامبيق ورسا بكاوا حيث انتظر سلدانها بها يوماً فلما لم يحضر رحل رافاسكو الى زنجبار وطاف بجزيرتها شهرين أسر فى خلالهما عشرين سفينة محملة بالبضائع ، ولم يخل سبيلها الا بعد ان اخذ إتاوة عليها من اصحاب البضائع . وقد اغتاظ سكان زنجبار من هذه المعاملة وكذا أهل الجزر الأخرى وكره البرتقاليين كثيرون ممن كانوا يوالونهم قبلا . ولم يصغ رافاسكو لما أقيم عليه من الاعتراضات فعندئذ جهز حاكم زنجبار بضع سفن صغيرة وألقى بها ضد البرتقاليين . ولكن رافاسكو تمكن من أسر أربع منها وألزم السفن الباقية ملازمة الفرار . ومات ابن شيخ زنجبار فى هذه المعركة واضطر حاكمها لهذا السبب الى الاعتراف بسيادة ملك البرتقال على بلاده وقبل أن يؤدى اليه الجزية سنويا .

ولما زار فاسكودى غاما زنجبار لأول مرة فى سنة ١٤٩٩ كانت جزيرة سكانها من الكفر والمغاربة وكان بها الخشب السميك والماشية بقدر كبير . وكان أهلها يتجرون بدرقات السلاحف والعنبر والعاج وشمع العسل والعسل والأرز، وكانت تصنع بها الحبال من قشور شجر النارجيل

والاقمشة الحريرية والقطانى ، وكان لها ثغر جيد . وبعد ان عقدت المعاهدة التى اصبحت جزيرة زنجبار بمقتضاها تابعة للبرتقال رحل رافاسكو قاصدا الى ملنده .

وكانت بين شيخ هذه المدينة وحاكم منبسة حرب عنيفة فوصل رافاسكو الى منبسة وحارب سفينتين موسوقتين بالبضائع فغنمها هما ومن فيهما . وكان بين الأسرى اثنى عشر مغربيا من اغنى ومن أكبر اعيان مدينة بروه، وكانوا ينتظرون بمنبسة سفينة موسوقة ببضائع ثمينة جداً . ولم يكتف هؤلاء التجار لينقذوا بضاعتهم بدفع فدية عن أنفسهم بل سلموا مدينتهم واقسموا بالايمان لئن يكونوا مع مواطنيهم على الدوام من اصدق رعايا ملك البرتقال واشدهم ولاء له . ففرض رافاسكو على المدينة مقداراً من الذهب وجاء سلدانها ورسا فى ثغر منبسة تتبعه ثلاث سفن مما غنمه ، فلما رأى شيخها هذه القوة الجديدة تولاه الخوف واسرع بمصالحة أهل ملنده . وسافر سلدانها الى الهند حيث كانت الحاجة ماسة الى إمداد مواطنيه الموجودين بها .

ولم تتوطد سلطة البرتقاليين فى الساحل دون منازعات ومصاعب . فان العرب كانوا يطرقون كل باب لاثارة

خواطر الاهاين على مزاحميهم البرتقاليين وطردهم من المراكز التجارية التى كانوا هم أصحاب التصرف المطلق فيها وهمّ ملك كاليكوت بمحاربة البرتقاليين بناء على استدراج العرب اياه الى ذلك بعد ان رحب بهم فى بادىء الأمر كما حارب ملك كوشيم لما اظهره من الانحياز الى ملك البرتقال والولاء له .

ولكن تطور الاحوال التجارية على أثر ظهور البرتقاليين افضى الى انقلاب لم يقتصر على الجهات المجاورة بل تناول اقصى البلاد بعداً كما سنرى .

لم تكن المعاملات التجارية قاصرة فى ذلك الوقت على بلاد الهند اى البلاد الكائنة قبل نهر القنج* وفيما وراءه ، بل كانت تمتد الى الشاطىء الشرقى لبلاد الصين ، بل الى تلك الجزر العظيمة المتناثرة بالأقيانوس .

فالمغاربة والوثنيون كانوا يعملون فى التجارة . وكانت الرياح الموافقة اذا هبت تواردت صنوف البضاعات من العقاقير والأحجار النفيسة والمنسوجات الفاخرة والذهب والفضة الى غير ذلك من حاصلات شبه الجزيرة التى كان الاقدمون يسمونها شرزونيز الذهب وقرنفل جزائر ملوقة والجوز والبسباسة وخشب الصندل وغيرها من حاصلات

تيمور* وكافور بلاد برنى* والعطر والأفاويه وخيرات بلاد الصين على أنواعها وجازه وسيام وغيرها مما كان يؤتى به الى ملعقة* التى كانت أغنى مركز للتجارة واعظم سوق فى بلاد المشرق .

وهناك كان سكان البلاد الكائنة غربى هذه المدينة يقايضون على ما كانوا يجلبونه اليها من ذلك بالحاصلات الخاصة بهذه الجهة .

وكانت عروض التجارة تزداد كلما أوغل الانسان نحو المغرب فكان يزيد عليها شمع بيجو* ومنسوجات بلاد بنقالة* ولؤلؤ وماس نور سنجا* وقرفة جزيرة سرنديب أى سيلان وعقاقير وبهارات سواحل ملبار على اختلاف صنوفها مما كان الاتجار به من بواعث اشتهار كاليكوت وكمباى* وعدن الواقعة على مقربة من مضيق البحر الأحمر ومدينة هرموز* الكائنة بجزيرة جرون* بمدخل الخليج الفارسى . وكانت الحاصلات التركية والاوربية تجمع بهرموز وكان يبادل عليها بمحصولات الشرق . ولما كانت البضاعة تجمع فى هذه النقطة المركزية فقد كانت تصدر بطرق مختلفة وكان جزء منها يحمل من طريق الخليج الفارسى الى مدينة البصرة ومنها بالقوافل إما الى بلاد ارمنيا وطرابزون

وبلاد التتر وإما الى حلب ودمشق او الى ثغر بيروت حيث كان البنادقة يترددون مع الجنويين وتجار كتلانة باسبانيا وكانوا هم القابضين على زمام هذه التجارة .

أما الجزء الآخر من البضاعة فكان ينقل بحراً الى ثغور البحر الأحمر ومنه يصل الى السويس أو الى الطور ومنهما كانت القوافل تحمل العروض الى القاهرة ومنها فى النيل الى الاسكندرية ثم كانت تنقلها سفن الأمم السالفة الذكر الى البلاد الأوربيه .

ومهما يكن اختلاف وسائل النقل ومسالكه فقد كانت البضائع تمر ببلاد سلطان مصر (وكان معروفا عند الفرنجة وقتئذ باسم سودان مصر وربما كانت تحريفاً لكلمة سلطان) ، وكانت بلاد هذا السلطان تمتد قبل ان يستولى عليها سلاطين آل عثمان من الحد الشرقى لتونس ومن الرأس الذى يسميه البحرية برأس أسين* وبطليموس برأس بوريه* لغاية خليج لاراز* وكانت به المدينة المسماة بهذا الاسم ، وكانت على هذه المسافة التى تبلغ ثلثمائة وستين فرسخاً تقريباً ثغور عديده .

أما من جهة القارة فكانت بلاد سلطان مصر تترامى على النيل الى جنوب طيبه أى الصعيد الاعلى فمدينة

بطوليمائيس القديمة واسمها فى وقتنا إسنا ثم تترامى الى البحر الأحمر .

وفيما وراء البحر الأحمر كانت تمتد الحدود الى بلاد العرب بطول الاملاك التابعة لشريف مكة فالى بير* الكائنة على نهر الفرات ثم تصل الى خليج لاراز . فكان يدخل فى نطاق هذا الملك الواسع النطاق جزء كبير من صحراء بلاد العرب وبلاد العرب الحجرية ويهوذا وجزء كبير من بلاد الشام وجميع قطر متسر أو مصرايم وهو الاسم الذى يسمى اليهود والعرب به بلاد مصر .

وكان سلطان مصر وقتئذ قنصوة الغورى وكان السلطان سليم صاحب البلاد العثمانية وكان بركات شريف مكة وحامد صاحب عدن وسيف الدين الثانى حاكم هرموز ومحمود الاول صاحب جوزرات .

وكان ظهور البرتقاليين قبل خمس سنوات بتلك البحار سبب دمار املاك كل هؤلاء الأمراء وتجارتهم وخصوصاً فيما يختص بالحج الى بيت الله الحرام لأن البرتقاليين كانوا يأسرون الحجاج فى مدخل البحر الأحمر وكان اسمهم مكروها والكل يفكرون فى اهلاك هذا العدو اللدود .

وكان العرب الذين يتجرون بسواحل بلاد الهند

قد عزموا بسبب مالحق بهم من أذاهم على ارسال وفد للاستنجاد بسلطان مصر واقنعوا الزامورين* بان يرسل مع الوفد هدايا . وانتدب حاكم عدن واحداً من الاشراف وكان الكل يرجون من سلطان مصر ان يتدخل فى الأمر وان يدفع عنهم هذه الكارثة أو يقفها عند حد .

وكان السلطان متبرما من البرتقاليين لأنهم حولوا مجرى التجارة من طريق الى طريق آخر ، فكان أول ماشرع به ان بعث الى البابا كتاباً بملاحظاته فى هذا الصدد وكان حامل الكتاب قسا من دير القديسة كترينه (بالطور) فأرسل البابا الكتاب وحامله الى ملك البرتقال ولم يؤد سعى سلطان مصر الى نتيجة . ولما رأى السلطان ان لافائدة من سعيه اعتزم الاعتماد على القوة فبدأ فى بحر الهند عهد سفك الدماء الذى انتهى بفوز البرتقاليين . وما كاد قس دير القديسة كاترينة ناقل كتاب سلطان مصر يصل الى لشبونه حتى قامت قوة بحرية بقيادة دون فرنسسكو دالميدا * الذى كان عين واليا على بلاد الهند فسافرت السفن من لشبونه فى ٢٥ مارس سنة ١٥٠٥ وفى شهر يوليو وصلت الى كلوا .

ولما وصل دالميدا الى هذا الثغر أوفد الى صاحبه

ابراهيم وفدا يحمل اليه تحيته ولكن ابراهيم كان قد فر من المدينة ليلا ، فانضم جنده الى محمد عنكونيج لمقاومة هجوم البرتقاليين ، فنزل دالميدا الى البر ودخل المدينة على رأس خمسمائة رجل ففر منها محمد والسكان وكل الجند ولما أصبح دالميدا صاحب الأمر فى كلوا لاينازعه منازع فيها أمر ببناء قلعة ثم طلب من السكان الفارين من المدينة ان يعودوا اليها واعداً اياهم بصيانة ارواحهم وأموالهم وبأن يعين محمداً حاكما على مدينتهم لانه كان محترما ومحبوبا منهم فقبلت وعوده وعاد السكان الى المدينة وفى مقدمتهم محمد معينا سلطاناً من قبل ملك البرتقال وفرضت عليه جزية صغيرة جهر محمد بأنه تابع للملك عمانويل .

ولم يك محمد رجلا طموعا فقد قال لألميدا إنه لو كان السلطان الفضيل* الذى قتله ابراهيم غدرا قد بقى حياً لتنازل له عن سلطته وملكه . ولكن لما كان لهذا السلطان ولد لايجوز حرمانه من الملك فقد طلب الى ألميدا ان يجعله سلطاناً على كلوا .

فتعجب البرتقاليون لنزاهة محمد وجاءوا بالأمير الشاب وعينوه سلطاناً . وقد سبق لنا ان بينا كيف أصبحت كلوا من أهم مدن الساحل فمنها خرج اكبر شطر من السكا

العرب الذين استوطنوا القارة اوسكنوا الجزر المجاورة وبعض موانىء جزيرة سان لوران او مدغشقر . ومركز كلوا بين مقدشو ورأس كوريانتس كان السبب لرقيها السياسى . ولما انفسح امامها المجال لامتداد نطاق نفوذها شمالا وجنوبا أصبحت حاكمة على منبسة وجزر پمبا وزنجبار ومافيا وقر والجهات الأخرى العديدة التى تأسست فيها مراكز مهمة لوفرة خيراتها . ولكن كان نجمها آخذاً بالأفول حتي قبل حضور البرتقاليين لما انبث بين أهلها الشقاق مرات عديدة عقب وفاة بعض حكامها .

وبعد أن شيد ألميدا الحصن وأسماه حصن سنتياغو جعل به حاكما وحامية ثم سافر فى ٨ أغسطس الى منبسة فوصل اليها يوم ١٣ منه باحدى عشرة سفينة وثلاثة قوارب وبعد ان تأكد له عمق البحر وكفايته لحمل السفن أرسل الى الملك يدعوه الى الطاعة . فرفضها فهاجم المدينة وأخذها عنوة وأضرم النار فيها .

وسافر ألميدا بعد ذلك قاصداً الى ملندة ولكنه لم يستطع الدنو منها فقصد الى انجديو* حيث أقيم حصن بناء على ارشاداته وبعد زمن تواردت الأخبار بالتعدي على حياة محمد حاكم كلوا بايعاز من ابراهيم حاكم البلد وان الجانى

ضبط وعوقب . أما فيما يختص بالشاطىء الشرقى لأفريقيا فقد اكتفى ألميدا بارسال عدة سفن لاشتطاطه والمرور به.
ولما سافر ألميدا من بلاد البرتقال كان الملك عمانويل قداتخذ التدابير للاستحواز على مصادر تجارة الذهب التىعلم بامرها على أثر تأسيس مراكز برتقالية بجهات سفالية لذلك الغرض وكانت إقامة حصن بكاوا دليلا على البدء بتنفيذ خطة ذلك الملك . ولكى يتم تنفيذها اعتزم إقامة حصن آخر بسفالية معتقداً أنه بوجود هذين الحصنين واسطول قوى يرتكز من جهة الشمال على مانده التى كان شيخها خاضعاً له يستطيع الاستيلاء على تجارة الشاطىء كله فأمر بتجهيز اسطول من ست سفن تحت إمرة بيرو دا نهايا * وفى الوقت نفسه جهزت سفينتان بامرة سيد باربودا * وبدرو كارسما * لاستكشاف الشاطىء كله ابتداء من رأس الرجاء الصالح الى سفالية وأمرت ثلاث سفن من الست التى بأمرة نهايا بالسفر الى الهند اما الثلاث الأخرى فأمرت بأن تمخر مياه أفريقيا . وكانت هذه الثلاث السفن بقيادة جواو دى كويروس * وفرنسسكو دى نهايا إن بيرو ومانويل فرناندس * وكانت مهمة هذا الأخير الاستقرار بالحصن الذى أمر باقامته بسفالية ، وكلف نهايا بحراسة الحصن ومعه من

يلزم من الجند . فلما وصل دانهايا الى سفالية وجد بالبلاد حاكما طاعنا فى السن كفيف البصر يناهز السبعين من العمر اسمه يوسف وكانت المدينة صغيرة وكان أحراسها من المغاربة يتدثرون بالحرام ويلبسون العمائم ويحملون الخناجر العاجية المقابض .

وكان يوسف نائبا عن سلطان كاوا ولكنه كان يلقب نفسه بالسلطان وكان قد شق عصا الطاعة على سيده بسبب تواتر الثورات والاضطرابات بكلوا ، فلما علم يوسف باستيلاء ألميدا على كلوا وكانت سفالية تابعة لها خشى أن يقدم عليه هذا الاجنبي ويخضعه لسلطانه فاضطر الى الترحيب بنهايا رجاء ان يتقى بهذه الوسيلة الخطر الذى كان يتهدد سلامته وينال بذلك حماية القائد البرتقالى وممالأته على صهره منجو موزاف* الذى كان متهما بالميل الى غصب حقوق الوراثة من ابناء يوسف وسمح للربان البرتقالى بأقامة حصن فى بلاده ، فأسرع دانهايا بانجاز هذا العمل وساعده أهل سفالية على ذلك . وبعد بضعة أشهر انتهى الشتاء فى اثنائها ارسل الى الهند السفن والرجال الذين أمكنه الاستغناء عنهم ولكن السكينة لم تدم طويلا لشدة تأثير المغاربة فى يوسف وكثرة مابثوه من الأضغان فى نفسه

ضد البرتقاليين وكشفوه له من خطر وجودهم فى البلاد .
وقد وقف البرتقاليون على هذا السر بسعاية حبشى يدعى أكوت* فالتقى الفريقان فى معركة كانت نتيجتها وبالا وخسرانا على الشيخ الهرم اذ سقط قتيلا فى المعركة وانهزم أصحابه شر هزيمة وفكر دانهايا فى استمالة الخواطر اليه ورغب فى مكافأة أكوت بجعله حاكما على البلد من قبل ملك البرتقال .

والى القارىء بعض البيانات عن أحوال سفالية فى عهد باروس . قال هذا الكاتب البرتقالى فى كتابه المسمى ديكاد ان هذه الارض جزء من بلد كبير يسمى ملكها بينوموتابا* وهى محاطة على شكل جزيرة بفرعى نهر منبعه أكبر بحيرة فى أفريقيا كلها هى التى كان علماء الجغرافيا الأقدمون ينسبون اليها اشتقاق النيل ونهر الزائر .

ومعلوم الآن ان أطول هذه الانهر الثلاثة المهمة هو النيل ويسميه اهل الحبشة فاكويج* وينصب فيه نهران آخران كبيران او قد اسماه بطليموس بأستابورا واستابوس وأسماه أهل البلاد تكازيج* وابانهى* وهذا الاخير معناها والد المياه يأتى من بحيرة أخرى كبيرة اسمها برسينا* (أو على قول بطليموس، كولوا) وفى مجراه جزر كثيرة مقام

عليها معابدللرهبان .

أما البحيرة الكبيرة فيظهر أن طولها أكثر من ١٠٠ ميل وينقسم نهر سفالية الى فرعين احدهما ينصب بعد رأس كورينتس ويسمى تارة بنهر البحيرة وطورا بنهر روح القدس وينصب الآخر فى البحر على بعد ٢٥ فرسخا بحرى سفاليه واسمه كواما *وفى داخل البلاد يدعى زامبيز . وهذا الفرع أكبر بكثير من الآخر وهو صالح للملاحة الى مسافة ٢٥٠ فرسخا وينضم اليه ستة فروع مهمة واسماؤها پانهامكا* ، لوامجوا* ، أرويا* ، مانجوو* ، اينادير* ، روينيا* وكلها تروى أراضى بينوموتاپا ، وفى مياهها يكثر الذهب . والدلتا التى بين هذين الفرعين يتكون منها بلاد سفالية وطول حدودها أكثر من ٧٥٠ ميلا وتشبه زنجبار فى منظرها وحيواناتها وأهلها النازلين بها وطعامهم الذى يأكلون .

وكل هذه الأراضى ناضرة خصبة تكثر بها الغابات وترويها الترع وبها الحيوانات المفترسة والسائمة وسكانها كثيرون . وهى بضد الارض المحيطة برأس كورينتس التى أرضها خراب يباب وبها الرياح الباردة .

ولما كانت دلتا سفالية آهلة بالسكان فانك ترى الفيلة

بعيداً عنها تفر منها الى خلوات زنجبار حيث تجرى اسرابا كبيرة . ويزعم الكفر ان عدد مايقتل منها ينيف على اربعة آلاف الى خمسة فى السنة ، وهذا منشأ تصدير المقادير الوافية من العاج الى بلاد الهند .

وأقرب مناجم الذهب الى سفالية يسمى مانيكا* وهو واقع فى واد تكتنفه جبال طول سلسلتها ٣٠ فرسخا والبقاع التى بها الذهب مشهورة بالجفاف وتسمى هذه الجهة كلها ماتوكا* والأشخاص الذين يحفرون الارض لاستخراج هذا المعدن الثمين ببوتونجا * . ومع ان هذه البلاد واقعة على خط الاستواء فان الجبال مغطاة بثلوج كثيرة بحيث ان من يوجدون بها مدة فصل الشتاء يموتون من البرد ولكن الهواء فى هذه الجبال أصفى وأنقى مايكون فى فصل الصيف .

والارض فى جميع مناجم مانيكا هذه ، وهى تمتد على مدى خمسين ميلا الى المغرب ، جافة ولما كان الذهب بها تبراً (أى شذور ذهب) فأن سكان البلاد يحفرون حفراً تملؤها مياه الأمطار فى الشتاء جارفة اليها ذهب الأراضى المجاورة وفى الغالب لايحفر أحد الى أكثر من عمق ست أقدام أو سبع الى ٢٠ قدماً حيث يبتدىء الصخر .

والمناجم الأخرى أبعد من سفاليه بمسافة تختلف من ١٠٠ فرسخ الى ٢٠٠ ويوجد بها الذهب شذوراً سواء بداخل الحجر أو فى مجرى السيول الصيفية أو التى جففها الصيف ، وفى بعض الأنهار يغوص سكان البلاد فيجدون ذهباً كثيراً فى الطمى الذى يأتون به وأحياناً يجتمع نحو المائتين من الرجال ليحولوا المياه من بركة ليكشفوا طميها والذهب الذي به .

وخلاصة القول ان هـذه البلاد غنية للغاية ولو كان أهلها من أرباب الطمع والحرص لحصلوا على كميات كبيرة من هذا المعدن الكريم ولكنهم كسالى وحاجاتهم المعيشية قليلة حتى أنه لايضطر أحدهم الى حفر الأرض إلا اذا عضه الجوع بنابه . ويستعمل المغاربة معهم الحيلة والخديعة لحملهم على استخراج الذهب فأنهم لكى يحركوا فيهم الميل والنشاط لاستخراجه يغطونهم وأزواجهم وهم بها بالأقمشة الفاخرة والجواهر فيزداد فرحهم ومتى لحظوا منهم ذلك تركوا لهم هذه الأشياء مطمئنين قائلين لهم « بقى عليكم أن تأتونا بالذهب لتدفعوا به ثمن ماأعطيناكم » وهم بهـذه الوسيلة يحملونهم على حفر الأرض ووفاء مافى ذمتهم لهم ولما كان هؤلاء طيبو السريرة طاهرو الذمة يقبلون بارتياح

الوفاء بما عليهم ولا يتنصلون من هـذا الواجب فيهرعون لجلب الذهب واعطائهم إياه .

وهناك مناجم أخر بجهة طاروا* التي تدعى أيضاً بمملكة بوتوا* وحاكمها أمير بينوموتابا .

وهذه المناجم أقدم ماعرف فى هذه البلاد وكلها فى البرية . وفى وسط الأرض بناء مهم جداً وهو حصن مبنى من الداخل والخارج بحجارة منحوتة نحتاً جيـداً وكبرها عجيب وذرعها ٢٥ ذراعاً عرضاً وأقل من ذلك بقليل ارتفاعا ولا يظهر أن بين الأحجار شيء من الجص ليلحمها بعضها ببعض وعلى باب هذا البناء كتابة لم يستطع التجار والعلماء المغاربة الذين زاروا هـذه البلاد قراءتها بل ولم يمكنهم القول بحقيقة هـذا الخط وماهيته وحول البناء فى مواقع عالية بنايات أخرى من الشكل نفسه بغطاء من الحجر من غير جص وفى وسطها برج علوه ١٢ ذراعاواسم هذه المبانى فى هذا البلد سيمباوى* أى محل إقامة الملك وفعلا يسمون هـكذا جميع المحال التى يقيم فيها بينوموتابا .

وكل الأماكن التى يقيم بهـا الملك تدعى هـكذا على مايزعمه الزاعمون لأن على هذا البناء مسحة العظمة الملكية . والمـكلف بحراسته رجل من الأشراف يسمونه سيمبا

كايجو* أى حارس سيمباوى ، وبها أيضاً دائماً نساء يينوموتابا .

فتى كان بناء هذه المبانى ومن الذى بناها ؟ هذا شىء لايعرفه أهل البلاد لأنهم يجهلون الكتابة ولا كتابة لهم وكل مايقولونه أنها من عمل الشيطان لأنهم بمقارنتهم إياها على مايسع الانسان عمله لايخطر ببالهم قدرته على اقامة بناء مثلها . والمغاربة ممن شهدوا هذه المبانى كانوا يطلعون فيسنت بيجادو* قبطان سفالية على بناء القلعة البرتقالية ويؤكدون ان لامحل للقياس والمقارنة بين هذه القلعة وبناء سيمباوى لامن جهة الدقة والرونق ولا من جهة المتانة والتنجيد وهى صفات توافرت فى البناء الثانى دون الأول.

وتبعد القلعة عن سفالية بمائة وسبعين فرسخا تقريباً وفى نظرهم انه فى مدى هذه المسافة المديدة المنحصرة بين درجتي ٢٠ أو٢١ درجة لايوجد بناء قديم ولا حديث يشبه هذا البناء . وفى الواقع فأن السكان متوحشون وأكواخهم التى يأوون اليها من الخشب . والآراء متضاربة فى أصل هذه القلعة والقصد منها فالمغاربة الذين شهدوها يقولون إنها قديمة الأصل ولكن ليس فى البلاد كلها أثر لحديث أو رواية عنها وأهلها يجهلون الكتابة التى عليها

ويظنون أن القصد من بنائها حفظ ملكية المناجم لمن بنوها وهى مناجم قديمة جداً لم يستخرج الذهب منها منذ زمن طويل للحروب الناشبة فى البلاد .

(ويرى باروس أن هـذه الجهة هى التي سماها بطليموس باسم أجيزامبا* وفعلا فأن هـذا الأسم يشبه اسم البناء الحالى) .

وسكان هذه الجهة سود وشعرهم جعد وهم أذكى من سكان سواحل موسامبيق وكلوا وملندة . وكثيرون منهم يأكلون لحم الأنسان ويشربون دم البهائم . ولسكان بينوموتابا استعداد لاعتناق النصرانية لأنهم يعتقدون بوجود إله واحد يسمونه موزيمو* ولا يعبدون الأصنام بخلاف غيرهم من الزنوج الذين يعبدون الأصنام والأشياء ثم أنهم يحكمون على من يعبدون الأشياء بالأعدام . وهم ينهون بشدة عن السرقة والفاحشة ولكى يثبتوا هذه التهمة ضد رجل يكفى أن يروه جالساً على فرش تجلس عليه امرأة ، وهو بفعله يوقع فى التهمة المرأة التى تكون جالسة عليه .

وللرجل منهم ان يتزوج بأكثر من واحدة بل بأى عدد من النساء يكون فى قدرته اطعامهن والقيام على

شؤونهن ولكن الزوجة الأولى تكون صاحبة المقام الرفيع والأمر المطاع بينهن وتتولى الزوجات الباقيات من غير استثناء خدمتها . واولادها هم الذين يرثون وحدهم أموال أبيهم ومركزه فى الاجتماع . وليس لرجل أن يتزوج بامرأة إلا اذا بلغت سن الحلم أى إلا اذا أصبحت صالحة للحمل باستقرار وظيفة الحيض فى كيانها العضوى وهم يحتفلون بهذه المناسبة احتفالا عظيما .

والثياب المستعملة فى البلاد تتخذ من القطن وتنسج بالبلاد أو تستورد من الهند ويدخل النساء والأشراف من الرجال على نسيجها شيئاً كثيراً من الحرير أو من الخيوط الذهبيه ، وقد يكون ثمنها لهذا السبب فاحشاً جداً . ولا يلبس مينوموتابا الا الثياب المنسوجة فى البلاد حتى لا يكون بها أذى أو سحر اذا استوردت من الخارج ومعنى كلمة مينوموتابا يقابل المراد من كلمة امبراطور .

وتحترم المرأة احتراما خاصاً حتى ان ابن الملك يتنحى لها عن الطريق اذا التقى بها فيه . وعدد زوجات بينوموتابا يبلغ الألف عداً وكلهن من بنات عظماء البلاد ولكن مهما يكن من شأن الزوجة الأولى ووضاعة أصلها فلا بد لهن جميعاً من الاقرار بسيادتها والطاعة لأمرها وأكبر أولادها هو

الذى يتولى الملك بعد أبيه على أنها مع ذلك اذا حان وقت
البذار ذهبت بنفسها الى الحقل وتولت فيه مراقبة الأعمال
الزراعية وغيرها .

وكانت الأمراض فى ذلك الوقت قد بدأت تفتك
بالبرتقاليين وكان دانهايا ممن ذهبوا فريسة لها فاختار
الباقون منهم بالأجماع مانويل فرناندس للقيادة بدلا من
المتوفى وحدث أن اشتعلت نار الفتنة بمدينة كلوا وتمكن
شيخ تيرانديكوندا* (القريبة من كلوا) واحد أقارب
ابراهيم من قتل محمد صاحبها .

فلما اتصل بألميدا نبأ هذا الحادث وعلم بموت پدرو
دانهايا عين جونسالوفازدىجويس* قائدا وحا كما على حصن
سفالية وأمره بأن يمر بكلوا لتستتب السكينة فيها وبأن
يعاقب المتمردين .

واليك بيان ماحدث بهذه المدينة . فانه بناء على أوامر
الملك عمانويل فيما يختص بحراسة الشواطىء كان قومندان
كلوا پدرو فيريرا قد خصص سفينتين لهذا الغرض وكان
من بين الغنائم التى غنمتاها سفينة جاءت من جزر انجوكس*
وكان عليها احد أولاد شيخ تيرنديكوندا وكان ابوه يحارب
البرتقاليين لقرابته من السلطان ابراهيم فأسر فيريرا هذا

الولد وحاشيته كلها . فجاء محمد عنكو نيج *لاستمالة جيرانه وكسب مودتهم وخلص الأسرى مقابل غرامة دفعها ، وبعد ان خلع عليهم وغمرهم بلطفه ارسلهم الى بلادهم .

فأثر هذا العمل فى نفس شيخ تيرنديكوندا وسر مما أظهره له محمد من المودة والاخلاص فأرسل اليه يشكره ذلك له وعرفه أنه لعجزه عن الذهاب الى كلوا وبغضه للبرتقاليين يرجو منه الحضور اليه للبحث فى امور تهمهما . واقترح عليه الزواج بين ابنائهما وأن يرد اليه الغرامة التى دفعها لتخليص ولده . فقبل محمد هذا الطلب بالرغم من إلحاح پدروفيريرا وقام ومعه بعض رجاله الى مكان عيناه للقائهما . وكان قد أخذته سنة من النوم فقتل بايعاز ممن دعاه وكان عذر هذا الأخير أنه كان مدينا لابراهيم بقرابته أكثر منه لمحمد القتيل بحسن معاملته لابنه . فنشأ عن ذلك أنه لما فكر الناس بمدينة كلوا فى إقامة خلف لمحمد انشقوا أحزابا ووجد بالمدينة حزبان ، فقام الجند وبعض المغاربة ضد حسين ابن المتوفى وبيدهم وثيقة مكتوبة من الحاكم البرتقالي ذكرت فيها الخدم الجليلة التى أداها محمد للملك عما نويل مع بيان غدر ابراهيم وخيانته وسوء نيته .

وكان فى الحزب الثانى القبطان پدروفيريرا وجماعة من

أصحاب النفوذ فى البلاد حتى الكفر من أهلها ونزلائها الوطنيين وسكان جزيرة سونجو* الواقعة على مسافة فرسخ من كلوا . وكان هذا الحزب يدعى انه ليس من صالح الملك عمانويل ان يقيم حاكما وضيع الأصل كابن محمد عنكونيج وأنه يفضل عليه أحد أولاد ابراهيم المدعو ميكانت* فكانت نتيجة هذه الفتن أن عددا كبيرا من سكان البلاد هاجروا الى ملندة ومنبسة وغيرها من جهات سواحل القارة الافريقية .

غير أن الحادث الذى أوردناه لم يكن السبب الوحيد للقلاقل فقد جاء أمر ملك البرتقال يحذر المغاربة فيه من الاتجار ببلاد سفالية فى البضاعة ذات القيمة لما نشأ عن ذلك من تكرر المخالفات واندفاع العمال البرتقاليين الى استعمال الشدة والقسوة اذا ضبطوا الكثير من هذه البضاعة فأثاروا بهذه المعاملة السكان الذى آثروا المهاجرة ، وقد أخذوا يهاجرون تدريجاً . وكانت هذه الأمور قد أبلغت الى جونسالوفازدى غويس ، وكان يود ان يعيد الى بلدة كلوا سابق شأنها واستشار فى ذلك ذوى الخبرة فكان كلما مر بالسواحل يبعث الى سكان ملندة ومنبسة وكلوا ليخبرهم بأن لكل تاجر حق الاتجار بأى البضائع شاء ، كما كان

الأمر على عهد السلطان ابراهيم . وما درى الناس بهذا الخبر حتى أخذوا بالعودة مع نسائهم وأولادهم . وحينما وصل دى غويس الى كلوا حام حول سفينته سرب مؤلف من عشرين قاربا يركبها قوم من سكان كلوا وقد جلبوا معهم بعض البضائع ، وكان ذلك فى ديسمبر سنة ١٥٠٦ . وكان بالمرسى سفينة تحت قيادة ليونيل كوتينهو ، وكانت هذه السفينة انفصلت من دونمة وصلت حديثاً من البرتقال بقيادة تريستام دا كنها * .

فشرع دى غويس فى تهدئة الخواطر بالمدينة وكانت مسألة انتخاب خلف لمحمد من أهم الامور وقد سبق لنا ان قلنا ان الزعيمين كانا ميكانت وعلى حسين وكانت حجة الاول التي يتمسك بها ماقام به ابوه من جليل الخدم . وكان يناصر الثانى حزب قوى ، فضلا عن انصاره من الضباط البرتقاليين وعن شرف اصله فانه من سلالة الاسرة الحاكمة التي أسست كلوا وحكمتها زمناً طويلا ، وكان فاز دى غويس موقنا متانة هذه الأسباب ورجحانها وانه لابد من وقوع بعض الفتن والقلاقل اذا اختير غير هذا الزعيم ممن هم اقل مكانة واحقر شأنا حتى مع مراعاة الخدم التي قام بها من قبل والد الاول منهما .

ولكنه تأكد له فيما بعد أنه ربما كان من أهم أسباب القلاقل استبداد الموظفين فى تنفيذ أوامر ملك البرتقال ، وان امر انتخاب رئيس جديد لم يكن خطير الشأن فى نظر المغاربة . وفى الواقع فقد هدأت النفوس بحسن المعاملة ونصب على حسين سلطانا دون ان يقع حادث مهم . وبعد أن سافر فاز دى غويس كان على حسين قد قويت شوكته بمساعدة كبير البرتقاليين فعزم على محاربة قاتلى والده وأخذ الثأر له منهم فأرسل الى أحد شيوخ الزنوج وهو موجنا مونجو* وكان رجلا عزيز الجانب بكثرة رعاياه يدعوه الى ان يسير برا على تيرنديكوندا وقام اليها هو بحرا ليفجأ المدينة ويضرم فيها النار ويسفك الدماء . وقد تمكن بفضل الهدايا الفاخرة التى اتحف بها الشيخ الزنجى من استمالته الى مناصرته ووقع الهجوم واخذت المدينة عنوة وخربت . ولكن قاتل محمد تمكن من الفرار وأسر الزنج الشطر الكبير الذى نجا من الموت من سكان البلد . ومن ثمّ داخلت الغطرسة والكبرياء حسينا فأخذ ينفق من الخزائن التى تركها له ابوه والتى نقصت من جراء تلك الحرب واساء معاملة جيرانه وكتب الى شيوخ مانده وزنجبار والبلاد الساحلية بأسلوب يستفاد منه علوه وعزته وتفوقه عليهم ، وقد نال

من كرامتهم بما استفزهم لعدائه فتحالفوا لهذا السبب ولاسباب أخر مع انصار خصمه ومناظره وكتبوا جميعاً الى نائب البرتقال يقولون انه اذا كان راغبا فى حفظ النظام والسكينة بالبلاد وفى صيانة كلوا من الخراب فايخلع من دست الحكم حسينا وليعهد الولاية الى ابراهيم اذا رضى وإلا فالى ابن عمه ميكانت فقبل الحاكم البرتقالى هذا الطلب وكتب الى بدرو فريرا به فعزل حسينا ولكن ابراهيم أبى ولاية الحكم فأقيم ميكانت مكانه فى السلطنة. ولم يهدأ العيش لحسين بكلوا وكان يخشى ان يقتله اعداؤه فطلب الى بدرو فيريرا أن يرسل به الى منبسة فاجيب الى طلبه وعاش بها فى حالة يرثى لها الشامت. اما ميكانت فسلك مسلكا جعل الناس يرحمون على سافه، لأنه وان افتتح حكمه بالحكمة والتبصر ولكنه لم يلبث ان تغيرت أحواله لأدمانه الخمر حتى سفلت أخلاقه وانحطت مكانته فى نظر البرتقاليين والاهلين معا وأصبح عبئاً ثقيلا على البلاد. وكان بدرو فيريرا قد خلفه فى وظيفته فرنسسكو فيريرا بستانا * الذى وإن لم يثق بميكانت فى بادىء الامر ولم يعول عليه فى شأن فقد جرى فى تياره وتدخل فى مشاكله الخارجية.

ولما كان ميكانت يعلم ان ابراهيم المنفى يحسده على

مركزه أضرم الحرب عليه فحدثت وقائع عديدة استفاد ميكانت فيها مساعدة البرتقاليين له وفى احدى الوقائع قتل فرنسسكو بيريرا عددا كبيرا من اعداء ميكانت وأسر موجنوكامى* أحد ابناء أخى ابراهيم . وكان لهذه الحروب تأثير فى نفس ميكانت لأنه باشتغاله بها انصرف عن النقائص التى كان متنكسا فى حمأتها وفيما عدا هذا فقد ظل لضغينته لابن عمه صديقا للبرتقاليين وكان فرنسسكو بيريرا يصفح عنه بسبب هذه الصداقه ويغضى الطرف على غلطاته وزلاته .

ولكن بالنظر لهلاك جم غفير من البرتقاليين فى هذه الوقائع ولاستياء الملك عمانويل من الحوادث التى وقعت فى كلوا أصدر أمره الى الحاكم البرتقالى بهدم القلعة وبارسال فرنسيسكو بيريرا الى جزيرة سقطرة التي كان البرتقاليون قد استولوا عليها .

وكانت قد شيدت قلعة أخرى فى جزيرة موسامبيق عقب بناية حصن كلوا بعامين ، وكان الذى بناها غومز دابرو* حينما أرسل من لشبونة الى الهند سنة ١٥٠٧ ولما وصل أمر الملك القاضى بهدم القلعة عزم فرنسسكو بيريرا على أن يخلع ميكانت قبل رحيله وأن يقيم ابراهيم بدلا منه

غير أن ابراهيم لم يصدق بيريرا وأساء به الظن اذ خشى أن يكون هناك شرك اشترك القبطان البرتقالى وميكانت فى نصبه له لأيقاعه فيه فأجاب قائلا ان ابن أخيه موجنوكامى مازال مسجونا ولهذا فأنه لايمكنه الاعتماد على قول بيريرا. وبالنظر لرحيل بيريرا فى خلال هذه المدة فقد أمر بأخلاء سبيل المسجون وعاد ابرهيم الى كلوا وفر ميكانت هاربا منها لاجئاً باحدى جزر كيرمبا* حيث قضى بقية أيامه فى تعس وشقاء.

أما ابراهيم فقد حكم البلاد فى هدوء وسكينة وتحسنت أحوالها أكثر مما كانت عليه قبل البرتقاليين وأوصى أولاده بالبقاء بعده متمسكين باهداب الاخلاص للملك عمانويل.

تلك هى قصة الحوادث التى حدثت بكلوا بعد أن نصب فاز دى غويس على حسين سلطاناً عليها. أما هذا البرتقالى فكان قد سافر الى سفاليه ليقوم بالمهمة الثانية التى عهدها اليه الوالى دون فرنسيسكو دالميدا. وفى أثناء مروره بموسامبيق وجد أربع سفن من دوننمة تريستام داكنها التي سبق الكلام عليها.

وهنا يحسن أن نورد بعض الشيء عن الحوادث التي

قضت بوجود ذلك الأسطول على هذه السواحل . فقد كان الملك عمانويل شديد الرغبة فى توطيد مركزه وتوسيع نطاق حكمه ببلاد الهند مع نشر الديانة الكاثوليكية . وكان يبغى أن يقضى على تجارة الكفار (أى المسلمين) ويطردهم من تلك البحار . ولهذا الغرض كانت تبرح بلاد البرتقال سفن جديدة لتحل محل ماغرق منها أو محل التى كانت تعود منها الى هذا الوطن موسوقة بالبضائع وفضلا عن ذلك فقد كانت الحالة تستدعى سد عوز الفتوحات التى باتساع نطاقها كانت تجعل البرتقاليين هدفاً للعداوة من الأمم الأخرى ، وكان فى طليعة من ناوأوه العداء سلطان مصر ، وكان هذا السلطان مؤهباً للقتال وانما كان لهذا الغرض فى حاجة الى أسطول قوى فى البحر الأحمر . ولم تكن وسائط عمارة السفن متوافرة فى بلاده فعرضت حكومة البنادقة عليه مساعدتها بنصائحها لتذليل هذه الصعوبة بسبب مالحقها من الضرر العظيم من جراء البرتقاليين . وقد أرسلت الى الاسكندرية الأخشاب اللازمة وما يلزم لبناء السفن من المواد الأخري فنقلت الى القاهرة على طريق النيل ثم الى السويس على متون الجمال وبهذه الكيفية تيسر بناء أربع سفن كبيرة وست

سفن أخرى مختلفة الأحجام فلما أحست حكومة البرتقال بذلك عولت على درء هذا الخطر بأقفال باب البحر الأحمر وأرسلت لتحقيق هذا الغرض سفناً عديدة الى خليج عدن استولت في طريقها على سقطرة ليسهل عليها تنفيذ هذا المشروع . وكان هناك باعث آخر على احتلال هذه الجزيرة وهو أنه كان بها سكان من المسيحيين خاضعين لحكم العرب وكان عمانويل يريد استنقاذهم من قبضة الكفار (هكذا كانوا يسمون المسلمين) ففى ٦ مارس سنة ١٥٠٦ برح مياه نهر التاج* أربع عشرة سفينة عقد لواء أربع منها لألفونس البوكرك الذى عهد اليه الطواف بشواطىء بلاد العرب وكانت القوة كلها تحت قيادة تريستام داكنها . وكان الطاعون قد فشا فى لشبونة قبل سفر الأسطول فاتصلت عدواه برجاله فى بادىء الأمر وأهلك البعض منهم ، ولكنه ما كاد يصل الى خط الاستواء حتى زال المرض . ولما وصل الى رأس الرجاء الصالح تفرقت السفن بسبب العواصف فألقت بكنها ومن بقى من رجاله الى جهة الجنوب فهلك بعضهم من شدة الزمهرير ، غير أنه تمكن من الوصول الى موسامبيق فى شهر ديسمبر ، وكان قد اعتزم البقاء بها حتى ينقضى فصل الرياح الشمالية الشرقية

وهناك اجتمع بفاز دى غويس . أما السفن الباقية من الدوننمة فتمزق شملها وتبددت فى جهات مختلفة ووصل أفونسو لوپز داكوستا* الى سفالية كما وصل ليونيل كوتنهو الى كلوا والفارس تلس* الى رأس جردفون ، وهناك بعد أن نهب بعض السفن العربية ذهب الى سقطره . أما رودريجو بيريرا كوتنهو فقد لجأ الى ثغر بجزيرة سان لوران أى مدغشقر فأراد رودريجو بيريرا كوتنهو أن يجلب اليها تريستام داكنها لما راقه من منظرها وأخذ على ظهر سفينته رجلين من سكان الجزيرة وأكرمها وأتحفهما بالهدايا وجاء بهما الى موسامبيق ، وكان تريسام داكنها قد سبقه اليها ، وكان يرى ان الفصل لا يوافق ذهابه الى سقطرة ولكنه بالحاح كوتنهو اقتنع بضرورة الرحيل فذهبا معا الى سان لوران وألقيا مراسيهما بخليج الكونسبسيون الذى كان ولده اطلق عليه وقتئذ اسم خليج دونا داكنها وهو اسم سيدة فى نضرة الشباب كان يحبها حبا جما . وبعد أن طاف داكنها بالشاطىء وغرقت سفينة روي بيريرا* عاد الى موسامبيق حيث وجد الفونس البوكرك فسافر . وبعد ان مر بكلوا وضم الى سفينته السفن التى لجأت اليها ذهب إلى ملنده فرحب

شيخها بالبرتقاليين وقص عليهم سوء معاملة جيرانه له بسبب ولائه لملك البرتقال ، ولكن لم يذكر شيئا من حقيقة معاملة مشائخ منبسة والموجا* وغيرها من البلاد لان الخلاف بين المشائخ العرب كان سابقا على عهد وصول البرتقاليين اذ كانوا كلما ازدادت شوكتهم لايقنعون بلقب شيخ بل يلقبون انفسهم بالسلاطين ويتنافسون فى توسيع نطاق سلطتهم على بعض جهات الساحل ، ومع هذا فقد كان مشائخ كلوا وزنجبار يحملون دون غيرهم وباستمرار لقب السلطان . أما شيخ منبسة وهو من أثرى أغنيائهم وأعظمهم جاها واوطدهم سطوة واوسعهم سلطانا فلم يلقب بهذا اللقب إلا فى العهد الأخير حينما شق عصا الطاعة على مولاه شيخ زنجبار . وأما شيخ ملنده فكان ينتحل لنفسه مكانة يسمو بها على مشائخ البلاد الساحلية كلها مدعيا انه من سلالة حكام كيتو* الاقدمين . وهى مدينة ذكر جيان أنه لم يعثر على موقعها فى الوقت الحاضر . وكانت هذه المدينة على مايقال صاحبة السيادة على البلاد كلها وانها لم تكن فى عهد حضور البرتقاليين سوى قرية صغيرة ، فأنهم لم يقفوا منها إلا على اطلال دائرة وخرائب متناثرة تدل على شيء من سابق أهميتها . ويقول البعض ان مدينة لوزيجا *

القريبة منها كانت صاحبة السيادة على البلاد وأن جهات باتا ومندره ولامو وجا كا* وعوجا وغيرها كانت خاضعة لها .
ومهما يكن من الامر فقد كان شيخ ملنده يدعي ان كيونه* وكليفي* الكائنين جنوبي ملنده كانتا من أملاكه فكانت أسباب الخلاف مع شيخ العوجا من هذا القبيل غير ان تريستام دا كنها لم يهتم بهذه الجزئيات لأن ما كان يهم البرتقاليين تعريفه باصدقائه وتمييزه بينهم واعدائه وان يعامل أصدقاءه بالمعروف . وكانت سياسة دا كنها قائمة على هذه الفكرة . فلما برح ملنده قصد الى العوجا فلما بلغها طلب الى شيخها مقابلته فجاوبه بأنه وال تابع لسلطان مصر وأن هذه الصفة لاتبيح له مفاوضة خصومه . واذ كان دا كنها يخشى ان يبتدىء زمن العواصف بهذا الساحل المحفوف بالاخطار فقد هجم على المدينة واستولى عليها ونهبها واضرم فيها النار . ثم قام الى لامو فخشى أهلها ان يلحق بهم ما لحق بغيرهم فخضعوا له وذهب شيخهم بنفسه للقاء تريستام وعرض عليه قبوله الدخول فى حكم ملك البرتقال ودفع جزية سنوية قدرها ستمائة مثقال من الذهب . وبعد ذلك ذهب تريستام الى بروه ، وكانت من أعظم المدن عمرانا ورواج تجارة ، وكان قد ذهب بعض من أهلها الى روى

لورنسو رافاسكو يقرون بالخضوع والطاعة لملك البرتقال ولكنه رفض طلبهم لامساك الشيخ عن مشاركتهم فى هذه المظاهرة الولائية . فلما ظهر الأسطول تظاهر الشيخ على الشاطىء ومعه ستة آلاف محارب فأنزل القائد البرتقالى الى البر اربعمائة رجل مقسمين الى فصيلتين ترأس على احداهما وترك الى البوكرك قيادة الأخرى ثم بدأ بالهجوم ، وكانت المعركة عنيفة انتهت بالفوز فى النهاية للبرتقاليين الذين أتوا من أساليب القسوة وارتكبوا من الفظائع ما لم يسبق له مثيل فأنهم بعد ان نهبوا المدينة أضرموا فيها النار واضطروا السكان الى الانسحاب للتلال المجاورة . ومنح البوكرك عقب هذا الفوز كلا من تريستام دا كنها وولده المسمى نونو لقب فارس وانتقلت الدوننمة بعدئذ الى مقدشو وكان سكانها على اهبة القتال ، فلما اتصل بها نبأ ماوقع من الحوادث على لسان من جاءهم من بروه اصروا على المقاومة فلم يجرأ دا كنها على مقاتلتهم لاسيما وان المدينة كانت حصينة والمدافعون عنها من أولى البطش والشدة . دع أن الرياح الجنوبية الغربية كانت قد بدأت تهب بشدة فخشى أنه إذا لم تقع المدينة فى قبضته أول وهلة اهلكت العواصف سفنه . ولقد استشار بقية الربابنة فى هذا الامر

فنصحوا له بالعدول عن المهاجمة ، ومن ثمّ رحل الى سقطرة فوصل اليها بعد أيام .

وكان بسقطرة فى ذلك الحين سكان من النصارى اليعقوبيين هاجروا اليها من بلاد الحبشة . وكانت لهم بها معابد كمعابد اوربا ولكنهم كانوا لايضعون بها سوى الصلبان دون الصور وكانت مواعيد أعيادهم تتفق مع مواعيد الاعياد الاوربية كما كانت حفلاتهم الدينية تقام فى نفس الايام التى يقيمها الاوربيون فيها ، وكانوا يصومون كصيام هؤلاء ولايتزوجون الابزوجة واحدة . وكانوا من الجهل مع ذلك فى الدرك الاسفل اذ كانوا لايعرفون شيئا عن حقيقة الديانة النصرانية فضلا عن ركونهم الى الكسل واتصافهم بالجبن والخمول والبلاهة وكانت الفئة الصغيرة من العرب لهذا السبب تكفى للحكم عليهم والتحكم فيهم بالارهاق والاذلال ، فلما جاء تريستام دا كنها كان هؤلاء الناس تحت حكم ملك بلاد كشم* الواقعة فى جزيرة العرب وكان الحكم فى الدرجة القصوى من الصلابة والشدة وبحيث لايجعل لهم منفذا الى الأمل فى الخلاص من ذل الاستعباد. وكان بالمدينة حصن صغير يقيم فيه بعض الجند تحت قيادة ابراهيم ولد صاحب كشم . فما كاد دا كنها يصل الى سقطرة

حتي أوفد الى الامير الشاب من ينذره بضرورة تسليم القلعة فأجاب ابراهيم بانه لايجوز لاحد ما سوى والده ان يصدر اليه أمرا فأمر الاميرال بانزال الجند الى البر وبمهاجمته فسقطت القلعة فى يده ومات ابراهيم مدافعا دفاع الابطال ومات كل من معه من الجند تقريبا . وكان من نتائج هذا الفوز ان حول دا كنها مسجد البلد الى كنيسة اسماها نوتردام دولا فكتوار ثم اصلح الحصن وترك به قوة بقيادة الفونسودى نورنها* . وكان عدد رجال الحامية مائة وبعضا من الضباط، فلما تم له الظفر واستتب له الأمر سافر الى بلاد الهند فى ١٠ اغسطس سنة ١٥٠٧ وسافر البوكرك فى ٢٠ منه متجها الى رأس الحد .

وكان الغرض من حضور فاسكودى غاما الى بحر الهند ان يحارب الصليب الهلال فى أقصى بقاع المعمور أو أن تحارب روما مكة فى مكان يبعد بأكثر من ألف وخمسمائة فرسخ عن الميادين المألوفة لاقتتالهما . وبالجملة فقد كان الغرض من تلك التجريدات المتتابعة ان ترسل جنودها الى ماوراء القارة الافريقية لتحيط بالاسلام ولتجعله بين نارين ولتجفف ينابيع ثروته وتقضى على صروح عظمته وشوكته . ولذا فأنه ما كاد ذلك الربان الموفق السعيد يصل الى ساحل

ملبار ويلتقى بالزامورين حتى أحس العرب بالجراح التي أصابت شوكتهم ونفذت الى أكباد سلطتهم فى بلاد المشرق . ولقد كانوا أشبه ما يكون بديدان كبيرة امتدت أنابيبها الى كل الجهات لامتصاص مافيها من الثروة والخيرات، فما أصاب نفوذهم على يد البرتقاليين أثر فيهم بمختلف الاصقاع والامصار التى كان هذا النفوذ متشعبا فيها . ولكن عرب جهات كاليكوت لما فاجأهم العدو صاحوا صيحة الخطر وهاجوا وماجوا فى صبر وجلد . وقد أثرت دسائسهم فى نفس الزامورين حتي خالف بفعله ماوعد به فاسكو دى غاما وكان هذا نذيرا بحرب عوان كان لابدمن شبوب ضرامها .

وماذا كانت نتيجة الغضب ؟ أما الطريق فقد فتح وليس فى قدرة البشر اغلاقه . فقد سار پدرو الفارس كبرال فى نفس طريق بلاد الهند الشرقيـة الذى فتحه ضريع كرستوف كولمب . وما كادت تتحسن العلاقات بين البرتقال وملك كاليكوت حتى انقطعت وحلت العداوة محل الصلح والوئام ولم يجد كبرال نصيرا له بهذا الساحل فأرسل امراء كوشيم وكنجرانور* وكولم* وهم خصوم الزامورين الى القبطان البرتقالى وفودا يطلبون منه بواسطتهم محالفته إياهم ولكنه عاد الى البرتقال بعد ان ترك فى الجهات المختلفة جماعة

عهد اليهم جمع البضائع . وفى سنة ١٥٠١ وصل جوان دى نوفا
الى كننور فهمّ حاكم هذا البلد بحجزه عنده ولكنه أبى
البقاء . ولما علم ان ملك كليكوت قد جهز ضده دونتمة
مؤلفة من أربعين سفينة ذهب الى كوشيم والتقى بدونتمة
العدو وهزمها . وبعد ان أخذ من مختلف الجهات الواقعة
بساحل ملبار البضائع التى حصل أولئك الناس عليها ذهب
بها الى البرتقال، غير أنه شعر بضرورة تعزيز وسائط الهجوم
والدفاع فى بلاد الهند ومنع سفن العرب بخاصة من دخول
البحر الاحمر والخروج منه فسافر فاسكو واستيفام دى
غاما وفيسنت سودرى بدونتمة عظيمة الى كوشيم وكننور
اللتين اقامتا على عهد الاخلاص والولاء . اما ملك كاليكوت
فقد انتقم البرتقاليون منه شر انتقام . وأسست بالجهات
الموالية مراكز تجارية ولكن الزامورين أظهر فى مقاومته
صلابة عظيمة . وما كاد فاسكودى غاما يرحل عن تلك
البلاد حتى انقضّ الزامورين على كوشيم واضرم فيها النار
فاضطر صاحبها ترمومبارا* الى الفرار الى جزيرة واجيبى*

وفى سنة ١٥٠٣ وصلت الامداد الى البرتقاليين
كما جاء البوكرك وانطونيو دى سلدنها فعوقب ملك
كاليكوت وملك رابلين* وعقدت محالفة تجارية مع

كولم* ام الزامورين فطاب هذا الصلح وتعاقد عليه ولكنه نقض ماعقده بعد قليل من الزمن واستؤنفت الحرب. ولما كان ملك كوشيم يميل الى مقاومة خصمه طلب من البرتقاليين ابقاء عدد منهم لديه وعاد البوكرك الى لشبونة وبعد سفر الاخوين ابنى البوكرك دعا الزامورين امراء شاطىء ملبار جميعا للمدافعة عن البلاد فأجاب نداءه أمراء دانور* وبسبور* وطوطاجام* وكوريم* فنظم جيشا كبيرا ودونمة عظيمة وبلغ ماحشده من الجند خمسين الفا فلما عاد دون دوارتى ياشيكو* تغلب برا وبحرا على المتحالفين ودامت الحرب خمسة أشهر انتهت بخذلان هؤلاء وطلب ملك ربابين الصلح منهم.

وفى السنة التالية تكررت الوقائع فكان النصر من نصيب البرتقاليين. وبيان ذلك انه لما وصل لوبوسوارس* فى دونمة مؤلفة من ثلاث عشرة سفينة اطلق المدافع على مدينة كاليكوت فخرب جانبا منها وتغلب على دونمة الزامورين بجهات فنانى* كما تغلب على ملك كنجرانور الذى كان يقاتل ملك كوشيم واكره ملك دانور على الطاعة. وكان مركز البرتقاليين الى ذلك العهد فى تلك الجهات مركز المتغلب والتاجر، فقد فتكوا بالناس وجمعوا الاموال ولم

يؤسسوا دولة منظمة فى البلاد . وفى سنة ١٥٠٥ ظهر دوم فرنسيسكو الميدا .

فبعد أن خضع الشاطىء الأفريقى للبرتقاليين واحتل هؤلاء جزيرة سقطرة وعزز جيش الوالى البرتقالى بوصول نجدة ترستام دا كنها لم يبق لتنفيذ مشروعات الملك سوي مراقبة سواحل بلاد العرب وامتلاك الخليج الفارسى ، اذ بامتلاك هذا الخليج وخليج عدن يقع فى قبضة البرتقاليين المنفذان البحريان لتجارة مصر . وبعد ان كانت وجهة البوكرك رأس الحد اتجه أولا نحو قلهات* فبادر حاكمها بتقديم الهدايا وعقد محالفة سلم معه فانتقل البوكرك الى كوريات* الكائنة على عشرة فراسخ من قلهات فكانت المقاومة التى لقيها شديدة ، ولكنه تغلب عليها . وبعد أن نهبها أحرقها ، ثم اتجه الى مسقط فخشى أهلها أن يحل بهم ما حل بكوريات وطلبوا الصلح وأرسلت المؤن والذخائر الى الدونتمة البرتقالية ولكن تمكن ألفان من الجنود التى أرسلها سلطان هرموز من غشيان المدينة وحالوا دون تسليمها وصوبت نار مدافع الاستحكامات الى البرتقاليين فهجم هؤلاء عليها وعبروا السور ولم يتمكن المحصورون من الفرار إلا بكل مشقة . وبعد أن نهب البوكرك مسقط

انصرف صوب سحار* ففر أهلها ماعدا الحاكم وبعض الأعيان الذين أقروا بالخضوع والطاعة لملك البرتقال وتعهدوا بأداء الجزية اليه وكانوا فيما سبق يدفعونها الى سلطان هرموز . ومن ثم سافر البوكرك الى خورفكن* فلقى بها مقاومة ضعيفة انتهت بسقوط المدينة فى قبضتهم فقضوا فى نهبها ثلاثة أيام ووصل البوكرك فى آخر الأمر الى هرموز ، وهى مفتاح الخليج الفارسى ونقطة تلاقى الطرق التى توصل حاصلات الهند الى الفرس وآسيا الصغرى والسواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط .

وأما جزيرة جرون المقامة عليها مدينة هرموز فصخرة قاحلة ليس فيها مايلزم لتموين اهلها اذ كانوا يستوردون مؤنهم من جوغستان* وجزائر كشم* ولارك* وغيرها وكانت الخيرات والارزاق موفورة فيها آنئذ . وكان ملكها سيف الدين طفلا فى الثانية عشرة من عمره ، وكان حكمه بوصاية عبد اسمه خوجه عطار ، وكان هذا الرجل هماما فاضلا ، وكان بالمدينة ثلاثون ألف مقاتل منهم أربعة آلاف فارس يحملون القسى والنبال ، وكان بالثغر أربعمائة قارب ستون منها كبيرة الحجم تحمل من النوتية ألفين وخمسمائة . فأراد البوكرك ان يرى القوم شهامته ويثبت أنها غالبة على

كثرتهم فدخل الثغر بسفنه . وكانت مزدانة بالاعلام كما لو كانت تحتفل بيوم عيد ووقف بها فى وسط اكبر سفن هرموز ثم أوفد الى الحاكم من يدعوه الى الحضور لاستلام زمام السيادة على البحار مقابل جزية يدفعها . فتهيأ رجال البلد سراً للدفاع عنها وظل البوكرك ينتظر الاجابة فلما مل الاصطبار صوب مدافعه على السفن فأغرق أو أحرق أكبر عدد منها وقتل الفا وسبعمائة من العرب وغيرهم فخاف خوجه عطار مما حدث ولجأ الى الغالب يلتمس عفوه . وقدم سلطان هرموز اليه المواثق والعهود الكتابية بقبول سيادة ملك البرتقال عليه والاعتراف بسلطته ودفع جزية سنوية قدرها خمسة عشر الف سيرافيم * من الذهب واعترف لألبوكرك بحق بناء قلعة للبرتقاليين الذين سيقيمون بتلك البلاد . وقد شيدت القلعة سريعاً ولكن لما وقف خوجه عطار على حقيقة عدد الاعداء تملكه الاستحياء والاستخذاء لتغلب هذا العدد القليل عليه وانخذاله أمامه . وإذ كان لا يستطيع الاعتماد على قواه الخاصة من الرجال لجأ الى الخديعة والدسيسة ببث أسباب الشقاق بين ربابنة الدونمة فتراءى لألبوكرك ان يقف اعمال البناء ليتفرغ لمعاقبة أهل البلد بقطع طرق الاتصال بين الجزيرة والخارج

واحداث مجاعة بينهم ، وكان على وشك النجاح فى عمله لولا ان انفصل عنه ثلاثة من الربابنة بسفنهم فقد اضطر بسبب هذه الخيانة الى ارجاء تنفيذ مااعتزمه الى الوقت المناسب فسافر الى سقطرة ليمضى بها الشتاء . وقد وجد الحامية فيها على وشك الفناء بالجوع فكان حضوره سبباً لخلاص بقيتها من مخالب الموت ولما انقضى الشتاء اتجه الى بلاد الهند . ولم يأت احتلال سقطره بالفائدة المنتظرة لأن الجزيرة كانت قاحلة رديئة المناخ وليس بها مرفأ صالحا لرسو السفن حتى أن السفن المسافرة من البحر الاحمر الى الهند كانت تتخطاها كيلا ترسو بها . وكانت المسافة بينها ورأس فرتك* الواقعة على الساحل العربى شاسعة لاتسمح بمطاردة العدو بحراً فى هذا البعد السحيق .

وقد حدث فى سنة ١٥٠٨ أن تمكنت دوننمة مصرية بقيادة الامير حسين من الدخول فى المحيط الهندى والانضمام الى دوننمة كمباية دون أن يعترضها أحد . فلما التقت بالعدو لأول مرة كانت تجوب البحر للبحث عنه ، وكان قسم كبير من السفن البرتقالية قد عاد الى أوربا موسوقا بالبضائع ، فلما ظفرت به تغلب عليه الاميرحسين فى واقعة بحرية مات فيها احد ابناء البوكركـ . ولكن لم

تابث النجدات ان وصلت من بلاد البرتقال ومعها الاوامر الى الوالى بأن يسلم الى البوكرك زمام الهند واقتصرت مهمة فرنسسكو دالميدا على الانتقام لما أصاب ربابنته من الهزيمة ولموت ولده ، فأجل تنصيب البوكرك فى المركز الجديد وجمع قواه وسار للقاء الامير حسين . وقد عرج فى طريقه على مدينة دابول* واضرم فيها النار ثم أدرك فى جهة الديو* دونمة كمباية مع الأسطول المصرى وهاجمهما وانتصر عليهما فارتاعت بلاد سواحل الهند من انباء هذه الانتصارات وخضعت كمباية وجوة وجدد حلفاؤه عهود الطاعة وقابله اهل كننور وكوشيم المقابلة اللائقة بالظافر وتنازل ألميدا فى آخر الأمر لألبوكرك عن زمام الحكومة وسافر قاصدا لشبونة ولكنه مات قتيلا بيد زنجى فى خليج سودانها وكان قد رسا فيه بسفينته .

وبعد ان قام البوكرك بمهمته فى بلاد الهند وجزيرة سيلان عاد الى جوة كى يستعد للاستيلاء على عدن . وكان المصريون بعد هزيمة الأمير حسين فى الديو قد استمروا على الايغال بسفنهم فى بحر الهند بالرغم من طواف السفن البرتقالية فى خليج عدن . ولا شك فى ان هذه التجريدات الجزئية لم تأت بفائدة قطعية ولكن الحروب التى كان

لا مناص من شبوب نارها قد حيرت البرتقاليين الذين أكرهوا على إخلاء قلعة سقطرة وهدمها اذ كانوا يظنون أنها معرضة لهجمات الأعداء. فذهب البوكرك ورسا أمام عدن ونزل بجنوده الى البر وهاجمها، ولكن الدهر خانه في هذه المرة فانهزم رجاله واضطروا الى الأيغال في البحر الأحمر. وصمم على تخريب مدينة السويس فاعترضته عقبات مختلفة لها مساس بالملاحة في هذا البحر لم يستطع تذليلها بكفاءته وتجربته وبسالته. وبعد أن أوغل في الخليج مسافة طويلة اضطر الى العودة. فعزم على إغراء ملك الحبشة بتحويل النيل عن مجراه الى البحر الأحمر، كما خطر بباله ان يهاجم مكة بجيش من الفرسان، وظن أنه باستيلائه على هذا الحرم المقدس يخضع الأسلام كله. غير أن الوسائط لم تكن متوافرة لديه لاخراج هذا المشروع الى حيز الفعل فعاد متجها صوب الهند. ولما بلغ اليها نظم بها الأحوال نوعا ما وأنفذ السفن للطواف بخليج عدن وعمل مظاهرة تجاه جزيرة البحرين ثم سافر قاصدا الي هرموز. ولم يكن سيف الدين ولا خوجه عطار بها وقتئذ فقابله الرئيس حامد سلطانها الجديد وحاكمها نور الدين مقابلة ودية فطاب منهما أن يردا اليه القلعة التي كان شرع ببنائها فأجازا له إتمامها

وسعى سعيه لدى الامير الشاب حتي توصل الى نقل المدافع التى كانت على أسوار المدينة الى تلك القاعة .

وفى أثناء وجوده بهرموز أوفد اليه شاه العجم وفدا يحمل اليه الهدايا الفاخرة ويدعوه الى بلاطه أو ان يندب لذلك أحد وكلائه . ذلك لأن شاه العجم كان متأذيا بالاتراك ومجاورتهم اياه وكان يرجو أن يعاونه البرتقاليون فاتحو الهند عليهم ويكونوا عضدا يركن اليهم فى المستقبل . فلما وثق البوكرك من اخلاص الرئيس حامد له عاد الى جوة فوجد بها أمراً بتسليم زمام الحكومة الى لوبوسوارس دالبرجريا* وكان حينما وصل اليها معتل الصحة فاعتراه من ذلك الأمر هم كبير وحزن شديد ازدادت وطأة المرض عليه بسببهما شدة اماتته حتف انفه . وكان موت هذا الربان الشهير الذى اسماه البرتقاليون ألفونس البوكرك العظيم فى ١٥ ديسمبر سنة ١٥١٥ بتلك المدينة التى كان فتحها للبرتقال هى وعددا كبيرا من المدن . وفى خلال هذه المدة كان قسم من الاسطول البرتقالى قد أمر بالتوجه الى جزائر ملوقة . وكان العرب منتشرين فى أطرافها منذ زمن طويل ومحتكرين لتجارتها .

فلما وصل البرتقاليون الى ذلك الارخبيل يطاردون

العرب حينما وجدوهم أخذ هؤلاء يسعون فى منع مزاحميهم من الاستقرار فى تلك الجهات ، ولـكنهم فشلت مساعيهم اذ لم يتمكنوا من منع أهل البـلاد من الأذن للبر تقاليين ببناء حصن على جزر الارخبيل . ومن ذاك العهد تمّ فتح البرتقاليين لجزائر ملوقة وضمها الى املاكهم الاخرى .

وبعد أن أورد المؤلف قصة حلول البرتقاليين بارض الصـين واليابان فى سنة ١٥٤٢ قال انهم لم يهملوا الشاطئ الافريقى وان مستعمراتهم فى ذلك الوقت كانت تمتـد من سواحل غينا الى بحر الصـين وان سفالية وان كانت منذ اخـلاء حصن كلوا مقر ادارة كل المراكز البرتقالية الساحليـة فان موسامبيق كانت بالنـظر لتوسط موقعها وصلاحية ثغرها لم تزل أهم نقطة بتلك الجهات. ولهذا السبب كانت السفن العديدة تمر بها فى حالتى ذهابها الى الهنـد أو إيابها منها . وكانت بمالها من الجند الـكثير فيها تضمن سيادة ملك البرتقال على سائر مدائن الساحل وتحصل منها الجزية كما كانت حوادث بلاد الهند بما انتهت اليه من الغلبة والقهر للبرتقال كفيلة باستمرار خضوع سكان افريقيا لما كان يقع فى قلوب هؤلاء من الخوف والهلع عنـد وصول الانباء بانتصار البرتقاليين هناك .

وفى سنة ١٥٢٢ حدث ان سفينتين احداهما بامرة ديوجو دى ملاو * الذى حضر ليتسلم القيادة بهرموز والاخرى بامرة پدرودى كسترو * وصلتها الى موسامبيق . وكان بها وقتئذ جواودا ماتا * فلماخشى ان تتفشى الامراض التي كانت تفتك بالناس وقتئذ فى تلك الاصقاع بين رجال السفينتين فكر فى انفاذهما بمهمة الى الخارج . وبيان ذلك ان شيخ زنجبار الذى كان واليا معينا من قبل البرتقال ويدفع لهم الخراج كان لايزال صاحب السيادة على سكان جهات كريمبا * فلماتحالف هؤلاء مع شيخ منبسة الذى كان معاديا للبرتقاليين أخذوا يرفضون دفع الجزية ويحاربون زنجبار . وكان شيخ هذه الجزيرة قد اشتكى مرارا لجواو داماتا بأن هذه الحالة تمنعه من أداء الخراج . فلما وصلت السفينتان الآنفتا الذكر استأنف الشيخ شكواه ، وكذا جردت تلك التجريدة . وكان جواو دا ماتا قد ترأس عليها وسار الى جزائر كريمبا ومعه فيما عدا سفينته الخاصة ثلاثة قوارب للاهاين ونحو المائة من المتطوعة . فلما رسا أمام اكبر جزيرة من تلك الجزر هاجم المدينة واستولى عليها ونهبها وأحرقها بالرغم مما أبداه أهلها من صلابة المقاومة وثبات الجأش وبخاصة أهل منبسة منهم ، فلم ينتظر سكان الجزر الاخرى

أن يحل بهم ماحل بغيرهم بل سارعوا بالدخول فى طاعة شيخ زنجبار .

وكان شيخ منبسة أصعب مراسا فى ثورته إذ كانت مدينته حصينة وموقعها صعب المرام ووسائل المقاومة لديه متوافرة تذكر أهلها بحلاوة الاستقلال وتحبب اليهم الذود عن ساحته . وكان الميدا قد خربها فى الزمن السابق ، ولهذا سنرى فيما يلى ماتقلبت فيه من الأطوار فى حالتى ثورتها وسكونها وعمرانها وخرابها .

وفى سنة ١٥٢٨ كان نونو داكنها بن تريستام قاصدا الى الهند لتسلم زمام القيادة فعرج على زنجبار وماندة فشكا الاهلون اليه عدوان جارهم الثائر فاعتزم التوجه الى منبسة للقضاء عليها ، ووافاه شيخ ملندة بمدد ثمانمائة رجل ، وكان نونو يفضل التعجيل بالعمل قبل ان يترك لشيخ منبسة فرصة يستعد فيها ويتهيأ فاكتفى بمائة وخمسين رجلا وانضمّ اليه اثنان من أعيان البلاد أحدهما المدعو زاكويجا والثانى سيد أبو بكر . وكان فى عزم نونو بعد الاستيلاء على البلد أن يسلم زمام الحكم لموجنو محمد وجراج بن صاحب ملندة فى أيام فاسكودى غاما جزاء معاملة أبيه البرتقاليين بالحسنى والمعروف ، ولكن كانت والدة محمد أمة سوداء فظن ان

ذلك سيحول دون تحقيق تلك النية فرفض ماعرضه نونو عليه ونصحه بان يعين أخاه سيد ابو بكر، وكان أصغر منه سناً قائلا انه ابن أخى الشيخ القابض على زمام الحكم ومن اسرة سلاطين كلوا فتعجب نونو لهذا الامتناع وأجل النظر فى المسألة حتي تسقط المدينة فى قبضته .

وفى ١٤ نوفبر خرج بثمانمائة مقاتل فلما بلغ بهم فى ١٧ أمام منبسة ورسا بمدخل الثغر جاء لمقابلته أحد المغاربة راكبا صمبوقا . وكان هذا الرجل شيخ جهة أوتندو* القريبة من منبسة وكان ممن نالهم عدوان شيخ منبسة : وكان يزعم انه أحد الولاة الذين عينهم ملك البرتقال . وكان لاهمّ له الا الانتقام من جاره ، ولهذا جاء يعرض على القبطان البرتقالى استعداده لمعاونته فقبلها منه . وكانت منبسة قد حصنت بعد الذى أصابها من الميدا وزيد عدد مدافعها وضمت اليها مدافع السفن البرتقالية التى أغرقت أوتركت فى الزمن الماضى . وكان قد أقيم حصن صغير عند مدخل الثغر . فلما وقف شيخها على مقاصد نونو جمع المؤن والذخائر وادخل الى المدينة خمسمائة أوستمائة من الزنوج الصالحين للقتال فبعد أن وصل نونو أرسل برجال ليغوصوا البحر ويقيسوا عمق الممر . وبالرغم من النيران التى كانت تصوب اليه من ناحية

الحصن والخسائر الطفيفة التى لحقت برجاله وفيها سيد
ابو بكر ذاته الذى قطعت احدى يديه تمكن من الوصول
الى نقطة قريبة من المدينة أرسى فيها سفنه .

وفى فجر اليوم التالى أمر بالهجوم فلم يلق عناء فى
الاستيلاء عليها وكان المغاربة قد أخرجوا الى القارة قبل
الهجوم نساءهم وأولادهم وأموالهم ، فلما رأوا ان البلد قد
وقع فى قبضة العدو فروا هاربين ، الا أنهم لم يلبثوا ان
استأنفوا الهجوم بعد أيام مستترين بالغابات والحدائق
المجاورة وظلوا يرشقون البرتقاليين بالنبال المسمومة حتي
قتلوا منهم طائفة كبيرة فاغتاظ نو نو دا كنها واستدعى اليه
قوما من أهل البلد اعتادوا القتال بهذه الوسائل الحربية
وكتب الى شيخ ملنده يستنجده فارسل اليه أحد أبناء أخيه
ومعه بعض أعيان المغاربة وخمسمائة رجل ، فجاء هؤلاء بقصد
الانتقام من شيخ منبسة وكانت المدينة خالية من السكان
ولكن الغنائم كانت لاتزال كثيرة بها ووفد شيخ أمتنجاتا*
وهى بلد صغير بالقرب من منبسة ومعه مائتان من رجاله
وجاء أهل پمبا وزنجبار والمدن الأخرى يحملون الهدايا الى
نو نو ويشكرون له انقاذهم من مخالب ذلك الطاغية .
وبمعاونة البرتقاليين لهذه الطوائف اكتسح أهل منبسة الى

القارة فكانوا يأوون الى الغابات فاذا اضطرهم الجوع الى البحث عن الطعام قصدوا الى الجزيرة ، فأراد نونو أن يقضي عليهم بتخريب الدور وقطع أشجار النخل من أصولها حتى لايجدوا مأوى ولاطعاما .

ولما أيقن شيخ منبسة سوء العاقبة أوفد متوتو* الى نونو يعرض عليه طاعته لملك البرتقال ويعطيه الميثاق بدفع جزية سنوية قدرها الف وخمسمائة مثقال ذهبا وان يدفع على الفور جزية ثلاث سنوات فضلا عن اثنى عشر ألف مثقال ذهبا فى مقابل استرداد المدينة وصيانتها من الخراب . وتعهد فوق هذا وذاك بأن يكون خادما أمينا لملك البرتقال وان لايقبل فى بلاده الأتراك وغيرهم من الامم المعادية للبرتقال .

ولقد دفع ألفا وخمسمائة مثقال على الحساب ، ولكن الأهلين علموا فى الايام التالية ان الامراض قد فشت فى البرتقاليين وأنه لامناص لهم من التعجيل بأخلاء المدينة فتلكأوا فى الوفاء بدفع الباقى من الجزية . وكان هذا الخبر صحيحا اذ كانت الامراض تفتك بالبرتقاليين فتكا ذريعا والقواد يلحون على نونو بالرحيل فبقى هذا حتى اعتدلت الرياح . وفى اوائل مارس عقد النية على إحراق المدينة فاضرم

فيها النار ثم ذهب قاصدا الى مانده بعد أن ترك بها ثمانين رجلا من رجاله ليدافعوا عن شيخها ضد شيخ منبسة وفى ٢٣ ابريل سنة ١٥٠٨ استأنف الرحيل الى شاطىء ملبار

وكانت المستعمرات البرتقالية بالسواحل الأفريقية غربا وشرقا وممتلكاتها ببلاد الهند والخليج الفارسى والصين واليابان مقسمة أربعة أقسام ، أولها قسم الساحل الشرقى لأفريقيا فان مركز إدارته كان قد نقل الى سفاليه عقب إخلاء حصن كلوا ثم نقل الى موسامبيق بعد ذلك .

قال جيان بعد أن وصف إدارة أمور تلك المستعمرات وأفاض فى الكلام على ماوقع بداخل البرتقال من الحوادث التى أضعفت نفوذها فى الخارج مايأتى : لقد كانت نتيجة تلك الحروب التى دبرها المسلمون وبخاصة سلطان مصر شؤما ووبالا على البلاد بدون ريب . ولكن حدث فيما بعد ما كان أشد وقعا واسوأ أثرا فى البرتقاليين فأنه لما استولى الأتراك على مصر فى سنة ١٥١٧ كان هذا الاستيلاء عنوانا لشبوب حرب فى الشرق بينهم والبرتقاليين تواصلت وقائعها نحو قرن من الزمان وكانت سبب امتزاج دم العثمانيين والمسيحيين فى ذلك البحر المحيط بسواحل بلاد العرب والمصاقب للسواحل الغربية لبلاد الهند . وقد

كان من ثمار انتصار البرتقاليين واستدراجهم الى أقصى البقاع قسما كبيراً من قوات العثمانيين ان حالوا دون تحقيق أمانيهم بأروبا فأنهم كانوا قد زحفوا منها حتى بلغوا الى أسوار مدينة فيينا وألقوا الهلع بذلك فى قلوب أهل أروبا .

وقد تمكن البرتقاليون فوق هذا وذاك من القضاء على أساطيل سلطان القسطنطينية فى بحر الهند ، ولكن البرتقاليين كانوا فى الوقت نفسه قد ضاقت بهم الحيل اذ فقدوا السواد الأعظم من رجالهم فظفر الاتراك بهم فى بعض الوقائع وبدا للعيان أن البرتقاليين لم يكونوا بالقوم الذين لايقهرون أبد الدهر . ذلك لأن البرتقاليين دالت دولتهم وثل عرشهم وضعفت قواهم الى حدان الفرس لماطلع نجمهم فى عهد عباس الكبير فى فجر القرن السابع عشر آلت اليهم السيادة على الخليج الفارسى فأخرجوا البرتقاليين من هرموز ، ولم يقتصر مصاب هؤلاء على هذه النكبة بل جدت على سياستهم الداخلية أمور أعانت على انحلال دولتهم الشرقية .

وكان دوم سبستيان ملك البرتقال قد أنفذ تجريدة الى جهات افريقيا مات فى خلالها هذا الأمير ، فتولى الحكم عمه الكاردينال هنرى وحكم سنتين . وبموته انقرض

الذكور من البيت المالك . فشب عندئذ ضرام حرب الوراثة بين اسبانيا والبرتقال لاحراز كرسيها وانتهى الأمر باستيلاء اسبانيا على صولجان الحكم فيها سنة ١٥٨٠ .

وقال جيان بعد ذلك : وفى سنة ١٥٢٠ لما عبر ماجلان* المضيق الذى سمى باسمه واخترق المحيط الهادىء وعثر على البرتقاليين فى جزائر ملوقة واعتدى بفعله هذا على حرمة البابا الذى اعترف للبرتقاليين بحق امتلاكهم مايستكشفونه فى الشرق وللاسبانيين مايستكشفونه فى الغرب لم يستطع البرتقاليون البقاء فى أرخبيل ملوقة إلا بمحالفة عقدت فى سنة ١٥٢٩ بين الملك حنا الثانى والامبراطور شارلكان ، فلقد وافق هذا الامبراطور على ان يترك تلك الجزر لملك البرتقال مقابل خمسة وثلاثون الف دوكا .

وكانت هولانده قد بدأ شأنها يعظم شيئاً فشيئاً فى عهد فليب الثانى ملك البرتقال وقتئذ بعد إذ كانت جمهورية صغيرة سواد أهلها ان لم يكن كلهم صيادو سمك وتجار . وظلت فى تقدم وارتقاء حتى حاكت اهم الدول البحرية بفضل أخلاق أهلها وحكمة ماسن لها من القوانين بل قانونها الأساسى وميل رجالها الى التجارة والتعاون المالى .

فالهولنديون الذين كانوا بأساطيلهم الحربية يحمون

سفنهم التجارية وتتابعت تعدياتهم على البحرية الاسبانية ازدادوا حرصا على توسيع نطاق تجارتهم وكانوا قد بدأوا يقبضون على زمام التجارة فى لشبونة لأنهم كانوا يشترون ما كان يرد عليها من بقول الهند وبهاراتها وافاويهها ليبيعوه بأوربا. فلما حرم فليب فى سنة ١٥٩٤ على البرتقاليين الذين أصبحوا من رعاياه الاتجار مع الهولانديين كان من نتائج هذا الحرمان أن خسر التجار البرتقاليون ما كانوا يربحونه من الهولنديين واضطر هؤلاء الى جلب تلك العروض من البلاد التى تنتجها. وفى الواقع فان الهولنديين بعد ان طال بحثهم عن ممر يؤدى بهم الى الصين واليابان من البحار الشمالية استصوبوا ما ارتآه كرنيليوس هوتمن* احد تجارهم، وكان رجلا عالى الهمة سجنه البرتقاليون فى اشبونة لدين كان عليه فعرض على تجار أمستردام بأن يفتح لهم ابواب بلاد الهند وأن يعرفهم بتجارة هذه البلاد فى مقابل تخليصهم إياه من السجن فأجابوه الى سؤله واخرجوه من ظلمات حبسه.

وكان الهولنديون قد اسسوا « شركة البلاد البعيدة » فوضعوا تحت امرة هوتمن فى سنة ١٥٩٩ أربع سفن فأوغل بها فى البحر ومرّ برأس الرجاء الصالح ثم بمدغشقر وجزائر ملديو* ثم قصد الى جزر سونده. ومنذ ذلك

التاريخ لم يبرح الهولنديون بحار الشرق بل ساعدهم على رسوخ قدمهم فيها أثر الكراهة الذى بقى فى نفوس أهل الهند والصين للبرتقاليين. على أن هذه الكراهة لم تلبث أن انبثت فى أفئدتهم ضد الهولنديين أيضا ، لانهم لما قويت ساعدهم وتوطدت أركانهم ورست شوكتهم على أمتن القواعد فى تلك الارجاء مالت نفوسهم الى الظلم والطغيان والقسوة وأصبح ما كانوا يظهرونه من اللطف واللين والدعة فى خبر كان ، بعد إذ استعانوا بهذه الصفات والمحامد على الحلول محل خصومهم البرتقاليين ولم يكن الهولنديون وحدهم خصوم البرتقاليين ومزاحميهم فقد ظهر فى الميدان مزاحم آخر أخذ يطالب بحصته فى الغنيمة. نريد بهذا المزاحم انكلترا التى لجأ اليها الصناع الماهرون الذين فروا من بلاد الفلندر* على أثر ماعانوه فى قسوة الدوق دالب هم وغيرهم من الصناع الذين فروا من فرنسا بسبب اضطهاد الكاثوليك لمعتنق مذهب الاصلاح فكانوا عماد ثروتها التجارية والصناعية ، نقول إن انجلترا هذه التى كانت الملكة اليصابات تقبض وقتئذ على صولجان الحكم فيها برعت آنئذ فى التجارة والملاحة وفاقت فيهما فوقا عظيما فأنها بعد أن كانت تتاقى من تركيا بضائع بلاد

المشرق فكر تجارها فى فتح طريق موصل الى الهند .
وكانوا قد هموا مرارا بمثل هذا العمل فى عهد هنرى الثامن فلم يوفقوا لاختراق الطريق الذى اختاروه وهو الموصل الى بلاد التتر والصين أو بلاد قطاى* فشرعوا فيما بعد بالبحث عن طرق أسهل فكان البحرية الانجليز يصلون الى بلاد الهند تارة من البحر الجنوبى وطورا عن طريق رأس الرجاء الصالح وكان فى مقدمتهم فرنسيس دريك* الذى قام برحلة سنة ١٥٨٧ والقبطان ستيفنس* سنة ١٥٨٢ وكافنديش* سنة ١٥٨٧ .

وكانت هذه الرحل مفيدة الى حد أنها أقنعت كبار لندره ومشاهيرها بوجوب تشكيل شركة منحت امتياز الاتجار بتجارة بلاد الهند وأسست فى سنة ١٦٠٠ وكان هؤلاء هم الاعداء الالداء الذين كان سيلتقى بهم البرتقاليون لوظلت دولتهم قائمة . دع فرنسا التى لم تخفق لها فى تلك البحار اعلام الا فى سنة ١٦٦٤ على عهد كولبير* فماذا كان يبقى بيد البرتقاليين من وسائط الدفاع تجاه أمثال هؤلاء الخصوم ؟

قال المؤلف ولنعد الآن الى الكلام على ساحل افريقيا الشرقى لتتبع سير الحوادث التي توالت فى تلك الجهات .
وقد سبق لنا ان قلنا إن نونو بعد أن دمر مدينة منبسة فى

سنة ١٥٢٩ كان زمام الحكم فى هذا الساحل كله بيد البرتقاليين دون سواهم وبقيت منبسة ملتزمة الهدوء والسكون . وقد نقل الينا فاريا ايسوزا* أن السفينة إيسبادارت* التى كانت فى أخريات عام ١٥٥٤ احدى سفن الدونتمة المسافرة الى الهند بقيادة دوم پدرو دى مسكارينها* رست بمنبسة ، وهذا يدل على ان سلطانها كان لايزال مسالما للبرتقال . وأن حكم البرتقاليين على بلاد سواحل افريقيا كان حتى ذلك التاريخ متين القوى . فلما أصبحت البرتقال صاحبة السيادة على القارة ازداد ربابنة السفن طمعا فأخذوا يفكرون فى توسيع نطاق فتوحاتهم حتى الجهات الداخلية الواسعة . ولم يتيسر تحقيق هذا المشروع بقوة السيف لماينطوى عليه من الاخطار . وكثيرا مايتفوق النفوذ السلمى فى مثل هذه الاحوال على القوة المادية ويعلم المفكر فى أساليب استخدام هذه القوة أنه يجب أن تكون بنسبة المقاومة التى عسى أن تلاقيها . ولم يهمل البرتقاليون الوجهة الدينية فقد ألف سان فرنسوا اكزافييه أول طائفة دينية أخذت على عاتقها نشر العقيدة الكاتوليكية ولكن الذى ثبت هو ان هذا القس أنشأ مراكز دينية بالساحل الشرقى الأفريقى . أما الطائفة الثانية التي ألفها سان دومينيك فكان لها مراكز

فى موسامبيق ثم اعقبتها طائفة الاوجوستان ، وكان لها مركز فى منبسة ثم طائفة الآباء اليسوعيين الذين انتشروا فى انحاء العالم وكانت لهم مراكز عديدة بموسامبيق وعلى ضفاف نهر كواما . وهم أول من سعى لمدّ نفوذهم السلمى بداخل القارة الافريقية من جهة المشرق فوفق الأب جونسالف دى سلفيرا* من طائفة الجزويت البرتقاليين سنة ١٥٦٠ لتنصير شخص الحاكم على مونوموتابا ووالدته وتبعهما فى ذلك جم غفير من حاشيته ، ولكن حفلات التنصير لم يكن معناها الايمان بالنصرانية فان اعتناق الديانة النصرانية لايكون صحيحا بذاته اذا اقتصر على الحركات والاشارات الظاهرة ولم تشترك فيه النفس والعقيدة .

فلقد حدث أن ذلك الملك أصغى الى نصائح ندمائه المسلمين فترك الديانة الجديدة التى اعتنقها وقتل من أغراه باعتناقها كما قتل خمسين ممن تنصروا ، وذهب فى عمله الى أبعد من ذلك حيث لم تكن إلا فترة من الزمن حتى قتل اولئك المسلمين . وقد اتصل بالجزويت الموجودين بكوشيم نبأ هذا الحادث فبعثوا اليه بمن يستميله الى النصرانية ويحصل منه على إذن بنشر هذه العقيدة فى بلاده دون معارضة أحد .

وكانت بيدهم فرصة ثمينة لأحراز نفوذ كبير فى تلك الجهات ، غير أن دوم سبستيان الذي ملك البرتقال وقتئذ أتى بأعمال خيبت الآمال لأنه أعرض عن تأييد المرسلين فى أعمالهم المبنية على المسالمة والتدرج واقبل على تنفيذ مشروع لمتته وسداه الأرهاب والعدوان بل الأغارة والفتح . وكان الغرض الذى يرمى اليه به هو الاستيلاء على معادن الذهب والفضة بمونوموتابا ، وقد جرد لذلك تجريدة تحت قيادة فرنسسكو بوراتو* الذى كان حاكم بلاد الهند وقتئذ وارتضى بان يكون حاكما لجهات مونوموتابا بعد ذلك المنصب الخطير .

جاء بوراتو المومأ اليه ورسا بدوننمة فى مياه موسامبيق أواخر سنة ١٥٦٩ . وكانت هذه الدوننمة مؤلفة من ثلاث سفن وتحمل ألف رجل فما كاد يصل الى الساحل حتي بدأ باحلال العقوبة بسلطان مونوموتابا وكان ثائرا على البرتقاليين ، ثم تأهب للزحف بتجريدته فنقل الرجال وعدد القتال بحراً الى مصب نهر كواما وسارت السفن فى النهر حتى بلغت الى صيونة ومنها سار الجيش الى أيرانابولا* التى اعترضتهم بها من بعد صنوف الصعوبات والمشاق بدأ فرأى بوراتو أنه لامناص له من الاتفاق مع

ملك مونوموتابا فأوفد اليه رسلا يسألون منه امداده بالجند ليتمكن من إخضاع ملك مونجاس* الثائر . وما أراد بوراتو بذلك سوى أن ينتحل عذرا يقنع الملك بضرورة الاغارة على مونجاس الواقعة بين صيونة ومنطقة المناجم .

ويؤخذ من قول المؤرخ البرتقالى ان هذا الملك أحسن وفادة اولئك السفراء وأراد ان يجعل تحت قيادة بوراتو مائة الف محارب ، ولكن القائد البرتقالى رفض هذه المساعدة فاتجه الجيش الى بلاد مونجاس وبلغ الى المدينة المعروفة بهذا الاسم واستولى عليها . ولما خشى أهل البلاد عاقبة انتصارات البرتقاليين وداخلتهم الرهبة من فتك الأسلحة النارية طلبوا الصلح وكادت مهمة الجيش تكلل بالنجاح لولا ان تواردت الأخبار بنزوع أحد القائمين مقام بوراتو فى موسامبيق الى الثورة . فانه اضطر وقتئذ الى تعجيل العودة اليها تاركا القيادة لفاسكو فرناندو هوميم* .

وما كاد يصل الى موسامبيق حتى عادت السكينة الى نصابها ففكر فى العودة من حيث أتى ليتولى القيادة بنفسه غير أنه مات فى صيونة . أما فاسكو هوميم فقد أثرت فيه أقوال مونكلاروس اليسوعى* فعاد بجيشه الى موسامبيق

واتفق ان توفى هذا اليسوعى فعدل هوميم عن عزمه لهذا السبب ، وفكر فى العودة الى افتتاح منطقة المعادن . وقد سار فى هذه المرة من طريق سفالية لأنها أسهل من التى سار عليها بوراتو فوصل الى مناجم مانشيكا* على الحدود الغربية لمملكة كيترفا* ثم أوغل فى أملاك هذا الامير وتغلب على أفواج من الكفر (الزنوج) الذين انبروا لمقاومته ، فأمر ملك كيترفا رجاله بأخلاء المدن والفرار منها وأخذ كل مايملكونه معهم واهما انه بذلك يهلك البرتقاليين جوعاً . ولكن هذا العمل لم يحل دون وصول فاسكو هوميم الى مدينة زيمباز* (وربما كانت زيمبوى) مقر الملك وعاصمته التى كان أخلاها منسحبا الى الجبال ، فأحرق هوميم هذه المدينة وواصل السير الى شيكانجا* وكان اهلها يرتعدون لمقدمه فرقا فقابلوه مقابلة حسنة وأذن له حاكم هذه البلاد بالمرور منها للوصول الى المناجم التى كانت مسألة استخراج الذهب منها من أعضل المسائل وأشدها صعوبة إذ كانت الحاجة ماسة الى ان يكون القائد البرتقالى معزز الجانب بأكثر مما كان معه من الجنود .

ولما أن وصل الى النقطة المقصودة ظهر له وقتئذ أنه كان مخدوعا ببريق الآمال فاعتزم العودة من حيث جاء

وعاد الى كيترقا ، فأذن له الملك بالأيغال فى منطقة مناجم مانيناس* على شرط ان يدفع له جزية سنوية ثم وصل البرتقاليون الى شيكوفا* وكان علم بكثرة الفضة فيها ، فبعد ان ضربت الخيام شرع هوميم فى جمع البيانات الخاصة بذلك فظن الأهلون أنه اذا اهتدى البرتقاليون الى موقع المناجم فلا بد ان يقضى على ارزاقهم ومكاسبهم فصعبوا الأمر على البرتقاليين لهذا السبب وحملوهم على اليأس والضجر حتى انهم لما رأوا أن ما معهم من المؤن والأزواد قد أشرف على النفاد عول قائدهم على الانسحاب تاركا الضابط أنطونيو كوردوزو دالميدا* ومعه مائتا رجل بما يلزمهم من الأدوات لمواصلة العمل .

وما ارتحل فاسكو هوميم حتى أوقع الأهلون كوردوزو دالميدا ورجاله فى شرك نصبوه لهم وأفنوهم عن آخرهم فانتهى بذلك حكم البرتقاليين على جهات مونوموتابا وانما ظلت العلاقات التجارية وصاحبها على حالها . والى هذا الحين لم يكن الاتراك تعدوا على الأملاك البرتقالية فى أفريقيا الشرقية . وإنما ظهر فى سنة ١٥٨٦ رجل يدعى على بك اشتهر بالجرأة والاقدام والهمة . وكان قد هاجم مسقط وخربها ونهبها وعقد النية على مهاجمة سواحل أفريقيا فسافر

من سواحل الحجاز بسفينتين غرقت احداهما ونجت الأخرى فجاء بها الى مقدشو وتعرف بمشائخها وأخبرهم بأنه بناء على أمر ملكه جاء ليوطد سلطته وحكمه على كل المشائخ المتسلطين على سواحل ملنده وأن أسطولا ضخما سيحضر على أثره لتنفيذ هذا الغرض. فبادر سكان مقدشو بالاعتراف بسلطة صاحب القسطنطينية وسيادته عليهم.

ثم رحل على بك قاصدا الى لوزيفا* وبفضل المعاونة التي قدمها اليه أحد مشائخها تمكن من الاستيلاء على سفينة كانت محملة بالبضائع الغالية النفيسه فتمكن ربانها روك دي بريتو* ورجاله من الفرار منها ولجأوا الى لامو. ولما كان شيخها من الموالين لعلى بك فقد سلمهم اليه فاسرهم جميعا وأرسلهم الى القسطنطينية حيث ماتوا. وفى جهات باتاحل بأحدى السفن التجارية ماحل بالسفينة السابقة فاستحوذ على بك بهذه الصورة على دوننمة صغيرة جلها مؤلف من السفن التى ضبطها وقد تفرغ للتجارة عليها بالمدن الساحلية مستفزا سكانها الى الثورة فاستطاع فى زمن يسير اشعال نار الفتنة والاضطراب بين سكان أمبازا* ولامو ومنبسه وكليفى وبروه ويوجو* وغيرها من المدن. وقد حملهم فى الآن نفسه على الاقرار بالطاعة لسلطان القسطنطينية كما

فعل سكان مقدشو ، ونجح فى ذلك كله بأيهامه ان من وراثه دوننمة عظيمة لا تلبث ان تصل . وقد أفاده هذا الأيهام فائدة جزيلة لان القوة التى كانت بيده لم تكن بكافية لأخافة الناس وإرهابهم اذ كان عدد رجالها لايتجاوز الثمانين رجلا وكانت سفينته فى حالة سيئة جدا لحدوث ثغرات فى جوانبها أدت الى غرقها فى ميناء مصوع من ساحل الحبشة . ولم يقم على الولاء والاخلاص للبرتقاليين سوى شيخ ملنده فانه لما علم منه الوالى دوم دوارتى دى مينزس* تفاصيل تلك الحوادث جهز بمدينة جوة دوننمة من ثمانى عشرة سفينة سافرت بقيادة مرتيم أفونسو دى ميلو بومبيرو* فوصلت أمام منبسة والمدن الاخرى وقد أحرق المدينة الأولى فخضعت له المدن الباقية .

أما الامير على بك فقد انتفع بالبيانات التي حصل عليها فى أثناء جولاته البحرية ، فأنه لم يمض زمن طويل حتي ظهر ثانيا ، وبيان ذلك انه سافر باسطول صغير من مخا فى أوائل سنة ١٥٨٩ وكان هذا الاسطول مؤلفا من خمس سفن فوصل الى ملنده فقاومه فيها ماتيوس ماندس دى فسكنسللوس* مقاومة اضطرته الى الانسحاب فاتجه على بك الى منبسة للتجهز فيها استئنافا للهجوم على ملندة وفى

الوقت نفسه جهز مانويل دى سوزا كوتنهو* حاكم الهند وقتئذ دونتمة من عشرين قطعة تقل تسعمائة رجل وجعلها تحت قيادة أخيه تومى دى سوزا كوتنهو* . فبعد أن مر القبطان البرتقالى ببروة وأمبازا ولامو وملندة وصل فى ٥ مارس سنة ١٥٨٩ الى منبسة وكان على بك متحصنا بها .

وبينما كان تومى يستعد لمهاجمة المدينة بحرا كانت قوة كبيرة من أهل البلد معسكرة بالقارة حول الخليج الذى يفصل الجزيرة منها . وكان هؤلاء الجند من الكفر المشهورين باسم زيمبا* ، وكانوا قد أخلوا الاراضى التى كانوا فيها على ضفاف نهر كواما ، وكانوا يذهبون الى الجهات الداخلية بافريقيا الشرقية المجاورة للسواحل وينهبون مايجدونه فى طريقهم ويذبحون ويأكلون كل ماتصل اليه أيديهم من أناس وحيوانات ويتركون البلاد خاوية لاديار فيها ولانافخ نار . وقبل وصولهم الى منبسة بأشهر كانوا قد أمضوا بكلوا ردحا من الزمن وحطوا رحالهم بسواحل فرع البحر المحيط بالجزيرة التى عليها المدينة ، فاصبحت كلوا محصورة على هذا الوجه وما كان يرد اليها شىء من الخارج . وكانت قبيلة وازيمبا* قد أفنت كل ما بها من السائمة وأكلت المزروعات التى زرعها المغاربة بجهة القارة ، ولكن لما لم يكن لدى

الوازيميا قوارب فلم يستطيعوا الدخول الى الجزيرة فبرز اليهم مغربى من أصحاب الجشع والطمع ، وكان خروجه ليلا فسار والبحر منخفض حتى التقى بشيخ هذه الجماعة ووعده بان يرشده الى هذا الممر اذا ضمن له حياته هو وأهله وان يعطيه حصة من الغنيمة فقبل منه شرطه ودخل الوازيبا فى الجزيرة على اطمئنان من أهلها اذ كانوا نائمين فذبح منهم جما غفيرا وأسر الباقين إلا قليلا تمكنوا من الفرار والتفرق فى الغابات ، وظلوا مختفين بها حتى اذا شبع أعداؤهم من القتل والنهب والتخريب والاحراق عادوا الى القارة .

أما الاسرى فقد ذبحهم هؤلاء المتوحشون وأكلوهم.

والذى يؤخذ من قول ديوجو دوكوتو* ان عدد المغاربة الرجال والنساء الذين أكلهم هؤلاء المتوحشون بلغ ثلاثة آلاف نسمة ، وهذه الرواية لم يصادق المؤلف عليها . وبعد ضرب كلنوا انتقل القوم الى الشمال وحطوا رحالهم أمام جزيرة منبسة حيث كانت توجد كما ذكر آنفا دوننمة تومى دى سوزا فكان سكان تلك المدينة الثائرة بين نارين اذ كان لابد لهم من محاربة الاعداء من كل جهة .

ولما رأى شيخ قبيلة وازيمبا ان نار القتال متقدة وان حالة البرتقاليين من جهة البحر جيدة عرض عليهم المساعدة

فقبلوا وكان هذا القبول ضربا من الطيش والغرور فان الوازيمبا عبروا البحر ودخلوا المدينة وأخذوا يقتلون كل من يجدونه بها من المغاربة والاتراك. وكان هؤلاء التعساء يلقون بأنفسهم الى البحر لينجوا من الاصابة بسهام الزنوج ولكنهم كانت تنتظرهم فيه سهام النصارى وبنادقهم فيتم بها عمل الفتك وحصد الارواح. غير ان البعض منهم نجوا من الموت بوقوعهم اسري فى أيدى البرتقاليين وخلصوا بذلك مما حاق بالذين وقعوا فى أسر الوازيمبا بجهات كلوا ومنبسة. وكان على بك فى عداد من أسرهم البرتقاليون فأرسل به الى لشبونة وفيها توفى بعد اعتناقه الديانة المسيحية.

وقصد تومي دى سوزا الى لامو وتفرغ فيها لمعاقبة الثوار اذ أمر بقطع رأس شيخ هذه المدينة وأخى شيخ كليفى واثنين من اعيان باتا كانا قد أسرا وهما يقاتلان فى صفوف الاتراك. وشهد مشايخ باتا وسيو أوسيهوى* وبازا اعدامهم وفرضت على مدنهم جزية بقدر ما انفق فى الحرب من المال وأخذ شيخ سيهوى بعد ذلك أسيرا وحل بسكان مندرا ما حل بغيرهم ونهبت مدينتهم الواقعة جنوبى باتا واتلفت أشجار النارجيل والمزارع التى كانت تحيط بها فخشى أهل البلاد أن يحل بهم مثل هذه الفظائع فآثروا البقاء فى

ربقة العبودية وجدد مشايخهم يمين الاخلاص لملك البرتقال وتعهدوا بمقاومة الاتراك كلما ظهروا فى أفقهم .

أما القبيلة المتوحشة التى ساعدت تومى دى سوزا فى تخريب منبسة فقد اتجهت الى الشمال تخرب البلاد فى طريقها وواصلت السير حتى بلغت الى ملنده ولكن سلطانها وماتيوس مندس دى فسكنسللوس تمكنا من صدهم فنجت من طغيانهم . وبيان ذلك ان ثلاثة آلاف رجل من قبيلة واسيجيو* انضموا الى شيخ مانده فهوجمت قبيلة وازيمبا وشتت شملها . وبعد هذه الحوادث وحلول العقاب بالثائرين بزمن يسير هوجم البرتقاليون فى جزيرة پمبا ، وأرضها خصبة جدا كثيرة الخيرات وفيها الأقوات والعلف ومختلف الحاصلات خصوصا الأرز ، وهذا فضلا عن كثرة ماشيتها . وكانت ارضها تخترقها غدران المياه وتزكو فيها أشجار البرتقال والليمون ، ولكن مناخها كان مع الاسف شديد الضرر بالصحة . وكان يقيم بها عدد كبير من البرتقاليين تجارا وجندا وهم لايبالون بالامراض بل يرغبون فى التمتع بالحياة وخير البلاد . وفى هذه البلاد أيضا كان المغاربة يشكون من قسوة أحكامهم وشدة عسفهم بهم وكان الناس يتحدثون بخيانة البرتقاليين من سكان پمبا لحدث

أن مغاربة هذه المدينة أرادوا التخلص من نير العبودية فثاروا على البرتقاليين وعلى شيخهم الموالى لهم وربما كان لحضور على بك الى تلك السواحل دخل فى تحفزهم للثورة فانهم انتهزوا فرصة ظلام الليل فهجموا على البرتقاليين فى مدينتهم وذبحوا الرجال والنساء والاطفال ثم هجموا على دار شيخهم ولكنه تمكن من الفرار فى جماعة من البرتقاليين وخرج معهم من الجزيرة فى قوارب كانت على مقربة من مكان المذبحة ولجأوا الى ملنده وكان بها القبطان تومى دىسوزا كوتنها موفدا من قبل أخيه الوالى لقتال الامير على بك فوافى الضابط البرتقالى الشيخ الهارب بالنجدة وأعاده الى الحكم ، ولكن لم تمض سنوات حتى ثار مغاربة پمبا ثانيا وأخبروا شيخهم بأنهم لن يخضعوا له أبدا ، فلجأ الشيخ الى قلعة منبسة وفيها اعتنق الديانة النصرانية وتزوج ببرتقالية من اليتيمات اللائى كانت ترسل بهن عاصمة البرتقال الى المستعمرات .

ولم تكن پمبا البلد الوحيد الذى ثار أهله على البرتقال فأنه يؤخذ من قصة رحلة لنكاستر* فى سنة ١٥٩١ انه لما حل بزنجبار فى سبتمبر من هذه السنة وكان بها مركز تجارى صغير وبعض عمال برتقاليين ان هؤلاء كانوا يبذلون كل ما

فى وسعهم لمنع سكان هذه الجزيرة من الاتصال بالانكليز ولكنهم لم يكونوا من القوة وقتئذ بحيث يكرهونهم على طاعتهم اذ أصبح نفوذهم غير كاف لاخضاع شيخ البلاد ورجال حكومتهلم . الا أنه لاخلاف فى ان هذه الجزيرة ، وهو ماتأكد للنكاستر فى أثناء وجوده بزنجبار ، كانت من الجهات التي للبرتقاليين حق الاشراف فيها على علاقات الهيئة الحاكمة بالخارج . وكان هذا الحق محدودا فى الحقيقة سواء فى زنجبار او غيرها . ولعدم توافر القوة الكافية لديهم كان سكان البلاد يثورون عليهم من وقت الى آخر بجهات تيت احدى حصون البرتقاليين على الضفة اليمنى من نهر زامبيز اذ كان يحيط بها احدى عشرة قرية تسكنها قبائل الكفر التابعة للبرتقال . وكانت هذه القرى تحت رياسة الشيوخ المعروفين فى لغة تلك الأمم بكلمة انكوس* وكانوا تحت سلطة حاكم تيت البرتقالى الذى له حق تولية من يريد وعزله . وكانت هذه الامم ميالة للحرب لاشاغل لها غير محاربة بعضها البعض ، وكانوا يقولون إنا نؤثر القتال على الاشتغال بالفلاحة لأن المقاتل الذى يقتل فى حومة الوغى لاحاجة له بالعمل والذى لايقتل يصيب من غنائم اعدائه مايجعله فى غنى عن السؤال .

وكانت القرى كلما دعت الحالة الى الاستعانة بها ترسل كل منها عددا من ابنائها مسلحين بالسهام والخناجر ، فكانوا يسيرون بنظام تحت قيادة رئيسهم تتقدمهم آلات الموسيقى كالأبواق والطبول ، وكان عدد الذين يستعملهم حاكم تيت فى الحرب يناهز الألفين ، وكانت تسكن تجاه حصن تيت وفى الشمال الشرقى وشرقى نهر الزمبيز قبيلتان غير تابعتين للبرتقال هما قبيلة زيمبا أو موزيمبا التى سبق الكلام عليها وقبيلة مونبوس* . وكان رجالها يأكلون لحم البشر ويتجرون على قول ديوجو دوكوتو بلحم الانسان .

وفى سنة ١٥٩٢ كان فى قبيلة مونبوس رجل يدعى كيزورا تعدى بالسلاح على زنجى تابع للبرتقال وسلبه أملاكه وذبح كثيرا من عبيده وأكلهم فاستغاث الزنجى ببدرو فرناندس دى شافس* حاكم تيت فعبر النهر على رأس جيش من البرتقاليين والكفر للقاء شيكاروجو* وهو ملك الرجل الذى اغتصبت املاكه . وكان كيزورا قد تحصن بها وحشد فيها حوله ستمائة من المونبوس فدهمهم البرتقالى وامعن فيهم قتلا . وفى غضون السنة نفسها كانت قبيلة وازيمبا تناوش أندره دى سنتياغو* حاكم صيونة فطلب النجدة من حاكم تيت فسار هذا ليشد ازره ، ولكن

الوازيمبا اتصلت بهم اخبار حركاته فدهموه قبل أن ينضم
الى زميله وقتلوه وشتتوا شمل رجاله . وبعـد أيام ظهر
الوازيمبا أمام مدينة صيونة فلما لم يستطع أندره دى
سنتيـاغو مقاومتهم فرّ ليلا ولـكن لم يلبث ان وقع فى
أيديهم ومعه أكثر من مائة وثلاثين برتقاليا فتلهم الـكفر
وأكلوهم جميعا . وقد استفز هذا الانتصار قوم الوازيمبا
الى مواصلة الاعتداء على صيونة وتيت حتى أوقفوا حركة
التجارة على النهر والحقوا بالبرتقاليين خسائر جمة اضطرت
دوم پدرو دى سوزا حاكم موسامبيق الى اتخاذ وسائل
الاحتياط والحذر ووضع حد لتلك التعديات فذهب الى
صيونة فى طائفة من الجند ، وبعد ان استقصى أحوال
الوازيمبا وماهم عليه من قوة تحرك لقتالهم فى مائتين من
البرتقاليين وألف وخمسمائة من الكفر وعبر نهر زمبيز ووصل
الى المـكان الذى تحصن الاعداء فيه وظل محـاصراً لهم
شهرين على غير جدوى . ولمـا شهد أن أعوانه كادوا
ينفضون من حوله إذ كان سوادهم الاعظم من التجار
والزرّاع عوّل على الانسحاب فوقف العدو على ما انتواه
فانقضّ على أولئك الأعوان وقتل منهم خلقا كثيرا وعاد
بدرو دى سوزا الى صيونة ومنها الى موسامبيق التى وقعت

اليه فيها رسالة من شيخ وازيمبا يخبره فيها برغبته فى الصلح فبادر پدرو دى سوزا بالموافقة على هذا الطلب . وكانت الاحوال لحسن حظ البرتقاليين سائرة على مرادهم فى بقية الجهات فتمكنوا فى نفس السنة من توسيع نطاق نفوذهم بالجهات الشمالية وشد شيخ مانده أزرهم وناصرهم فتمكنوا من الغلبة على شيخى كليفى ومنبسة اللذين تمكنا من استرداد أملاكهما وعمرا المدن فيهما بعد رحيل دوننمة تومى دى سوزا وبعد أن حل ماحل بالوازيمبا . وكان شيخ كليفى من أقارب شيخ منبسة وأحد الولاة الخاضعين له . وكان لايكف عن التعدى على رعايا شيخ ملنده فعزم هذا على الانتقام منه فاستنجد بحاكم السواحل البرتقالية وضم الى جنده عددا من البرتقاليين ورجال من قبيلة واسيجيو* فسار الجيش على كليفى وأخذها عنوة وقتل شيخها فى اثناء المعركة ، ومن نجا من أهلها لجأ الى منبسة .

فلما علم شيخ منبسة بما حصل جمع نحو خمسة آلاف من مقاتلة الكفر التابعين له معتزما الانتقام لمن مات من رجاله . ولكنه فكر قبل الدخول فى حدود ملنده فى تسريح الرجال الذين من قبيلة واسيجيو خيفة أن ينضموا الى شيخ ملنده . وتحرك الواسيجيو للقاء شيخ منبسة

وشتتوا شمل رجاله وتمكنوا من قتل الشيخ نفسه بالرغم من مقاومة من كانوا يقاتلون معه من المغاربة أعيان منبسة ، وكذا مات ثلاثة من ابنائه فانتهز الواسيجيو هذه الفرصة للزحف على جزيرة منبسة والاستيلاء عليها ثم أرسلوا قاربا الى شيخ ملندة يوافونه بخبر هذا الظفر وبأنهم على استعداد لتسليمها اليه وكانوا قد أرسلوا اليه أيضا أحد أبناء الشيخ القتيل .

فلما علم شيخ ماندة بالخبر بادر بالتوجه الى منبسة فلقيه الاهلون فيها بمظاهر الترحيب والتكريم ومجالى السرور وأقام بها حاكما بعد أن نصب على ماندة من ينوب عنه فى الحكم عليها . وقد استدل من رواية مدونة باللغة العربية عثر عليها أخيرا عند أحد سكان منبسة أن السلطان الحاكم وقتئذ كان يدعى شاهو بن مشحم* وكان مشهورا أيضا باسم شاوو موفيتا* وكان آخر أمراء الاسرة الشيرازية التى حكمت مدينة منبسة منذ انفصلت عن زنجبار . وقد جاء فى هذه الرواية ان شيخ ملندة الذى خلف شاهو على منبسة كان يدعى أحمد فكانت نتيجة انتقال الحكم بمنبسة الى يد الاسرة الحاكمة بملندة أن احتلها البرتقاليون لاخلاص هذه الاسرة لهم ومحالفتها اياهم . على انها لم تبق طويلا مطمئنة

فى دست الحكم مع معاكسة جيرانها لهـا إلا بتأييـد من البرتقاليين . وكان هؤلاء يودون من صميم فؤادهم استبقاء منبسة فى قبضتهم بالوسائط الدائمة لما كان لثغرها فى نظرهم من الخطورة والاهمية نظرا لدوام نزوع أهلها الى الثورة . وكان كلما أخضعهم البرتقاليون يثورون ثانيا عليهم ويشقون عصا الطاعة ، فأقيم بها لاخضاعهم حصن وثيق عام ١٥٩٤ بأمر الوالى متياس دالبوكرك . ويؤخذ مما كتبه ديوجو دوكوتو فى هذا الصدد انه لما وصل الوالى دوم فرنسسكو دى غاما الى منبسة فى دسمبر سنة ١٥٩٦ وجد بها انطونيو دى كوتنهو داندراد حاكما عليها . فأمرهم بزيادة مبانى الحصن تيسيراً لوسائط الدفاع ثم نظم الجمارك بمساعـدة سلطان المدينة . وكان هذا قد تعهد له بموافاته بالعمال لانجاز البناء فلما سافر دوم فرنسسكو دى غاما الي الهند أخذمعه شيخ بمبا المعزول واعداً اياه بارسال اسطول اليه فيما بعـد ليجلسه على أريكة الملك . وبذا ثبت البرتقاليون قدمهم فى افريقيـا الشرقية خصوصا بعد سقوط منبسة فى أيديهم . ولـكن لم يدم الامر طويلا لأن الهولنـديين استفزتهم سياسة فيليب الثانى فتدفقت جموعهم على المشرق وانتشروا فى بحر الهند .

وفى يوليو سنة ١٥٩٧ حضرت سفينتان من سفنهم تبغيان أخذ حاجتهما من الماء فرستا فى ثغر كنتنجونة * الكائنة على عدة فراسخ جنوبى موسامبيق فقاق البرتقاليون من جراء ذلك وأرسل فرناندس دى نورونها حاكم موسامبيق يخبر الوالى بهذا الحادث . أما هاتان السفينتان فقد اقتصر عملها على ضبط بعض السفن التجارية التى كانت راسية على مقربة من رأس قران وكان دخول الهولنديين الى بحار آسيا أمرا مقضيا انحلت بسببه عقدة الاملاك البرتقالية . ولكن الساحل الشرقى لافريقيا لم يحدث به ماحدث بغيره من الجهات ، فان أول مظاهرة عدوانية فيه وقعت سنة ١٦٠٧ بظهور الاميرال فانكايردن * فى مارس من هذه السنة أمام موسامبيق .

وكان استفام داتائيد * حاكما عليها وكان تحت امرة أمير البحر الهولندى ثمانى سفن عليها اكثر من ألف رجل . ففى اليوم الثانى استولى على سفينتين راسيتين فى الثغر ثم تأهب للنزول الى البر فى اليوم التالى . ولكن تأجل هذا العمل الى صباح أول ابريل فشرع فى ذلك دون ان تلحق رجاله خسارة جسيمة بالرغم من مقاومة الحامية البرتقالية التى انسحبت من المدينة بعد القتال فاحتلها الهولنديون

وجردوا من السلاح أهلها وتقدم فانكايردن برجاله فوضع
الحصار على الحصن وطال الحصار شهرا تفشت فى غضونه
الامراض بين الهولنديين حتى اضطر قائدهم الى النزول
بالسفن فى أول مايو هو ورجاله . وقبل رحيله كتب الى
قائد القلعة يسأله دفع تعويض اليه اذا رام ان يخلص من
الخراب والدمار المنازل والمبانى الواقعة خارج الحصن ، فلما
أبى استفام داتائيد ذلك أحرقها القائد الهولندى كما أحرق
كل السفن التي كانت راسية على مقربة من الجزيرة .
أما البرتقاليون فقد ألحقوا بالسفن الهولندية ضررا
بالغا بما أطلقوه عليها من نار مدفعية الحصن وذلك فى أثناء
مرورها لمبارحة الثغر واغرقوا منها سفينة ، وقضت السفن
الباقية أياما فى مكان بعيد عن مرمى المدافع لتتمكن من ترميم
ما لحقها من العطب ثم سافرت لتتمون بجزائر القمر . وبعد
ان أقام بها فانكايردن ستة أسابيع اتجه الى موسامبيق .
وفى ٢٣ يوليو ظهرت سفنه فى مدخل الثغر الذى كانت به
ثلاث سفن حضرت من لشبونة فأراد الاستيلاء عليها ولم
يفلح . ولما علم انه ينتظر وصول ثلاث سفن أخرى من
أوروبا خرج يشتط السواحل ربث قطع الطريق عليها .
ولكن اشتداد الرياح والتيارات عاكس مشروعه

فاتجه الى الهند . وبسبب اغارة الهولنديين نقل البرتقاليون مركز الحكومة من سفالية الى موسامبيق وبقى استفام داتائيد فى منصبه بلقب محافظ مكافأة له على بلائه فى الدفاع عن البلاد .

ولم يكن هذا الحادث آخر ماقام الهولنديون به على سواحل أفريقيا البرتقالية فقد حدث فى سنة ١٦٠٨ ان وصل الاميرال فيرهوفن* فى دوننمة مؤلفة من ثلاث عشرة سفينة الى موسامبيق وكان بالثغر سفينة كبرى واثنتان صغيرتان فاستولى عليها الهولنديون وانزل الاميرال على الفور الى البر قسما من جنوده تحصن تجاه الحصن وأجريت التدابير الأولية للحصار دون أن يبدى البرتقاليون حركة ما لمقاومتهم . ولكن ما كادت الخنادق يتم حفرها حتى قابل البرتقاليون صفوف الزاحفين بمقذوفات بنادقهم وألزموهم الفرار . فبنى الاميرال حصونا أخر نصب عليها المدافع وحاصر الجزيرة بالسفن ليقطع خط الاتصال بين المحصورين ومن يبغون إمدادهم ثم أرسل الى الحاكم يطلب منه التسليم فأجاب بالهجوم مع رجاله على الهولنديين خارج الحصن وقتل فريقا منهم وخرب ما أقاموه من الاستحكامات . فأقام الهولنديون استحكامات غيرها ولكنها لم تلبث

أن دمرت كثيرها . وقد وهنت لهذا السبب عزيمة الاميرال فعول على الانسحاب ، غير أنه ارتكب اعمالا فظيعة بحجة ان حاكم القلعة أبى ان يسلم اليه رجلا من رجاله فر من عنده اذ أمر بأحضار الاسرى البرتقاليين مكبلين بالاغلال وقتلهم رمياً بالرصاص على مرأى من الحامية البرتقالية . وبعد أن ارتكب هذه الفظائع انصرف عن الجزيرة . وفيما كان الهولنديون يبتعدون عن موسامبيق استولوا على سفينة اسمها بونجيزو (المسيح الطيب) كانت تقصد الى الثغر فاكتنفها أسطول العدو .

وروى المؤلف بعد ذلك حوادثهم واعمالهم فى الهند ثم انتقل الى الكلام على حوادث افريقيا الشرقية فقال : وفى سنة ١٦٠٨ ظهر الانجليز بسواحل افريقيا الشرقية ولم تكن انجلترا تحارب اسبانيا فى ذلك الوقت ، وهو ماينفى عداءها للبرتقال منذ دخلت هذه البلاد تحت حكم فيليب الثالث . ولكن كان الامر بالضد فيما يتعلق بالتجارة ، لأنها كانت تزاحم البرتقاليين فيها .

وفى رحلة شاربى* القبطان الانجليزى بالهند الشرقية ان هذا الضابط مر بمدينة ممبا فى شهر دسمبر وان البرتقاليين لما ارتابوا فى سبب حضور الانجليز حرضوا العرب على

مهاجمتهم بعد ان استدرجوهم الى البر متظاهرين لهم بالمودة .
وفى شهر فبراير سنة ١٦٠٦ وصل القبطان رولس * فى السفينة الانجليزية يونيون الى زنجبار، وكانت العواصف قد فصلت سفينته من سفينة شاربى فأحسن سكان هذه الجزيرة معاملته بادىء ذى بدء ولكن لم تلبث خطتهم ان تغيرت حياله اذ قتلوا اثنين من رجاله فى معركة . ولعل سبب لقاء الانجليز بهذا الجفاء تحريض البرتقاليين واستفزازهم الخواطر ضدهم . وقد كان هؤلاء على كل حال المسئولين عن هذا الحادث لانهم اصحاب الامر والنهى فى البلاد . ولكن كانوا مع ذلك يشعرون بضعفهم اذ كانوا مع خوفهم يلجأون الى الخديعة والخيانة . وكانت كتلة أملاكهم الشرقية قد اعتورها التبدد والتجزؤ تحت ضربات الهولنديين الذين تابعوا الهجوم عليهم بالسلاح مع مزاحمتهم فى الآن نفسه فى ميادين التجارة مع الشرق .

ولم يكن قد حان الوقت للانجليز آنئذ ان يتعدوا على البرتقاليين ليمكن القول بانه لم يكن للبرتقاليين أعداء من خطورة الشأن بما يخشى معه ان يعاكسوهم فى أملاكهم الافريقية الى عهد مجىء العرب من عمان . فقد كان البرتقاليون يسيئون الى الناس ويحرضون بعضهم على بعض

وكان الحكام البرتقاليون يسعون وراء منافعهم الذاتية ويضرمون بدسائسهم نار الشقاق بين سكان البلاد . وما انتصروا لشخص أو لحاكم يوما الا وانقلبوا عليه فى الغد كما يدل على ذلك ما اتفق للشيخ أحمد الذى أصبح حاكما على منبسة فقد قطع رأسه يوما وأرسل به الى جوه وسلم الملك لمنجاناجى* الذى كان ينازع أحمد على الحكم . وتمكن من اغتصاب الملك لمعاونته حاكم منبسة البرتقالى على ابناء جلدته .

وبينما هذه الحوادث تحدث بمنبسة كان يحدث مثلها بجهات موسامبيق بسبب مناجم مونو موتابا . والتصدى للبحث فى هذه الحوادث يستدعى العود الى رواية ما حدث قبل سنوات . فقد ذكر ان ملك مونوموتابا كان قد تغلب على أحد الحكام التابعين له وهو ملك مونجاس وكان الفضل فى ذلك لمعاونة البرتقاليين له ، فاعترافا بالجميل تنازل هذا الملك عن المناجم التى ببلاده لملك البرتقال . وفى أول اغسطس سنة ١٦٠٧ أمضى ذييجو سيمونس ماديرا* حاكم تيت عقد قبول هذا التنازل باسم ملكه . وكان قد جاء بالعقد ان مونوموتابا يتنازل لملك البرتقال عن جميع مناجم الذهب والفضة والنحاس والقصدير والحديد والرصاص فى بلاده

بشرط أن يعاونه ملك البرتقال بجنوده وان يعتبره أخا له وأن يرسل فى العام التالى أحد أولاده وسفيرا الى جوة وأن يسلم من الآن لدييجو سيمونس اثنين من أولاده وفيما بعد اثنتين من بناته لينصرهم فسنحت فى الحال الفرصة لتحقيق مادة من مواد هـذه المعاهدة واشتعلت نار حرب بين مونوموتابا وانكونى * أحد الحكام السابقين له . فسار دييجو سيمونس ماديرا بعسكره لمرافقة الملك وتغلب على الثائر وعاد الحاكم البرتقالى الى تيت ومعه ولدا الملك فنصر هذان الشابان واعتنقا الديانة الكاثوليكية وسمى احدهما دوم فيليب والثانى دوم دييجو وبقى هذا بتيت . أما الاول فألحت والدته بعودته الى بلاده وبعد ايام عاد الى أهله .

أما الملك فقد وقع فى وهمه أن الفضل فى الفوز عائد اليه فخيل له ان بأمكانه منذ الآن فصاعد الاكتفاء بما لديه من القوى لقمع اشباه هذه الثورات . ولما كان جيشه قد دخل مملكة باروى * فقد هزم فى تلك الجهة كما هزم رجاله قبيلة مونجاس وقتلوا أحد أبنائه .

وحدث أيضاً ان ماتوزيانى * أحد أعدائه تمكن من الاستيلاء على شطر كبير من بلاد مونوموتابا فطلب الملك النجدة من حاكم موسامبيق وكان اسمه نونو الفارس بيريرا *

فصدرت الاوامر الى دييجو سيمونس ماديرا بالمبادرة الى نجدة الملك فانتصر البرتقاليون على ماتوزيانى وقتلوه فى الواقعة الثانية وردوا الى الملك الاملاك التى اغتصبت منه وانتصر نونو الفارس بيريرا على أعداء آخرين كانوا اعتدوا على ملك مونوموتابا . وكان هؤلاء الاعداء من الزنوج التابعين لقبائل كيزنجا* فاخذوا يطوفون بالبلاد ويعتدون على التجار ففكر استفام داتائيد فى تشييد حصن باقليم ماسابا* المجاور لاقليم كيزنجا وجعل فيها حامية برتقالية بقيادة ديوجو دى كارفالهو* وربما كان ذلك بقصد أن يؤسس للبرتقاليين مركزا بالجهات المتنازل عما لهم فيها من المناجم . وكان الواقع انه كلما تعين حاكم جديد على أقليم موسامبيق أرسل الهدايا الفاخرة الى ملك مونوموتابا وكان لارسال هذه الهدايا صبغة الزامية كما لوكانت فى مقابل ما يستخرجه البرتقاليون من الذهب فى املاك الملك . وكان ما يستخرجونه منه كثيرا ، وكان للحاكم على موسامبيق مصلحة عظمى فى ذلك ..أما قيمة الهدايا التى كان يرسلها فلم تكن تساوى اكثر من خمسة آلاف دوقا . فلما تعين استفام داتائيد ، وكان قد علم بان المندوبين الذين أرسلهم الامبراطور الى نونو الفارس بيريرا سيعودون الى بلادهم ،

اغتنم هذه الفرصة فأمر دييجو دى كارفالهو بالانضمام اليهم لمطالبة الملك بمناجم الذهب .

وفى الوقت نفسه سلم اليه الهدايا كما جرت العادة ، فلم يقم قومندان حصن ماسابا إلا بشطر من مهمته ، إذ تسلم المناجم وعاد دون أن يذكر شيئاً عن الهدايا فاغتاظ الامبراطور ولكنه التزم الصمت ثم أرسل الى كارفالهو يطالبه بحقه من غير مانتيجة . واشتد فى آخر الأمر غضبه من تصرف البرتقاليين وأمر رجاله بسرقة كل مايجدونه مع التاجر البرتقالى . ففقد البرتقاليون بضائعهم وأدى ذلك الى وقوع مناوشات مات فيها بعضهم فاغتاظ كارفالهو مما حدث ، وكان معه فريق من رجال الملك صحبوه لمعاونته على التزود بالمؤن ومقاومة سكان كيزنجا النهايين فخالفهم سرا . وفى ليلة هاجم سكان مونوموتابا فى اثناء نومهم وذبح منهم عدداً كبيرا . والذين منهم استطاعوا النجاة اذاعوا الخبر بأرجاء البلاد فثار أهلها على البرتقاليين فخشى كارفالهو مغبة عمله وأخلى الحصن وعاد الى تيت . وكان استفام داتائيد هو الذى اوعز فى الخفاء الى كارفالهو ألا يسلم الهدية للامبراطور بل يخدعه بالوعود . فلما رأى ما انتجه خداعه لم يستطع معاقبة رسوله وبدلا من ان يجد فى تهدئة خاطر

الملك عزم على محاربته وتوجه الى صيونة وفيها أعلن أنه مضطر الى الاستيلاء على المناجم ولو بالقوة . ثم قصد الى تيت وناط بكارفالهو إقامة حصن فى مكان على مسيرة ثلاثة أيام من هذه المدينة . ولما علم أن الهولنديين انتووا الهجوم مرة ثالثة على موسامبيق عاد مسرعا اليها وترك فى بلدة تيت ديوجو سيمونس ماديرا وكان ذلك فى مارس سنة ١٦١٢ وبعد أن انتظر حضور اسطول العدو ستة أشهر سافر الى تيت فكان الفوز حليف البرتقاليين بجهات مونوموتابا . وفى أثناء غياب دوم استفام جاءته رسل الملك يعرضون عليه إيقاف رحى القتال وأن يحترم الطرفان المحالفة وان يسلم البرتقاليون الهدايا التي برسمه وهى حق من حقوقه مابرح الى الآن يطالب به . فلم يصغ استفام لأقوال اولئك الرسل مع أن الهدايا المطلوبة دنيئة القيمة إذا قيست بما كان يستطيع أن يستفيده من المناجم . وقد كان بأصراره على ذلك الرفض السبب فى عداء الناس له وخسارة ٣٠٠٠٠ دوقا أنفقها فى إنشاء نقطة مسابا وفيما أتاه الكفر مع التجار من بنى جنسه . وقد تجلت له الحقيقة فى آخر الامر فظل ينتظر حضور الاخبار من البرتقال ليعلم مايقال عنه هناك وعدل مؤقتا عن الاعمال العدائية .

وفى يوليو سنة ١٦١٣ ورد الأمر اليه بالتنحى عن القيادة على حامية تيت لدييجو سيمونس ماديرا وبترك حكومة موسامبيق لدوم جواو دازفيدو* وكان أخا الوالى ، وبان يذهب الى جوة . فبدأ دييجو سيمونس ماديرا بالسير على سنة سلفه ولو لم تتجاوز القوة التى كانت معه مائة وأربعين جنديا برتقاليا يضاف اليها قوة من الأهلين مؤلفة من ستة آلاف مقاتل ، فسار بهذا الجيش فى أول سبتمبر فكان أول من خرج لقتاله من الأعداء رجلا من الكفر شديد البطش قوى البأس اسمه شومبا* وكان هذا الزنجى يود أن يكون له من القوة والمنعة مايقاوم به الجيش البرتقالى الزاحف المسلح بالبنادق وبمدفعين . فأقام حصنا وصفه المؤرخ البرتقالى فاريا بان مساحته لاتنقص عن نصف فرسخ مربع ، وجعل فى هذا الحصن أكثر من ثمانية آلاف مقاتل فهجم دييجو سيمونس عليهم المرة بعد المرة دون ان ينال منهم مراما . وبالرغم من وصول المدد الذى أنفذه اليه دييجو بيرس براندم* حاكم صيونة ، وكان مؤلفا من أربعين برتقاليا مسلحين بالبنادق وثلاثة آلاف من الوطنيين ، فقد اضطر الى إيقاف الزحف تجاه العقبة التى اعترضت طريقه على غير انتظار . ولكن لم تلبث هذه

العقبة ان زالت من نفسها إذ حضر الى المعسكر البرتقالى رجل من الكفر وأرشد دييجو سيمونس ماديرا الى ثغرة فى الحصن يسهل على جيشه الدخول منها اليه . وحدث فى ١٤ نوفمبر وقد هجم البرتقاليون من ناحية تلك الثغرة أن تمكنوا من الاستيلاء على الحصن وقهر جيش العدو واكراه شومبا على الفرار . عندئذ أقام دييجو سيمونس ماديرا الزنجى كيتامبو* حاكما على الحصن وهو من الموالين للبرتقال .

وعلى اثر ذلك استأنف دييجو سيمونس الزحف على شيكوفا* للاستيلاء على مافيها من مناجم الفضة فلما اتصل بعلم ملك مونوموناپا نبأ ذلك الزحف ارسل الى القائد البرتقالى يخبره باستعداده لتسليم المناجم كما فعل سابقا على شريطة ان يكون التسليم اليه بالذات وان لاتصحبه قوة مسلحة ما فاغتنم حاكم تيت هذه الفرصة وأرسل يطلب الى الملك ان يندب عنه من يقوم بتسليم المناجم وتسلم أربعة آلاف دوقا بدلا من الهدايا . وبهذه الطريقة انحل الاشكال وانتهى النزاع برضى الطرفين إذ تسلم الحاكم البرتقالى فى ٨ مايو سنة ١٦١٤ كل مناجم تلك الجهة .

وكان سكان سيكوفا يصفقون له وكان المندوب

للتسليم والتسلم انيانشنج* ابن عم الملك فكان أول ماشرع ديبجو سيمونس بعمله عندئذ ان قرر بناء حصن ليجعل جنوده فى مأمن من الغدر ثم تحالف مع شيخ من اكثر الاهالى الكفر شوكة واشدهم بأسا يسمى ساپوى* وكان يظهر الود والميل للبرتقاليين ، وكانت البلاد التى يحكمها تسمى بورورو* .

أما الملك فلم يمض عليه طويل زمن حتى ندم على مافرط وأخذ يثير الصعوبات ويتذرع بالحيل ويدبر من التدابير ماحمل محالفيه البرتقاليين على الانقلاب عليه. وبعقب ذلك وقع خلاف بين برتقالى ورجل من الكفر انتهى بموت ثانيهما فثار الاهالى لذلك ثورة عامة واشتعلت نار القتال على وجه سرله الملك كثيرا وفى خلال مارس سنة ١٦١٥ حاصرت الحصن قوة من الكفر لاتقل عن عشرة آلاف مقاتل ، وكان عدد المدافعين عنه أربعين برتقاليا . فعاد سيمونس مادبرا من تيت فى قوة من رجاله واتفق ان طابق وقت وصوله ميعاد هجوم الأعداء على الحصن ، فهزمهم شرهزيمة واتخذ وسائط الارهاب والتهديد للاستدلال على مكان مناجم الفضة .

ولما بوشر الحفر فى هذه المناجم جاء بأحسن النتائج

وأوجبها للرضى إذ أرسلت منه الى البرتقال نماذج تبين أنها جيدة ولم تلبث ان نقلت من البرتقال الى مدريد فهاج لخبرها الرأى العام وأقر بجودتها . ولكن النصر لم يبق حليفا للبرتقاليين طويلا اذ تفشت الامراض فى حامية شيكوفا ومات كثير من رجالها ثم عضتهم المجاعة بنابها نخافوا ان يصيبهم الاذى من الكفر الذين كانوا معهم بالحصن فلجأوا الى الفرار وساءت حالة البرتقاليين بوجه عام اذ لم يبق فى متناول ايديهم من الغذاء سوى نوع من الفاكهة ردىء الطعم . وكانوا يدسون هذه الفاكهة فى الرماد للتمكن من اكلها وكان دييجو سيمونس قد أخبر الوالى مرارا بأنه إن لم يسارع بنجدته واسعافه فأنه مضطر حتما الى التنحى عن فتوحاته ولكن فرنسسكو دى فونسيكا بنتو* كان قد وصل الى جزيرة موسامبيق لينتزع الرياسة من يد روى دى ميلو إسمبايو* الذى أصبح مكروها من الجميع لسوء تصرفاته . وكان مكلفا من حكومته بتوصيل المؤونة والذخيرة الى حامية شيكوفا وبان يتحقق بنفسه موقع المناجم . وبالنظر لما كان مستمكنا فى نفس فونسيكا بنتو من الحقد والحسد لم يصغ الى مطالب دييجو سيمونس بل أمضى ثلاثة أشهر بموسامبيق دون

ان يفكر فى نجدته وإسعافه . ولما كان بتيت وصلت اليه آخر رسالة من دييجو يلقى عليه فيها مسؤولية خسارة المشروع واخفاقه ، فكان جواب فونسيكا على هذه الرسالة أن أصدر أمرا بحجز أملاك هذا الضابط ثم هجم بنفسه على جزء منها ونهبها وأسر من كان بها من العبيد وباعهم فى أسواق صيونة وحرم سكان تيت كل صلة بحامية شيكوفا او موافاتها بأية مساعدة مهددا اياهم بالويل إذا هم اتصلوا بها او ساعدوها . ثم أرسل الى ملك مونوموتابا يخبره بأنه مطلق التصرف وفى حل من دييجو سيمونس يعاقبه وينكل به إذا شاء لأنه فعل ما فعل دون إذن الوالى . ثم زحف على شيكوفا يسبقه أناس مهمتهم القبض على دييجو . فلما استشعر هذا الرجل بما سيحل به من النكبات والمصائب ظل بعيداً عن الحصن فعلم فونسيكا بغيابه وعاد من حيث أتى ولم يواف بالنجدة رجال الحامية ولم يقصد الى المناجم ، وعندئذ عول سيمونس على الجلاء عن الحصن نهائياً وعاد الى تيت باكياً حزيناً لما لحقه من العار والدمار .

ولما وصل الى مارنجا* قدم اليه انذار من الوالى فونسيكا يفرض عليه المبادرة بالقدوم اليه قبل تسعة أيام وكان فونسيكا معتقداً أن دييجو ما برح فى قلعة شيكوفا ،

فلما علم بوصوله الى تيت بعث بألفين من الكفر يتربصون به على ظهر الطريق ليقتلوه ووجد برتقالياً رضى بأن يترأس هذه الفعلة . ومع ذلك فقد خشى هؤلاء الرجال أن يرتكبوا هذه الدنيئة فى بلاد كان للرجل المراد الفتك به نفوذ على سكانه وخشوا أنه إن تخلص من أيديهم استطاع إيصال الأذى اليهم فتركوه يمر دون اعتراض فلما أيقن دييجو سيمونس الخطر المحدق به لجأ الى إنيامبنزو* حيث عول على أن يعيش فى أملاكه الخاصة ولكن فونسيكا أصدر قراراً باعتباره ثائراً على الدولة لأنه أخلى حصن شيكوفا . ثم أخذ يتهيأ للسفر الى الهند وكتب الى ملك مونوموتابا يطلب منه مهاجمة هذا الثائر فى المكان الذى لجأ اليه ومطاردته وأخذ الآفاق عليه ، فاضطر سيمونس الى الخروج من الجهة التي آوى اليها قاصداً الى تيت حيث اصابه نهائيا نكال الدسيسة التى دبرت ضده .

هكذا انتهى الفتح الثانى لمنطقة مناجم مونوموتابا فمات باريتو فى المرة الأولى وذهب سيمونس فى المرة الثانية ضحية الحوادث والدسائس .

وقد بسطنا للقارىء حالة الانحطاط التى هوت فيها الأدارة البرتقاليـة سواء بأفريقيا أو بالهند وكيف أوقع

البرتقاليون أنفسهم فى قبضة أعدائهم وفى مقدمتهم عباس شاه صاحب بلاد الفرس، فأنه فى عام ١٦١٥ هاجمت جنود هـذا الشاه حصن جزيرة قران * بحجة المطالبة بالجزية فى حين كان عباس شاه يقصد فى الحقيقة إيقاد نار الحرب ليفتح بلاد هرموز الجميلة وقد أثار غبار الحرب مرة أخرى فى سنة ١٦٢٠ ولكن أكثر الامور أهمية كان تحالفه مع الانجليز الذين مع إغفالهم مجاوبة ملك اسبانيا قد اشترك اسطولهم مع اسطوله فى اصقاع الهند بما كانت نتيجته أن توافرت لشاه العجم القوة البحرية التى كانت تنقصه وتمهدت له السبل لمهاجمة المراكز البرتقالية . وفى سنة ١٦٢٠ أطلق المتحالفان نيران مدافعهم على حصن كيكسوم * (كشم) الذى شاده روى فريرى داندراد * ولم يأت هذا العدوان بثمرة ما .

وبعد سنتين استطاعوا الاستيلاء عليـه ثم حصرت مدينـة هرموز ووقعت فى قبضتهم فخسرها البرتقاليون نهائياً ولم يتمكن الجنود الذين كانوا فيها من الانسحاب محفوظى الكرامة إذ أدت خسارتهم إياها الى أوخم العواقب فقد كان مركزها الطبيعى على جانب كبير من الخطورة والأهمية تجارياً وصناعياً لأنه هو الذى جعل للبقعة الرمليه

الملحة الخالية من كل أثر للنبات والماء كأثمن جوهرة يتاح لأمير شرقى أن يرصع بها تاجه ، دع أن موقعها الجغرافى كان يجعلها صاحبة التصرف والحكم على سواحل بلاد الفرس من جهة الشمال كما كان من جهة الغرب يجعلها صاحبة السيطرة والأشراف على ثغور فارس ومن جهة الجنوب على بلاد عمان .

فلما انتزع الفرس هذا الصولجان من قبضة البرتقاليين ضعفت شوكتهم فى سائر البقاع والنواحي المجاورة ونفث الأهلون نفثة المصدور بل أخذوا يفكرون فى الاستقلال بخلع ربقة الطاعة عن أعناقهم وبهذه المثابة تمكن إمام عمان من الاستيلاء على حصن مسقط وتيسر للعرب توسيع نطاق نفوذهم الى سواحل أفريقيا الشرقية غير مكتفين بالخليج الفارسى .

ولنرجع الى الكلام على أفريقيا الشرقية فنقول : كان السلطان احمد صاحب منبسة الجديد قد أعقب ولداً اسماه يوسف ، فلما مات الوالد كان ولده فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره فجىء به الى جوة وعهدت تربيته الى رهبان سان اوجستان . ويقال إنه اعتنق الديانة الكاثوليكية وتسمى فى سنة ١٦٢٧ باسم دوم جيرونيمو

شنجوليا * . وفى ذاك الحين ارسل بكتاب الى صاحب السلطة الدينية يعرب له فيه عن خضوعه وامتثاله . والذى يؤخذ من اقوال فاريا (المؤرخ البرتقالى) انه دعى لاستلام مقاليد السلطنة بمنبسة فى السنة نفسها ولكن الرواية العربية المصدر التى سبق ذكرها تؤيد انه انتخب لذلك فى يوم السبت ٧ محرم سنة ١٠٤٠ من الهجرة الموافق ٣ اغسطس سنة ١٦٣٠ للميلاد . ولم يرد فى التاريخ شىء عن المدة الواقعة بين تاريخ وفاة أبيه وجلوسه هو على كرسى السلطنة ولكن المعروف لنا هو أن البرتقاليين عكفوا على الاساءة الى سلاطين منبسة وعاملوا سلطانها الجديد بما كانوا يعاملون أسلافه به من الظلم والاهانة .

وكان قائد الحصن فى ذلك الحين پدور ليتام دى جمبوا * وكان يجهل ان كان جيرونيمو شنجوليا نصرانيا حقا أو رياء والذى يؤخذ على كل حال من مضامين رواية حوادث منبسة أنه لما استولى يوسف على الملك سارين الناس بالجور اذ كان يكرههم على أكل لحم الخنزير وكان على الجملة رجل سوء وشر . ولكن أما كانت الخطة التى سلكها خدعة وتصنعا رام بهما الظهور فى مظهر الصادق الولاء للبرتقاليين ؟

أما الرواية البرتقالية فتقول إنه كان فى معيشته

الداخلية يسلك عكس هذا المسلك، اذ كانت تصرفاته وكلها تتفق مع عواطف الرحمة والكرامة والشرف . فكان من عاداته المألوفة زيارة قبر والده والنوح عليه ، ومع أنه كاتوليكى المذهب فقد كان يقيم الحفلات الدينية بحسب الرسوم والطقوس الاسلاميه . وظل يوسف على هذه الحال حتي استكشف أحد البرتقاليين يوما سر الأمر . فقد أيقن هذا البرتقالى أن السلطان لم يكن نصرانيا إلا فى الجهر دون السر فاطلع القائد جمبوا على حقيقة الامر فأجاب هذا بأنه لن يتأخر عن القبض على هذا الكافر وارساله الى جوة وحدث أن الرجل البرتقالى قصد من فوره الى السلطان يوسف شنجوليا وأخبره بما رآه الحاكم البرتقالى فى أمره فاستعان السلطان بالدهاء والحيلة لدحض التهمة التي وجهها البرتقالى اليه وعارضها معارضة شديدة ، ثم أمر أعوانه بأن يقتلوا هذا الرجل وأن يتكتموا قتله . وبعد هذه الخطوة اعتمد يوسف تنفيذ الخطة التى رسمها بسرعة الرجل البعيد مرامى النظر فى عواقب الامور، اذ حشد ثلاثمائة من الكفر المخلصين له وأدخلهم بعد أن أحسن تسليحهم فى حصن القائد بحجة أنه يؤدى واجب الزيارة اليه .

وبينا كان أولئك الجنود يعملون سيوفهم فى قتل

البرتقاليين انقض يوسف على هذا القائد فقتله بيده وقتل معه زوجته وابنته والقس الذى كان يقيم الصلوة بالمعبد ، وصار يوسف بعد هذه المجزرة السيد المتسلط والحاكم المطلق التصرف فعجل بالانقضاض مع رجاله على القسم البرتقالى من المدينة وأضرم فيه النار وقتل جميع ساكنيه منهم ، ولجأ الذين استطاعوا النجاة الى دير طائفة الاوجستان وتحصنوا به سبعة أيام عرض يوسف عليهم بعد انقضائها الخروج متجردين من السلاح واعدا اياهم أن لا يتعرض لهم أحد بسوء فما أن خرجوا آمنين حتى أنحى رجاله على رقابهم حتي أفنوهم جميعا رجالا ونساء واطفالا وقساوسة ورهبانا وغيرهم وخربوا معابدهم . ولما انتهى يوسف من اهراق الدماء على الوجه السالف الذكر بعث الى مشائخ البلاد المجاورة له ورؤسائها يحضهم على الاقتداء به فيما أتاه للتخلص من ظلم البرتقاليين فبادر مشائخ متنجاتا * وتنجا * وموتونا * بالسير على طريقته فى إبادة البرتقاليين ووافاه غيرهم بالامدادات والنجدات من الجند والاقوات .

ولما اتصل نبأ الكارثة بالوالى دوم ميجل دى نورونها كونت دى لنهارس * عجل بتجهيز سفينتين وأربعة عشر قاربا وأنزل بها خمسمائة برتقالى بقيادة ابنه ، وعقد القيادة

العامة لفرنسسكو دى مورا * وكان فرنسسكو معروفا بفعاله وتصرفاته فى بلاد الهند والبرازيل فتحركت الدوننمة من جوة فى دسمبر سنة ١٦٣١ فوصلت فى ٢ يناير من السنة التالية الى امبازا وفيها ابلغ قائدها بعض البرتقاليين المقيمين فيها بكل ماوقع من شنجوليا . وفى ١٠ يناير دخلت الدوننمة ثغر منبسة فانضم اليها ثلاث سفن عليها مائة رجل كان قد أنفذها من مسقط روى فرير دندراد، ثم انضمت اليها سفن اخرى تواردت من جهات مختلفة حتي بلغ عدد المحاربين الى ثمانمائة فشرع فرنسسكو دى مورا ينزل جنوده الى البر . وفى ١١ يناير ذهب مع ابن الوالى الى حيث مخاضة أمكوبا * فرصد بها بعض السفن لقطع خط اتصال جزيرة منبسة كما رصد سفنا أخرى عند مدخل الثغر لمنع العدو من الفرار والحيلولة دون وصول النجدات اليه ثم أنزل الى البر أدوات الحصار .

وكان قد استولى على سفينتين جهزهما السلطان لنفسه فيما اذا دعت الحال الى فراره ، فلما تمت هذه التدابير ايقن القائد البرتقالى ان الظفر سيكون الى جانبه وأرسل الى ملك البرتقال كتابا فى هذا المعنى يعده فيه باسترداد الحصن الذى خسره البرتقاليون . ولكن النتيجة جاءت على خلاف

هذا الوعد ومخيبة لآمال فرنسسكو دى مورا وقد دام الحصار لهذا السبب ثلاثة أشهر رأى القائد بعدها أنه لا مناص له من الاستمداد بقوة أعظم مما تحت قيادته ، ولذا أنزل الباقين من رجاله فى السفن بنية الذهاب الى جوة . وكان ذلك حوالى منتصف شهر مارس أى قبل موعد هبوب العواصف بنحو شهرين . وقد تهيأ للسفر غير أن العدو اتصل به خبر هذه التدابير فنصب بالممر مدفعا تعذر على البرتقاليين بوجوده التزود بالماء الصالح للشرب وأصبح غير ميسور للدوننمة البرتقالية العودة الى الهند مما كانت نتيجته الاخيرة عجز السفن عن الخروج الى البحر إلا فى آخر مايو . وقد بقيت سفينتان خارج الثغر لمحاصرته وكانت احداهما تحت قيادة بدرو رودريجز بوتلهو* والثانية تحت قيادة أندره دى فسكنسلاوس . فلما بدأ هبوب الرياح لم تستطع السفن البقاء فى مراسيها فأخلى فسكنسللوس وبوتلهو كلاهما سفينته بدلا من الانتقال بها الى باتا أو زنجبار كما كانت تقضى به الاوامر فاستولى أهل منبسة على السفينتين المتروكتين .

وإذ كان السلطان يوسف يخشى أن يتغلب البرتقاليون عليه فى الحملة التى لا بد أنهم سيجهزونها ضده فقد نقل الى

السفينتين المتروكتين مدافع الحصن كلها ثم خربه كما خرب المدينة وقطع جميع الأشجار المثمرة ورحل بعد أن أخذ معه بعض رجاله وعبيده الى سواحل بلاد العرب فمر بكشم والشحر* وعدن ، وبقيت مدينة منبسة بعد مبارحة يوسف لها خراباً يبابا فأخبر بعض المغاربة الوالى بدرو رودريجز بوتلهو بما نزل بها ، وكان وقتئذ بزنجبار فبادر بالانتقال اليها واستولى عليها وأخذ يعمر حصنها ومدينتها .

وفى سنة ١٦٣٦ ، وعلى قول ريزندا المؤرخ فى أواخر سنة ١٦٣٥ ، كان سلطان منبسة بعد طوافه بسواحل بلاد اليمن زمنا لجأ الى جزيرة مدغشقر ونزل بها ضيفاً على سلطان مسلج * الواقعة بالجهة الغربية من الجزيرة . فلما اتصل بالبرتقاليين فى موسامبيق خبره عولوا على مهاجمة السلطان يوسف فى مأواه فجهزوا سفينتين وبضع قوارب وأنزلوا بها ستين جنديا برتقالياً ومائة وعشرة من الكفر . وكان قائد الحملة روك بورجس* ومعه أندره بورجس وانطونيو دى اوليفيرو* . وفى ١٧ مايو هبطت هذه القوة الصغيرة ساحل ملجاش وزحفت على الحصن الذى تحصن يوسف فيه وكان معه قوم كثيرون وكان الحصن متينا فاضطر البرتقاليون الى التقهقر بعد أن أحرقوا فى أثناء

انسحابهم بعض القرى والقوارب وذبحوا بعض الزنوج وغنموا ما وقع لهم من الاسلاب واكتفوا من غارتهم بما نهبوه .

قال جيان : ورواية فاريا إيسوزا تنتهى حوادثها فى سنة ١٦٤٨ وليس فيها شيء عن حوادث شاطىء أفريقيا الشرقى . أما مدينة منبسة فما حدث بها بعد هذا التاريخ يوجد مختصراً فى كتابة لم تزل منقوشة فى باب حصن الجزيرة ويؤخذ من هذا النقش ان القائد فرنسسكو دى سكساس إكبرا* أصلح هذا الحصن فى سنة ١٦٣٥ واخضع ساحل ملندة الذى كان سكانه قد ثاروا انحيازاً ليوسف وفرض الجزية على مشايخ أوتندو ومندرا ولوزيفا ويا كا وعاقب سكان هاتا* وهدم أسوار مدينتهم وكذا سكان يمبا الثائرين وأخذ على عاتقه معاقبة الشيوخ الثائرين .

ولقد علمنا مما كتبه بريتودى ريزند ان القسم الذى كان يسكنه المغاربة من جزيرة منبسة لم يكن قد عمر حتى ذاك الوقت إذ لم يوجد به سوى ساكن واحد اسمه الفقيه على* فعينه الوالى حاكما على اقليم منبسه وملندة مستنداً فى ذلك الى أصله وصداقته للبرتقاليين .

وقد كان الباقون من ابناء جلدته على رأي السلطان

يوسف ومن أوليائه ففروا معه . وكان السكان البرتقاليون قليلى العدد فجاب الوالى من باتا وزنجبار عشرين برتقاليا متزوجا ليعمر بهم المدينة . وكانت التجريدات الفتاكة التى سيرت على مدن ساحل منبسة قد وطدت السكينة فيها لمدة من الزمن .

وقبل الكلام على ما وقع بجهات الساحل هذه يحسن بنا أن نذكر ما كانت عليه تلك البقاع فى عهد البرتقاليين ونصف الحالة الأدارية وصفاً عاما فى الوقت الذى كان المؤرخ ريزند يدون فيه الحوادث فنقول : لقد شرحنا فيما سبق حالة المراكز والمناطق العربية وقت حلول البرتقاليين بشاطىء أفريقيا الشرقية وأوردنا وصف ابن بطوطة لمدينتى مقدشو وكلوا . فأذا سلمنا بما جاء من الروايات عن حياة أولئك السلاطين فأنا نرى أن كلوا قد خسرت فى القرن الخامس عشر جزءاً من املاكها القديمة ولكن هذه المدينة كانت من الوجهة السياسية والتجارية لاتزال مهمة اذ كان فى عسداد الاملاك التابعة لها موسامبيق ذات المستقبل الزاهر وسفالية ذات المحصولات التى فاقت بوفرتها حاصلات البقاع الأخرى من تلك الاقطار الافريقية . وقد كان اتساع نطاق العمران بالجهات

والنواحي الاخرى التي تلى موسامبيق وسفالية فى الاهمية والتى نشأت وترعرعت بالتدريج على ايدي المدن صاحبة السيادة والحكم عليها سبباً لتقهقر هذه وانحطاطها وذهاب أهميتها، فأنه ما كانت تنشأ نقطة للتجارة والاستغلال فى جهة ما على يد عاصمة او مدينة كبرى حتى تعمل على نيل استقلالها وقطع كل صلة لها باليد التي اخرجتها من طى العدم الى عالم الوجود . وعلى هذه الطريقة وبحكم هذه السنة خسرت كلوا بلاد زنجبار التى كانت تابعة لها وخاضعة لحكمها . ولقد كان شيخها يلقب بالسلطان وكانت هى ومنبسة وملندة وكلوا فى العهد الذى حضر البرتقاليون فيه الى شرق أفريقيا اهم النقط الساحلية . وكان العرب واعقابهم حيثما استقروا يتركون من دلائل الثروة والرفاهية والنعيم أثراً لايمحى . وقد كان هذا شأنهم فى موسامبيق التى وصل اليها غاما مع أنها لم تكن فى ذلك العهد سوى بلد فى الدرجة الثالثة بالنسبة لغيرها . ومع هذا فقد أثارت فى نفوس البرتقاليين الدهشة والذهول اذ كانت منازل السكان مشيدة بالخشب وكانت المساجد ودار الشيخ ولى أمرها مبنية كلها بالحجر . ولما أبصر غاما امير البحر البرتقالى بشيخها متشحا بالثياب الحريرية ومتقلدا السيف والخنجر وفى معيته

افواج من عشائر العرب فى أنخر الثياب تتقدمهم الآلات الموسيقية صادحة بأنغامها ادرك للحال علة ازدراء الشيخ بالهدايا الحقيرة التى قدمها اليه . ومما لاريب فيه ان البرتقاليين كانوا يعتقدون أنهم سيلقون فيما وراء رأس الرجاء الصالح اقواما من الهمج والمتوحشين هم أقرب شبها الى من رأوهم على السواحل الغربية من القارة الافريقية فلما شهدوا على السواحل الشرقية نقيض مارأوا على هذه ايقنوا خطأ رأيهم وفساد اعتقادهم .

وكان فى مرفأ منبسة حينما رسوا فيه بسفنهم عدد كبير من القوارب التجارية الصغيرة ، وكانت خاصلات جزيرتها على انواع شتى وارضها مزدانة بالحدائق الباسقة الاشجار اليانعة الثمار إذ كان مغروسا بها الشيء الكثير من شجر النارجيل والرمان والتين مما جاب من بلاد الهند بل ومن شجر البرتقال والليمون وغيرهما . وكانت المدينة كبيرة واكثر منازلها مشيدا بالحجر ، وكان نمط بنائها اشبه مايكون بنمط بناء منازل الاندلس وسطوحها مجصصة ومقسمة أقساما عديدة مختلفة ، وكان يسير فى حاراتها الجميلة المشاة ويخترقها الفرسان ممتطين الجياد المطهمة ، وكانت النساء تمرحن فى ثياب فاخرة من الخز والابريسم وموشاة

باسلاك الذهب ومزدانة بالأحجار الكريمة وكانت المقادير الوافرة من العاج والشمع والعسل تجلب الى منبسة من الارض القارة.

أما ملندة فكان فيها ما يثير العجب ويأخذ باللب ، فقد ورد فى التواريخ أن البرتقاليين بهتهم حسن نظام الطرقات واستقامتها وجمال المنازل ومتانة بنائها بالحجر وتعدد طبقاتها ذات الطنف المطلة على الطرقات من الطبقات العليا . وكان سكانها من العرب يملكون الدور الفسيحة ، وقد اشتهروا بمكارم الاخلاق ومحاسن الشيم من ظرف وأدب ، وكانوا يلبسون الثياب الحريرية والقطانى الدقيقة السلك ويحملون السيوف والخناجر المكفتة على مثال يشير الى دقة الفن وسلامة الذوق ، وكان النساء يتزن بثيابهن الفاخرة ، وكن على جانب عظيم من حسن الصورة وتناسب الاعضاء وأعتدال القوام حتى كان يضرب بجمالهن المثل فى بلاد الساحل أذ كانوا يقولون : « نساء ملندة وفرسان منبسة » ، وكان من بين سكان ملنده طائفة كبيرة من أهل كمباية والجوزرات جاءوا اليها للحصول على الذهب والعنبر والعاج والمواد الراتنجية والشمع وبيع ما يجلبونه معهم من الأفاويه والبهار والنحاس والزئبق والاقمشة وغير ذلك من

حاصلات الهند ، وكانت الاراضى خلف المدينة مغروسة بأشجار النارجيل والاشجار المثمرة المختلفة الانواع كما كانت تكثر بها الماشية والطيور الداجنة والبقول . وقد سر غاما ما رآه بسواحل افريقيا من مدن تشبه من بعض الوجوه مدن بلاده وضاعف سروره أنه قوبل مقابلة حسنة من أعيان البلاد وأنه لما زار ابن شيخ مالندة الاسطول البرتقالى رأى هذا الامير فى قارب جالسا على كرسى جميل ومتشحا بجلباب من الحرير المبطن بالاطلس الاخضر ومعتما بعمامة فاخرة ، يحف به عشرون من المغاربة والعرب فى أفخر الثياب وأثمنها وكان أحدهم واقفا الى جانبه يحمل بأحدى يديه سيفا جميلا قرابه من الفضة الخالصة . وفيما كان القارب يمر بين السفن كانت آلات الموسيقى تصدح بألحانها المطربة . واذا نحن قد ذكرنا ذلك كله بالبيان المستفاض فما هو الا ليعرف القراء ما كانت عليه تلك المدائن الزاهرة من الحضارة والجلال والعظمة .

ولقد كانت المدن الباقية من الساحل على جانب كبير من هذه المظاهر الجليلة أيضا . وفى تاريخ حوادث السنوات الاولى من عهد الحكم البرتقالى ما يصور حالة بلاد سفالية وزنجبار ولامو وباتا وعوجا ويا كا وبروة ما عدا مركة ، فأنه

لم يرد لها ذكر ضمن تلك البلاد اذ الظاهر أن البرتقاليين لم يعرفوا من أمرها شيئا فلم يذكرها أحد من مؤرخيهم .

أما مدينة مقدشو فقد مر بها فاسكو دى غامافى أثناء عودته من كاليكوت فى المرة الاولى . والظاهر انه دنا منها بحيث استطاع الحكم عليها فقال انها كانت كبيرة جميلة باذخة تحيط بها الاسوار وان مبانيها سامقة وسفنها الراسية فى مرفأها لا يحصيها العد . ولقد ذكرنا أنه لما جاء تريستان دا كونها فيما بعد الى هذه المدينة لاخضاع أهلها أو تخريبها وجدها وثيقة التحصين ومن المنعة بما اضطره الى العدول عن نيته .

وكان ينقص هذه البلاد العربية قوة حربية منظمة ولكننا نذكرهنا أنها لم تكن قامت على الفتح بل على التجارة فان التجار والمهاجرين هم الذين أسسوها فكان نموها لهذا السبب بطيئا، غير أن التجارة كانت فيها مضمونة ومأمونة. ولم تستعمل القسوة مع أهل البلاد فعادت معاونتهم للتجار بأجل الفوائد والارباح لهم ، وكانوا لا يخشون سوى المزاحمين الذين يحرضون الاهلين ويغرونهم بعضهم ببعض والمهاجمين من بعض القبائل المتوحشة النازلة بداخلية البلاد . وكانت الاسوار التى رفعوها لدفع هذه الغارات والاسلحة

التى يتقلد بها أهل البلاد عامة من الوسائل الكافية لصد هذه الهجمات واشباهها . والى ميل المستعمرين العرب الى السلم وحبهم السكون وتجردهم من نقيصة الطمع يرجع الفضل فى اتحاد العناصر ووثوق عرى المودة والوئام بينها فى بلاد الساحل .

ولقد كان انتشار الديانة الاسلامية من أهم البواعث التى أعانتهم على ذلك نوعا . ومن ثم كان الكفر أى الافريقى الذى تقرب أخلاقه وطباعه الى العربى أكثر منها الى الافرنجى قد اعتاد أن يرى أحفاد المهاجرين اليمانيين أو العمانيين يوغلون فى البلاد وألف رؤيتهم بما توثق بين الفريقين من عرى التآلف واتحاد الاهواء والميول فتتدفق على أعقابهم حتى عودتهم منها الى السواحل أفواج العبيد الارقاء والمقادير الوافية من الذهب والعاج وغيرها من مختلف الحاصلات ، فكانت السفن الكثيرة تمخر عباب البحر موسوقة بها وتساير السواحل فى سفرها فترسو على تلك المدائن وتفيض على أهلها ما حملت من بضائع وأموال يزداد بها الهناء والرخاء .

ولما رأى البرتقاليون عظم هذه الثروة وجلال هذه الرفاهية اللتين كانت دلائلهما ظاهرة الأثر فى ارجاء البلاد

شرهت نفوسهم الى انتزاع هذه الاسباب من أيدى العرب.
وكان هناك من الامور ما يحملهم على العمل لامتلاك البلاد التى استكشفوها ألا وهو وقوع سواحل افريقيا الشرقية على طريق الهند ووجود مناجم الذهب بأقليم سفالية. فهذا وذاك مما جعل الحصول على مكان أمين تأوى اليه السفن البرتقالية المسافرة من أوربا الى آسيا وتتزود فيه ما تحتاج اليه من المؤن ضربة لزام. ثم ان شهرة تلك البلاد بكثرة المعادن كانت قد بلغت الى بلاط الملك بلشبونة فحمل البرتقاليين ذلك على التفكير فى تلك الفتوحات التى اتضحت لهم سهولتها وامكان تحقيقها. وكان هذا الفتح هو الغرض الاول من تنظيم تجريدة دوم فرنسيسكو دالميدا الذى كان أول من عين واليا على بلاد الهند.

ولقد روينا فيما تقدم قصته على وجه التلخيص وبينا للقارىء كيف أقيمت وقتئذ الحصون بكاوا وسفالية وقلنا إنه لما أخلى حصن كلوا أصبحت سفالية أول مركز ساحلى للبرتقاليين وأهم نقطة للتجارة والدين. وكان الملك عمانويل قد فكر بادىء ذى بدء فى بقاء إقليم سفالية هذا تحت إدارته الخاصة مباشرة ليملأ خزائنه بما يرد من معادنها النفيسة. أما فيما بعد فقد ألحقت سفالية بحكومة جوة وان

يكن قدبقى بها موظف برتقالى بلقب « قبطان ماجور »
وظلت الحالة كذلك الى اليوم الذى هاجمها فيه الهولنديون
فى سنة ١٦٠٧ فأنها منذ هـذا الحين ألحقت بجزيرة
موسامبيق التى اقيم بها حصن منذ السنوات الاولى للفتح ،
ولم يوجد فى البلاد الساحلية الاخرى وقتئذ فيما عدا هذين
الحصنين وحصن منبسة الذى شيد سـنة ١٥٩٤ سوي
حصون صغرى أقيمت فى جزر مختلفة او فى مراكز صغيرة
من القارة .

ولم يكن باغلب الجهات التى يحتلها البرتقاليون غير
حاميات صغرى منها حامية ملندة . وربما كان السبب فى
ذلك تحسن العلاقات بين مشا يخها والبرتقاليين ، ولذا يمكن
القول بأن تلك الحاميات كانت تدافع عن أولئك الشيوخ
ضد أعدائهم أكثر من عملها لضمانة خضوعهم للبرتقاليين.
أضف الى ذلك أنه لما حل حكم البرتقاليين بالسواحل محل
العرب والمغاربة لم يفكر البرتقاليون فى انتزاع سلطة هؤلاء
نهائيا اذ كان جماعة الشيوخ عروة الاتصال بين الاجانب
وسكان السواحل على تباين أجناسهم فاكتفى بلاط لشبونه
بأن يجعل العلاقات بينه وبينهم كما ينبغى أن تكون العلاقات
بين المتبوع والتابع ، ذلك بأن يضرب عليهم جزية سنوية .

وكان الشيوخ يعلمون عجزهم عن مقاومة أعدائهم اذ كان البرتقاليون أصحاب السيادة والنفوذ على البحار وهم لايحبون المجازفة بما ربحوه من الثروة العظيمة فى تجارتهم مع بلاد الهند والعرب ، وقد أدركوا جميعاً ضرورة الطاعة ومشاركة الغالب فى جزء من الغنيمة بدلا من خسارتهم كل ما فى أيديهم فتعلم البرتقاليون منهم أساليب الاتجار التي كانت الاقمشة من أهم وسائلها فقد كان البرتقاليون يأتون بها من مستعمراتهم فى الهند كما كان العرب يفعلون قبلهم ، وكانت أحكام ولاة بلاد الهند وحكامها تنفذ بالاملاك الافريقية على يد موظفين تختلف مراتبهم باختلاف أهمية البلدان الواقعة تحت سلطتهم وتفاوت درجاتها . وقد تناول هذا النظام بعض التغيير بتبدل الاحوال السياسية والادارية .

والى القارىء بيان ما كانت عليه الحالة الادارية سنة ١٦٥٣ أى فى العهد الذى كتب فيه باريتودى ريزند كاتب اسرار الوالى الكونت دى لنهارس مؤلفه على المستعمرات البرتقالية ببلاد الهند وافريقيا الشرقية ، قال : « كان يوجد مركزان مهمان هما موسامبيق ومنبسة ، وكان المركز الاول أهم وأعظم لاشتماله على أقاليم سفالية وموسامبيق والاقليم الذى كان يدعى وقتئذ أسبريوس دى كواما أى المراكز

الكائنة على شواطىء نهر الزامبيز وكان مركز سفالية عبارة عن حصن مربع ذى برج فى كل زاوية من زواياه ومساكن صغيرة حوله يقطنها بعض البرتقاليين ، ولم تكن به حامية كما كان لا يوجد به عسكرى الا القائد . ولكن كان لدى البرتقاليين المقيمين حول هذا الحصن طائفة من الزنوج كانوا يستخدمون عند الاقتضاء لصد الهجمات عند وقوعها ، وكان من امتيازات قومندان سفالية حق الاتجار على الساحل كله فيما بين نقطته ورأس الرجاء الصالح اذ كان به مركزان مهمان أحدهما على درجة ٢٦ من العرض الجنوبى بخليج دلاجوا أولورنسو ماركز* وهو اسم أول برتقالى جاء بقصد تجارة العاج وأبرم فيها علاقات منظمة مع الكفر والنقطة الثانية إنهمبانى الكائنة بقرب رأس كورينتس والواقعة على درجة ٢٣ والدقيقة ٣٠ من العرض الجنوبى .

وكانت انهمبانى هذه أول قرية عرفها البرتقاليون لما وصلوا الى الشاطىء الشرقى للقارة الافريقية سنة ١٤٩٧ ، وكانت تابعة لمملكة تعرف وقتئذ باسم تونجا أو أوتونجا* أما مركز سفالية المذكور فكان مجرداً من المدن ولم يكن له كثغر سوى ذراع واحدة من البحر يتعذر الدخول فيها الا على السفن الصغيرة ، ولم تكن أهميته الا من وجهة تجارة

الذهب الذى كان يجمع باحدى النقط الداخلية البعيدة عن الساحل بنحو ستين فرسخا تقريبا . وبهذه النقطة وحول سفالية بقعة فسيحة من الارض كان البرتقاليون يطوفون فيها بكل امان .

وقد ذكر جيان فى تعليقاته على ما تقدم أن الممالك التى بين بلاد انهمبانى ولوابو* هى بالترتيب الآتى : فى شمال إنهمبانى كانت مملكة شيكانجا* وكان حدها الشمالى نهر سابيا* ثم مملكة سيدندا* المتاخمة لاراضى سفالية وهنا كانت تبتدىء مملكة* كيتيفا* وتنتهى عند نهر كان يعرفه البرتقاليون باسم تندنكولو* ، والارض الكائنة بين هذا النهر والضفة اليمنى لنهر زامبيز كانت داخلة فى نطاق الاملاك البرتقالية وكل هذه الأمارات كانت تابعة لامبراطورية مونوموتابا .

وكان ملك هذه البلاد يعرف باسم كيتيف وهو اسم البلد نفسه وكان تابعا لملك مونوموتابا . وقد تمكن من جعل هذه التبعية اسمية منتهزا فرصة تعضيد البرتقاليين فى مقابل مساعدته لهم على الايغال فى بلاده بأمان واطمئنان . وكان البرتقاليون بفضل استقرارهم ورسوخ أقدامهم بجهات لزامبيز متسلطين على الجهات الداخلية بأفريقيا الشرقية ،

وكان هذا النهر الجميل يسمح لهم بنقل البضائع والانتقال بأيسر وجه الى نحو مائة فرسخ فى داخل البلاد اذ كانوا يرسلونها به من موسامبيق الى كيليمانى* بطريق النهر وذلك فى شهرى مارس واكتوبر . ولما كانت تصل البضائع الى هذه النقطة الواقعة الى الضفة اليسرى من فرع البحر المعروف بنهر كيليمانى والكائن على مسافة أربعة فراسخ من مصبه كانت تنزل الى البر وتودع المخازن فى عهدة أحد العمال برسم نقلها بطريق النهر فى الوقت المناسب بالسفن الخاصة بذلك وكان حصن كيليمانى واقعاً بأقليم بورورو وكان كحصن سفالية قليل الاهمية ، ولهذا أهمل شأنه ولم تنصب به المدافع حتى سنة ١٦٢٣ وهو العهد الذى وصلت سفينته فيه من البرتقال تحمل عملة للمناجم . فقد نصبت فيه ستة مدافع صغيرة . واذ كان لايوجد به حامية فقد عهد مهمة الدفاع عنه الى بعض البرتقاليين المقيمين بالبلاد فكان هؤلاء يسلحون العبيد عند الحاجة ويضمون اليهم عددا من الكفر سكان الاقاليم المجاورة التابعين لملك البرتقال ، وكان اذا شب ضرام الحرب اجتمع سكان الجهات بالحصن واخبروا حاكم صيونة أو حاكم موسامبيق وكانت علاقات البرتقاليين مع الأهلين حسنة وسلمية اذا استثنينا ماحدث بينهم وبين

موزورا* أحد المشايخ الذى كان يحكم البلاد الواقعة بين ساموروكو* شمالى موسامبيق بعشرة فراسخ والاراضى التابعة لكيليمانى. ويقول ريزند ان هذه الاراضى كانت تمتد بطول الشاطىء وبعرض عشرة فراسخ حتى تصل الى نهر بون سينى (أى علامة الخير) ثم تمتد بطول النهر لغاية مورابونا* الواقعة على خمسة فراسخ شمالى كيليمانى التى كان يحكمها شيخ من المغاربة صديق للبرتقاليين. وفى جنوب كيليمانى كان للبرتقاليين تلك الاراضى الواسعة الكائنة فى دلتا نهر الزمبيز والتى كانت تبلغ مساحتها ثمانين فرسخاً تقريبا فكانوا يشغلون جزءاً من هذه الاراضى وكان الجزء الباقى فى أيدى مشايخ من أهل البلاد يلقبون بلقب فومو*، وبالرغم من خصوبة هذه الاراضى الواسعة كانت الحاصلات تكاد لا تفى بحاجة أهلها ولكنها كانت مع ذلك تورد عدداً عظيما من رجال الحرب وكان البرتقاليون ينتفعون بهم فى مقابل ما يعطونهم اياه من الاقمشة وكان مما يحمل أهالى كيليمانى على مسالمة البرتقاليين اضطرارهم الا الاستصراخ بهم فى صد عدوان جيرانهم، وبخاصة قوم بورورو الذين كانوا يأكلون اللحوم البشرية وكان جيرانهم لهذا السبب يخشون بأسهم.

ومهما يكن من الامر فقد كان كل ما ذكر من بواعث ضمان الملاحة فى النهر ، فقد كان ميسوراً للسفن أن تصل الى صيونة أوتيت فى أمن وسلام وأن تنزل منها بحمولتها الثمينة .

وكانت صيونة مدينة للنزهة والرياضه قائمة على الضفة اليمنى للنهر وعلى مسافة ثلاثين فرسخا من مصبه فى الاقليم الشهير باسم بوتنجا* وكانت مركز الحكومة الذى تنتمى اليه بحكم التبعية مراكز زمبيز، وبه قومندان معين بمعرفة حاكم موسامبيق ينحصر فيه الاختصاص بحق تنفيذ القانون فى جميع المحطات البرتقالية الواقعة بين فرع لوابو ونهر أرفنجا* المارّ على مسافة خمسين فرسخاً من صيونة ، وكانت تبتدىء من بعد هذا النهر حدود تيت . ولم يكن فى مدينة صيونة حصن وانما كان فى السابق قلعة محصنة بثمانية مدافع صغيرة ، وقد خربت ولم تعمر بعد . وكان لحاكم موسامبيق بمدينة صيونة وكيل تجارى يقيم بأهم دار فيها . أما سكانها فكانوا عبارة عن ثلاثين برتقاليا تقريبا متزوجين جميعا ومتسلحين بالبنادق . وكان لدى كل منهم من ثلاثين عبدا الى خمسين كانوا يستخدمون عند الحاجة كجنود محاربين . وكان بالمدينة على ضيق نطاقها أربع كنائس ، وكان من بين

العبيد من اعتنقوا الديانة النصرانيــة ، الا أن ريزند يقول عنهم انهم لم يكونوا نصارى الا فى الظاهر فقط . وكان قبطان صيونة يقوم بوظيفة القاضى ولكن أحكامه كانت تستأنف أمام الوالى العام لموسامبيق . وكان البرتقاليون يدعون أنهم يملكون جميع الأراضى الواقعة بين وسط نهر كيامانى الى مدى مائة وعشرين فرسخاً من مصبه وبعرض ثلاثين فرسخاً الى أربعين فيما يلى الضفة الجنوبية من النهر . وبالرغم من ذلك فسواء أكانت هذه الملكية صحيحة أم كاذبة فأنها لم تأت بفوائد جديرة بالاهتمام ، لأن الأيدى اللازمة لفلح الأراضى واستثمار خيراتهـا لم تكن موجودة بالمرة . ثم ان الكفر سكان تلك البقاع كانوا وقد حاربوا البرتقاليين مراراً يكمنون لهم العداوة والبغضاء لما لقوه فى معاملتهم اياهم من القسوة والفظاظة والأرهاق .

وكان إقليم صيونة متاخماً لأمارة بارو* التى كان شيخها ماشونى* مسالما للبرتقاليين لما كانوا يتحفونه به من الأقمشة بين آن وآخر فى مقابل تعهده لهم بضمانة الأمن فى الطريق وسماحه لهم بالأيغال فى بلاده دون معارض، حتى أنهم كانوا يتنقلون من مملكة بارو الى مانيكا المشهورة بالحصن المعروف بحصن شيبانجورا* . وكان التجار

البرتقاليون يلجأون اليه فى اسفارهم اذا نزل بهم ضيم ، وكان على مقربة منه منجم يشتغلون به كما كان بأمارة مانيكا حصن آخر أصغر منه مشهور باسم ماتوكا . وكان يوجد على بعد ستين فرسخاً من صيونة الى جنوب النهر فى مملكة موكرانجا* مركز تيت التجارى المحاط بسور ارتفاعه قامة وربع وبه ستة أبراج نصبت فيها المدافع ، وكان يعيش نحو عشرين برتقاليا بأزواجهن وأولادهم وبعض المولدين والزنوج مسلحين جميعاً بالبنادق . وكان قبطان تيت يعينه حاكم موسامبيق . ويتولى القضاء حاكم صيونة ، فكانت سلطته تمتد من نهر أرفنجا الى حدود الاملاك البرتقالية الواقعة شمالى تيت بعشرة فراسخ تقريبا .

ويقول المؤرخ ريزند أنه كان يستطيع أن يحشد ثمانية آلاف مقاتل من الكفر الخاضعين للبرتقال وان هذا المركز كان واقعا فى وسط إقليم تيت حيث المناجم وان هذا الموقع كان مما يضاعف أهمية المركز اذ كانت البضائع تجلب اليه بطريق النهر ، وهو صالح للملاحة حتى فيما وراء هذا المركز . وكان البرتقاليون قد أقاموا حصونا أخرى صغيرة لحماية التجارة منها حصن ما ياقاؤ* المقام فى أراضى بوتونجا* على بعد عشرة فراسخ من تيت . وكان في أراضي مملكة

مونوموتابا على بعد أربعين فرسخا من هذا المركز حصن آخر معروفا باسم لوانجا* ثم حصن أمبيران* فحصن ماسابا الذى سبق الكلام عليه فحصن ماتافوما* فحصن شيبريفيسى* .

وكان أكبر الحصون وأعظمها شأناً الحصن المشيد بأراضى مونوموتابا إذ كان لحكومة موسامبيق فيه حامية مؤلفة من ثلاثين جندياً وضابط واحد يتبعون الملك فى حروبه . وكانت علاقات البرتقاليين بهذا الملك طيبة فى أغلب الأحيان وكان لهم من الشأن فى بلاده ما يمهد لهم سبل الربح والاستفادة من طريق الاتجار فى أقاصى بقاع مونوموتابا وأطرافها . وكان الكفر يحملون لهم البضاعات والعروض وينقلونها من مكان الى مكان ، وكان للبرتقاليين من بين هؤلاء وكلاء أمناء صادقون فى معاملاتهم إذ كانوا يوافونهم بما عندهم من صنوف البضاعة واثقين من أن قيمتها سوف تصل اليهم منهم ذهباً أو عاجا أو غيرهما من نفيس الاعلاق وافية غير منقوصة .

وكان لذلك الموظف فى مقابل ما يدفعه من الخراج الى خزينة ملك البرتقال حق الامتياز على كل ما يصلح للمقايضة عليه بجهة ريوس دى كواما* واقايم سفالية الذى

كان يغذو بصنوف البضائع والحاصلات مخازن كيليمانى وصيونة وتيت . واذ كانت الحكومة أحيانا تحفظ لنفسها حق الاتجار فى أى الأقاليم شاءت فقد درجت على أن تحفظ للقبطان ماجور والعملاء الآخرين حق الاشتراك فى نصيب من أجرة الشحن فى السفن التى كانت تنقل تلك البضائع .

وكان حاكم موسامبيق الذى تعينه حكومة لشبونة لا يظل قائما بأعباء منصبه إلا سنوات معدودة وكان يسكن الجزيره التى جعلها البرتقاليون حصنا من أجمل الحصون وأمنعها فى جميع جهات افريقيا الشرقية وشادوا بها مدينة برتقالية النمط جعلتها صلاحية ثغرها لرسو السفن مركزاً تتلاقى فيه واردات جميع الضواحى . وكانت هذه المدينة عامرة رفيعة الشأن فى سنة ١٦٣٥ وكان البرتقاليون قد سخروا براعتهم وعبقريتهم فى فنون الحرب فى تشييد الحصون والقلاع التى أقاموها بجهات مختلفة من الجزيرة وحولت فيما بعد الى مستودعات للذخائر وأدوات البحر ولوازم الحرب وكل ما كانت تحتاج الى الانتفاع باستعماله سفن الحكومة وحاميات المدن الأخرى الواقعة على الساحل .

وكانت بموسامبيق ادارة للشؤون الدينية تابعة لمركز جوة الرئيسى امتد نفوذها بحيث تناول أصقاع أفريقيا الشرقيةالتي انتشرت بها العقيدةالكاثوليكيةوأقيمت بارجائها الكنائس والاديرة العديدة كما كان يوجد منها فى كل الارجاء ذات الشان والاهمية ، بل كان لا تخلو نقطة من نقط بلاد مونوموتابا التى كان للبرتقاليين فيها حصون صغيرة متفرقة فى أرجائها من كنائس صغرى للصلاة فى كل منها قس ينتظر حضور زنجى راغب فى التنصر أو يؤدى واجبه الدينى نحو المرضى والعساكر البرتقاليين .

وكان والى جوة ينتدب موظفامن درجة أوفيدور للقيام على الشؤون القضائيةويخوله سلطة واسعة قد ظهر ان ليس لاتساعها حد تقف عنده عند ما نظرفى قضية ديوجو سيمونس ماديرا ويعين موظفا آخر يحمل لقب «أسكريفاؤ دافازندادى سوا ماجستاد إفيتوريا » وينوط به ملاحظة مصالح الخزينة الملكية والسهر على صيانتها . وكان ينقص موسامبيق مع كل هـذا النظام أمر أساسى الا وهو المواد الغذائية . واذ كان البرتقاليون متفرغين للتجارة دون سواها فانهم لم يشتغلوا قط بزرع الاراضى الخصبة التى حول الجزيرة نفسها ولا الاراضي الواسعة التي كانوا يملكونها

فى دلتا نهر زامبير وطوال الضفة اليمنى لهذا النهر . وكانوا اذا راموا التزود بحثوا عن أزوادهم وأقواتهم فى مدغشقر وجاءوا بها منها أو من پمبا وزنجبار وغيرهما من جهات الساحل فيما بين رأس دجادو ومنبسة .

ولكى نختم الكلام على أقليم موسامبيق نبحث فى جزر أنجوكسو وكيريمبا اللتين كانتا ملحقتين بها . أما جزيرة أنجوكسو فاكبر جزر الارخبيل الشهير بهـذا الاسم وهى على بعد ثلاثين فرسخا من جنوبى موسامبيق وتجاه مصب نهر صغير توغل فى الخليج المتكون حواليه الى مدى النصف تقريبا من طولها بحيث يتكون بهذا الوضع فرعان له عميقان بقدر الكفاية . وكان يسكنها قوم من المغاربة والزنوج والعبيد يبلغ عددهم نحو الف وخمسمائة نسمة وكان شيخ الجزيرة يعد نفسه واليا تابعا لملك البرتقال وكان لحاكم موسامبيق فيها وكيل تجارى نيط به الاتجار مع أهل بلاد القارة وكان بها قس أيضاً قتله المغاربة سنة ١٦٢٧ فلم يخلفه أحد فى منصبه . أما الجزر الاخرى التى الى الجنوب الشرقى من الجزيرة الكبرى التى نحن بصددها فكانت خالية من السكان .

وأما جزر كيريمبا فيتكون منها سلسلة جزائر شديدة القرب من القارة وتبتدىء على بعد ٦٠ فرسخا تقريبا من

موسامبيق وتمتد بطول السواحل حتى رأس دلجادو .
وحينما وصف ريزند هـذه الجزر فى رحلته لم تكن بذات أهمية اذ كل ما يمكن أن يقال عنها انها كانت ملكا لبعض الفلاحين البرتقاليين الذين كانوا يؤدون عنها ضريبة صغيرة الى قبطان موسامبيق تنحصر فى مقدار من الدخن .
وكانت ماتمو* اكبر جزر هـذا الارخبيل ومحيطها سبعة فراسخ تقريبا وكانت تنتج فيما عدا الدخن حاصلات أخر كالنباتات الغذائية ، وكان شجر النارجيل شائعا فيها كما كانت تنتشر بأرجائها قطعان الماشية الصغيرة . أما الجزر الاخرى فكانت غير مسكونة فى الغالب وصغيرة المساحة ولم يكن بها ماء صالح للشرب ولا زراعة لأنتاج النباتات اللازمة للغذاء اللهم الا بعض الحشائش التى ترعاها الماعز . فلا فائدة اذن فى هـذا المقام من ايراد البيانات التى أثبتها ريزند فى كتابه مقتصرين منها على مايتعلق بما كان من اندراجها فى سلك الاملاك البرتقالية .

وقد كان بجزيرة كريميا كنيسة يقوم على شؤونها قس من طائفة الدومينيكان وكان الفلاحون يختلفون اليها من الجزر الاخرى سنويا لأقامة الحفلات الدينية الاربع وقد شيدت بالاحجار فى جزيرتي أوإيبو* وملاكوى* القريبتين

من القارة منازل سلحت بالمدافع وسميت بالقلاع . وعلى الجملة فقد كانت جزر كيريمبا لا يخلو امتلاكها سواء من الوجهة السياسية أو الوجهة العسكرية من الفائدة للحكومة البرتقالية . وفيما عدا هذا فقد كان كل ما يحصلون عليه منها قليلا من العنبر الذى كانت تقذفه الامواج الى سواحل تلك الجزر .

وكان القسم الثانى الذى سلف الكلام عليه يبتدىء من رأس دلجادو ، وكانت منبسة عاصمة له يتولى الحكم فيها حاكم برتبة قبطان ماجور تمتد منطقة نفوذه وسلطته من ذلك الرأس الى رأس جردفون . وكان أمر إخضاع المدن التى فيما يلى باتا شمالا مثل بروه ومركه ومقدشو من المسائل التخمينية غير أنه بالنظر الى ما اتخذه البرتقاليون من الاحتياطات كانت هذه المدن كغيرها تئن تحت عبء النير البرتقالى . وكان حاكم منبسة يرسل فى كل عام سفينة عليها خمسة وعشرون جنديا للطواف بالجزر ومسايرة الساحل الى جردفون لتسجيل ملكيتهم البلاد وظهورهم بمظهر السيادة عليها . وكانت مهمتهم غيرما تقدم اكراه السفن الآتية من الديو ودامان* وبسائم* وشيول* مشحونة بالمؤن والاقمشة لترسو فى مرافىء السواحل الافريقيــة على الانصراف الى

منبسة لتدفع الرسوم الجمركية عن مشحونها .

وكان حصن منبسة أعظم الحصون وأمنعها بعد حصن موسامبيق وربما ساغ القول بأنه الحصن الوحيد الذى يستحق اطلاق هـذا الاسم عليه بين حصون أفريقيا البرتقالية وكان فيـه نحو مائة جندى بقيادة ضابط خاضع لنفوذ قبطان ماجور . وكان بالطرف الآخر من الجزيرة تجاه مخاضة انكوبا ثلاثة حصون صـغيرة أقيمت خصيصا لمنع رجال قبيلة موزونجالو* من قبائل الكفر النازلة باطراف منبسة وبسواحل القارة من الدخول الى الجزيرة ومع ذلك فقد كان البعض منهم يتمكن من المرور ليلا .

وكان أهل منبسة يخشون بأس قبيلة موزونجالو التي أفاض المؤرخ ريزند فى وصف طباع أفرادها وأخلاقهم وما فطروا عليه من الميل الى السرقة والقتل ورشق الناس بنبالهم المسمومة . ولقد كان ساطان منبسة يحسن الى رؤسائهم تقية شرورهم إذ كان يتحفهم بالهدايا من الاقمشة والثياب ، فكان الأمن بفضل هذه السياسة مستتبا . ولكن ما كاد يخلو كرسى السلطنة فى منبسة على أثر نزول السلطان يوسف عنه فى الظروف التي سبق لنا سردها ، وما كاد يخلفه فيـه ملك البرتقال حتي قامت قبيـلة موزونجالو تدعى التبعية

للبرتقال كى تبنى على هذه الدعوى مطالبتها بما كان السلطان يوسف ينفحها به من الاقمشة . ولقد أجابتها البرتقال الى طلبها على الفور ولكنها مع ذلك لم تستطع إلزامها بالمحافظة على الأمن ولا أن تلقى مسئولية عليها . وكان البرتقاليون يحصلون من هذه الامة المتوحشة بطريق المقايضة على مقادير وافية من الحبوب كما كانوا يأخذون بالطريقة نفسها كل العنبر الذى يجمعونه من الشطوط المجاورة . وكانت هذه المادة تأتى بأرباح وافرة للخزينة الملوكية . وكان جمرك منبسة أيضاً ينبوعاً من ينابيع الأيراد للخزينة وان يكن هذا الأيراد قد قل بعد الذى أتاه يوسف من تخريب مبانيها وتشتيت أهلها . وها كم بيان الجهات الداخلة فى قبطانية منبسة .

أولا : جزيرة باتا — كان بها فيما عدا المدينة المعروفة بهذا الاسم مدينة أمبازا ومدينة سيهوى . وكان مشائخ هذه المدن الثلاث من العرب أو من سلالة عربية . وكانوا يقرون بتبعيتهم لملك البرتقال ويدفعون له الجزية . وكان أكبرهم شأنا وأعظمهم خطراً شيخ باتا الذى كان يتلقب بلقب السلطان ، وكان السلاطين قبله قد ثاروا مراراً على البرتقاليين . أما الشيخ الذى كان يتولى الحكم حينما كان

ريزند يضع مصنفه التاريخى فقد كان خاضعاً للبرتقاليين
ومخلصاً لهم ولكنه لم يقبل أبداً أن تقام كنيسة فى بلاده .
وكان الوالى الكونت لينهارس قد أنشأ بها ديوانا للجمرك
جعله تابعاً لجمرك منبسة . وكانت السفن تقصد اليه لدفع
الرسوم إذا لم تسمح لها حالة الجو بالذهاب الى منبسة .
وكان لقبطان موسامبيق وكيل فى باتا .

وكان بأمبازا كنيسة يتولى شؤونها قس من طائفة
سان أوجستان وكان بالمدن الثلاث القائمة على جزيرة باتا
جم غفير من جند المغاربة كما كان لسكانها سواء بالجزيرة
أو على سواحل القارة مزارع كبيرة من شجر النارجيل
ومزارع غيرها لحب الدخن وغيره من الحبوب والبقول ،
وكانت هـذه الجزيرة وما يتبعها من الأراضى زاهيـة
العمران .

ثانياً : جزيرة لامو ـ كان سكانها كالجزيرة السابقة
من العرب والمغاربة وكان شيخها يدفع الجزية .

ثالثاً : ملنده وضاحيتها ـ لم يستفد البرتقاليون شيئاً
من هذه المدينة وملحقاتهـا بل كانوا هم الذين يرسلون الى
شيخها فى كل سـنة مقداراً من الحديد والاقمشة ليوزعه
على الكفر من قبيلة واسيجيو الذين كانوا يعيشون فساداً

فى تلك الارجاء وبهذه الكيفية ظلت المدينة فى مأمن من شرهم .

رابعا : جزيرة پمباوالجزر الصغيرة المجاورة لها ـ كانت هذه الجزيرة الشهيرة بخصوبة أرضها زاهرة فى ذلك الوقت بالعمران وأكد ريزند أنه كان باستطاعتها تجنيد خمسة آلاف مقاتل وكان يتبعها أربع عشرة قرية ، وكان سكانها من المغاربة والكفر يعملون للزراعة ولو أن البرتقاليين الذين سكنوها قبلا أرهقوا الاهالى الكفر بجورهم وعسفهم واضطروهم الى الفرار منها . ومع هذا فقد فرض على پمبا خراج سنوى قدره ستمائة مكدس* من الارز الذى كانت زراعته زاكية بتلك البلاد وصنفه أجود من أرز الهند . وكان يزكو بها السمسم وغيره من الخضر والفواكه والزبدة والماشية والخنازير البرية وهذه الاخيرة تناسلت مما تركه الولاة البرتقاليون فى الازمان السالفة . وكانت مغارس النارجيل عديدة فى الجزيرة الكبرى والجزر الصغرى التابعة لها . وكان يستخرج من الجزيرة الكبرى أصناف عدة من الخشب الجيد الصالح للعمارة ، وكانت پمبا فيما عدا الحاصلات المتقدمة تصدر الى موسامبيق ومنبسة أشطر الأوفى مما يلزم من الأقوات والأغذية لسكانها .

وكانت الحكومة البرتقالية قد فكرت للتخلص من مضايقات قبيلة موزونجالو ومما تسببه من القلق والانزعاج لحامية منبسة فى الجلاء عن قلعة هـذه المدينة ونقل مركز القبطانية الى پمبا ولكنها عدلت عن هذه النية بالنظر لرداءة مناخها ولأن مرافئها لم تكن من العمق بحيث تصلح لحمل السفن الكبيرة .

خامساً : جزيرة زنجبار — توقفت هذه الجزيرة فى عهد ريزند المؤرخ عن دفع الخراج ، وانما لم تزل علاقات شيخها أو سلطانها بالبرتقاليين حسنة وثيقة . وكان الشطر الاعظم من هؤلاء يقيمون بالجزيرة ويشتغلون فيها بالزراعة آمنين على نفوسهم وأموالهم ، وكان بها كنيسة وللكنيسة قس من طائفة الأجوستان الدينية ، وكان شيخ الجزيرة مكلفا بحماية الديانة الكاثوليكية فيها . وبالجزيرة الأخشاب الصالحة لعمارة السفن وشيخها يقدم الى البرتقاليين كل ما يحتاجون اليه منها . وفيها عامل تجارى تابع لحاكم موسامبيق .

سادسا : جزيرة مافيا — مع أن سكانها كانوا من رعايا سلطان كلوا فقد كان لحاكم موسامبيق بها عامل تجارى . وكان فيها على مقربة من ساحل البحر ، الى ناحية الشرق ، حصن صغير فيه حامية قليلة عدد الجند لايتجاوز عددهم

فى وقت الحرب اثنى عشر جنديا برتقاليا . وكان الحصن لايعدو ان يكون داراً مبنية بالحجارة والجص وليس بها من السلاح الا ما يحمله هؤلاء الجنود من البنادق . ومافيا كثيرة الماشية وافيـة الخيرات ، غير أن لحم ماشيتها ردىء الطعم ومع رداءة لحمها فقد كان ما يستخرج من سمنها جيدا وبالغاحد الكثرة . وكان حاكم منبسة يحصل منها على المواد الراتنجية فى مقابل الاقمشة اذ كان مقررا عليه توريد مقدار معين من هذه المواد سنويا الى الحكومة . وعلى مقربة من من مافيا ثلاث جزر صغيرة باسم اكسونى* وكوا* وزيبوندو* طول محيط الاولى نصف فرسخ والاثنتين الاخرين ثلاثة فراسخ . وكان سكان الجزر الثلاث من المغاربة وتنحصر الضريبة المفروضة عليهم فى تقديم الزاد والمؤونة الى البرتقاليين الذين يفدون عليها مدى الايام الاولى من حلولهم . وكانت هذه الجهات تصدر الاقوات الى موسامبيق كما سبقت الاشارة اليه من الدخن والارز والماشية وهو ما اضطر البرتقاليين الى وضع هذا القسم من السواحل تحت نفوذهم واعتبارهم هذا التدبير من الضرورات التى لا بد منها . ومن الوجهة التجارية كانت حاصلات منبسة وملحقاتها تنحصر فى العاج والعنبر والرقيق الذى كان يرسل الى الاقطار الهندية .

وكانت منبسة تستورد فى مقابل هذه الاشياء الاقمشة والحديد والأرز لأن جزيرة بمبا وضفاف نهر أوفيجى لم يكن يزرع بها شيء من الأرز إذ كان الدخن الغذاء الوحيد لسكانها هى وما جاورها من البقاع . وكانت البلدان الواقعة بأفريقيا الشرقية توافى العاصمة بالخيرات الوفيرة من حاصلاتها حتى بعد أن وضع البرتقاليون أيديهم على الشيء الكثير منها . وكان للخزانة الملكية مصادر عظيمه غير الخراج والمكوس (الرسوم الجمركية) للأيراد سواء أمن الاحتكار الذى تكون قد احتفظت به لنفسها أم من تأجير الأراضى التى لم تتول زراعتها بنفسها لسبب من الاسباب، فكانت تعطى حكامها هذه الاراضى على طريق الالتزام فى مقابل قيامهم بالنفقات فى إقليمهم وأدائهم مبلغا معيناً الى الخزينة الملكية . غير أن حكومة لشبونة لم تحصل على هذه الاموال الجسيمة إلا بغض الطرف عما كان أولئك الموظفون يرتكبونه من العنف والظلم والأرهاق فى سبيل جمعها من الأهلين مستعينين فى ذلك بسلطة وظائفهم . ولقد أمعنوا فى إرهاقهم وظلمهم والاستبداد بهم الى حد أصيبت البرتقال عنده بسبب فتوحاتها بضررين بالغين فى أقل من نصف قرن من الزمان ، أولهما الزهو والاغترار

وما يلزمها من فساد الطبائع وانحراف الاخلاق عن جادة الاستقامة ، والثانى من جراء ما يتولد من الاحقاد فى قلوب الامم المحكومة ضد الامة الحاكمة .

ولقد نسب المؤرخون البرتقاليون سقوط دولتهم فى الشرق الى استيلاء البيت الحاكم فى اسبانيا على عرش البرتقال . وفى هذا الاتهام ما يشبه الصواب والحق ، فان سياسة الحكومة الاسبانية ظلت طوال المدة التى عكفت البرتقال فى أثنائها على فتح الامصار والاقطار فى شرق أفريقيا والهند تضع العقبات والمعاثر فى طريقها بأثارة الاحقاد عليها ، ولكن أيعقل مع هذا أن مثل هولاندة وانكلترا كانتا تلزمان السكوت وتغضان الطرف عن اغتنام الفرصة المتاحة لهما لكى تأخذ كلتاهما حصتها فى الغنيمة مهما بلغت العلاقات الودية بينها والحكومة البرتقالية ؟ كلا . ويضاف الى ذلك أن صفات الجرأة ومزايا الاقدام التي امتاز البرتقاليون بها بادىء ذى بدء كانت قبل أن يتحفز الهولنديون والانجليز للوثبة على تلك الغنيمة قد تلاشت من نفوسهم ليحل محلها الجشع وعبادة الذهب وطبائع الاستبداد والصلف والقسوة الغاشمة ، الى غير هذا من الرذائل التي ملأت صدور الامم والشعوب المغلوب على أمرها بالاحقاد والحزازات ضد

مرهقيها بالعسف والجور وحفزت نفوسهم للتخلص من براثنهم القتالة .

وصفوة القول أننا من أية ناحية نظرنا الى تاريخ حوادث التسلط البرتقالى فى الامصار التى فتحها البرتقاليون وعلى الامم التي أذلوها وأرهقوها واستعبدوها نرى أن دولة البرتقال سواء أفى عهد أسرة براجانس الحاكمة أم فى عهد سلالة شارلكان كان مقضياً عليها بالانحلال والتلاشى من الوجود لتكون مثلا قائما على أن الدول التى تريد بالفتح مجرد الظهور فى مظهر القوة والجبروت لا الأخذ بيد الامم المغلوبة الى الغايات العليا من الارتقاء والسعادة والرفاهية انما مصيرها الى الزوال من هذا الوجود . وانما هذه الكلمة هى التي حقت على تلك الدولة البرتقالية بما أرتكبت من آثام وفضائح فى الشرق الافريقى المنكوب .

ومع أننا لا نسلم بما يذهب المؤرخون البرتقاليون اليه من نسبة تلاشى الحكم البرتقالى على الشرق الافريقى والهند الى استيلاء اسبانيا على عرش البرتقال ولا نقرهم على هذا الرأى لما فيه من الاطلاق نقول إن انتقال ذلك العرش الى أيدى الاسبانيين لا يخلو من بعض الأثر فى سقوط الدولة البرتقالية وتلاشى حكمها من مستعمراتها الشرقية . وتظهر

هذه الحقيقة جلية واضحة من أنه لما أعاد حنا الرابع دوق دى براجانس استقلال البرتقال اليها فى سنة ١٦٤٠ كان وقوع هذا الحادث الخطير بعد فوات الوقت المناسب لظهور تأثيره فى مآل الممتلكات البرتقالية بالهند . ذلك لأن انجلترا وهولانده كانتا قد اقتطعتا لنفسهما من أراضى هـذا القطر العظيم حصصا كبيرة تفى بمطامعهما فيه ، ولم تكن البرتقال بقادرة على الحيلولة دون وقوع هذه الكارثة لان اشتغالها بالحروب التى تأججت نارها فى أوربا لصيانة استقلالها صرفها عن ارسال الجنود الى المستعمرات لحفظ كيانها .

أما مستعمرات سواحل شرق أفريقية فقد أفضى خروج هرموز من يدها الى يد الفرس الى أسوأ مغبة وأردأ نتيجة ، فان ضياع هذه النقطة كان لا بد أن يؤدى حتما الى تلاشى السيطرة البرتقالية على الخليج الفارسى وتأييد سيطرة أئمة عمان وتقوية أركان دولتهم الى الحد الذى استفز مدينة منبسة فى يوم من الايام التي اشتد فيها ضغط الظالمين الغاشمين عليها الى طلب المدد والعون منهم فلم ينكصوا على أعقابهم إزاء هذا الاستمداد بل مدوا يدهم اليها وتداخلوا فى شؤونها على الوجه الذى سنجعل البحث فيه موضوع الباب الآتى .

الباب الخامس

العصر العماني

عرب عمان ينتزعون الحكم من يد البرتقاليين من رأس دلجادو الى جردفون

بدأ المؤلف جيان هذا الباب ببحث مستفاض من الوجهتين التاريخية والجغرافية فى بلاد عمان وذكر شيئاً كثيراً من أصول أمرائها مستمداً فى ذلك بما تناوله فى هذا الموضوع كتاب أنساب العرب للعلامة الشيخ سلمة بن مسلم السحارى صاحب كتاب الضياء ثم قال :

بعد أن طرد سلطان بن سيف البرتقاليين كافة من مسقط، وكانت آخر ما بقى فى قبضتهم من أرض عمان ، بنى سفناً كثيرة ليحمى بها بلاد السواحل ضد ما يحتمل من تعديهم عليها فضلا عن أنه لم يتراجع عن مهاجمة مراكزهم ببلاد الهند وسواحل أفريقيا.

ولقد هاجم بمباى فلما استنجد به أهل منبسة وسألوه أن يخلصهم من نير الحكم البرتقالى حاصر هذه المدينة . ويهمنا فى هذا المقام تعيين تاريخ هذا الحادث . ومن الاسف أن لا يكون تاريخ منبسة قد أشار فى هذا الموضوع بكلمة ولكن يوجد فى رحلة القس مانويل جودنهو المدونة فى سنة ١٦٦٣ وهو القس الذى رحل من الهند الى البرتقال مارا بالخليج الفارسى ما ترجمته : « ولم يكتف – أى سلطان ابن سيف – باجلائنا عن بلاده بل اجترأ على اقتفاء أثرنا حتى بالبلاد التابعة لنا اذ حاصر منبسة وعاكسنا فى بمباى وأسرت سفنه سفنا برتقالية كثيرة » .

وهو ما يؤخذ منه أن استيلاء عرب عمان على مسقط وقع قبل محاصرتهم مدينة منبسة واذ كان وقوع الحادث الاول فى سنة ١٦٥٨ كما ورد فى مصنفات رينال وباستيد وريتر أو فى سنة ١٦٥٩ ميلادية كما جاء فى كتاب جهان نما فلا بد أن يكون وقوع الحادث الثانى وهو حصار منبسة بين سنتي ١٦٥٨ و ١٦٦٣ ، ولهذا نميل الى الاعتقاد بانه لا يحسن بنا تحديد سنة ١٦٦٠ تاريخا لذلك .

وقد بعث سلطان بن سيف ، وهو الامام الثانى من اسرة اليعربى ، بالسفن الى منبسة لحصارها بناء على دعوة

من أهلها فلم يوفق لاخراج البرتقاليين من الحصن الا بعد جهد طويل دام خمس سنوات . ولما دخله أصلحه وجعل به المؤن والذخائر ، ونصب عليه حاكما محمدا بن مبارك . غير أن هذا الاحتلال لم يدم طويلا لان البرتقاليين جمعوا فلولهم وحاصروا الحصن فتغلبوا على حاميته العربية واستولوا عليه ثانيا وأدخلوا فى حكمهم سكان منبسة والاراضى المجاورة لها وساروا فى الناس بالشدة والعنف والجور وقتلوا كثيراً من مشاهير رجالها حتى اشتد غيظ الناس وامتلأت بالبغضاء قلوبهم وفكروا فى الانتقام منهم .

وكان سلطان بن سيف قد مات فى سنة ١٠٧٩ للهجرة أي سنة ١٦٦٨ — ٦٩ من الميلاد وترك ولدين اسم أحدهما بلارعب والآخر سيف نخلفه الاول .

وفى عهد بلا رعب أى فى سنة ١٦٧٠ ميلادية هجم عرب مسقط على جزيرة الديو ونهبوا القسم البرتقالى منها . وكان قائد الحصن الذى لجأ اليه فريق من السكان قد وعد الجمهور بانهم اذا انضموا اليه لصد اعتداء المهاجمين أطلق سراح الاسرى فاحتشد حوله أربعة آلاف نفس انقض بهم على المهاجمين واخرجهم من المدينة فانسحبوا ومعهم عدد كبير من الاسرى من أهل البلاد ذكورا واناثا غير أن

الامام لم يتابع حملاته على الخارج وكانت وقعت بينه وبين أخيه منافسة وحدثت بعمان حروب داخلية وانفض أنصار الامام من حوله ولم يأذن له سكان نزوة* بغشيان مدينتهم ولم يبق له بعد قتال طويل عنيف سوى القرية التى لجأ اليها ، فجلس سيف على كرسى إمامة عمان وحاصر أخاه فى موئله فمات فى أثناء الحصار وبقى سيف مطلق اليدين .

وكان الامام الجديد جنديًا جريئًا وبطلا هماما ففى سنة ١٦٩٤ ميلادية سير الجيوش الى دمان* وجزيرة سالست* ، فلما وصلت اليها أتت ما استطاعت من ضروب العبث والعدوان اذ نهبت الكنائس وأحرقتها وقتلت القسوس وأخذت معها ما يقرب من الف أسير واربعمائة . ولم يكتف سيف بمحاربة البرتقاليين بل بلغ الخصام أشده بينه والرجا صاحب كرناتك* فى الهند فسير من مسقط الى برسلور* ومنجلور* اسطولا ضخما نزل رجاله فى هاتين المدينتين ونهبوها وأضرموا فيهما النار . وقد كان المنتظر أن تصبح انتصارات سيف بن سلطان وما تستتبعه من العمل لصيانة الممتلكات الجديدة والتفرغ لتنظيم شؤونها وسياسة أمورها حائلا دون شروعه فى اتمام ما بدأ به أبوه من الهجوم على الممتلكات البرتقالية بساحل افريقيا ولكن إمعان البرتقاليين

فى امتهان سكانها وارهاقهم بضروب الجور والعسف جعلهم يفكرون فى رفع لواء الثورة والنزوع الى الفتنة كل حين ، فكان من ذلك خير فرصة اغتنمها الامام لتلبية نداءهم واجابة استصراخهم إذ بادر باتخاذ التدابير الكفيلة بفوزه فى انقاذهم من نير أولئك المتسلطين الظالمين . وكان أول ما قام بتنفيذه منها ان صرف كل قوته الى حصن منبسة فلم يعتم أن وقع بيده فى يوم الخميس ٩ جمادى الثانى سنة ١١١٠ هجرية الموافق ١٤ دسمبر ١٦٩٨ ولما تم له الفوز أقام عليه حاكما ثم تحرك بجيشه مسايرا السواحل فقدمت له الطاعة مدينتا زنجبار وكلوا . والمأثور أنه وصل الى حصن موسامبيق وحاصره ولكنه رفض أن يتخطاه الى ما يليه لما وقع فى قلوب رجاله من الارتياع على أثر انفجار لغم كان المحصورون قد جهزوه . وقد علق جيان على هذه الرواية بأنه لم يعثر على سند صحيح يؤيدها .

ولما تم النصر لسيف فى منبسة ابتدأت مذبحة البرتقاليين فقتل منهم سوادهم الاعظم ونفى الباقون سواء أكانوا من هذه المدينة أم من جهات الساحل التى كان يقيم بها وقتئذ فريق منهم وقد بادر سكان البلاد بالاعتراف بسيادة الامام وولايته عليهم وبذا انتهى حكم البرتقاليين على الاقطار الواقعة شمالى رأس دلجادو . أما مقدشو التى ظلت الى ذلك

الحين مستقلة فقد اندرجب على ما يقال فى سلك البلاد التى استظلت بظل أحكام الامامة العمانية . ومع انتقال الشعوب الافريقية من التبعية القديمة الى التبعية الجديدة فقد ظلت متقلبة فى حالة وسطى بين الاستقلال والتبعية أي كما كانت على عهد السلطة البرتقالية . وفى الواقع فان الامام سيف بن سلطان لم يباشر الحكم مباشرة محسوسة الا فى منبسة فقد أصلح حصنها وجعل فيه حامية وانتخب للمدينة حاكما يسوس أمورها ، غير أن الحروب التى أعلنها أو أعلنت عليه وتفرغ لها هو ومن خلفوه على منصة الامامة ظلت مستعرة مدة من الزمن فى الخليج الفارسى أو ضد البرتقاليين وكذلك الفتن الداخلية التى انتابت البلاد العمانية كانت من أهم البواعث التى جعلت سيادة الامام على البلاد التى استظلت بلوائه اسمية أكثر منها فعلية ، ولم يتحقق المرجو من نتائجها ألا وهو استقرار السكينة والأمن واتساع نطاق الثروة والرفاهية اى الأمران اللذان ينبغى أن يكونا الثمرة الطبيعية لحكم يتفق مع عقيدة الهيئة المحكومة وعاداتها واخلاقها ومعاملاتها ، اذ قد توالت فى البلاد الفتن والاضطرابات واختل نظامها زمنا طويلا . وسنشير الى ما حدث من هذه الفتن فى سياق الكلام على الدولة العمانية وحوادثها التى

وقعت فى عمان ذاتها أو فى البلاد التابعة لها .

وقد سرد المؤلف بعد هذا ما وقع من الحوادث بين العمانيين والفرس وما انتاب عمان ذاتها من الفتن الداخلية على أثر وفاة الامام سلطان بن سيف فى يوم الاربعاء ٦ جمادى الثانية سنة ١١٣١ الموافق ٢٠ افريل سنة ١٧١٩ بسبب التنافس على حق الوراثة فى الامامة وأفاض فى بيان النتيجة التى أفضت تلك الفتن اليها من جلوس سيف بن سلطان بن سيف على كرسى امامة عمان ثم قال :

وقد عادت البلاد التى فتحها العمانيون فى شرق افريقية فسقطت فى قبضة البرتقاليين زمنا ما . والمفهوم أن وقوع هذا الحادث كان فى الفترة التى غلت فيها مراجل الفتنة الداخلية بسبب التنازع على كرسى الامامة بعمان .

ولقد ذكرنا فيما تقدم أن منبسة كانت المدينة الوحيدة التى احتلها جنود الامام فى شرق افريقية وتوطدت فيها الى حد ما سلطته وتعين لها حاكم من قبله . وكان هذا الحاكم قد خلفه آخرون استطعنا ان نعثر بينهم على اسمى اثنين منهم هما سيف بن سعيد وناصر بن عبد الله . وهذا الاخير هو الذى كان قابضا على زمام الحكم وقت وقوع الحوادث التى سنوردها فيما يلى .

فقد حدث أن رجال الحامية أرادوا عزل هذا الحاكم فقبضوا عليه واختاروا بدلا منه قائدهم سيسارومبا* فلما وصل هذا الخبر الى أهل منبسة عارضوا فى هذا الاختيار ورفض مشائخهم وهم من أهل السواحل الاعتراف به باعتبار ان سلطته لم تكن شرعية . وقد أنذروه بالجلاء عن الحصن فرفض هو وجنده اجابة هذا الطلب ومن ثم ثارت ثائرة الحرب بين حامية الحصن وسكان منبسة

تلك كانت الحال حينما ظهر البرتقاليون باسطولهم تحت قيادة لويس ميلو دى سامبايو* القائد العام للدوننمة الذى يقول المؤرخون البرتقاليون عنه انه هو الذى أعاد سلطة ملك البرتقال الى سواحل باتا وكلوا فى سنة ١٧٢٨

والى القارىء قصة عودة البرتقاليين الى منبسة فى السنة المذكورة ، وهو ما اقتبسناه من روايات أهل البلاد المذكورة ، فقد جاء بهذه الروايات أن احمد بن القبانى* من سكان باتا كانت بينه وبين بواناتامو مكوهو* سلطان هذه المدينة خصومة فعقد النية على الانتقام منه وإلحاق الأذى به فقصد الى البرتقاليين فى موسامبيق يسألهم المعونة عليه وأطلعهم على ما هنالك من احتمال استيلائهم على مدينته اذا وافوه بالمساعدة اللازمة فاجابوه الى طلبه وأعطوه أربع سفن

ذهب فيها الى باتا لمحاربة خصمه . فلما رأى السلطان هذه القوة وأيقن ضعفه أمامها فكر فى الصلح مع خصمه حقنا للدماء فرضى أحمد بما عرضه السلطان عليه وتصالحا وكان من الشروط التي اتفقا عليها بينهما استنقاذ البلاد من نير البرتقاليين . وتحقيقا لهذا الامر أبلغا هؤلاء بما ثار من ثائر الخصومة فى منبسة بين السكان وحامية الحصن وأشارا عليهم باغتنام هذه الفرصة لاسترداد هذه المدينة ثم وعداهم بطاعتهم ومساعدتهم وقد ساعداهم فعلا اذ جهزا سبعين سفينة ركبها الملاحون من أهل باتا وانضمت الى السفن البرتقالية الاربع وسارت هذه القوة البحرية الضخمة قاصدة الى منبسة ورست فى خليجها القبلى تجاه القرية التى تسكنها قبيلة كلنديني أى الناحية المقابلة للتى تشرف القلعة عليها فأخذ المتحالفون يتفاوضون مع السكان وتظاهروا لهم بالرغبة فى معاونتهم على عزل سيسا رومبا القائد الذى لم يرضهم حكمه وابعاده عن الحصن . ولما رأى هذا الوالى أنه لن يقدر على مقاومة القوى المتحالفة سلم نفسه بدون قتال فصار البرتقاليون أصحاب الكلمة فى البلاد . ومع هذا فأنهم لم يجنوا ثمرة من هذا الفتح الجديد أو أن الثمرة التي جنوها منه لم تعش طويلا فقد ارتكبوا من الشناعات والفظاعات

ما أفضى الى قيام الجمهور وثورته عليهم وطلبه من إمام عمان امدادهم وانقاذهم من جور النصارى وعسف حكمهم . على انهم لم ينتظروا حتى يصل المدد اليهم بل عمدوا الى الحيلة فاشاعوا أن دوننمة كبيرة سيرها الامام لنجدتهم ستصل قريبا اليهم . ولقد استولوا بهذه الخدعة على محصول الارز والذرة والحبوب المخزونة بحجة العمل فى درسها وتجهيزها لتكون صالحة للاستنفاد عند الحاجة ثم انتهزوا الفرصة يوم عيد حيث كان السواد الاعظم من رجال الحامية قد خرجوا الى الكنائس فاجتمعت أفواجهم ثم انبثوا فى ارجاء المدينة ينحون على رقاب البرتقاليين ويمعنون فيهم قتلا ، فمن نجا من السيف منهم وقع أسيراً . اما بعضهم الذى لبث بالحصن للقيام على حراسته فقد اضطر الى التسليم على أن لا يمس بسوء بل يعاد الى موسامبيق .

وكان بمنبسة فى سنة ١٨٢٤ بناية كبيرة هى القبر الذى غيبت فيه جثث القتلى من أهل منبسة فى سبيل تخليص البلاد نهائياً من براثن البرتقاليين ، فكان اذا وصل اليها رحالة من الاجانب أطلعه دليله على ذلك القبر مفتخراً بأنه يضم اليه عظام أولئك الابطال .

ولما تم لسكان منبسة الاستيلاء على الحصن جعلوا به

حامية مؤلفة من رجل واحـد من كل قبيلة ثم انفذوا الى امام عمان وفداً يسـأله أن يمد عليهم حمايته وان يقبل منهم طاعته وان يعجل بذلك ما استطاع . وكان الوفد مؤلفا من شيوخ القبائل والعشائر ومن وكلاء عن القرى فى أقليم وانيكا باعتبار وكيـل واحد عن كل قرية . وكان بين أعضاء الوفد عضو عن أهل قرى واسين* تنجاتا وامتنجاتا وهى من القرى الساحلية التابعة لمنبسة .

فأنفذ الامام الى منبسة فى الحال ثلاث سفن بقيادة محمد بن سعيد المعمرى* استولى رجالها بمجرد وصولهم على الحصن وارسلوا حامية صغيرة منهم الى زنجبار . أما المدن والجزر الاخرى فقد خضعت كغـيرها للأمام واصبحت تابعة له . ولنذكر بهذه المناسبة اننا لم نعثر على بيانات تاريخية عن حوادث هذه الجهات على عهد تدخل أئمة عمان فى شؤون افريقيا الشرقية ولا عن الحوادث التى وقعت بعد الذى أوردناه إلا ما سنذكره خاصاً بجزيرة باتا .

لما أصبحت هذه المدينة تابعة لأمام عمان ، وهو فى ذلك العهد سيف بن سلطان بن سيف بن مالك ، كان حاكمها من أهلها هو بوانا أوفوموشاه على* فكان الامام قد نصب على الجزيرة حاكما عربيا من قبيلة نبهان وكان هذا الرجل

يمت بالنسب الى الاسرة السلطانية فلما توفى خلفه ابنه بوانا تامو الذى كان سلطانا على باتا حينما استولى البرتقاليون عليها فى سنة ١٧٢٧ قبل انصرافهم الى منبسة كما سلف ذكره . وخلف بوانا تامو ابنه فومو بكرى الذى كانت مدن لامو ومندرا وجزيرة بمبا وكل الاراضى الساحلية الكائنة بين نهر كيليفى ومصب الجب فى عهده تابعة لسلطنة باتا ، ولا ندرى كيف كان ذلك .

أما منبسة فلا نعرف عنها شيئا منذ اخراج البرتقاليين منها فى المرة الاخيرة . والحادث الوحيد الذى توصلنا الى معرفته فى عهد سيف بن سلطان هو أنه فى سنة ١٧٣٥ استبدل الامام من واليها محمد بن سعيد بصالح بن سعيد الحضرمى . وفى سنة ١٧٣٩ استعيض منه بمحمد بن عثمان المزوروى .

وهنا روى المؤلف قصة ماحدث بين أهل عمان ونادرشاه الفارسى ، وكيف مات سيف بن سلطان ، وكيف تأدى الأمر بأحمد بن سعيد بن احمد بن عبد الله بن محمد بن مبارك أبى سعيدى الى ان أصبح اماما لعمان . وقد مضى القول بأن سيف بن سلطان كان قد أنفذ محمداً بن عثمان الى منبسة ليتولى الحكم عليها وذلك فى سنة ١٧٣٩ وان حضوره

جاء فى الوقت الملائم للقضاء على القلاقل والفتن وأنه حكم البلاد دون ان يلقى لهذا السبب معارضة من أحد وأن شيوخها وسكانها كانوا يحبونه ويجلونه . فلما اتصل بهذا الوالى نبأ جلوس الامام الجديد فى كرسى الأمامة أبى ان يقر له بالتبعية . وكان يقول فى تعليل مسلكه إن احمد بن سعيد لم يكن من الاسرة المالكة بل أنه مثله من أفراد الخلق ولاحق له على بلاد عمان ولا على منبسة ، واذا كان والى سحار قد اغتصب زمام الحكم والولاية على قطر عمان فماذا يمنع حاكم منبسة من الاقتداء به او ماذا يحول دون تملكه هذه الجزيرة ؟

ولقد نقلت هذه العبارة بنصها الى إمام عمان فعول على اقناع ذلك الرجل بالعدول عن نيته وأرسل اليه لهذا الغرض ستة من اعوانه المخاصين له برياسة سيف بن خلف ، فلما وصلوا الى منبسة عمدوا الى الدهاء والحيلة لمقابلة الحاكم حتى اذا التقوا به أفضوا اليه بأنهم من خصوم الأمام واعدائه وأنهم فروا من عمان فى طلب الخلاص منه ومن جوره ، وانهم اذا آثروا الحضور اليه فما هو إلا ليخدموه ويعاونوه فيما لو بغى القتال لاغتصاب صولجان الملك . ثم تصنعوا الفقر وسألوا محمدا معاونتهم على الذهاب الى كلوا والجهات

الاخرى من افريقيا ليجمعوا كلمة الانصار والمساعدين فقبل محمد بن عثمان هذا الاقتراح وأعجبه . فأخذ الرجال الستة يتهيأون للسفر ، وقبل اليوم الموقوت لرحيلهم قصدوا الى القلعة بحجة ظاهرها الرغبة فى توديع محمد ، فقابلهم هذا منفردا وبيناهم فى حضرته يحدثونه إذ انقض عليه أحدهم وضربه ضربة أصابه من جرائها جرح بالغ فلم يفقد محمد بن عثمان صوابه بل هجم على المعتدى وقتله فاحاط به الآخرون وبعد أن جردوه من السلاح أجهزوا عليه .

وفيما هو يلفظ الروح كان على بن عثمان اخوه قد وصل الى باب القلعة فالتقت به احدى زوجات محمد وكانت تلتمس مخرجا للفرار مع ابنها الصغير فوقف على بن عثمان منها على كل ماوقع لأخيه فتناول الولد منها وفرّ مسرعا نحو كنيسة برتقالية قديمة كان يسكنها وقتئذ أحد التجار الانجليز .

وبعد أن قتل سيف بن خلف محمد بن عثمان فى الظروف التى شرحناها قبض على أزمة الامور فأمر بسجن أعيان قبيلة الحاكم القتيل وهمّ بالقبض على أخيه علىّ ولكنه آثر أخذه بالحيلة والاستدراج فارسل اليه من يخبره بأن محمدا أخاه يود أن يراه ، ووعد الانجليزى عليا بأنه سوف يسعى

لوقايته من الهلاك فانصرف مطمئنا الى القلعة ولكنه ما كاد يتخطى بابها حتى زجّ فى السجن فاعترض الانجليزى على هذا الفعل ولكن معارضته لم تجد نفعا . عندئذ فكر فى الاستصراخ بذوى النجدة والمروءة والشوكة من أهل القبائل فتفاوض مع رؤساء كلنديني وقبائل وانيكا ، وكانوا ممن يعارضون سيفاً بن خلف ويسفهونه وينعون عليه سوء خطته ويجهرون باستيائهم مما حل بمحمد وذكرهم بانهم هم السبب فى أن الامام سيفاً أرسل بمحمد وأخيه على الى منبسة وان تصرفهم هذا أوجد بينهم ومشايخ قبيلة أمزارا روابط من شأنها أن تستنفرهم الى الاهتمام بموت رجل من رجالهم وبقاء آخر فى غياهب السجن ، فأثار بهذا القول عوامل البغضاء والكراهة الكامنة بين قبائل وامفيتا* وكلنديني ، ثم انتهى الامر بان تعاهد رجال القبيلتين على الأخذ بناصر على وأبرم الاتفاق على ذلك بين هؤلاء ورجال الحامية القديمة التى كانت لاتزال معسكرة بالحصن وأعوان الحاكم الجديد واتخذت التدابير لاخراج السجين . وقد تم لهم ذلك إذ أطلقوه من سجنه وذهبوا به الى قبيلة وانيكا بقرية أمريرا* فتمكن على فيها بمساعدة التاجر الانجليزى من تهيئة معدات الانتقام وتدابيره ووافته قبيلتا كلنديني ووانيكا بقوة كافية لمهاجمة

الحصن . ولقد هاجمه حتى استولى عليه بالرغم من مقاومة سيف بن خلف ورجاله وقتل رجال الحامية فى أثناء القتال . أما زعيمهم هذا فقد آل الأمر به الى التسليم فقطع رأسه أخذا بالثأر منه لمحمد .

ولما استتب الامر لعلى وتم له القبض على أزمة الامور نصبه الأهلون حاكما عليهم فترك للسكان كل ماغنمه من الأموال فى الحصن ولم يبق لنفسه غير الأسلحة والذخيرة . وأراد أن يوطد سلطانه ويعزز اركانه ويستميل أهل الجزيرة الى الاهتمام بامره والعناية بالمحافظة على ذاته فمنحهم هم وقبيلة وانيكا امتيازات عديدة لم يسبق لهم ان حصلوا على مثلها فى عهد اسلافه .

وقعت هذه الحوادث فى غضون سنتى ١٦٤٥ و١٦٤٦ وخرجت مدينة منبسة بانتخابها عليا بن عثمان من طاعة إمامة عمان وظلت كذلك ردحاً من الزمن .

وفى عهد ولاية احمد بن سعيد كان سلطان باتا فوم بكرى بن بوانا تامو الذى تقدم ذكره . ولما كان الاهلون راغبين عن الاعتراف بالأمام الجديد وكانوا يخشون ان يعاونه العرب المستوطنون للجزيرة على اخذها بما كان لهم من القوة والجاه فقد قتلوا فريقا ونفوا الفريق الثانى بعيداً

عن البلاد ، ولم ينج من اسرة نبهان غير الأطفال . وسنرى فيما بعد كيف أعيد الى هؤلاء حق الوراثة فى الملك . وبيان ذلك أن فومو بكرى قد تولى اعباء الحكم من بعده بوانا امكوهو الملقب بميلانى جنيومبى * ثم عزل واقيمت بدله ابنة تامو المسماة موانا ميمى * ثم الشيخ فوم عمر الذى كان يباشر الاحكام بالنيابة عنها على اعتبار أنه وزيرها . ولقد كان همه صد المطامع عن باتا وصيانتها من غدر الغادرين جهده .

وكان احمد بن سعيد موفقا بالجهات التى لم تتوافر فيها وسائط المقاومة والدفاع توافرها فى منبسة وباتا ، فقد كان لجزيرة زنجبار حامية بقيادة عبد الله بن جعد من أسرة أبى سعيدى . أما سلطان كلوا فكان معترفا فى الظاهر بسلطة الامام ، وأما شيخ مركة فقد أنفذ الى مسقط وفدا من اثنين من أعيان مدينته لينوبا عنه لدى الامام فى تقديم طاعته اليه ، وأما مقدشو وبراوة ولامو وسائر المدن التابعة لاقليم منبسة والواقعة الى جنوبها حتى بلدة كوافى * فقد أبت الاعتراف بالتبعية لاحمد بن سعيد ورفضت قبول سيادته عليها ، ليس لعداوة أو بغضاء فى نفسها للأمامة العمانية ، كلا ، فأن علاقاتها التجارية بالبلاد العمانية كانت لا تزال على حالتها الاولى من المتانة والوثوق كما كانت مع

الهند وثغور البحر الاحمر، وانما جاء امتناعها عن قبول سيادة عمان عليها وانضوائها تحت لوائها من ناحية أن أحوالها الداخلية لم تكن قد استقرت على قاعدة ثابتة على أثر زوال السلطة الاجنبية منها بسبب ما شجر فيها من المنازعات والفتن الداخلية . فانه ما كاد يقبض على زمام حكومة منبسة حتى نشبت الحرب بينها وحكومة باتا بشأن جزيرة پمبا التى كانت تابعة لباتا . وبيان هذا ان سكان پمبا لم يرتضوا بولاية فوم عمر وزير سلطانتهم موانا ميمى على أمورهم ومصالحهم فسألوا حاكم منبسة أن يقبلهم تحت حكمه فأجابهم على بن عثمان الى طلبهم وبادر بارسال قوة من جيشه الى پمبا وتمكن بمساعدة سكانها من طرد أعوان فوم عمر وجنده ونصب فيها حاكما خاله خميس بن على من أصحاب الرياسة . فتأذى رجال قبيلة وامفيتا من هذا التدبير الذى كان سيفضى حتما الى توطيد سلطة منبسة على بلدهم .

وكان هؤلاء الرجال يحسدون من جهة أخرى قبيلتى وكانديني ووانيكا بمناسبة الامتيازات التى منحت لهما ويعتقدون أنه ما دامت تلك الاسرة قابضة على زمام الامر فى البلاد فلا أمل لهم فى الحصول على حقوقهم القديمة، لذلك انتهزوا فرصة سقوط پمبا فى يد على بن عثمان ليحرضوا عليه

وزير باتا . وقصد فريق منهم الى فوم عمر يقترح عليه قبول المساعدة من قبيلتهم لاسترداد ما انتزعه على منه وتحركت من باتا على أثر ذلك دونمة صغيرة الى كلنديني فوصلت اليها ورست جنوبيها . وهجمت قوة باتا فاستولت عليها وأحرقتها فلاذ سكانها بما خلف أسوار المدينة البرتقالية القديمة المسماة جاقانا*

وكان رجال قبيلة وكلنديني ممتنعين بالحصن ولكن معاونة وامفيتا لاهل باتا مهدت لهؤلاء سبيل الدخول فى الحارة القديمة (منبسة القديمة المسماة فى المصورات الجغرافية البرتقالية بالمدينة السوداء) . عندئذ بدأت المفاوضات مع على ودامت ثلاثة أيام أخلى المغيرون بعقبها المدينة وعادوا أدراجهم الى باتا . ولا يدرى أحد أقنعوا بما وعدهم به الحاكم أم حصلوا منه على شيء فى مقابل رضائهم بالانسحاب .

أما على بن عثمان فبعد أن وطد سلطته على منبسة والجهات التابعة لها شرع فى تجهيز حملة على زنجبار بقصد أن يضمها الى أملاكه وينتقم فى الوقت نفسه من احمد بن سعيد الذى كان القابض على زمام حكومتها ، وكان موقع جزيرة بمبا التابعة لمنبسة فى جوار زنجبار مما يهون عليه قضاء هذا المأرب فعهد الى مسعود بن ناصر تجهيز تلك الحملة . وكان

هذا الرجل ابن عم على وكان علىّ قد جعله منذ زمن حا كما على بمبا خلفا لخميس بن على المتوفى ، فلما وصلت القوة التى حشدت من رجال منبسة وبمبا الى قرب زنجبار برياسة على ابن عثمان ومعاونة خلف بن قضيب ولد أخيه ومسعود نزلت الى البر . ولم يمض طويل زمن حتى هاجمت مدينة زنجبار واستولت على الشطر الاكبر منها بحيث لم يبق فى حوزة المدافعين عنها سوى الحصن الذى اليه لجأوا والقسم المحيط به . وكاد على يفوز بالنجاح فى مغامرته لأن المدينة هوجمت على غرة من أهلها ولأن شدة الرياح كانت تحول دون وصول النجدات من مسقط اليها . ولكن حرص مسعود حول النتيجة الى عكس الوجهة المرجوة .

وبيان ذلك انه لم يكن لعلى ولد فكان لابد ان تقع مقاليد الحكم من بعده فى قبضة مسعود . فودّ هذا ان يستعجل المستقبل وحدثه وسواسه باغتصاب الملك فأخذ يخدع خلفا بن قضيب ويستميله ويغريه بقتل على بن عثمان حتى قتله بعد أن ظل مستقرا فى الحكم ثمانى سنوات أى الى سنة ١٧٥٣ .

وحدث عقيب ذلك أن انقسم الجيش على بعضه وأن اشتبه الناس فى ذمة خلف ومسلكه فطالبه رؤسا الجند

بأن يطلعهم على حقيقة الواقع . واجتمع مجلس للتحقيق فبرز من بين الحاضرين شيخ من مشايخ قبيلة واسيجيو ، وكان من أصدقاء على فقتل خالفا فعاد مسعود بالسفن بعدئذ الى منبسة ، وهناك عرض عليه الملك فأبى قبوله بحجة أن قريباً له اسمه عبد الله بن زاهر أكبر منه سناً وأحق منه به غير أن عبد الله هذا أبى قبوله أيضاً فاضطر مسعود الى الرضى بما كان امتنع عنه وعهدت اليه الولاية .

وفى مدة حكمه حدثت فتن داخلية بباتا كان من نتائجها أن ثارت المنازعات من جديد بين سكان هذه الجزيرة ومنبسة واستحكمت عقدة الخلاف بين موانا ميمى ووزيرها فوم عمر . وكان المفهوم والمتداول على الالسن أن الوزير يبغى التزوج منها ليعزز بالقانون والشرع سلطته ويوطد مركزه فامتنعت موانا ميمى ورغبت فى أن تبعده عن البلاد بارساله الى أهل بروه لاخضاعهم ولحسم النزاع القائم بين مشائخهم وسلاطين باتا بشأن السيادة على جهة الجب . وكان فوم ألوت* شقيق موانا ميمى قابضا على زمام الامر فى غيبة فوم عمر ، فلما عاد هذا من بروة وأراد أن يتقلد منصب الوزارة أبى فوم ألوت أن يتنحى له عنه فثارت بين الطرفين ثائرة النزاع واستنجد كلاهما بمسعود فأرسل هذا الى باتا

جنداً بقيادة احمد بن محمد وكانت النتيجة أن حاكم منبسة انحاز الى فوم ألوت دون أن يستطيع مؤازرته على خصمه ودام القتال خمس سنوات أسر فوم عمر فى خلالها وجىء به الى منبسة ثم نجا وعاد الى باتا ولكنه لم يلبث أن قتل بها فنصب فوم ألوت سلطاناً بشرط أن يعترف بسيادة حاكم منبسة الذى اتخذ وزيراً له عبد الله بن مسعود البحورى ثم استعاض منه بخلف بن ناصر فلم يقم بفروض منصبه على ما ينبغى . والى القارىء بيان ما وقع من الحوادث .

كان للسلطان فوم ألوت أخ اسمه فوم عمادى اشتهر بالميل الى سفك الدماء . وكان يحسد أخاه على مركزه ويفكر فى استخلاص باتا من سلطة منبسة . وكان أنصاره من رجال قبيلة بادجوجنى أو واجوجنى* سكان بازا احدى مدن الجزيرة ، فثار البادجوجنى فقام عليهم خاف وفوم ألوت فقتلا فى أثناء المعركة وبقى فوم عمادى وحده فنصب سلطانا وعهد اليه السعى لاستخلاص باتا فلم يكن من سلطان منبسة الا أن أمر بقتل بادى سليمان وكيل سلطان باتا فى يمبا .

أما فوم عمادى فكانت توليته فى الايام الاخيرة من سنة ١٧٧٤ وتوفى مسعود لعداوات طرأت بين البلدين وخلفه عبد الله بن محمد فلم يقع فى مدة حكمه التى ظلت سبع سنوات

حادث يستحق الذكر . ويعلم مما مكتوب على قبريته بمدينة منبسة أنه توفى فى يوم الاربعاء ١٢ محرم سنة ١١٩٧ هجرية أى ٨ ديسمبر سنة ١٧٨٢ ميلادية . فلما أراد أهل البلاد أن يتخذوا له خلفاً شجر النزاع بين قبائل إمزارا التى كان من بينها ثلاث عيلات شهيرة هى عيلة على وقضيب وعيلة عبد الله بن زاهر وعيلة مسعود . فكان أنصار العيلة الاولى يمنعون تولية احمد بن محمد وكان ابن أخى على بن عثمان ، واشياع العيلة الثانية من حزب سالم بن عبد الله ، أما حلفاء العيلة الثالثة فكانوا يفضلون عبد الله بن مسعود على الاثنين السالفى الذكر. وبعد أن بلغ الخلاف أشده اتفقت الاحزاب على تولية احمد بن محمد واعطائه نصف الدخل وقسمة النصف الآخر بين ذينك الاثنين وان يكون أحدهما وهو عبد الله حاكما على پمبا والآخر وهو سالم حاكما على جرياما* غير أن خصمى احمد رفضا الموافقة على هذا الحل وتعاضدا على العمل لانتزاع صولجان الحكم من يده . ولقد كادا يستوليان على حصنه لولا أن رجاله وأعوانه تمكنوا من صد المهاجمين وإلحاق الخسائر الفادحة بهم والزام الخصمين بالفرار الى زنجبار حيث تفرغا لاعداد حملة على پمبا .

فلما علم احمد بسعيهما أنفذ ابن عمه سليمان بن على فى

جملة من أعوانه للاستيلاء على هذه الجزيرة . وكان الغرض الحقيقى من سفيها الهجوم على منبسة ، فزحف احمد على الجزيرة فى الوقت الذى كان سليمان بن على يقصد فيـه الى پمبا . واتفق ان هبت العواصف ، وكانت سفن سليمان تسير على مهل بالقرب من السواحل وكانت قد وصلت الى جاسى * لأن الماء نفذ منها فاضطرت الى الرسو فى مياهها . ولقد نزل منها بعض رجالها الى البر للبحث عن الماء فالتقوا بلفيف من الثوار كانوا يقصدون برا الى منبسة وحدثت معهم مناوشات صغيرة علم سليمان بخبرها فعجل بالعودة الى منبسة وأخبر احمد بما وقع .

وكان أولئك الاعداء قد وصلوا الى منبسة فاستولوا على كلنديني بعد أن قتلوا قاسم بن جمعة المعمرى قائد حاميتها ولكن قوات احمد هجمت عليهم فانهزموا واتجهوا فى فرارهم نحو جرياما وامطاوة * ، فانقض عليهم رجال قبيلة وانيكا النازلون بهاتين القريتين وذبحوا زعماء الثوار ومنهم عبد الله وسالم وارسلوا برؤوسهم الى حاكم منبسة وانتهى الامر بموت هذين الرجلين وبالنصر لاحمد .

غير أنه حـدث بسقط على أ ر ذلك حوادث أخرى كانت نتيجتها أنه أصيب فى شخصه واستقلال مدينة

منبسـة بما كان يخشى بأس وقوعه . اذ بينما كانت الحوادث السابقة يتعاقب وقوعها ببلاد الساحل الشرقى لافريقيا كان احمد بن سعيد يرفض التـدخل فى شؤونها ، لأن توطيد أركان الأسرة الجديدة الحاكمة على مسقط كان يسـتدعى همة خاصة بالنظر لما كان واقعاً وقتئذ من التنافس وناشباً من الحروب بين انجلترا وفرنسـا فقد كانت المعارك لا تكف بين أساطيلهما فى ميناء مسقط . أضف الى ذلك ما كان قائما من المنازعات بين احمد بن سعيد وكريم خان الحاكم الفارسى الذي زحف على عمان بعد مداهمته البصرة فكان هذا وذاك مما استفز الامام الى التأهب للذود عن المدينة . وقد نشأ عن هذه الحوادث ان اضطر احمد الى البقاء بالخليج الفارسى لمعالجتها نظرا لاهميتها وخطورتها بالنسبة الى غيرها .

وقد اكتفى بأن يكفل استمرار التجارة فى جميع الاصقاع الواقعة على سواحل أفريقيا الخـاضعة لسلطانه والمعترفة بسيادته . وقد كان لهذا السبب يرسل اليها فى كل سنة ثلاث سفن أو أربعا لتجلب الى مسقط العبيد والذهب والعاج وسائر الحاصلات التى يمكن الحصول عليها بتلك الاصقاع وفى جهات كلوا وزنجبار . أما الجهات التى لم تكن تابعة له فقد كان يرى بشأنها انه مادامت العلاقات قائمة بينها

وعمان فلا حاجة الى التدخل فى شؤونها السياسية . وقد ظلت الاحوال على هذا المثال حتي مات الامام فى اوائل سنة ١٧٨٤ ميلادية بعد انتخاب احمد بن محمد حاكما على منبسة بعام واحد الا أنه لم تلبث الاحوال ان تغيرت بعد قليل اى عقب تولية خلف لأحمد بن سعيد وهو سعيد بن أحمد اكبر ابنائه . وكان سيف بن احمد اخو الامام الجديد طامعا فى الملك طامحا الى تقلد الحكم فتراءى له أنه يستحيل ظفره ببغيته وهو مقيم ببلاد عمان فحشد جنوده ونزل بهم فى السفن قاصداً الى ساحل أفريقيا للاستيلاء على زنجبار والأملاك التي كانت تابعة لعمان .

فلما وصل الى زنجبار فى مستهل عام ١٧٨٤ ميلادية وكان حاكمها خلفان بن احمد طلب منه التنزل له عن الملك والاعتراف له بالحكم فرده خلفان وأبى ان يجيبه الى طلبه فنزل سيف ورجاله لساعته الى البر فى أقصى نقطة من الحصن . وكان خلفان قد التجأ اليه مع الحامية ومنه كان يتحكم فى شطر المدينة الذى أقام سكانه على الولاء للامام . فلم تمض أيام حتي ضعف حزب الحاكم وزادت قوة سيف وكاد يتمكن من الاستيلاء على الحصن ، وانما حدث ان وصلت الى منبسة فى أواخر تلك السنة سفن لصاحب مسقط

بقيادة احمد ابن الامام فتغيرت الاحوال وتقابل سلطان أخو سعيد بسيف وأقنعه بأن مقاومته لاتجدى نفعا فقرر سيف الخروج من زنجبار منسحبا الى لامو وفيها توفى بعد زمن قليل .

ولم يكن الغرض الذى يرمى اليه سعيد بأرسال السفن الى ساحل أفريقيا العمل على عرقلة مساعى أخيه وإحباط مشاريعه فقط بل أيضاً على توطيد سيادته بالجهات الساحلية كلها وهى التى كان أهلها قد أعلنوا استقلالهم فى عهد أبيه احمد بن سعيد . وبعد أن وطد احمد سلطة سعيد بزنجبار قصد الى منبسة بسفينة واحدة ونزل الى البر فى ٢٠ يناير عام ١٧٨٥ دون أن يعلم بأمره احد لأنه تحرز من اخطار أحد بقدومه وأراد بذلك استكناه حقيقة آراء الاهلين فى الحاكم . ولكن أحد الاعراب الذين يعرفونه فى عمان من قبل تبينت له حقيقته فأفشى سره وعلم الناس خبر حضور ابن الامام فخرج الحاكم للقائه بعظماء حاشيته وبذل له من مظاهر الترحيب والاكرام الغاية ثم جاء به الى داره حيث نهض احمد واقفا فى الجمع الحاشد ووجه الخطاب الى الحاكم سائلا اياه : « لمن هذه المدينة ؟ » فأثر هذا الاسلوب الكلامى فى نفس الحاكم فأطرق مليا ثم أجاب قائلا : « ان المدينة ملك

للامام » ولكن احمد لم يكتف منه بهذه الأجابة الشفوية بل دعاه الى تدوينها بالكتابة والتوقيع عليها فأذعن بالرغم من معارضة بعض أقربائه الا أنه لم يأذن لأحمد بدخول الحصن. وعلى كل حال فقد برح احمد بن سعيد منبسة وبيده الصك المتضمن إقرار حاكم منبسة بخضوعه وطاعته للامام . وكان احمد قد انتوى ان يتخذ فيما بعد التدابير اللازمة اذا استدعتها الحال .

أما جهات باتا فالظاهر أن الاحوال بها كانت على ما يرام وانها كانت سائرة على ما يشتهي الامام لأننا لم نجد في تاريخ اعمال الاسطول ما يستفاد منه انه اضطر الى اتخاذ أى تدبير حربي بل الذى علمناه أنه فى سنتي ١٧٧٦ — ١٧٧٧ أى بعد تولية فوم عمادى بعامين كانت جزيرة باتا وملحقاتها خاضعة للامام بفضل الجهود التي بذلها ناصر ابن محمد من قرابة أبي سعيد . وكان الامام قد ندبه لهذه المهمة. وعلمنا من بعض ماجاء فى تقرير سولنييه دى مونديفي * قومندان السفينة لاپريفويانس الذى زار زنجبار عام ١٧٨٦ أن الجهات الساحلية الواقعة بين منبسة ورأس دلجادو كانت معترفة بسلطة الامام .

وعلى هذا النمط ظلت سلطة سعيد وطيدة على الساحل

كله بعد ان كان خاضعاً للائمة من الاسرة اليعربية ودامت الحال كذلك ما بقى الامام صاحب عمان على قيـد الحياة . وكان هـذا الامير دمث الطبع كريم الاخلاق لين الجانب متديناً كيسـا قادراً على ادارة الشؤون الدينية والدنيوية باباقه وحصافة رغما من الفتن التي كانت تنتاب البـلاد بين حين وآخر ، إما لافتتان الاهالى بالثورة وأنسهم بها وإما لما يشجر من النزاع والخصومة بين أعضاء الأسرة الحاكمة . ولقد دامت الاحوال على هذا المثال فى عهد ابنه الذى خلفه ، لأنه وان توطدت سلطة الامامة واستقر فى نفوس الاهلين احترامها فقد حدث بعد الحملة السـالفة الذكر ان توفى احمد بن الامام سعيد فـكانت وفاته عنوانا على استعار نار الثورة من جديد وخلفه سلطان بن احمد ، وكان من اكثر اخوة سعيد ارتقابا لها وتوقعاً لنتائجها لأنه كان فى الواقع المدبر لها كما كان من أشـد الناس ميلا الى الثورة بنزعته الحربية التى كسبها باقامته منـذ نعومة اظفاره بين عشائر البدو الذين اتخذ لنفسه منهم انصاراً واحزابا شديدى البأس وبلغ من استقرار الميول الثورية فى نفسه ان فكر يوما فى اغتصاب صولجان الملك من يد أبيه .

وهنا شرح المؤلف كيف أخذ سلطان مسقط واستولى

على كشم وهرموز وجزائر البحرين وكيف حارب الوهابيين وحالف عليهم والي بغداد دفعاً لبأسهم وتقية أذاهم وكيف قلب لهذا الوالى ظهر المجن مناصراً لسعود أمير الوهابيين وكيف مات فى طريقه الى كشم أو بندر عباس فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٠٤

وشرح المؤلف أيضاً ما حدث بين ولدى سلطان والوهابيين وما آل اليه أمرهما من الاقرار بالطاعة لاعدائهما ثم عاد الى الكلام على أفريقيا الشرقية فقال :

ان تعاقب أبناء أولاد أحمد على حكم عمان وشبوب نار الفتنة فى هذه البلاد من جرائها لم يتركا أثراً ما فى البلاد الافريقية التابعة للامام . ففى عهد سعيد بن سلطان لم يحدث تغيير ما فى أحوال باتا ومنبسة وزنجبار وكلوا . وكان والى منبسة هو الشيخ احمد بن محمد كما كان فوم عمادى والياً على باتا. وكان هذان الشيخان قد اعترفا بسلطة الحاكم المتولى على عمان وظل حاكم منبسة سائراً على الخطة التي سار عليها فى عهد أسلافه ، فلما توفى فوم عمادي فى ٢٨ يناير سنة ١٨٠٧ ساءت العلاقات بين باتا ومنبسة وبين منبسة وعمان . وعند ما شرع الناس يختارون خلفاً لفوم عمادى انشق أهل باتا ومايتبعها من البلاد على أنفسهم وانقسموا الى حزبين حزب

يعضد فوم ألوت بن السلطان المتوفى وحزب يبغى انتخاب وزير صهر السلطان وابن فوم ألوت الذى قتله فوم عمادى . ولما لم يتفق الطرفان طلبا من شيخ منبسة التحكيم فتدخل بينهما فى بادىء الامر كوسيط ليس غير إذ أنفذ وفداً مؤلفاً من ثلاثة رجال فلم يستطع أن يقنع الخصوم ولا أن يرضيهم فاعتمد احمد بن محمد فى حسم النزاع على قوة السلاح وشد أزر وزير ثم تسلم قيادة الحملة التى جهزها وتحرك قاصدا الى باتا، وما هى الا مناوشة قصيرة حتى تمكن من حمل الناس على انتخاب احمد سلطانا عليهم ثم عين علياً بن عبد الله نائباً من قبله لان حاكم باتا الجديد ارتضى أن يكون والياً تابعاً لحاكم منبسة وجىء بعد ذلك بفوم ألوت وزج به فى السجن والمشهور أنه قتل فيه . أما أنصاره فقد لاذوا بجزيرة لامو وأغروا أهلها بالاعتراف بحاكم باتا الجديد فجنحوا الى الثورة والاضطراب فزحف شيخ منبسة عليها عندئذ وحاصرها وكاد يستولى عليها . وكان قد وصل الى أحد أبواب السور ، وانما خرج عليه أهل البلاد واضطروه الى الانسحاب واقتفوا اثره وقتلوا كثيراً من أعوانه ونجا مع الباقين فراراً الى ساحل البحر حيث نزلوا فى سفنهم واقلعوا بها . وكان وقوع هذه الحوادث فى المدة بين سنتى ١٨٠٧ و ١٨١١ ميلادية

وكان سكان لامو يفكرون فى تحصين مدينتهم من عدوان أهل منبسة فاستنجدوا بالسيد سعيد وسافر عبد الرحمن بن نور الدين من أعيانها الى مسقط لهذا الغرض فقبل الامام بأن يرسل خلف بن ناصر الى لامو واليا عليها. فلما وصل هذا المندوب الى لامو أمر ببناء حصن للدفاع عن المدينة عند الحاجة ثم لم يلبث أن حل محله عروس بن كليبي وخلفه بعد زمن محمد بن ناصر البو سعيدى فتم بناء الحصن على عهده.

وفى غضون هذه الحوادث توفى احمد بن محمد بن عثمان حاكم منبسة بعد هزيمته أمام لامو بثلاث سنوات. وقد وجد مكتوبا على قبريته أنه توفى فى ليلة الجمعه ٢٣ ربيع آخر سنة ١٢٢٩ هجرية (يوم الخميس ١٤ ابريل سنة ١٨١٤). وقد خلفه ابنه عبد الله وكان طاعنا فى السن، ولكنه كان بطلا هماما وشجاعا مقداما بل كان الاجماع على انه اشجع رجل فى الاسرة الحاكمة. وما كاد يتولى الحكم حتى أظهر الرغبة فى الاستقلال وشق عصا الطاعة على امام مسقط، فامتنع فعلا عن ارسال الهدايا اليه جريا على خطة اسلافه فلما طولب بها ارسل درعا وقبالة* وبعض البارود والرصاص فلما وصلت الهدايا الى الأمام السيد سعيد فهم المراد وتوعده بالانتقام

منه متى سنحت الفرصة . اما عبد الله فعمل على توثيق علاقته بالحكومة الانجليزية فى بلاد الهند وجهر برغبته فى زيارة بمباى ، ولكن سفينته اصيبت بثقب نفذ منه ماء البحر فاضطر الى الرسو على مركه ، وكان اهلها غير راضين عن حكومة منبسة وشجر خلاف بين السكان ورجال عبد الله فى هذا الصدد فهجم هؤلاء على المدينة ونهبوها . ولما وصل الى بمباى اكرم حاكمها وفادته وبذل المجهود فى ملاطفته وظلت علاقاتهما حسنة من ذاك العهد .

وقد كان من نتائج سياسة عبد الله الحاذقة وجرأته فيما اتخذ من التدابير ضد السيد سعيد وتغلبه فى آخر الامر على سكان مركة أن ذهب له صيت فى البلاد الساحلية بالقدرة والبأس وأخذ أهلها يحتمون به ويلجأون اليه كلما شجرت بينهم الخصومات . ومن ثم دعى الى التحكيم بين رجال القبائل المختلفة القاطنة بجهات بروه فى خلاف نشأ عن سبب تافه وهو ان امام الجامع توفى فاراد الطرفان المتخاصمان من قبيلتى البيضاء والحاتمية ان يكون الأمام منه . وكانت القبائل السومالية متحيزة تارة الى طرف وطورا الى الطرف الآخر وتبعا لهذا التحيز انقسمت الأمة شطرين وذهب الحاج رفاعى شيخ الحاتمية الى منبسة ليطلب من عبد الله المعونة

على خصمه واعدا إياه بخضوع المدينة له واقرارها بسيادته فانفذ حاكم منبسة معه قوة صغيرة كان من نتائج تدخلها فى الأمر أن ادعى أحد أخلاف عبد الله بحق السيادة على بروه .

وفى خلال هذه المدة طرأ على حكومة باتا مابدل من أحوالها فأن أصغر ابناء فوم عمادى وهو بوانا شيخ كان قد ذهب الى مسقط فى الوقت الذى انتصر فيه وزير أى ساطان احمد وسأل السيد سعيد معاونته على هذا المغتصب ثم عاد الى باتا ومعه بعض جند الأمام . فما كاد قائد هذه القوة يصل الى ذلك البلد حتي هاجم ساطان احمد وألزمه الفرار الى داخل القارة ونصب بدلا منه بوانا شيخ ساطانا على باتا تحت سيادة السيد سعيد وتلقب الساطان الشاب بلقب فوم ألوت السرير (اى الصغير أو الشاب دفعا للاشتباه بين اسمه واسم اخيه الاكبر فوم ألوت الذى سبق الكلام عليه) غير أن الوقت لم يطب له اذ قام من اقارب سلطان أحمد من يناوىء فوم ألوت العداء فاستنجد هذا بأهل منبسة فأغاثه عبد الله بن احمد ، ولكن فوم ألوت لم يلبث ان اضطر الى الاعتراف بسياده خصمه عليه .

ولم تطل حياة فوم ألوت السرير بل عاجلته المنية وبموته

شب ضرام الخلاف بين ابنه بوانا كومبو بن شيخ ووزير
الذى كان فوم ألوت السرير قد حاربه . فعضد حاكم منبسة
الشيخ الجديد بنفس الشروط التى كان اشترطها على ابيه
وبهذه الكيفية تمكن بوانا كومبو من الاستيلاء على زمام
الحكم ، الا أن هذه الحماية أضرت فيما بعد بصالحه ولم تفده
ذلك لأن أنصار خصمه استنجدوا بأمام عمان وكان غير
راض عن أهل منبسة وناظرا بعين السخط الى اتساع نطاق
نفوذها منذ قبض عبد الله على زمام امورها ، فعول على
معاملتها ، بسبب حوادث باتا التى سلفت الاشارة
اليها ، معاملة الخصم اللدود . وارسل من وقته الى موانا
كومبو أمرا بالتخلى عن حكومة باتا ، وكتب الى عيد الله
يسأله الخروج هو وجنده من منبسة ، فأبى عبد الله
الانصياع لهذا الامر فأرسل السيد سعيد الى باتا فى سنة
١٨٢٢ ميلادية اسطولا بقيادة الأمير حماد بن احمد البو -
سعيدى فرست السفن على براوة حيث تزودت ما يلزمها
من الماء ثم انزلت قوة من رجالها وطلبت من سكانها
الاعتراف بسيادة السيد سعيد عليهم فنصح الحاج رفاعى
شيخ الحاتمية ألا يعرضوا أنفسهم للأذى والاضطهاد من
رجال الامام فكتب شيوخ بروه صكا ووقعوا بقبولهم سيادته

ثم وافوا قائد الجنود بهدية من العاج فسافر الامير حماد الى باتا فوجد بها الجيش الذى أنفذته منبسة لنجدة فوم ألوت على جيش مسقط الذى بقيادة مبارك أخى عبد الله . وتغلب ذلك الجيش على حماد بادىء ذى بدء ولكن الذخائر والمؤن كانت نفدت من جيش منبسة وهى توافيه من بمبا ومنبسة فامتنع ورودها لهبوب الرياح الشمالية وتعذر المواصلات بسببها بين هاتين الجهتين وباتا فتمكن حماد من التضييق على تلك القوة فقال مبارك قائدها ان السواد الاعظم من سكان باتا قد طلب من تلقاء نفسه الخضوع لحكم السيد سعيد ، فاذا هو ظل مؤازراً للسلطان الثائر فلا يكون الا مخطئاً . ومن ثم تنحى عن القيادة والتجأ الى منبسة فوقعت المدن الثلاث باتا وسيهوى وبازا فى قبضة حماد وأصبحت الجزيرة خاضعة له ، فنصب عليها ابن الوزير السابق الذكر حاكما بناء على رغبة الامام السيد سعيد فتلقب شيخ باتا الجديد باسم السلطان احمد السرير .

ولم يكن لانتصار حماد بباتا تأثير خطير فى منبسة ولكن نتيجته كانت ضرراً عليها . ذلك انه لما اتصل بمحمد بن ناصر حاكم زنجبار الذى قلده السيد سعيد الحكم ان الأمير حماد وصل الى باتا جهز حملة على بمبا أهم ممتلكات منبسة ثم انتهز

فرصة غياب حاكم هذه الجزيرة فى زيارته السنوية فاستولى عليها من غير قتال . ولما اتصــل بعبد الله بن احمد هذا الخبر أرسل جنداً بقيادة مبارك وثلاثة من اخوته للاستيلاء على بمبا . وقد رست سفن هذه الحملة فى مياه قرية سيزينى* الواقعة شمالى الجزيرة فتركها مبارك فى حراسة بعض رجاله وتقدم بجيشه قاصــداً الى الجهات التى كانت محتلة بالعدو . وفى أثناء القتال وصلت سفينة زنجبارية كبرى مؤهبة بالسلاح الى تلك القرية فاستولت على سفن الحملة . ولما أخفقت مساعى سكان منبسة واخطأتهم الفائدة التى كانوا ينتظرونها من القتال ورأوا خط الرجعة مقطوعا عليهم اضطروا الى قبول شروط القاهر المتغلب ولم يتمكن مبارك من انقاذ رجاله ونقلهم الى القارة إلا بعــد أن وقع على عقد تنازل لسلطان مسقط عن جزيرة بمبا

وكان هناك رجل يدعى ناصر بن سليمان المسكرى احرز ثروة واسعة وجاها كبيراً بمساعدة أسرة إمزارانخانهم واتحد مع شيخ زنجبار لينتزع الجزيرة من أيديهم وجوزى على هذا العمل بتعيينه حاكما على بمبا التى أصبحت منذ هذا اليوم تابعة لزنجبار .

فلما نقل مبارك ورجاله الى فونزى* وهى نقطة على

الساحل بين واسين وشالى* عادوا براً الى منبسة وعلم عبدالله بما وقع وكان مريضا فاشتد عليه المرض حزناً وكمداً وعاقب اخوانه على ما فرطوا فيه وأنحى عليهم بما اضطرهم الى تقرير العودة الى بمبا ليعوضوا على أنفسهم بعض ما خسروه .

ولم تكن لديهم سفن فساروا براً حتى وصلوا الى تنجاتا وهى ثغر صغير من ناحية القارة مقابل جزيرة بمبا . وكانت به قوارب صالحة للانتقال بواسطتها الى الجزيرة فنزلوا فيها وعبروا البحر اليها ليلا وهبطوا أرضها وقاتلوا أياما عديدة . وفى خلال المدة التى انقضت بين هذا الهجوم وانسحاب المحاربين فى المرة الاولى انضمت قوة من رجال الامير حماد الى قوة زنجبار لدرء حوادث التعدى من أهل منبسة .

ولما رأى مبارك وأخواه أن جهودهم قد ذهبت ضياعا تراجعوا للمرة الثانية ولم ينالوا بغيتهم ، وما كادوا يصلون الى بلادهم حتى مات أخوهم الاكبر . وقد وجد مكتوبا على قبريته أن وفاته كانت فى ١٢ رمضان سنة ١٢٣٨ هجرية أى الاثنين ١٢ مايو سنة ١٨٢٣ ميلادية .

وكان سالم أخو المتوفى خليفته الشرعى فى الولاية لأنه اكبر أبناء احمد ، غير أن مباركا نازعه الولاية وكان يخشى

أن يغتنم الامام السيد سعيد هذه الفرصة ليقضى على منبسة. فلما رأى أعضاء أسرة إمزارا أن الطرفين متمسك كلاهما برأيه اتفقوا على تنصيب سليمان بن على حاكم بمبا سابقاً وعم المتنازعين فاستتبت السكينة فى البلاد عقب ذلك.

غير أن سليمان لم يكن قادرا لضعفه وطعونه فى السن على ان يحفظ لمنبسة سيادتها على الجهات الساحلية الأخرى التابعة لها ولا على مناهضة الامام السيد سعيد وممانعته فى تنفيذ مشروعاته فبعد أن أخضع الامام باتا ولامو وبروه وبمبا لم ير مانعا من إخضاع منبسة أيضاً لأهميتها الحربية. وكان المشهور فى هذه المدينة ان السيد سعيد يفكر فى محاصرتها وانه يجهز بمسقط سفنا لغزوها وأن الأوامر صدرت الى جميع الموانىء التابعة له بألا تسافر منها سفن الى منبسة. وفى هذا وحده مايجعل مركز تجارة هذه المدينة حرجا خصوصا وقد ضاعت من يدها جزيرة بمبا المشهورة بخصوبة أرضها ووفرة حاصلاتها التى كان المنبسيون يمتارون بها لانفسهم ويعلفون دوابهم. وكانت هذه المدينة صالحة فى الواقع لصدهجمات السيد سعيد ولكنها ما كانت لتستطيع منع ضرب الحصار عليها تجاه القوة البحرية الضخمة التى ساقها الأمام اليها. ومعنى وضع الحصار عليها الالقاء بها الى

التهلكة بمنع الميرة والمؤونة عنها ، وهو خطر تراءى لسليمان حاكمها ان يدرأه عنها بالاتفاق مع أعيان البلاد على الاستنجاد بالانجليز . وكان القبطان أوين* فى تلك الآونة يشتغل بسبر أعماق البحر على مقربة من السواحل . فسواءاً كانت استغاثة المنبسيين به صحيحة أم غير صحيحة فان الحقيقة التى لاجدال فيها هى أن احدى السفن الانجليزية المسماة براكوته* المعقودة اللواء للربان فيدال رست فى مياه منبسة يوم ٣ ديسمبر سنة ١٨٢٣ فذهب اليها مبارك فى اليوم التالى فى حاشية كبيرة وسأل ذلك الربان باسم عمه حاكم المدينة وبالنيابة عن سكانها جميعا رفع العلم الانجليزى على الحصن وان تكون المدينة والاراضى التابعة لها تحت حماية جلالة ملك بريطانيا العظمى . والذى يفهم من تقارير الربانين أوين وبوطلر فى هذا الموضوع أن فيدال رفض ما اقترحه عليه شيخ منبسة ولكنه وعد بمخابرة رؤسائه بحكومة الكاب أو حكومة بمباى او حكومة جزيرة موريس .

والمفهوم مما حدث بعد أن رفض الربان الانجليزى طلب الوفد المنبسى المومأ اليه ان الرفض أفضى بأهل منبسة الى التفكير فى الأمر بحسب ما يعنّ لخواطرهم . ولقد أبحرت السفينة الانجليزية من مياه منبسة فى ٧ دسمبر ، فلم يكن الا

القليل من الزمن حتى ظهر اسطول مسقط أمام المدينة تحت إمرة عبد الله بن سليم وتقدمت سفينتان كبيرتان منه الى داخل المخاضة بين الجزيرة والقارة ورستا فيه معلنتين وضع الحصار ومنع الاتصال بين الجهتين . ومن المحتمل ان يكون اهل منبسة قد رفعوا العلم البريطانى على الحصن حينما لاحت لهم سفن ذلك الاسطول . وكان لايزال مرفوعا عليه عندما وصل الربان أوين الى ثغر منبسة فى ٧ فبراير سنة ١٨٢٤ بالسفينة ليفن* . وما كاد هذا الربان يلقى مراسيه حتى شرع فى مفاوضة اولياء الأمر بالمدينة صارفا النظر عن الاسطول العربى المحاصر لها . وفى اليوم التالى عقد اتفاق بين الطرفين الانجليز والمنبسيين أصبح ثغر منبسة بمقتضاه مع الاملاك التابعة له ، وهى جزيرة پمبا والاراضى الواقعة بين ملندة ونهر بنجانى* تحت حماية انجلترا بالشروط الآتية :

تتعهد انجلترا بأن تعيد الى منبسة أملاكها التى كانت لها من قبل .

أن تكون الولاية على تلك المملكة لشيخ من أسرة إمزارا وان تكون وراثية فى أبنائه .

أن يعين وكيل سياسى من قبل الحكومة الحامية لدى الوالى .

أن تقسم الرسوم الجمركيـة مناصفة بين الطرفين المتعاقدين .

أن يسمح للانجليز بالاتجار فى داخل البلاد .

ابطال النخاسة فى البلاد منذ الآن فصاعدا .

والظاهر أن قائد الاسطول المحاصر بدلا من أن يتحفز للاحتجاج على تدخل الربان أوين فى الأمر قصـد اليه فى سفينته وأخبره بأنه مستعد لتنفيذ أوامره وانه يبلغه بذلك طبقاً لارادة الامام السيد سعيد .

وما كاد يبرم الاتفاق السـالف الذكر حتى تحركت سفن سلطان مسقط من مرساها الى الثغر وبدأت العلاقات الودية بين رجالها وأهل البلاد .

ولما كان نص بعض شروط المعاهدة يقضى بأن تسترد حكومة منبسة أملاكها القديمة فقد رضى الربان أوين أن ينزل مبارك فى سفينته مع خمسين من رجاله الى جزيرة بمبا وبعد أن ترك فى منبسة الملازم ريتز من ضباط السفينة لفن وخمسة غيرهم لمباشرة حشد الجنود وتعليمهم ابحر فى ١٣ فبراير الى بمبا ورسا فى ١٥ منه امام احدى قرى الساحل الغربى لهذه الجزيرة ، وهناك أنزل الى البر مباركا ورجاله الخمسين ثم قصد الى جزيرة زنجبار ليقنع سعيداً بن محمـد الاخايرى

حاكمها بوجوب تنازله عن پمبا فلم يأت هذا السعى بفائدة إذ قال سعيد بن محمد مصارحا أن مثل هذا التنازل لا يؤخذ منه بل من السلطان متبوعه وطلب منه أن يوجه سؤاله اليه فى ذلك .

وعندما تأهبت السفينة لفن للسفر ، وكانت وجهتها جزيرة موريس ، نزل مبارك بها ليقابل حاكم هذه المستعمرة وليخبره بعقد المحالفة ويسعى لديه لحصول الموافقة عليها . فلما وصل الى جزيرة موريس استقبل فيها بالمراسم العسكرية وقدم الى الحاكم وكان وقتئذ ل . ف . كول* ولكنه لم يحصل منه على المصادقة المطلوبة لاعتقاده أن الواجب مفاوضة حكومة لبندره فى شأنها وعاد الامير مبارك المزوروى الى موطنه مملا النفس برجاء موافقة الحكومة الانجليزية على ذلك الاتفاق .

والظاهر ان القبطان أوين كان يرى من جهته أيضاً مثل هذا الرأى لأنه بعد وصول مبارك الى منبسة بأيام قليلة أى فى أوائل شهر نوفمبر سنة ١٨٢٤ جاءت السفينة لفن ثانياً الى الثغر . وكان الملازم ريتز قد مات وهو متفرغ لاستكشاف نهر بانجانى فأبدل منه بآخر من رجال الكومودور نورس* الذى كان قد وصل الى منبسة بالسفينة

أندروماك وكانت مهمته أن يترك بها منـدوبا سياسياً آخر وهو الملازم إيمرى فاخبر ايمرى الربان أوين بوقوع مخالفة فى احدى السفن العربية لنص المادة المتعلقة من الاتفاق بالغاء النخاسة وكان الارقاء الذين وجـدوا فى هذه السفينة قد صدر الأمر بضبطهم من الوكيل الجديد وانزالهم الى البر فى بقعة من الارض كان أولياء الأمر فى منبسة قد قدموها هدية الى الانجليز بمناسبة التوقيع على اتفاقيـة الحماية . وما شـاع بين الناس نبأ وصول الفرقاطة البريطانية حتى حاول النخاس صاحب العبيد الذين ضبطوا ان يسـتردهم ثانياً الى نفسه بدعوى أن بعض الاشـقياء من قبيلة وانيكا هم الذين اختطفوهم من بين أهليهم . ولكن حيلته لم تفلح بل قد ألقى القبض على أحـد أعوان ذلك النخاس بتهمة أنه هو الذى اختطف العبيد وحوكم فى السفينة لفن وحكم عليه بالنفى الى جزائر سيشل ونفذ هذا الحكم فيه .

ومن تصرف أوين فى هذه المسألة يبدو جلياً للمتأمل أنه كان ينظر الى شروط الاتفاق نظراً جدياً وانه كان واثقاً الوثوق كله بان حكومته لن تتأخر عن المصادقة عليها . وفى ٩ دسمبر أبحر من مياه منبسة ومعه الشيخ راشـد بن احمد من زعماء قبيلة امزارا ورجال حاشيته قاصداً الى ثغور الساحل

ثغراً بعد ثغر على أمل أن يمالىء أهلوها المنبسيين وان يؤيدوهم فى قضيتهم مع إمام مسقط وان يقتدوا بهم فى الاستظلال بالحماية البريطانية . وبعد ان اقامت السفينة لفن فترة من الزمن فى مياه جزر سيشل اتجهت صوب مقدشو فوصلت اليها فى يناير سنة ١٨٢٥ وانزلت بها الامير مبارك نائب منبسة وممثلها . وكان سكان هذه المدينة وقتئذ فى خصومة مع سلطان مسقط لسوء سلوك عبد الله بن سليم الذى كان هذا السلطان أنفذه الى ساحل أفريقيا فى سنة ١٨٢٣ لحصار منبسة ثم جاء الى مقدشو واستدعى اليه زعماءها بحجة ظاهرها تبليغهم أمرا من السيد سعيد فلما لبى دعوته اثنان من كبار القوم ومعهما الهدايا والتحف أمر بسفينته فاقلعت قاصدة الى زنجبار حيث ألقى بالرجلين فى غيابة السجن وطالبهما بمبلغ الفى قرش فدية عن كل واحد منهما .

ومع ما لاهل مقدشو من الحق فى كراهية سلطان مسقط تجاه هذا التصرف الجائر وتلقاء ما أتاه بعض رجاله من الظلم والعسف فانهم لم يظهروا استعداداً ما لقبول اقتراحات راشد بن احمد . وكان شيخ المدينة وقتئذ غائباً بداخل البلاد فلم يأذن سكانها لما داخلهم من الشكوك والريب لممثل منبسة ولا لضباط السفينة لفن بالنزول فى مدينتهم

والطواف بها ، فاقلعت عندئذ قاصدة الى بروة حيث أفلحت في مهمتها اذ قصد اليها الشيخ محمد بن أبي بكر من شيوخ قبائل الاشراف في المدينة مصحوبا بعدد من أعيان البلاد وطلب من ربانها علما بريطانياً ووضع مدينتهم تحت الحماية الانجليزية على أن تكون تابعة لمنبسة فقبل الربان أوين هذا الطلب بشرط أن يكفوا عن الاتجار بالرقيق . ومن ثم عادت لفن الى منبسة حيث عقد الربان أوين مجلساً لسن بعض الأنظمة وتقنين القوانين اللازمة لادارة شؤون الحكومة الوطنية .

وفي ٢ فبراير أقلعت سفينته نهائياً واعداً أهل منبسة بانه سيكتب الى السيد سعيد برد جزيرة پمبا اليهم ، ثم قصد الى هذه الجزيرة وفيها دارت المفاوضة بينه وناصر بن سليمان مندوب سلطان مسقط على أمور تختص بادارة البلاد وسياستها . ثم رسا بزنجبار واتفق مع سعيد بن محمد الاخابيرى على التدابير الكفيلة بصيانة الامن وتوطيد أركان السكينة في بلاد الساحل الى أن تتمكن انكلترا من تسوية شؤون البعض منها وهو البعض الذى طلب الاستظلال بحمايتها .

وفي عهد الحماية البريطانيــة اتسع نطاق تجارة منبسة

وراجت سوقها ، ومنـذ عاد مبارك من جزيرة موريس اضطر الى الاعتراف لسالم بحق الحكم ولكن لما كان سليمان ابن على يأبى التنازل عن الملك وكان يخشى من جهة أخرى أن يرفض طلب سالم بينما هو يجهر بالمطالبة بحقوقه فقد اتفق سالم مع باقى أولاد احمد على أن يقبضوا على سليمان وولده وحفيده ، وانتخب سالم بلا معارضة .

ويقال إن الوكيل البريطانى لم يتدخل فى الأمر اذ اكتفى بأن ينصب سالما فى الولاية خلال سنة ١٨٢٦ . ولما لم تصادق بريطانيا على الاتفاق الخاص بجعل منبسة تحت حمايتها أنزل العلم البريطانى من القلعة وغادر الوكلاء البريطانيون المدينة وتركوها وشأنها عرضة لغارة الامام السيد سعيد . وفى الواقع فقد رأى الامام ان الجو صفا له بامتناع الحكومة البريطانية عن الموافقة على المعاهدة الاولية التى أبرمها القبطان أوين فأرسل الى سالم كتابا يستنزله فيه عن القلعة وينذره فى حالة الرفض بسوء المنقلب وكان حامل الرسالة منتدبا كحاكم على البلد فعارضه سالم وقال إنه لايسلم القلعة إلا بقوة السلاح وأراد أن يرسل الى مسقط احد اخوته وبعض اقاربه ليشرحوا حقيقة الواقع على الأمام فقام الوفد فى شهر مايو سنة ١٨٢٧ وقد

هبت الرياح الجنوبية الغربية ، فوصل الى مسقط وكان الوفد مؤلفا من راشد بن احمد وعبد الله بن زاهر .

فرفض الأمام مطالب شيخ منبسة معتبرا اياها أنها ضرب من المماطلة وعجل من ثم بتجهيز اسطول من السفينة ليفربول والسفينة شاه علام ومدفعيتين وست أو سبع سفن حربية أخرى تحمل أربعة مدافع أو سته .

وكانت هذه السفن تحمل ألفا ومائتى رجل بما يلزمهم من العدد والذخائر والمؤن ، وجعل الأسطول بقيادة سعيد نفسه وقد ابحر من مسقط فى اول وقت هبوب الرياح الشمالية الشرقية من السنة نفسها . وكان فى عزم السلطان ان يفجأ أهل منبسة وكان قد وضع يده على كل السفن التى بالخليج الفارسى ومنعها عن السفر الى سواحل أفريقيا كيلا تصل الاخبار الى الجهة المقصودة قبل وصوله اليها فنتج عن ذلك أن السفينة التى كانت تحمل وفد سالم قابلت دونتمة مسقط فى مياه جزيرة سقطرة فقصد راشد بن احمد وعبد الله بن زاهر الى السفينة المعقود لواؤها للسلطان وأخبراه بمهمتهما ثم عادا معه الى منبسة فوصلت الدونتمة امام ثغرها فى أوائل يناير سنة ١٨٢٨ ، ورست على مقربة من المدافع التى كانت منصوبة بالجهة المعروفة باسم سيرا كوبا * .

وكان السلطان سعيد قد حجز عنده راشدا أحد الموفدين لما أبداه من الاحجام عن الموافقة على مقاصد الامام فأنزل عبد الله الى البر ظنا منه أنه أصبح من رجاله ويقال انه كان خدعه بثلثمائة قرش فذهب عبد الله للقاءسالم وبذل قصارى جهده ليقنعه بضرورة الطاعة ثم طاف فى المدينة ناصحا للناس بالامتثال بدلا من التفكير فى المقاومة ودرءاً لسوء العاقبة ولكن لم يقبل نصيحته أحد فنقل الى القارة زوجته وباقى اعضاء اسرته . وبعد ذلك ارسل سعيد رجلا آخر اسمه سعيد بن خلفان فتفاوض مع مشايخ قبيلة إمزارا ، الا أن المفاوضة لم تؤد الى نتيجة فعقد السلطان فى نهاية الامر النية على المبادأة بالعدوان فاخذت السفينة المصفح وقارب حربى آخر بالايغال فى الجزء الشمالى من الثغر وتبودلت بعض طلقات بالمدافع مع المدافع المنصوبة على الممر وكانت السفينة شاه علام تحمى هاتين السفينتين موجهة نار مدافعها الى مدافع سيراكوبا فبعد ان مرت السفينة الصغرى أمام الحصن رست تجاه المدينة واخذت تطلق المدافع فاجيبت بنار البنادق .

وكان سكان المدينة يشتغلون بوضع المدافع فى المكان ذاته حينما كفت السفينة نارها بسبب حضور السلطان

من سفينته اليها فى قارب صغير فأمر الامام أحد رجاله بالذهاب للقاء سالم وأخيه مبارك ودعوتهما الى حضرته للاتفاق معه فقبل الاثنان الدعوة على شرط أن يرسل السلطان رجلين من أسرته يبقيان بالبر مدة بقاء حاكم منبسة وأخيه فى حضرة السلطان. فانزل السلطان الى البر اجابة لهذا الشرط محمدا بن سليمان وسعيدا بن خلفان وبعد قليل جاء سالم ومبارك يتبعهما اثنى عشر من رجالهما وصعدا الى ظهر السفينة المصفح فاحسن السلطان لقاءهما وأكرم وفادتهما ثم خلا بهما للتفاوض فى الأمر واتفقوا على قرار حاسم فيه وأقسم الطرفان بالقرآن على تنفيذ شروطه — والذى أذيع آنئذ أن الاتفاق تم على ما هو آت :

أن يسلم الحصن الى السلطان وان توضع به حامية مؤلفة من خمسين رجلا بشرط أن يكونوا من قبيلة الجناوية احدى قبائل عمان التى كانت مصاحبة لقبيلة إمزارا. أما سالم وأعضاء أسرته فيسمح لهم بالبقاء فى مكانهم وان يعترفوا للسلطان بحق السيادة على منبسة وتقرر ان يكون الحكم لسالم ومن بعده لذريته وأن يكون للسلطان حصة من واردات الجمارك التى يعين الحاكم من طرفه من يباشر ادارتها.

ولما تم التوقيع على هذا الاتفاق دخل السلطان السيد

سعيد الحصن فى ١١ يناير وسلم اليه رسمياً ثم جعلت فى الحصن حامية مؤلفة من خمسين جنديا بقيادة سعيد بن خلفان وأخذ السيد سعيد يستميل اليه بالهدايا والاعطيات كبار المدينة وأعيانها وكان يدخل اليها فى كل يوم عدد من الجند بحجة زيارتهم لرفقائهم بالحصن وما كان يخرج من هؤلاء فى المساء الا النزر اليسير حتى بلغ من اجتمع به منهم بعد أيام قليلة مائتي جندى . فلما قوى مركز الامام بهم قال لسالم بانه يرى خروجه من القلعة مع أعضاء أسرته ففهم سالم ومبارك عندئذ انه ما كان ينبغى لهما الاعتماد على وعود سعيد ولكن السيف قد سبق العزل فخضعا لأمره وسلما أمرهما الى الله وتفقد سعيد الحصن وأمر باصلاحات وتجديدات فيه ثم أقام بمنبسة خمسة عشر يوما أو عشرين غادرها عقبها تاركا بالحصن حامية مؤلفة من ثلثمائة وخمسين رجلا من قبائل البيلوخى * والزودجغالى * والعرب . وكان العرب بقيادة سعيد بن محمد بن وليد . أما الباقون فكانوا بقيادة شاهو الزودجغالى الذى كان من انصار الامام وحزبه منذ زمن طويل وكان قد عين حاكما عاما على الحصن .

وبعد اتخاذ هذه التدابير أرسلت السفينة المصفح الى مسقط وتحركت السفن الباقية الى زنجبار تحت قيادة

السلطان ، وكانت هذه زيارته الأولى لها فقوبل فيها بأحسن مقابلة وسكن بجهة إمتونى حيث كان العمل قائماً على قدم وساق لتشييد القصر الذي مابرح ساكنا فيه منذ جعل زنجبار مقرا له . وكان مبارك قد سافر اليها عملا بارادة الأمام الذى كان يعتقد انه قد أصبح من الميسور له بحسن معاملته وصدق نصائحه وانتشار نفوذه ان يقنع ابناء قبيلة امزارا أى قبيلة شيخ منبسة بعدم الفائدة من التفكير فى استرداد منبسة واستقلالهم بها .

وكان الظاهر أن السلطان يبغى اطالة الاقامة بزنجبار أو البقاء بها الى ماشاء الله لأنه عنى بزراعة القرنفل فى أرضها ووسع نطاق أملاكه فيها ، ولكن السفينة المصفح عادت اليه من مسقط بأخبار مكدرة عن عمان يؤخذ منها ان مسقط أصبحت مهددة بالفتنة والاضطراب وان الحالة تستدعى عودته السريعة الى هذه البلاد وقد تبين أن موقظ هذه الفتن ومحركها هو الشيخ سعود بن على بن سيف بن اخى بدر صهر السيد سعيد نفسه .

وما كاد الامام السيد سعيد يقف على هذا الخبر حتى أسرع بالقيام الى عمان على ظهر السفينة ليفربول تصحبه سفينتان حربيتان فلم يتمكن سعود من إصابة الغرض الذى

كان يرمى اليه بسبب هذه المفاجأة . وكان الامام قبل قيامه من زنجبار قد أمر الامير حماد بن احمد بالعودة على أثره الى مسقط فيما بقى من السفن على أن يرسو بمقدشو ويقوم أمام هذه المدينة بمظاهرة يحمل أهلها بهـا على الاقرار له بالطاعة كما فعل بمنبسة ، فذهب حماد الى مقدشو فى ثلاث سفن ومركبين صغيرين وقاربين وبعض الجند ، فلما وصل اليهـا نزل الى البر للمفاوضة مع شيخها ولكنه رأى بالشـاطىء فريقاً من الاهلين مدججين بالأسلحة يظاهرون بالعدوان فعاد الى السفن دون ان يتفاوض وامر بأطلاق المدافع على البلد فاخلاها السواد الاعظم من سكانها فانتهز حماد هذه الفرصة لينزل الى البر ثلثمائة جندى أو أربعمائة ليستولوا على المدينة وقد استولوا عليها فعلا ونهبوها ثم عادت هـذه القوة الى السفن واستأنف السير بها فى طريقه الى عمان .

ولقد لقى حتفه فى المعركة عبد الله بن سليمان ، وكان رجلا محبوبا ومقربا من الأمام فخشى أهل البلد عاقبة موته ، واتقاء لما عسى أن يأمر الأمام به للأخذ بثاره جنحوا الى الرضى بالواقع والتسليم بقضاء الله وطلبوا الأمان .

أما ما حدث فى منبسة فيتلخص فى أن حاكم ممبا المسمى ناصر بن سليمان كان قد أفضى الى سلطان مسقط

قبل رحيله اليها بأن رجال قبيلة إمزارا سيغتنمون فرصة انصرافه للاخلال بشروط الاتفاق وكان يرجو بنقله هذا النبأ اليه ان يعهد اليه إدارة حكومة منبسة بدلا من سالم.

وهناك رواية أخرى تعزو فكرة استبدال حاكم من آخر الى الامام سعيد نفسه. والظاهر انه هو الذى أمر ناصرا بالقبض على سالم ومبارك وأعيان قبيلتهما. فسافر ناصر الى منبسة وبعد أن اتفق مع حاكم القلعة سكن فى المدينة منزلا واستدعى اليه مشاهير السواحلية واغدق عليهم الهدايا ثم جهر لهم بان السلطان قد بعث به ليحل محل سالم فى الحكم.

فلما نقل الى سالم ومبارك أقوال ناصر وفعاله طلبا اليه أن يبرز أمرا مكتوبا من السلطان ليمكناه من وضع يده على حكومة منبسة فأجاب ناصر بأن وجهه كاف لتمثيل السلطان والدلالة على ارادته فقال مبارك أن وجه ناصر لايسوى أن يكون نعلا لحذاء سعيد ثم أنذره بوجوب الرحيل من المدينة فى خلال أربع وعشرين ساعة ورأى ناصر أن القوه التى تحت إمرته غير كافية ليتمسك بطلبه فتراجع الى القلعة قائلا إنه اذا طلب ما طلب فما هو الا لأن سالما يحاول المروق من طاعة مولاه السيد سعيد. وكان يريد أن تطلق المدافع

على المدينة وأمر فعلا بإطلاقها فانضم السواحلية الى سالم وأقاموا المتاريس بالقرب من القلعة وصوبوا البنادق اليها حتى كادت تسكتها لنفاد ما كان بها من الذخيرة ثم كفت عن المقاومة وسكتت مدافعها نهائياً وخشى رجال الحامية المجاعة لأن الاقوات كانت قد أوشكت أن تنفد ، فاصبحوا مهددين بخطر المجاعة .

ولما اتصلت بحاكم زنجبار أنباء تلك الحوادث حاول مرة أخرى أن يوصل المؤن والذخائر والامداد الى الجنود المحصورين فلم يفلح . ويقال إن الحالة آلت بناصر ورجاله الى التغذى بالجلود التى كسيت بها درقاتهم وبجيف الحيوانات ولما ضاق ذرعهم فى طلب العيش فرّ البعض منهم باتخاذهم الحبال واسطة للنزول من القلعة وسلموا بأنفسهم الى العدو وأطلعوه على جلية الأمر فعول السواحلية على مهاجمة الحصن ليلا ولكن انكسر السلم ببعضهم وهم يحاولون تسلق الاسوار ، ونشأت عن هذا الحادث ضوضاء استشعر بها الحراس فاضطر المهاجمون الى العدول عن متابعة الهجوم . غير أن الضيق كان يزداد كل يوم اشتداداً بالمحصورين فانتهى الامر بهم الى التسليم وأخذ الطرفان فى المفاوضة وتم توقيع الاتفاق على ان ينزل الرؤساء والجند فى السفن لتنقلهم الى

خارج إقليم منبسة .

وكان رجال قبيلة إمزارا يخشون أن يعود ناصر الى معاكستهم ومشاكستهم فاشترطوا فى اخلاء سبيله أن يدفع لهم مبلغاً باهظاً من المال ، مع علمهم بأن الحامية لم تكن تملك منه قليلا ولا كثيراً ، ولهذا بقى ناصر فى قبضتهم . وقد دامت هذه الخصومة بين الطرفين منذ ١٢ مايو سنة ١٨٢٨ أى عقب رحيل السلطان الى مسقط بفترة قصيرة الى ما يتجاوز سبعة الاشهر فلما استجلى الامام وجه الحقيقة فيها اقتصر على انفاذ الامير حماد بن احمد الى منبسة بالسفينة شاه علام يصحبه بعض الجند ، فما كاد يصل هذا المدد الى منبسة حتى وجدها فى قبضة رجال قبيلة إمزارا ، فعاد الامير أدراجه الى عمان .

ولما انجلى جنود سعيد عن الحصن عادت الأحوال سيرتها الاولى ، وكان الامام مشتغلا وقتئذ بقتال أهل جزيرة البحرين فأرجأ قتال أهل منبسة الى الوقت المناسب . وفى دسمبر سنة ١٨٢٩ ظهر أسطول الامام تجاه هذه المدينة مؤلفاً من السفينة ليفربول وثلاث سفن أصغر منها حجما وهى سلطان ورحمانى ومنتيس* ومن ثلاث قوارب وكان عدد جنده الفاً واربعمائة . أما ناصر بن سليمان الذى بقى رهينة فى

منبسة للاسباب التي تقدم ذكرها فقد أخلى القوم سبيله بعد أن عاهدهم على أن لا يفر ثم سجن مكبلا بالحديد لمحاولته الفرار مرة بعد أخرى ، وكان لا يزال بمنبسة حينما وصل ذلك الاسطول . وقد خيل للناس أن الامام سعيداً سيسأل عنه اذا تبين انه لا يزال على قيد الحياة فقتلوه فى السجن خنقاً وتمشت الاجراءات الحربية على الخطة التى رسمت فى المرة الاولى اذ رست السفن بمدخل الثغر واجتمع المتفاوضون من الطرفين مراراً يتهم بعضهم البعض الآخر بالاخلال بالعهود ومخالفة الوعود . وانتهى التفاوض بطلب الامام السيد سعيد تسليم القلعة اليه مرة ثانية فكان جواب سالم أنه لن يسلمها الا بقوة السلاح واتصل بالامام نبأ قتل ناصر فاستعد للهجوم على الحصن واتخذ التدابير لذلك فانفذ سفينتين الى الثغر الجنوبى للبدء بالهجوم على كلنديني والثلاثة القوارب التى تحمل الجند الى الجهة الشمالية ورست السفن تجاه كيساويني * ليقوم الجند بحركة التفاف حول مدينة منبسة .

أما رجال قبيلة امزارا فقسموا قواتهم الى قسمين كى يتمكنوا من صد هاتين الهجمتين واطلقوا النار على السفن فأغرقوا إحداها ومات بهذا الغرق عدد كبير من رجالها

واضطر غيرهم الى ترك السفن الباقية والنزول الى البر حيث التقطتهم زوارق السفن الراسية بالمرسى الخارجى . ووقع القاربان اللذان لم يغرقا فى قبضة أهل منبسة فأفرغ هؤلاء مشحونهما ثم دمروهما تدميرا . ولم يكن النصر حليف الأمام أيضاً من ناحية كلنديني اذ قد غرق قاربان بمن فيهما والذين استطاعوا النجاة منهم ماتوا رميا بالرصاص . وقدرأى سعيد فى نهاية الأمر ان لافائدة من العناد والتشبث فلجأ الى المفاوضة وندب لها اثنين من أعوانه وهما بلا رعب من شيوخ القبائل وسليمان بن جحا . فذهب الاثنان للقاء سالم وأعربا له عن أسف مولاهما على ماحصل وقالا له ان الذى اغضبه وحمله على مافعل انما هو قتل ناصر وأنه مستعد للتعاقد معهم على شروط المحالفة الاولى . فأجاب سالم بأنه يقبلها الا شرطا واحدا منها وهو احتلال الحصن بجنود الأمام ، ووعد فى مقابل ذلك بالقيام على الأخلاص والاحترام للأمام فأدرك سعيد أن لافائدة من الألحاح فى الموضوع فطالب بالمبلغ المستحق له من ايراد الجمرك فى السنوات الماضية فاتفق الطرفان على اداء هذا المبلغ بمدينة بمباى وقت هبوب الرياح الجنوبية الغربية . وطلب سعيد ضمانا لتنفيذ هذه الشروط أن يأخذ معه الى زنجبار بعض

اقارب سالم فأجابه الى هذا الطلب وسلمه ابنيه راشداً وناصراً . وقد اطال الأمام إقامته بزنجبار اظهارا لرغبته فى جعلها مقرا لحكومته ، وانما حدثت فى مسقط فتنة أجج نارها حمود بن آزران بن قيس فاضطر الى تعجيل الأوبة اليها . وسبب هذه الفتنة أن سعيدا كان قد انتزع ملكا لجد هذا الثائر فاغتنم فرصة غيبته فى تجريدته للاستيلاء على بلدتى بركة والرستاق ثم شرع فى مهاجمة مسقط ، ولما وصل الأمام الى مقره اتفق مع حمود وانتهى الخلاف بينهما وصفا له الجو فعاد الى الاهتمام بشؤون أفريقيا .

وكان الباعث للأمام على ملاينة أهل منبسة فى المرة الثانية ماورد عليه من الفتوق التى سببت وهنه وتهددت سلطته ولكنه وقد قلم أظافر الثورة واتفق مع خصومه فقد عمد الى خرق نصوص المعاهدة التى أبرمها مع صاحب منبسة وارسل احدى سفنه مع مركبين صغيرين لوضع الحصار عليها فى وقت هبوب الرياح الشمالية الشرقية اي بين نوفمبر سنة ١٨٣١ وأبريل سنة ١٨٣٢ . ثم سافر اليها فى السنة التالية فى أربع سفن وقوارب عديدة متحاشيا فى هذه المرة عن استعمال السفن الكبيرة والاكثار من الجنود. وكان قائد هذه الحملة الامير سعيد بن مسلم وعهدت القيادة

العامة الى الامير حماد بن احمد واحتفظ لنفسه بالرياسة على الجميع وقد أنزل جزءا من الجنود بالجهة الشمالية من القارة تجاه منبسة فعسكروا غربى نقطة نيز نجانى* تصحبها قوة من المدفعية مؤلفة من أربعة مدافع ومدفع هاون أصلت المدينة والحصن نارا حامية غير ان أهل منبسة لم يخشوا بأس هذه النار اذ جعلوا النساء والاطفال بمعزل وقابلوا نار مدافع الأمام بنار مثلها من مدافعهم دون أن ترجح كفة النصر لأحد الفريقين، لسوء القيام على المدافع وخطأ مرماها.

فلما رأى أهل منبسة ما فى هجمات العدو من الدلالة على الوهن وضعف الجانب قرروا الانتقال الى البر وقد تم لهم ذلك ليلا وهنالك جعلوا قواتهم قسمين هجم احدهما على العدو ليستدرجه الى خارج الاستحكامات وخصص الثانى بمهاجمة جناحه والالتفاف بمؤخرته، ودبر الهجوم بحيث يقع من الجهتين فى آن واحد. وكان القائد محمد بن أحمد، وقد عجز عن تنفيذ هذا التدبير بمقتضى التعليمات التى عنده لأن أحد القسمين كان قد عجل باجراءات الهجوم قبل أن يبدأ بها القسم الآخر فى الآن نفسه فاشتدت عليه مقاومة العدو واصيب محمد بن احمد بالجراح فانثنت قوة منبسة منسحبة.

أما الامام سعيد فلم يستفد بهذا الفشل اذ ظل يطلق المقذوفات على المدينة والحصن معاً ثم أبحر برجاله الى زنجبار ثم الي مسقط دون أن يجنى أية ثمرة من حملته هذه .

جرت هـذه الحوادث فى شهرى فبراير ومارس سنة ١٨٤٣ .

ففي السنة الثالثة هزمت قوى الامام ثانياً فى جزيرة باتا وكانت مشتغلة فيها باخماد الثورة التى كان سببها ان مدينة سيهوى احدى المدن الثلاث بهذه الجزيرة رامت الاستقلال والخلاص من التبعية لسلطان مسقط فتقلد بوانا وزير زعامة هذه الحركة . ولم تكن حامية الامام فى باتا وقتئذ كافية لقمع الفتنة اذ كان لا يتجاوز عدد رجالها الخمسين وما كانوا يستطيعون الزام الثائرين ملازمة الطاعة ولو انضم اليهم الباقون على الولاء من الاهلين للامام الذى أمر أهالى لامو لهذا السبب أن ينضموا الى رجاله لقمع ثورة مدينة سيهوى . ولم يلبث ان وصل الى هذه المدينة فلم يسع الثوار الا الاستصراخ بقبيلة إمزارا فوثب سالم لنجدتهم فى فريق من أهل منبسة ولما وصل السلطان ورأى أن المنبسيين أشد بأساً وامنع ركناً مما كان يخطر بباله وان الجيش الذى معه لم يكن كافياً ولا قويا وتأكد له بطلان اعتقاده أن مرأى أسطوله يكفى لالقاء

الرعب والهلع فى أفئدتهم وان قمع الثورة أمر فوق طاقته ولا قبل له عليه اقتصر على تأنيب سالم ونعى عليه تداخله فى شؤون باتا وطلب منه العودة الى بلاده وقصر أطماعه على منبسة ورحل على أثر ذلك تاركا أمام باتا سفينتين أو ثلاث سفن لتلقى القبض على سالم فى عودته الى منبسة فاذا أطال مقامه فى سيهوى سبقته هذه السفن الى منبسة ، وقبضت عليه فى مدخلها . ولكن سالما لم تفته هذه الحيلة . وقد حاول الاستيلاء على سفن الامام بتدبير عهد تنفيذه الى أخيه راشد بن احمد ولكن هذا التدبير فسد ومات راشد بسببه.

على أن سالما تمكن من مغادرة سيهوى تحت جنح الظلام فاقتفت أثره سفن الامام . وكان قد وصل الى نهر كيليفى فسار منه براً الى تكاونجو* وهنالك ادركه قاربان من قواربه فسافر الى منبسة حيث وافته المنون بعد قليل أي فى مارس أو ابريل سنة ١٨٣٥ .

أما جزيرة باتا فتتلخص حوادث ثورتها فى غضون تلك الفترة فى أن بوانا وزير تمكن من عزل بوانا شيخ سلطان هذه الجزيرة من قبل إمام عمان وطرده ثم رحل الى مسقط رجاء أن يوافق السيد سعيد على تصرفه . وعاد بوانا وزير بعد ذلك الى باتا يتبعه مندوب من قبل الامام اسمه محمد

ابن سليمان المرزوقى وكان الامام يرمى بارسال هذا المندوب فى الظاهر الى تعضيد السلطان الجديد وشد أزره ولكنه فى الباطن كان مكلفا منه باسقاطه عن كرسيه . وقد انتهى الأمر بوزير أن قتل غيلة تخلفه قوم بكري بن موانا شيخ .

وحدث ان اختلف أهل منبسة فى اختيار خلف لسالم . وكان خميس اكبر أولاده مكروها من الاهلين ، ولكن راشداً بن سالم بن عبد الله أعانه على أخيه ناصر فلم يسع ناصراً الا أن جمع حوله الناقمين على خميس واتفق معهم على ايقافه وشاركه فى هذا التدبير القاضى خلفان بن سالم بن قضيب . وكان هذا القاضى قد تصنع المرض على أمل أن يهم خميس بعيادته لا سيما وان روابط القرابة القريبة وثيقة بينهما . وكان خميس قد اعتاد ألا يخرج من الحصن الا فى المساء فكان تدبير ناصر ان يغتنم هو واعوانه هذه الفرصة للقبض عليه . ولكن اتضح ان السواد الاعظم من هؤلاء الاعوان لم يكونوا له بمخلصين وانهم انما كانوا يعملون لحساب غيره ، وانهم كانوا يكرهونه بقدر كراهيتهم لاخيه خميس . وان الرجل الذى يعاضدونه ويناصرونه ويعملون على تسليم زمام الحكم اليه انما هو راشد بن سالم بن احمد الذى أخذ الأهبة

لاستغلال هذا الخلاف لصالحه اذ خطر بباله أن يذهب الى الحصن على أثر مبارحة خميس له كعادته وان ينادى بنفسه والياً على منبسة وقد نجح هذا التدبير لان ناصراً لم يجرأ على ايقاف خميس تنفيذاً للمؤامرة التى دبرها فاستطاع راشد بن سالم الاستيلاء على الحصن ووافق الاهلون على ولايته فى رمضان سنة ١٢٥٢ (دسمبر ١٨٣٩) . وبينا كانت تلك المؤامرات والدسائس على أشدها بين قبيلة إمزارا ظهر رجل اسمه المعلم ابن مشافى ، وكان شيخاً للوكلنديني وكانت بينه وبين خميس ترة فانتهز هذه الفرصة للاستفادة من كراهية الاهلين لهذا الوالى وجمع كلمتهم عليه واتفق على ارسال وفد منهم الى مسقط ليحض الامام على استئناف الهجوم على منبسة وليمده بمعاونة السواحلية جميعاً ومؤازرتهم له .

ولما وصلت هذه الهيئة الى مسقط وجدت الأمام مجداً فى تهيئة حملة جديدة عليها . ولما انتهت المعدات رحل باسطوله الى منبسة فوصل اليها بعد أن كان راشد بن سالم توصل الى استلام زمام الأمر فيها ، ولم يكن لديه من الوقت مايكفى لتهيئة وسائل الدفاع . فلما رسا الامام باسطوله أوفد أحد أعوانه ليبلغ الى راشد مطالبه منه . فلما

عرضت عليه رفضها .

وفى أثناء الليل نزل المعلم ابن مشافى الى البر ليقنع السكان بوجوب الانضمام الى الأمام ، وكان نزوله بأحدى قرى قبيلة وانيكا فالتف حوله خصوم قبيلة إمزارا جميعا فنصبت المدافع على الشاطىء مقابل المدينة وأوغلت فى الثغر الجنوبى سفينة حربية ومركب صغير فسار الجند من هذه النقطة الى كلنديني واستولوا عليها بمعاونة أعيان البلاد .

وكان بعض السكان قد هاجروا الى القارة والبعض الآخر من حزب إمزارا قد اجتمعوا بجهة جافانا للاشتراك فى الدفاع عن البلد ، فبعد ان استولى الأمام على كلنديني احتل حصن أمكوبا المشرف على الجانب الغربى من الجزيرة والقارة . ولم يعجل الامام بمهاجمة المدينة ، وبينما كان الفريقان يتبادلان طلقات البنادق بجهة جافانا كانت فصائل من جيوش الامام تحتل الجزء القديم من البلد وهو المعروف باسم قلعة امجيو* أو الحارة القديمة . وكان أهل البلاد ينضمون اليهم وكان السلطان يرسل الوفود تباعا الى رجال قبائل إمزارا لمفاوضتهم فى الصلح ولكنهم أبوا المفاوضة جميعا ولما رأوا فى نهاية الأمر ان لافائدة من المثابرة على القتال وأن قواهم تنقص يوما فيوما قبلوا الدخول فى المفاوضة

فكانت شروط المعاهدة التي أبرمت على أثرها مطابقة لشروط المحالفتين الأوليين ، إلا أنه فى هذه المرة لم يسمح للحكام الذين هم من قبيلة إمزارا بالاقامة فى الحصن وكان تاريخ هذه المعاهدة فى فبراير سنة ١٨٣٧ .

ولما استولى الامام على الحصن جعل به حامية مؤلفة من خمسماية مقاتل من البلوخى والعرب جعلها تحت قيادة على بن منصور ثم سافر الى زنجبار .

وبعد بضعة اشهر من ذلك التاريخ سافر راشد بن سالم الى زنجبار لمقابلة الامام بها يصحبه كل من خميس وناصر وبعض رجال حاشيته فجامله الامام واكرم وفادته واحسن معاملته وألح عليه بالتنازل عن الحكم على منبسة وان يبقى بزنجبار وكان سليمان بن احمد هو المكلف باغواء واستدراج راشد فعرض عليه هذا ثلاثة أمور أولا أن يبقى بزنجبار على أن يعطى عشرة آلاف قرش بمثابة تعويض وثلثماية قرش مرتبا سنويا أو ان يتولى حكومة مافيا أو حكومة بمبا . ولكن أقاربه ورجاله كانوا ينصحون له بالبقاء فى مركزه ويزينونه فى عينه فرفض راشد ماعرض عليه وعاد الى منبسة واتحفه الامام وصحبه بالهدايا الفاخرة . وكان قد جاء بعض شيوخ الداخلية الى زنجبار وعملوا لتحريض الامام على قبيلة

إمزارا .وقالوا له إنه ما دام رجال هـذه القبيلة يحكمون منبسة فلا خير يرجى . فأثر إلحاحهم فى نفسه وأمر بانفاذ احدى السفن الى منبسة وقد ذهب عليها ابنه خالد وسليمان ابن احمد . وكانت المهمة الموكولة اليهما أن يقبضوا على جميع اعضاء اسرة احمد بن محمد بن عثمان .

فلما وصل الاثنان الى منبسة انتظرا فى سفينتهما حضور جماهير الناس لزيارة ابن الامام فكان أول من جاء قواد الحصن فأعطيت لهم الاوامر بما يجب عليهم القيام به ثم حضر راشد فى جمع من أقاربه وعادوا بعد الزيارة آمنين . ولما انقضى يومان بعد ذلك بدأ مندوبا الامام بتنفيذ أوامره وإمضاء ارادته فنزل السيد خالد وسليمان الى البر بعد غروب الشمس وقصدا الى الحصن فدخل اليه سليمان وبقى خالد فى الردهة لمقابلة الزائرين، وعلم راشد بذلك فبادر الى الحصن . ولما مثل فى حضرة خالد طلب هـذا الامير اليه أن يقابل سليمان بحجة أنه يرغب أن يفاوضه فى بعض الشؤون فما كاد راشد يدخل على سليمان حتي ألقى القبض عليه وسجن وفعل مثل هذا بعشرين من الزوار الآخرين . فلمـا رأى الناس أن الزائرين لايخرجون من الحصن ارتابوا بالامر وانتشر بالمدينة خبر القاء القبض على اسرة إمزارا . ومن لم يقع فى

هذا الشرك منهم فرليلا الى القارة بأهله . اما من قبض عليهم فنقلوا الى المركب لتوصلهم الى زنجبار . وأذاع خالد وسليمان بعد ذلك أن لبقية رجال أمزارا الذين هاجروا أن يعودوا الى مدينتهم وانه اكتفى بمن قبض عليهم اذ كانوا هم المقصودين بالذات منهم . وسافر خالد وسليمان فعهدت شؤون الحكومة الى قائد الحصن وبعد ان ظل المقبوض عليهم محجوزين فى السفينة مدة من الزمن أرسلوا الى مسقط ومنها الى مينو* وبندرعباس حيث سجنوا وعوملوا بالشدة والقسوة ومات منهم الكثيرون لهذا السبب .

وعلى هذا الوجه دالت دولة امزارا بجهة منبسة فلما صارت مقاليد الحكم على هذه البلاد الى قبضة الامام السيد سعيد امتدت سلطته فتناولت السواحل بأسرها شمالى رأس دلجادو . ومنذ هذا الوقت حكم الامام فى أمن واطمئنان على تلك الاقطار الافريقية ولم يقم فى وجهه معارض من أهلها أو من غيرهم .

أما موسامبيق التى بقيت فى قبضة البرتقاليين فقد ساءت أحوالها الادارية وتذمر أهلوها من حكم البرتقاليين الذين استمروا قابضين على زمام هذه البلاد الى اليوم بعد أن فقدوا كل ممتلكاتهم الافريقية الاخرى الواحدة

تلو الاخرى وسقطوا سقوطا هائلا من القمة التى بلغوا اليها الى الحضيض الاسفل من الضعف والانحطاط .

ولو كان فى تتبع سقوط الدولة البرتقالية بافريقية الشرقية خاصة وبحر الهند عامة وتدهور عظمتها الحربية والسياسية فيها من درك الى درك فائدة للقارىء لما قصرنا فى قضاء لبانته بالافاضة فى ذكر الحوادث التى احاطت بهذا السقوط البعيد عن مظنة الفخر والشرف ولو لم يكن تاريخ البرتقال فى موسامبيق اشهر من نار على علم لبينا أى قرار تهوى اليه دولة من الدول وأية حمأة تتردى فيها على رغم ما تكون قد بلغت اليه من العزة والمجد، اذا ذهبت فى تصرفاتها مذهب الجشع والقسوة ولقدكانت موسامبيق مع ما عانته من هذه النقائص غزيرة ينابيع الخيرلما اشتهرت به تربتها من الخصوبة وانبث فى أرضها من الركاز الذهبى فكان فيها إذاً للبرتقاليين خير معاض عما خسروه من مستعمراتهم بصلفهم وشدة حرصهم وغلظة أكبادهم،ولكن سبق السيف العزل فمست ذلك القطر رجفة من الزلزال العام الذى قوض أركان الدولة البرتقالية على شواطىء المحيط الهندى فى آسيا وأفريقية واتسع فتق الفساد فيه بانصراف أولياء أموره البرتقاليين عن استغلال موارده واستثمار

ثروته الطبيعية الى الاشتغال بالنخاسة ، فكان من هذا الأيثار المذموم الضربة القاضية على الصناعة والزراعة .

ولم يكن البرتقاليون ازاء تفاقم هذه الخطوب ليعبأوا بعواقبها الوخيمة اذ كانوا يفضلون فى كسب المال توخى أيسر الطرق الموصلة اليه ولو أدت الى العار والخزى . ولطالما حاولت الحكومة البرتقالية أن تعيد الاحوال الى نصابها بحمل أبنائها المستعمرين على تفضيل الكسب من طريق الكد والكدح بالعمل فى الزراعة والصناعة رغبة منها فى توسيع نطاق ثروة البلاد والاستفادة بمواردها الطبيعية فلم تأت مساعيها فى هذا السبيل بالفائدة المقصودة وظلت بلاد موسامبيق كما أراد لها مستعمروها مركزاً كبيراً للاتجار بالرقيق أى ينبوعاً لشقاء فريق من الجنس البشرى ولكن هذه التجارة الخسيسة قد ضاقت فى هذه الايام دائرتها وأخذ ظلها يتقاص شيئاً فشيئاً بفضل ما اتخذ من التدابير لمنعها وكبح جماح القائمين بها .

وبالجملة فقد تضعضع نفوذ الحكومة البرتقالية فى موسامبيق واضمحلت قوتها حتى صارت فى عهدنا الحاضر كلا شىء بل أشبه ما يكون بجيفة تتنة، إن ظلت ثابتة فى مكانها وحافظة شكلها ، فما هو الا لسكون العناصر حولها

ولكنها لا يعود لها أثر من الوجود إذا ثارت هذه العناصر فاكتسحتها فى طريقها . ومما يؤلم الفؤاد ويملأ القلب أسى وحزنا انك إذا قارنت تلك البلاد وهى فى قبضة البرتقاليين بمسقط بمسك سلطانها بزمامها علمت أى الفريقين فريق البرتقال أم فريق عرب عمان يحمل علمه منكساً الى أسفل خزياً وخجلا وفساداً وخللا ، مع ما هو مشهور من وصف البرتقاليين بأنهم أمة متمدينة ووصف العرب بأنهم قوم برابرة متوحشون ؟

ان الفريقين يقبضان فى عصرنا الحاضر على زمام الاقطار الافريقية التى يغمر سواحلها ماء البحر الهندى ، فهل آن للبرتقاليين أن يرحموا القطر الموسامبيقى الذى ينوء بحمل استبدادهم الغاشم وفضائحهم المزرية التي لوثت برشاشها شرف الدول البحرية الأخرى بل هل لهم أن ينظروا الى ما تكنه بطون ذلك القطر من الخير الوفير فيعملوا على انهاضه من كبوته الأليمة بسلوك مسالك العقل والعدل . ولكن أيظن وقد جفت فروع الشجرة الباسقة وذوت أوراقها وغاض ماؤها ، أن تعود فتزهو للناظر باخضرار عودها ونضرة أوراقها ووفرة ثمارها .

انا بلا شك لا نحير جواباً على هذا السؤال . وكل ما

فى وسعنا أن نقوله إن فى بلاد موسامبيق الآن بوادر أسباب وجيهة تدعونا الى الحكم بأن مستقبل السيطرة والنفوذ فيها لسكانها من العرب الذين هم الآن بالنسبة الى البرتقاليين أشبه ما يكون بالبزاة تحلق فى الجو فوق حيوان جرح فسال دمه متحينة الفرصة للانقضاض عليه. وما الفرصة عندها إلا أن يسود السكون ويخلو المكان من المزاحم والعدو المناوىء. ومفهوم أنهم لايخشون الجهود التى يمكن للبرتقاليين أن يبذلوها فى سبيل الذود عن حياضهم والدفاع عن أنفسهم بل يخشون جشع الطامعين فى الاستئثار بتراث الجريح عند ما يحين له الحين. ثم ان أولئك العرب لم يذهب عن بالهم ما كان لهم من قديم الزمان من جاه ونفوذ وسطوة فى تلك البلاد ولم ينسوا انهم كانوا سادتها وأصحاب الكلمة المسموعة فيها والمتصرفين فى شؤونها على ما يهوون فهم ما فتئوا يتذكرون ذلك العهد معللين النفس بمهادنة الزمان لهم وبأن لا دولة من الدول الاوربية تطمع فى أخذ تلك البلاد والاستئثار بحكمها وخيراتها.

هذا ولعل القارىء يذهب معنا الى الحكم بأن تلاوة تاريخ الاصقاع الشرقية من افريقية وما تعاقب فيها من الحوادث والعبر لم يخل من فائدة ولم يكن نادًا عن الغرض

الذى اليه نرمى . فان بلادا سمعت وهى فى مهد وجودها التاريخى اصواتا مبهمة تبينت من بينهـا كلمتي «صور» وسليمان واشتركت فى حركات الفتح وتطورات الحضارة التى تلخصها كلمتا الاسكندر الاكبر وقياصرة الرومان وشهدت بعينى رأسها ذلك الانقلاب العظيم الذى زلزل الارض بنبوة محمد وظهور الديانة الاسلامية واقترن اسم فاسكودى غاما باسمها كما اقترن اسم كرستوف كولومب باسم القارة الأمريكية وابصرت لجات بحارها ممتزجة الماء بالدماء يوم صارت ميدانا للصراع الهـائل بين الشرق والغرب ، نقول إن تلك البلاد على رغم بعدها السحيق فى اطراف العالم عن مركز العمران البشرى قدكانت وثيقة الصلة بالشعوب الكبرى كافة وجديرة من ثم بأن يكون لها تاريخ وأن يدون هذا التاريخ وتتداوله الأيدى للاعتبار بما تضمنه من الحوادث .

وما كان لنا ان نجيد هذا العمل اكثر مما فعلنا وهو يكاد يكون أول عمل من طرازه فعلى من يبغون الأحسان والاتقان ان يتخذوه قاعدة يقيمون عليها ما يشاؤون مما يرونه متما لنقص أو سادّاً لثلمة أو مفسراً لغامض . وحسبنا وكفى مابذلناه من جهود فى جمع ماتفرق من البيانات

والمعلومات والحقائق فى مقدار جسيم من المصنفات لن يستطيع الاغتراف من بحرها غير العلماء ذوى الباع الطولى فى العلم باحوال افريقية الشرقيــة والاحاطة بمختلف شؤونها .

***

يقول المترجم :

ولما كانت اسرة المتوكل على الله الامام احمد بن سعيد البوسعيدى العربى الازدى العمانى هى التى على يديها تقوضت دولة البرتقال فى افريقية الشرقية فأنا لانجد بأساً وهى التى مابرحت الى عهد قريب جدا منا القابضة على أزمة الحكم فيها من اثبات سلالة مؤسسها الامام احمد الموماً اليه نقلاعن شجرة النسب التى اثبتها المؤلف جيان فى ختام ما لخصناه من كتابه اتماماً للفائدة فنقول :

ان الأمام احمد بن سعيد بن احمد بن عبد الله بن محمد ابن مبارك البوسعيدى العربى الأزدى العمانى انتخب للأمامة فى سنة ١٧٤٤ ــ ٤٥ للميلاد وتوفى سنة ١٧٨٣ ــ ٨٤ للميلاد نخلفه فيها ابنه سعيد ثم توفى سنه ١٨٠٠ فى رواية وسنة ١٨٠٢ فى رواية أخرى وكان اخوه سلطان بن الامام أحمد قد اغتصب زمام الولاية منه فى سنة ١٧٩١ واحتفظ

بها الى سنة ١٨٠٤ دون ان يطلق عليه لقب الامام . وفى سنة ١٨٠٥ تولى الحكم بعده بدر بن سيف بن الامام أحمد ولكنه قتل فى ٣١ يوليو سنة ١٨٠٦ نخلفه سعيد بن سلطان ابن الامام أحمد فى ١٤ ستمبرسنة ١٨٠٦ وهو الذى فى أيامه وعلى يديه تم سقوط الدولة البرتقالية فى أفريقية الشرقية .

وكان الذكور من ابناء الامام أحمد بن سعيد سبعة وهم بحسب ترتيب اسنانهم .

١ — هلال بن الامام احمد وله من الابناء الذكور على بن هلال

٢ — سعيد بن الامام احمد وابناهما حامد وأحمد ولحامد ولد هو هلال بن حامد ولاحمد أربعة هم حامد وعبود وناصر وسلطان .

٣ — قيس بن الامام احمد وله ولد هو أزعران بن قيس ولأزعران ولدان هما حمود وقيس ولحمود ولد هو سيف بن حمود .

٤ — سيف بن الامام احمد وابناهما بدر وعلى وابنا بدر هما حمود وسيف وأعقب على سعوداً وأعقب سعود علياً

٥ — سلطان ابن الامام احمد وولداه هما سالم وسعيد وأعقب سالم محمداً واحمد وسرحان وأعقب محمد من ابناء

سالم علياً وأعقب سعيد اخو سالم هلالا وخالداً وثويني ومحمدا وتركى وماجدا وعلياً وبرغشاً وحمدان وجهير وشنون وأعقب هلال من أبناء سعيد سعودا ومحمدا وشنون

٦ – طالب ابن الامام احمد مات بلا عقب

٧ – محمد بن الامام احمد أعقب ولدا واحدا هو هلال ابن محمد

﴿ انتهى ﴾

كلمة

(فيما كان يعرفه الصينيون من أمر بلاد أفريقيا الشرقية
وفى أسمائها عندهم)

كتاب «شو – فان – شى»

(الذى صنفه باللغة الصينية)

(شاو–جو–كوا)

فى تجارة أهل الصين والعرب خلال القرنين الثانى عشر
والثالث عشر من الميلاد

ترجمه الى الانكليزية
فريدريك هيرس و. و. روكهيل
وطبع فى بطرسبورج سنة ١٩١١

سواحل بربره وبالصينية «پى – پا – لو»

يوجد ببلاد پى – پا – لو أربع مدن وما عداها فقرى صغيرة لا يكف أهلوها من محاربة بعضهم البعض. وسكانها يعبدون الله ويعتقدون بالجنة ولا يعبدون بوذا.

وفيها عدد كبير من الجمال والغنم ، ويأكل أهلها اللحوم ويشربون ألبان النوق ويتغذون بالخبز المجمر . ومن محاصيلها الاخرى العنبر الخام والأفيال الضخمة والعاج وقرون الخرتيت . ومن أسنان الفيلة ما تبلغ زنة السن الواحدة مائة كتي وأكثر . اما قرون الخرتيت فتزيد زنة القرن الواحد عن عشرة كتي .

ويكثر بالبلاد البتشوك والصمغ اللين والمرّ ودرق السلاحف وهى سميكة جداً ومرغوب فيها كثيراً بالبلاد الاخرى .

ويكثر فيها نوع من الطير كبير ارتفاعه ست أقدام أو سبع . وهو يطير بجناحيه ولكنه يسف سفاً .

وبالبلاد حيوان متوحش اسمه تسولا وهو يشبه الجمل وفى ضخامة الثور ولونه ضارب الى الصفرة وارتفاع رجليه الاماميتين خمس أقدام ورجليه الخلفيتين ثلاث ورأسه مرتفع ومتجه إلى الامام وسمك جلده بوصة واحدة (لعله يريد الزراف)

وبالبلاد أيضاً نوع من البغال معلم الجلد بخطوط صفراء وبيضاء وسوداء ويعيش فى الجبال (لعله يريد حمار الوحش) وسكان البلاد ماهرون فى الصيد والقنص ويرشقون هذه

الحيوانات بالنبال المسمومة للاستيلاء عليها .

***

سواحل السومال وبالصينية «شونغ — لى»

يمشى سكان بلاد شونغ — لى عارية رؤوسهم حافية أقدامهم متدثرين بالقطانى وليس لهم لباس للصدر ولا يعتمون لأن الصدريات والعمائم امتياز للوزراء ، وحق من حقوق حاشية السلطان أو ولى الأمر .

ويعيش ملكهم فى منزل مشيد بالطوب ومغطى بالغضائر القاشانى اللامعة . أما رعاياه فيعيشون فى أكواخ متخذة من أغصان النخل ولها سطوح من القش المجدول وغذاؤهم الخبز المجمر ولبن الغنم والنياق وفى البلاد كثير من النياق والبقر والغنم . وتكثر فى بلاد طاشى العطريات والعقاقير والافاويه .

والكثيرون من أهلها يباشرون السحر فهم يتشكلون باشكال الطيور والحيوانات البرية أو المائية ويخشى الناس لذلك بأسهم . واذا اشترك احدهم فى تجارة مع رجال سفينة أجنبية ووقع بينه وبينهم خلاف ، فيكفى أن يتمتم بعبارات سحرية ليجعل السفينة لاتتحرك الى الامام ولا الى الخلف ولا يمكن انقاذ السفينة من هذه الورطة إلا بارضاء الساحر .

وقد حرمت الحكومة على السحرة مباشرة السحر على هذا الوجه لما فيه من تعطيل التجارة .

وفى كل يوم تهبط طيور كثيرة فى أنحاء الصحراء فاذا علت الشمس طارت واختفت فلا يبقى لها أثر . والناس يصيدونها بالشراك ويأكلونها وهى لذيذة الطعم جداً وأحسن فصل لصيدها الربيع ولكنها متى حل الصيف اختفت لتعود فى السنة المقبلة . واذا مات أحد أهل البلاد واستعد الناس لدفنه حضر أقاربه الأقربون والبعداء وقبض كل منهم على سيفه وذهب للقاء أهله فيسأله هؤلاء عن سبب الوفاة فاذا كان المتوفى قد مات قتيلا بيد رجل قالوا إننا سننتقم له بهذا السيف واذا قيل إنه لم يمت قتيلا بل مات بقضاء الله وقدره طرحوا سيوفهم أرضاً وبكوا وأعولوا .

وفى كل سنة يلقى البحر على الشاطىء مئات من الاسماك التى يبلغ طول السمكة منها مائتى قدم تقريباً وقطرها عشرين قدما وهم لا يأكلون لحوم هذه الاسماك بل يستخرجون منها المخ والنخاع والعيون ويتخذون من ذلك زيتاً يقدر بثلثماية طبق من السمكة الواحدة ثم يخلطون هـذا الزيت بمواد أخرى ويستعملونه فى الاستصباح وصناعة السفن . ويتخذ فقراء القوم من أضلع هذا السمك براطيم لتسقيف

البيوت . وعظام الظهر تتخذ لبعض اجزاء فى الابواب . أما الفقرات فيصنع منها الهاون . وبهذه البلاد جبل هو حد بلاد بى - پا - لو ومساحته أربعة آلاف « لى » وهو غير مسكون . ويستحصل من هذا الجبل على دم التنين وهو نبات صالح فى الطب وكذا أنواع الصبار . وفى المياه المحيطة بالجبل الكثير من السلاحف والعنبر الخام .

ولا يعلم الناس من أين يأتى العنبر الخام لأنه يظهر بغتة قطعاً تقذفها الامواج زنة القطعة الواحدة منها ثلاثة كتى أو خمسة أو عشرة ومتى ألقت الامواج به على الساحل اقتسمه الناس بينهم أو أخرجوا القوارب لجمعه وهو فى البحر

* * *

بلاد زنجبار وبالصينية « تس — أونغ — پا »

ان بلاد تس — أونغ — پا واقعة بجزيرة فى جنوب هو — تش — أ — لا . وبغربيها جبل كبير وسكانها من طا — شى ودياناتهم طا — شى يأتزرون بقماش قطن ازرق ويلبسون أحذية جلد احمر وطعامهم العجين والخبز المجمر ولحم الضأن . وبها قرى عديدة وسلاسل آكام وصخور .

وطقس البلاد حار وليس لها شتاء . اما محصولها فالفيلة واسنانها والذهب الخام والعنبر الخام وحب الصندل الاصفر

وترد السفن الى هذه البلاد فى كل سنة من بلاد هو — شى — أ — لا و طا — شى الواقعة على امتداد الشاطىء وتجلب اليها الاقمشة القطنية البيضاء والاوانى الصينية والنحاس والقطن الاحمر للاتجار بها .

*
* *

جزيرتا بمبا ومدغشقر وبالصينية « كاؤن ـ يون ـ تسى ، أونغ ـ كى »

هذه البلاد واقعة بالبحر فى الجنوب الغربى وهى ملاصقة لجزيرة كبيرة وبها عادة ب ـ أنغ هائل الجسم وهو طير يحجب الشمس اذا طار فاذا التقى طائر ب ـ أنغ بجمل وحشى ابتلعه . واذا عثر الانسان على ريش ب ـ أنغ أمكنه ان يصنع منه دلوا للماء اذا قطع جزءا من قصبة الريشة .

ويوجد بها الفيلة الضخمة والعاج وقرون الخرتيت .

وبالجهة الغربية جزيرة فى البحر فيها قوم متوحشون سود الاجسام متجعدو الشعر فى التواء . ويخدعهم الناس بان يقدموا اليهم طعاما ثم يقبضون عليهم ويجلبونهم الى بلاد طا ـ شى حيث يباعون باثمان غالية ويستخدمون لحراسة المنازل ويقال إنهم ينسون أهلهم واقاربهم بعد زمن قصير .

ملحق

بتحقيق بعض اسماء الاعلام التي وردت فى هذا الكتاب
ورسم بعضها باللغة الفرنجية

(ملحوظة)

الكلمات الوارده فى هذا الملحق هى التى توجد أمامها فى الكتاب علامة* فعلى من يريد من القراء تبين أصل كلمة منها أو الالمام ببعض الحقائق عنها ان يرجع اليها فى باب الملحق المقابل للباب الاصلى الذى قرأها فيه

الكلمات الواردة فى الباب الاول

سيزو ستريس الثانى Sésostris ii

هو رعمسيس الثانى ميامون فرعون مصر خلف أباه سيتى الأول على عرش مصر فى سنة ١٣٣٠ قبل الميلاد وتوفى بين سنتى ١٢٧٠ و ١٢٦٠ قبل الميلاد وقد حارب الشام وحالف الحيثيين بعد خصومات وعداوات دامت طويلا بينه و بينهم وقد رفعه أهل مصر والنوبة الى مصاف الآلهة واستكشفت جثته فى سنة ١٨٨١

عصيون جابر Asion - Gaber

باللغة العبرية معناه « الرجل الجبار » وهو بلد بقرب أيلة القريبة من بلدة العقبة على خليج العقبة من الشط الاسيوى للبحر الأحمر فى قطر « إيدوميا » ـ وقد ورد ذكره فى التوراة (كتاب الملوك الاول ، سفر ٤ ، إصحاح ٢٣ ، عدد ٣٥ و ٣٦) : « ثم ارتحلوا من عبرونة ونزلوا فى عصيون جابر ونزلوا فى برية صين وهى قادش » وفى (إصحاح ٢٢ عدد ٤٨) : « وعمل يهوشافاط سفن ترشيش لكى تذهب الى أوفير ـ زفر ـ لاجل الذهب فلم تذهب لأن السفن تكسرت فى عصيون جابر . حينئذ قال أخزيا بن أخابا ليهوشافاط ليذهب عبيدى مع عبيدك فى السفن فلم

يشأ يهوشافاط » . .

أيلة Ailath

جاء في معجم البلدان عن أيلة (بسكون الياء) انها مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطىء بحر القلزم (خليج العقبة) تعد في بلاد الشام . قال ابن المنذر : « سميت بأيلة بنت مدين بن ابراهيم عليه السلام .

وقد ورد ذكر أيلة في (اصحاح ٩ عدد ٢٦ من سفر الملوك الاول) : « وعمل الملك سليمان سفنا في عصيون جابر التي بجانب أيلة على شاطىء بحر سوف في أرض أدوم فارسل حيرام في السفن عبيده النواتية العارفين بالبحر مع عبيد سليمان فأتوا اوفير — زفر — »

ايدوم Edom, Edumée

ارض تشمل جنوب يهوذا وشمال بلاد العرب الحجرية النسبة اليها أدومي وايدومي . ولفظة أدوم باللغة العبرية معناها الأشقر أو الشقراء . والادوميون سلالة أشعيا الذين قطنوا الجنوب الشرقي من الاراضي المقدسة . وقد ورد ذكر « أدوم » في (اصحاح ٩ عدد ٢٦ من سفر الملوك الأول) الذي أوردناه بنصه في مادة أيلة (انظر أيلة)

حيرام Hiram

حيرام هو ملك صور فى عهد سليمان النبي ويسمى ايضا حيروم . وهو الذى قدم الى سليمان العمال ومواد البناء التي لزمت لتشييد هيكل بيت المقدس وأوفد اليه أيضا مهندسه حيرام للقيام على بناء هذا الهيكل ؛ وقد قتله ثلاثة من رفقائه حسدا منهم له على فضله وحذقه فى صنعته. ولحادثة قتله دخل فى الطقوس الماسونية على عهدنا عند الترقية الى درجة الاستاذية . وقد ورد ذكر حيرام أو حيروم او حورام فى (اصحاح ٨ عدد ١٧ من الاخبار) قال : « حينئذ ذهب سليمان الى عصيون جابر والى أيلة على شاطىء البحر فى أرض أدوم وارسل له حورام بيد عبيده سفنا وعبيدا يعرفون البحر فأتوا مع عبيد سليمان الى اوفير ـ زفر ـ واخذوا هناك ٤٥٠ وزنة ذهب واتوا بها الى الملك سليمان »

زفر (أوفير) Ophir

بقعة من سفالية (موسامبيق) يكثر بارضها ركاز الذهب وورد اسمها فى التوراة بحسب اللفظ الافرنكى (أوفير) وقد عرفها العرب من عهد بالقيس وبعد الاسلام اذ كانوا فى العهدين يستخرجون منها الذهب ولهم فيها مقابر

لاتزال مشهودة . وقد رآها الكابتن بانجر الفرنسى وعلى قبرياتها اسماء اصحابها منقوشة بالعربية وهم الذين اسموها زفر وفى غضون الكتاب من تحقيق لفظة أوفير ما يغنينا عن الاطالة فيه هنا

الوزنة Talent

التلان من موازين قدماء اليونان الذين كانوا يسمونه تلانتون . وهو يعدل بميزان اليوم ٢٨ كيلو جراما فاذا قيل تلان ذهب كان معناه نقود الذهب التى تزن هذا القدر اى ٥٦٠٠٠ فرنك ذهبا ، اوقيل تلان فضة كان معناه نقود الفضة التى تزن ذلك القدر أى ٥٦٠٠ فرنك فضة . وقد جاء فى التوراة ترجمة التلان بالوزنة ففى (اصحاح ٩ عدد ٢٦) بعد الاشارة الى عمل الملك سليمان السفن فى عصيون وارسال حيرام عبيده فى السفن الى أوفير ـ زفر ـ « أنهم اخذوا من هناك ذهبا اربعمائة وزنة وأتوا بها الى الملك سليمان »

الاخبار Paralipomènes

كلمة يونانية معناها الاشياء التى سقطت أو نسيت سهوا وتفيد هنا كتابين من التوراة يكملان سفر الملوك ويتضمنان ما أغفل من الحوادث الى عهد خلاص بابل ، والظاهر انهما كتبا على أثر هذا الحادث مباشرة . وفى

الثوراة البروتستانتية تسمى ذانك الكتابان بكتابى «الاخبار»

الميو جيان M. Guillain

هو مؤلف كتاب «الوثائق التاريخية والجغرافية والتجارية» الذى عرب بالتلخيص فى هذا المجلد وكان من ربابنة بحرية الحكومة الفرنسية فى المحيط الهندى . وقد ألفه فى ثلاثة مجلدات كبار يتجاوز عدد صحفها ١٥٠٠ واهداه فى سنة ١٨٥٦ الى الفيس اميرال رومان دى فوسيه .

كاترمير Quatremére

من اساطين المستشرقين الفرنسيين وفحول العلماء المحققين له تصانيف كثيرة ورسائل شتى ومذكرات مفيدة فى عويصات المسائل التاريخية الشرقية ومنها مذكرته التى نشرت سنة ١٨٤٥ فى تحقيق موضع مدينة زفر . وقد ورد ملخصا فى اوائل هذا المجلد

المبر Malabar

جزء من ولاية حيدر آباد الدكن يقع على السواحل الغربية من الهند . وقد أورد ابن ماجد هذه الكلمة فى كتابه (الفوائد فى اصول علم البحر والقواعد) على ضروب شتى فرسمها منيبار فى قوله : «ان الذى يستقبل الخليج البربرى من باب المندب خارجا الى البحر الكبير ان كان

لمنيبار » الخ، ثم مليبار في قوله : « بل الخوف منه فى مناخ مليبار » الخ . وقد قرأنا فى مقال لسعادة احمد باشا زكى نشرته جريدة للسياسة الصادرة بتاريخ ١٥ يناير سنة ١٩٢٦ ما يأتى: « ولم تدخل تركيا فى مصر الا بعد ان كان البرتقاليون قد انتهوا من استكشاف الهند وامتلاك بلاد المعبر، فوافق بذلك ابن بطوطه فى تسميته ملبار بهذا الاسم فى الجزء الثانى من رحلته تحت عنوان « ذكر سلطان المعبر » .

ظفار الحوض Dafar , Zhafar

هى التى ظن البعض أنها زفر التى بسفالية بموسامبيق وانما ظفار سلسلة قرى تمتد فى بلاد العرب على مسيرة ثمانى عشرة ساعة أو يومين بسير القوافل بمحاذاة ساحل بحر الهند، وامتدادها بين مرباط والرأس الصغير . قال ياقوت الحموى : « بينها وبين مرباط خمسة فراسخ وهى من أعمال الشحر » .

جوسلن Gosselin

هو الجغرافى الفرنسى جوزيف جوسلن المتوفى سنة ١٨٣٠ بحث بحثاً مستفاضا فى تعيين موقع مدينة زفر فى الجزء الثانى من كتابه الموسوم (ابحاث فى الجغرافيا الاصولية عند الاقدمين) .

الجمون Algumim

هو بلا خلاف نوع من أشجار افريقية الشرقية كانت تصنع بخشبه السفن والآثاث لجودته . وقد اختلفوا فى أصل هذه الكلمة ودلالتها حتى قال بعضهم انها اسم لشجرة الصندل . ولكن الراجح انها شجرة « الجمون » المعروفة فى زنجبار . قال ابن بطوطة فى رحلته أثناء كلامه عن جزيرة منبسة أو منبسى : « هى جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر ولا بر لها وأشجارها للوز والليمون والأترج ولهم فاكهة يسمونها ـ الجمون ـ وهى شبه الزيتون ولها نوى كنواه » الخ ، فالجمون هو ثمرة الشجرة المسماة بهذا الاسم والتى تحول اسمها بالتحريف الى « الجميم » .

سرنديب Ceylan

جزيرة فى بحر الهند تابعة لهندستان ويفصل بينهما مضيق يختلف عرضه من ١٢٠ كيلومتراً الى ١٦٠ وأعظم طول لها هو ٣٠٠ كيلومتر وأعظم عرض ٢٥٠ ومحيطها ١٤٠٠ كيلومتر ومسطحها ٦٤٠٠٠ كيلو متر مربع . وفى التواريخ الأثرية أن آدم عليه السلام هبط سرنديب بعد خروجه من الجنة ، ولعل ذلك هو سبب تسمية الصخور التى بينهما

والساحل الهندى بقنطرة آدم . وفى معجم البلدان أن سرنديب جزيرة عظيمة فى بحر هركند وان فيها الجبل الذى هبطه آدم ويقال له الرهون . وعاصمتها مدينة كولومبو التى نفى اليها احمد عرابى باشا وأصحابه وظلوا بها الى سنة ١٩٠١ ثم عفى عنهم .

ملعقة Malacca

شبه جزيرة بالطرف الجنوبى من الهند الصينية وسكانها من الملايو والزنوج وبها بوغاز ملقا الموصل من المحيط الهندى الى بحر الصين . وقد اختلف المؤلفون فى رسمها فتصوير نطقها عند الافرنج ملكا بتشديد الكاف وجرى المؤلفون المعاصرون باللغة العربية على هذه التسمية بقلب الكاف قافاً فقالوا ملقا . ولم نجد فى معجم البلدان أثراً لهذه المادة فى حرف الميم ولكننا رأيناه على صور شتى فى (كتاب الفوائد فى أصول البحر والقواعد) لاحمد بن ماجد السعدى فقد أسماها فى موضع ملاقة إذ قال : « من جزيرة شمطرة وملاقة مول » وفى آخر ملعقة إذ قال: « بر سنجافور بلد العود النقى وبر ملعقة » وقال فى قصيدته المسماة (حاوية الاختصار فى أصول علم البحار) :

« الى ملعقة استبع أوضاعى والماء عندك عشرة بالباع »

شمطرة Sumatra

سمطرة أو شمطرة أكبر جزيرة من مجموعة جزر السوندة تواجه شطوطها الشمالية الشرقية الشطوط الجنوبية الغربية من شبه جزيرة ملقا أو ملاقا أو ملعقة فيتكون من هذا التقابل المضيق الذى أشرنا اليه فى المادة السابقة وهى خاضعة لهولندة . ولم نجد أثراً لهذه الكلمة فى معجم البلدان وقد أسماها ابن ماجد فى (حاوية الاختصار) شمطرة إذ قال : « ميقاماروس جبل فى شمطرة » وقال فى (كتاب الفوائد) : « ومهكفنبج من جزيرة شمطرة » الخ

التكئيم Toukkéim

المفهوم من عبارة العلامة المستشرق كاترمير التى أوردها المؤلف فى مساق تفنيد زعم من قال أن مدينة زفر من مدن الهند ان التكئيم الذى كان ملاحو صور فى عهد سليمن عليه السلام يجلبونه منها هو الطاؤوس . ولكن واحداً من أهل الذكر فى اللغة العبرية أكد لنا أن التكيم وهو مفرد التكئيم حيوان بشكل الفأرة لا ينظر ولكنه دقيق السمع ويوجد بالبساتين والمزارع ، والناس يقتلونه بوضع البصل فى الثقوب التى يأوى اليها . وأكد لنا آخر منهم أن التكيم هو الببغاء .

Ebn - Batouta ابن بطوطه

هو أبو عبد الله محمــد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى المعروف فى بلاد الشرق باسم شمس الدين ، خرج لرحلته من فاس فى يوم الخميس الثانى من شهر رجب عام ٧٢٥ من الهجرة (١٤ يونيه سنة ١٣٢٤ من الميلاد و ٢٠ بؤنة سنة ١٠٤١) . وعاد اليها فى ذى الحجة ســنة ٧٥٤ فتكون رحلته قد لبثت تسعاً وعشرين ســنة وقد ترجم كتاب رحلته واسمه (تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاســفار) الى اللغات الأوروبية وطبعت الترجمة الفرنسية مع الاصل العربى فى سفر واحد .

Firischtah . فارس شاه

أورد كاترمير فى تحقيق موقع زفر هــذا الاسم على اعتبار أنه مؤلف مصنف فى (تاريخ الهند) أثبت فيه ان الذهب كان يستخرج من بلد فى الهند اسمه كاون فى الطرف الشمالى منها . ولم نهتد الى حقيقة اسم هــذا المؤلف ولعله « فارس شاه » .

D' Anville دانفيل

Bruce . بروس

عالمان محققان أثبتا أن موقع زفر قارة افريقية لا الهند

أو اليمن كما وهم الكثيرون . ولأولهما رسالة فى الموضوع عنوانها (مذكرة عن بلاد زفر التى كانت تذهب اليها أساطيل سليمن للبحث عن الذهب) . أما بروس فرحالة اسكتلندى حاول استكشاف ينابيع النيل فلم يفلح وقد توفى سنة ١٧٩٤ .

سفالية Sofala

اقليم من افريقية تمتد سواحله فيما يلى مصب نهر زمبيز جنوباً وهو تابع للبرتقال . وقد اختلفو فى رسم هذا الاسم، ففى كتب الجغرافيا المصرية سوفالا مجاراة للنطق به فى اللغات الافرنكية ولكنا قرأناه على ضروب شتى فى المصنفات العربية القديمة فابن ماجد فى كتبه التى أوردنا ذكرها يعبر عنها تارة بأرض السفال فى قوله : «وهو الذى عليه القياس فى أرض السفال» وطوراً بأرض سفالة وسفالية وأسماها الادريسى سفالة الذهب ، لأن زفر المشهورة به بقعة من بقاعها . وأسماها المسعودى بلاد سفالة . وهذه الاسامى على اختلافها أعرق فى الاصطلاح العربى من « سوفالا » الشائعة الآن فى كتبنا المدرسية .

ابن ماجد Ebn - Magid

هو الشيخ شهاب الدين احمد بن ماجد السعدى من

كبار ربابنة العرب فى البحر الأحمر وخليج البربر والمحيط الهندى وخليج بنجاله وبحر الصين . اشتهر بالبراعة فى فنه حتى لقب « أسد البحر » و « السائح ماجد » وله من المصنفات فى فنه (الفوائد فى أصول البحر والقواعد) وجملة قصائد وأراجيز فيه منها (حاوية الاختصار فى أصول علم البحار) و (المعربة) وكانت نسخة خطية من هذه المصنفات محفوظة فى دار الكتب الأهلية بباريس تحت رقم ٢٢٩٢ فعنى المسيو جبريل فران من الوزراء المفوضين بنشرها فى سنة ١٩٢٢ بالفوتوغرافيا . وكان ابن ماجد عائشاً فى عهد السلطان قايتباى من ملوك مصر الجراكسة وهو الذى هدى فاسكودي غاما البرتقالى الى طريق الهند فى سنة ٤٩٨ للميلاد الموافقة سنة ٩٠٠ من الهجرة .

البقم Bakam

جاء فى القاموس المحيط للفيروزابادى . « البقم بتشديد القاف خشب شجره عظام وورقه كورق اللوز وساقه حمراء يصبغ بطبيخه ويلحم الجراحات ويقطع الدم المنبعث من أى عضو كان ويجفف القرح » ويسمى أيضا بخشب البرازيل وهو من الاخشاب التى ذكر كاترمير أن سفن اليهود والفنيقيين كانت تحمله من أفريقيا الى أرض

فلسطين مع ماكانت تحمل من الذهب وحاصلات سواحل
أفريقيا الشرقية .

القنا Kanâ

القنا شجر فى شرق افريقية تؤخذ منه المادة الراتنجية
المعروفة عند العطارين بالقناوشق وكان خشبه كخشب
الساج والبقم يصلح فى العمارات وصناعة الأثاث .

الساج SadJ

جاء فى أقرب الموارد : « الساج شجر عظيم جدا
ينبت ببلاد الهند وخشبه أسود رزين لا تكاد الأرض
تبليه الواحدة ساجة ، تقول رأيت فى أساس بنائه ساجة » .

موسامبيق Mozambique

قطر من أفريقيا الشرقية يقع تجاه جزيرة مدغسكر
وبينه وبينها بوغاز موسامبيق وفى هذا القطر أرض سفالة
التى من بقاعها زفر المشهورة منذ قديم الزمان بركازها
الذهبي وهى تابعة للبرتقال منذ جاءت أساطيلهم اليها فى
القرن الخامس عشر من الميلاد .

بولهر Boulhar

قرأنا فى بعض الابحاث أن بلدة بولهار Boulhar
هى ما يريده الفرنجة باسم Cap des aromates رأس البهار

أو الأفاويه أو الاطياب ولكن تأكد لنا أن بلدة بولهار الواقعة فى شمال الصومال غربى ثغر بربرة هى غير ذلك الرأس الذى ليس هو إلا رأس جردفون وأن نسبته الى البهار أو الافاويه أو الاطياب صفة من صفاته الكثيرة التى سنبينها بعد في مادة جردفون . أما كلمة بولهار فلم نهتد الى حقيقة أصلها مع أن المدينة المسماة بها كانت تابعة لمصر ثم انتزعت منها سنة ١٨٨٤ ولعلها أبو الحار أو أبو الحر أو بولهار كما يلفظ بها الفرنجة . وعلى كل حال فاننا لم نعثر على أثر لهذه الاسماء فى مظان وجودها من المصنفات العربية .

مني ، جره Minéa , Garha

صقعان على الخليج الفارسى من ناحية جزيرة العرب

سبية Sabéa

سبية بوزن ظبية كما يقول ياقوت فى معجمه قرية بالرملة من أرض فلسطين . وهى بلد قديم ولعلها كانت فى موقع بئر سبع وكانت فى العهد القديم مزدهرة بتجارتها اذ كانت تجلب اليها الأطياب والأفاويه والحديد والذهب من البلاد البعيدة ، والنسبة اليها سبيي . وقد ورد ذكرها فى التوراة .

بترا Pétra

عاصمة مملكة أيدوم القديمة واليها ينسب قسم بلاد العرب الموصوفة بالحجرية لوعورتها وجدبها وعرائها . وقد ذكرها داود عليه السلام فى مزاميره بقوله : « من ذا الذى سيقودنى الى المدينة المصينة » لأن بترا مدينة منقورة فى الصخور ، فهى أحدي عجائب الآثار الأثرية وموقعها على الحد الشمالى الغربى لصحراء العرب فى منتصف الطريق تقريبا بين خليج العقبة والبحر الميت ، فوق رأس الجبل الذى نحتت بأحد صخوره ، ولذلك ذكرت فى المزامير بأنها المدينة الحصينة . وقد ذكرها بهذا الأسم كل من استرابون المؤرخ الذى كان عائشا فى القرن الأول قبل الميلاد وبليناس الكاتب الرومانى الذى كان عائشا فى بداية القرن الأول منه .

ارسينوة Arsinoe

اسم لمدينتين من مدن مصر أطلق عليهما هذا الأسم اكراما وتخليدا لذكرى صاحبته ارسينوة أخت بطليموس فيلاذلفوس وزوجته ، أحداهما كانت واقعة على الخليج الهيروبوليتى على مسافة ١٢٥ ميلا من بيلوزة (الفرمة) فى موقع بى باخيروت الذى ورد ذكره مرارا في التوراة وهو

قريب جدا من السويس وقد سميت تلك المدينة فيما بعد باسم كليوباتريس نسبة الى كليوباترة التى عنيت بها ووسعت نطاقها . أما مدينة أرسينوه الثانية فكانت موجودة أيضا من قبل ثم أسميت بهذا الأسم للسبب المتقدم .

السبيون Sabéens

هم أهل سبية السالفة الذكر لا أهل سبأ كما ورد فى صحيفة ٢٥ سهوا

نيارك Néarque

من قواد جيش الأسكندر حارب معه فى الهند واستكشف سواحل آسيا ونهرى الهندوس والفرات .

جدروزيا Gédrosie

إقليم فى الهند تمتد سواحله بين جبل كربيلا ومصب نهر الهندوس أو السند وكانت هذه المنطقة جزءا من بلاد فارس القديمة وتسمى أيضا اقليم مكران .

عربيته Arabitoe

قبض العرب منذ العصور الواغلة فى القدم على زمام التجارة البحرية فى الشرق فكانت سفنهم هى الوحيدة التى تمخر عباب المحيط الهندى وبخاصة فيما بين بلادهم والهند التى كانت لهم جالية كبيرة على سواحلها قرب نهر الهندوس

هى التي أسماها الهنود عربيته أى العرب . ولما أرسل اسكندر المقدونى قائد أسطوله نيارك لاستكشاف بحر الهند وجد بسواحل جدروزيا آثارا دالة على نفوذ العرب من مدن عربية وأساطيل عربية وكان الربان الذى ارشده فى ذلك البحرعربيا بل طرقت سمعه هنالك الفاظ عربية منها كلمة جزيرة وغيرها .

باب المندب Bab - el - Mandeb

هو المضيق بين البحر الأحمر والخليج البربرى ويسمى أيضاً باب المندم . قال ابن ماجد انه رأي ذلك فى كتب تقويم البلدان . وتعترض هذا المضيق جزيرة بريم فتجعله ممرين يسمى أحدهما المنهال وهو مابينها وآسيا والآخر الميون وهو مابينها وافريقيا (راجع فى موضوع باب المندب الجزء الأول من رحلة الطواف حول أفريقيا بالسفينة نازيروز) .

سبأ Saba

فى معجم البلدان أرض باليمن مدينتها مأرب بينها وبين صنعاء ثلاثة أيام سميت كذلك لأنها كانت منازل ولد سبأ ابن يعرب بن قحطان ، وفى القاموس المحيط بلدة بلقيس . ويقال « تفرقوا أيدى سبأ » ضربا للمثل بهم فى تفرقهم

لما مزقهم الله بسيل العرم كل ممزق إذ أخذت كل طائفة منهم طريقا . ومعنى اليد الطريق وأهل سبأ يسمون السبئيين ، وهم غير السبييين أهل سبية التى فى فلسطين . وفى اليمن موضع آخر يسمى سبأ غير سبأ بلقيس . وفى سورة سبأ : « جئتك من سبأ بنبأ يقين » .

الاطلانطى Atlantique

الأطانطى وصف للاقيانوس الذى بين أوربا وأفريقيا وقارة أمريكا . وأسماه ابن ماجد ببحر اقيانوس ، ويسمى أيضا بالمحيط الأطلسى نسبة الى أطلس الذى جاء فى أساطير الأقدمين أنه أبو الفتيات المسميات أطلنطيد وهن اللائى صرن من كواكب السماء . والأقيانوس الأطلنطى أو الأطنطيكى أو الأطلسى يبلغ قياس مسطحه ١٠٠ مليون كيلو متر مربع . وقد حقق الملاحون بواسطة المسابر أن عمقه فى جهتين معينتين منه يبلغ ٨٥٠٠ متر ، وحققوا كذلك ان فيه تيارات كثيرة شديدة أهمها التيار الساخن المعروف بتيار جولف ستريم وهو الذى يبدأ من خليج مكسيكا منصرفا الى سواحل أوروبا الغربية فيحدث بها دفئا فى أوقات البرد .

جبل طارق Gibraltar

راجع فيما يلي مادة (أعمدة هرقول)

لوبية Lybie

لوبية كما جاء فى معجم البلدان موضع بين الاسكندرية وبرقة النسبة اليه لوبى . قال أبو الريحان البيرونى : كان اليونانيون يقسمون المعمورة بأقسام ثلاثة تصير أرض مصر مجتمعا لها ، فما مال عنها وعن بحر الروم نحو الجنوب فاسمه لوبية ويحدها بحر أقيانوس المحيط الأخضر من جانب المغرب (أى المحيط الأطلانطى) وبحر مصر من جهة الشمال وبحر الحبش من الجنوب وخليج القلزم وهو بحر سوف أى البرذى من جانب المشرق ، وهذا كله يسمى لوبية والقسم الآخر يسمى أورَق والثالث آسيا . ولوبيا بالألف أسم موضع ولعله لوبية .

الدكتور فنسان Dr Vincent

مؤلف انكليزى له مصنف جليل اسمه (رحلة الطواف ببحر أرثريا) وقد رجع فى مصنفه هذا الى كثير من العلماء المحققين والمؤلفين ومنهم الأدريسى .

هيرودوتس Hérodote

مؤرخ يونانى ولد فى هاليكارناس وهو الملقب بأبى

التاريخ لأن مصنفاته فى تاريخ الشعوب من أنفس الآثار التى تركها الكتاب المتقدمون ، وكان عائشا فى القرن الخامس قبل الميلاد . وقد زار مصر ووصفها وصفا دقيقا وهو الذى قال عنها : « مصر هبة النيل » .

اكزرسيس Xercés

ساتاسب Sataspe

قادس Gadés

أو جادس إحدى مدن اسبانيا القديمة والنسبة اليها جادتانى . وتسمى فى عصرنا كادكس وأسماها العرب قادس . وهى الآن ثغر بجنوب اسبانيا على المحيط الاطلنطى من إقليم اندلس عدد سكانه ٧٠٠٠٠ نسمة شهير بنبيذه (النبيذ القادسى) وزيته وفاكهته .

بومبونيوس ميلا Pomponius Mila

كرنيليوس نيبوس Cornélius Népos

مروى Méroe

هانون Hanon

هانون ملاح قرطاجى من أهل القرن الخامس قبل الميلاد شرع بالطواف بحراً حول القارة الافريقية وألف فى ذلك رحلة ترجمت الى اللغة اليونانية منذ قديم الزمان ترجمة

لا تزال محفوظة . ومنها الملخص الوارد فى هذا الكتاب (أنظر صحيفة ٣٠) .

ادوار شارتون Edouard Charton

قرطاجه Carthages

أصلها «كارت هداتش» مدينة افريقية أسست فى القرن السابع قبل الميلاد على شبه الجزيرة التى تقوم حاضرة تونس الآن بجوارها على أيدى الفينيقيين . والمأثور أن المستعمرين الفينيقيين جاءوا الى هذا المكان بقيادة ديدون احدى أميرات صور وخططوها فلم تلبث أن صارت عاصمة جمهورية بحرية ذات سلطة وبأس وحلت فى الغرب محل صور فى الشرق واتخذت لها مستعمرات فى اسبانيا وجزيرة صقلية وأنفذت جماعات من ملاحيها الى المحيط الاطلنطلى أى بحر الظلمات وقامت بينها ورومية حروب طويلة تعرف فى التاريخ بالحروب البونيكية وكان بطلها الحامى لحوزتها هو انيبال . وبالرغم من دفاعه المجيد فقد استولى الرومانيون بقيادة سبيون الافريقى عليها فى نهاية الحرب البونيكية الثانية ثم نهضت من هذه العثرة فقضى الرومان عليها القضاء الاخير إذ دمروها تدميراً بعد حصار طويل شديد ولكنها لم تلبث أن عادت الى مجدها الأول وظلت زاهرة الى

اخريات القرن السادس من الميلاد بعد أن أصبحت عاصمة الرومان فى أفريقية .

Baal بعل

هو معبود الفينيقيين (انظر مادة بعل مولوخ)

Colonnes d' Hercule اعمدة هرقول

أعمدة هرقول هى جبل طارق سميت هكذا فى أساطير اليونان الاولين إذ كانوا يعتقدون ان هرقول احد أبطالهم الذين امتازوا بالقوة والبأس وأنه اتكأ بقدميه وكتفيه على جبلى كالبيه وأبيلا ففصلهما عن بعضهما فمر الماء من بينهما موصلا المحيط الاطلنطى بالبحر الأبيض المتوسط وقد أسمى العرب هذا المجاز ببحر الزقاق والجبل الذى فى جواره بجبل طارق نسبة الى طارق بن زياد فاتح الاندلس .

Neptune نبتون

Lixus ليكسوس

Troglodites تروغلوديت

كلمة مؤلفة من كلمتين يونانيتين الاولى « تروغلو » ومعناها الثقب أو الوكر أو العش ، والثانية « دوين » ومعناها دخل أو ولج . ومعنى تروغلوديت سكان المغائر . ويطلق هذا المعنى أيضاً بحسب ما ذهب اليه علماء تخطيط

البلدان الاقدمين على قوم كانوا يسكنون الاصقاع الجنوبية الشرقية من القطر المصري . ومن الغريب أنه لا يزال يوجد من الترغلوديت سكان المغاور فى فرنسا نفسها وعلى مقربة من باريس .

ستاده Stade

مشتقة من كلمة ستاديون اليونانية وهى عند قدماء اليونان وحدة لمقياس طولى يعدل طوله ٦٠٠ قدم يونانى . وكانت تفيد عندهم أيضا معنى مضمار السباق على الأقدام فيقال الأستادة الأولمبية ، وتفيد فى عصرنا هذا المعنى .

سيرنا Cyrna

سيرنا جزيرة هى آخر ما انتهى اليه بعض الرحالة ومعناها باليونانية النهاية أو الغاية القصوى وتسمى قورنى .

كريتيس Crytis

فرس البحر Hippopotame

فرس البحر أحد الحيوانات الثديية التى تعيش على ضفاف الأنهار فى أفريقية . والنوع الوحيد المعروف منه حتى الآن هو المنتشر ببلاد سنغال والسودان المصرى ونتال وهو هائل الجثة عارى البشرة من الشعر يبلغ طوله أحيانا أربعة أمتار ويعيش سابحا فى الماء طول وقته الا اذا اضطر

للغذاء بالنباتات والحشائش فانه يخرج عندئذ الى ضفاف الأنهار يبتغى رزقه منها . وهذا الحيوان آخذ بالانقراض لتهافت الناس على صيده للانتفاع باسنانه التى تفوق غاج اسنان الفيلة جودة ونفاسة ويصلح جلده لعمل الدرق ولحمه للطعام على رداءة فى رائحته .

هسبيريوم سيراس Hesperium Siras
ثيزن أوشيما Théon Ochima
نوتو سيراس (قرن الجدوب) Notho Siras
الغوريلا Gorille

الغوريلا قرد ضخم قبيح المنظر يعيش فى أفريقية الاستوائية هو الذى أصطلح الناس على تسميته بالغول . وهو أضخم انواع القرود عامة اذ تزيد قامته على قامة الانسان فى ضخامة جرم وطول ذراعين فى غلظ . ولونه أسود وشعره طويل شثن مجعد . ومقره الغابات الرطبة التى لايستطيع أحد أن ينفذ اليها ومع ضخامة جسمه وغلظ جرمه وقبح شكله فأنه سريع الخوف عديم الذكاء ومع أنه لخونة وجبنه يتحاشى التعدى على الانسان فأنه أعظم مايكون شراسة وتنمرا اذا أصيب بجرح أو أى أذى . وهو الآن آخذ بالانقراض لاتساع نطاق العمران .

بعل مولوخ Baal Moloch

بعل أكبر آلهة الفينيقيين وكان لكل مكان ومدينة فى ديانتهم اله يسمى بهذا الاسم خاص بها فكان يقال بعل صور وبعل صيدا . وكانت كلمة بعل مع ذلك تدل بصفة خاصة على الديانة الاصلية للفينيقيين ، وكانت تمثل عندهم قوى الطبيعة . أما الاشوريون فكانوا يسمون بعلا «بل» . أما كلمة مولوخ أو مولوك فمعناها الملك، وكان الكنعانيون يطلقونها للتعريف بالاله بعل اذ كانوا يعتبرون انه اظهر الآلهة وأكبرهم .

فيفيان دى سان مارتان Vivien de st Martin

عالم من أجل العلماء الفرنسيين فى فن تقويم البلدان ولد سنة ١٨٠٢ وقضى كل حياته فى التأليف فترك مصنفات كثيرة فى هذا الفن منها قاموسه الجغرافى الكبير ، وبحث فى جغرافية آسيا القديمة ووصف شعوبها وكتاب شمال أفريقية فى العهدين القديمين اليونانى والرومانى ، وهو المصنف الذى وردت الاشارة اليه مراراً فى الجزء الأول من كتاب الطواف حول افريقيا بالسفينة نازيرور ومن مصنفاته القيمة أيضاً رحلة فى بلاد الجراكسة ، وكتاب فى الجغرافيا اليونانية واللاطينية ببلاد الهند ، وتاريخ

عام للثورة الفرنسوية فى أربعة مجلدات، وتاريخ نابليون فى مجلدين وتاريخ عام فى الاستكشافات الجغرافية التى قامت بها شعوب أوروبا فى مختلف أقسام العالم وأنشأ فى سنة ١٨٦٣ مجلة عنوانها السنة الجغرافية، أوقفها على نشر الرحلات وذكر البعثات وحصر الاستكشافات الخ .

شيربرو Cherbero .

سير اليونى Sierra - Leone

هى الآن مستعمرة بريطانية على سواحل غرب افريقيا بين غينا الفرنسية وجمهورية ليبريا وعاصمتها فريتاون (أى المدينة الحرة) .

نيبوس (لانيبوس) Népos

اودكس Eudoxe de Cyzigue

لاثير (بطليموس) Lathyre (Ptolemée)

شعرانيات

كثيرات الشعر على البدن طويلاته .

السنديان

يوجد شجر السنديان بالجهات المرتفعة فى افريقية الشرقية ايضاً، نقول هذا وليس قصدنا تكذيب ماذكره فى هذا الشأن .

هومير Homére

أكبر شعراء اليونان فى العصور القديمة . وهو ناظم الالياذة (التى عربها المرحوم سليمان البستانى) والاوديسيه . وقد تنازعت سبع من مدائن اليونان شرف انتمائه اليها وأنها كانت مسقط رأسه . ويقول فريق من رجال العلم والادب فى عصرنا أن شاعراً بهذا الاسم لم يوجد فى عالم الحقيقة .

نيخاؤ Nichao

هو نيخاؤ الثانى أو نيخاؤوس فرعون مصر من الأسرة السادسة والعشرين الصاوية ، هو الذى عنى ببناء الاساطيل للاستيلاء بها على سواحل البحرين الأحمر والأبيض ، وندب لهذا العمل مهندسين من الأغريق انشأوا المعامل لبناء السفن وتجديد السفن القديمة وجعلوها من الطراز المعروف بالأغربة. وكان الملاحون الفينيقيون والقرطاجيون قد استكشفوا بسواحل افريقية بلاداً فيها الكثير من الذهب والعاج والأخشاب النفيسة والخيرات الوفيرة ، فلما بلغ الى نيخاؤ هذا الخبر أمر ملاحى الفينيقيين بالذهاب الى تلك البلاد فساحوا حول افريقيا فى ثلاث سنوات . وكان مسيرهم من البحر الأحمر الى المحيط الهندى فالمحيط

الاطلانطى فالبحر المتوسط من مضيق جبل طارق. وفيه وصلوا الى مصر . ونيخاؤ هذا هو صاحب مشروع إيصال بحر القلزم والبحر الابيض بقطع برزخ السويس وحفر قناة تسع سفينتين على أن يكون مبدؤها مدينة تل بسطه وآخرها بركة التمساح التي كان بحر القلزم يمتد اليها وقتئذ (راجع الجزء الاول من الطواف حول افريقيا بالسفينة نازيرور) . وكان قد سبقه الى هذا المشروع بعض فراعنة الاسرة المتممة للعشرين . قال هيرودتس ان مائة وعشرين ألف نفس هلكوا فى حفر تلك الترعة فتشاءم فرعون وأمر بالكف عنها خصوصاً وأن بعض الكهنة أخبره بان حظ الانتفاع بها سيكون لدولة اجنبية.

Scylax de Caryandre سيلاكس دكارياندر
Darius, fils d' Hystaspe داريوس بن هستاسب
Ctésias كتزياس
Artaxerce Mnémon ارتكزرسيس
Xénéphon كزينياون

من أشهر مؤرخى الأغريق وفلاسفتهم وقوادهم فى الأعصر القديمة وهو تلميذ سقراط الفيلسوف وقد ترك مصنفات قيمة توفى سنة ٣٥٢ قبل الميلاد

Aristote ارسطو أو ارسطاطاليس
أشهر فلاسفة الأغريق فى الأزمان السالفة وهو

مهذب الاسكندر الاكبر المقدونى ومعلمه وصديقه وكانت فلسفته فى العصور الوسطى موضع الدرس فى الشرق والغرب وقد توفى سنة ٣٢٢ قبل الميلاد تاركا كثيراً من المصنفات الثمينة فى المنطق والسياسة والتاريخ الطبيعى والطبيعة وأغلبها مما نقل الى اللغة العربية فى عصر الخلفاء العباسيين .

Taprobane تبروبان
Phébol فيبول
Malte - Brun مالطبرون

جغرافى فرنسى شهير ولد بباريس سنة ١٨١٦ وزاول تدريس التاريخ فى كبريات المدارس ثم تفرغ للمباحث الجغرافية وانتظم فى سلك اعضاء الجمعية الجغرافية واشترك فى تحرير مجموعتها . وله مصنفات قيمة فى الجغرافيا ترجم بعضها باللغة العربية فى عهد المرحوم رفاعه بك رافع وطبع بمطبعة بولاق .

Phambolon فامبولون
Saibala سيبالا (لاسيبلا)
Eratosthène اراتوستين

كان أمين دار كتب الاسكندرية فى عهد بطليموس أفرجيطة الأول توفى سنة ١٩٤ قبل الميلاد بالغاً من العمر الثمانين وكانت وفاته انتحاراً بالجوع وهو الذى لسعة معلوماته

الفلكية سمى بمفتش الكون وقد أيد ارسطو فيما خيل له من كروية الأرض وبنى على ذلك امكان السفر الى الهند من ناحية الغرب

اغا ترشيد Agatherchides

كان رئيس دار كتب الاسكندرية ومعاصراً لايراتوستين وقد تلمذ له ، وكان نابغة فى علم تخطيط البلدان . وهو أول من عين اتجاهات سواحل افريقيا فيما يلى بوغاز باب المندب وقد ضمن كتاباته ما تلقاه عن ايراتوستين

ارتيميدور Artémidore d' Ephèse

تلميذ اغا ترشيد وكان أتبع له من ظاله وله مصنفات هى كل ماتلقاه عنه وقد حبذها استرابون وبليناس وديودورس الصقلى لاعتبارهم إياها الينبوع الذى اغترف منه المؤرخون

هيبارقة Hipparque

أكبر فلكى نبغ فى مدرسة الاسكندرية (رواق الحكمة) وهو مستكشف حركة المبادرة السنوية فى الاعتدالين الربيعى والخريفى وكان عائشاً فى القرن الثانى قبل الميلاد

تيموستين Timosthéne

رحالة زعم أنه وصل فى رحلته من سواحل افريقيا الى جزيرة سرنى (قورينة) التى معناها فى لغة أهل قرطاجة

« النهاية » أى آخر ما وصل اليه فى رحلته ومن مطالعة رحلة هانون الواردة فى هـذا المصنف يفهم أنه اسمى بهذا الاسم أيضاً آخر جزيرة وصل اليها

بلينياس Pline

مؤرخ وكاتب رومانى تولى منصب القنصلية وترك جملة من المصنفات ورسائل وصف فيها عادات الاقدمين واخلاقهم وتوفى سنة ١١٥ بعد الميلاد

سترابون Strabon

عالم إغريقى بتقويم البلدان ولد سنة ٦٠ قبل الميلاد وتوفى فى عهد طيبريوس قيصر وله كتاب الجغرافيا الحاوي لوصف الاقطار المعروفة فى الأرض وقتئذ

ديودورس الصقلى Diodore

مؤرخ يونانى من عصر اغسطوس له فى التاريخ مصنف يسمى (المكتبة التاريخية) وهو تاريخ عام لشعوب الأرض فى أربعين مجلداً لم يخلص الينا منه سوى خمسة عشر مجلداً وقطعاً من بعض المجلدات الباقية

بطوليمائيس تيرون Ptolémais Théron

ثغر بالبحر الاحمر انشأه بطليموس فيلاذلفوس وكانت تجلب منه الفيلة الى مصر لقربه من الحبشة وهو غير ثغر بطوليمائيس الذى انشأه هذا الملك أيضاً فى المكان

المشهور الآن بثغر مبارك (راجع الصحيفة ٢١٤ من رحلة الطواف حول افريقية بالسفينة نازيرور)

بطليموس فيلاذلفوس Ptolémée Philadelphe

هو بطليموس الثانى ابن بطليموس سوطر الأول مؤسس دولة البطالسة حكم من سنة ٢٨٥ الى سنة ٢٤٧ قبل الميلاد

قرن الجنوب Corne du sud

راجع كلمة جردفون فيما بعد

بحر اريثرا أو اريثريا Mer Erythréenne

هو القسم الجنوبى من البحر الاحمر المقابل لشطوط الحبشة الشرقية التابعة لدولة إيطاليا الآن

ميوس هرموس Mios Hormos

ثغر قديم موقعه بحرى القصير الحالية بعشرة فراسخ وموقعه معين فى جداول بطليموس (راجع فى الكلام عليها ص ٢١١ من الجزء الاول من كتاب الطواف حول أفريقية بالسفينة نازيرور).

اثينيوس Ahénéus

النبط Nabathéens

النبط أو الانباط أو النبطيون هم سكان بلاد العرب

الحجرية الواقعة الى الجنوب الشرقى من مملكة أدوم وعلى ضفاف خليج أيلة .

مفرتيس Maphartis

ملك كانت سيادته تسرى على مراكز العرب التجارية فيما يلى خليج البربر من سواحل أفريقية أى من رأس غردفون .

موسيلون Mosyllon

ثغر بالشمال الغربى من غردفون ينافس سبا وحضرموت فى التجارة وكانت تذهب اليه السفن المصرية فى عهد الفراعنة والبطالسة لجلب البضاعة وفى موقعه يوجد الآن بندر قاسم .

أليوس جالاوس Aelius Gallus

قائد رومانى انفذه اغسطوس قيصر الى بلاد العرب لاخضاعها وقد فشل فيها وغرقت دونمته .

اغسطوس قيصر Auguste

قيصر الرومان ولد سنة ٦٨ ق.م وتوفى سنة ١٤ ب.م بلغت شوكة الدولة الرومانية فى عهده الى الذروة العليا وهو الذى جعل مصر ولاية رومانية .

هيبال Hippale

من مشاهير الملاحين تمكن برويته وصدق بصره من

معرفة سر الرياح الموسمية فى المحيط الهندى وقد اطلق اسمه على الريح الجنوبية الغربية منها أى الريح الموسمية الصيفية اشعارا بفضله وتخليدا لذكره .

الريح الجنوبية الغربية

إحدى الريحين الموسميتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية وتسود كل من الريحين ستة أشهر فى السنة وتسمى الأولى منهما فى لسان بحرية خليج عدن والمحيط الهندى بأيام الشلى (بتشديد اللام) والثانية وهى الصيفية بأيام الدنانة وهناك رياح أخرى منها ريح العولية وهى ريح الدبور والديمانى والجاهى والمغيبى والسهيلى والمطلعى وهو النكباء .

بطليموس الفلكى Ptolémée, l'astronome

من أساطين علماء مدرسة الاسكندرية له من المؤلفات المجسطى وهو القائل بوجود الأرض ثابتة فى مركز العالم ودوران الشمس وبقية الأجرام السماوية حولها وهو عكس نظرية كوبرنيك . وكان من أهل القرن الثانى للمسيح .

تراجان أو ترايان Trajan

قيصر الرومان من سنة ٩٨ الي سنة ١١٨ من الميلاد ،

Dodwel دودول
Salt سولت
Saumaise سوميز
Litterone لترون
Septime Sévère سبتموس سفيروس

قيصر الرومان من سنة ١٩٣ الى سنة ٢١١ بعد الميلاد كان قائدا هماما موفقا زار الاسكندرية فنقش واليها اسمه فى قاعدة عمودها الشهير كما لو أنه أقامه تخليدا لذكرى زيارته ومن اسم سفيروس أو سيورن اشتقت كلمة سوارى التى اشتهر بها اسم ذلك العمود .

Rhapta ربطة

آخر مرسى من بر الخزائن سميت كذلك لأن الزوارق تربط اجزاؤها بعضها ببعض أو تخاط . ولا تزال كذلك حتي الآن وتسمى امتيبة .

Azanie آزانيا

آزانيا أو بر الخزائن هي ما وقع من سواحل الصومال التى على المحيط الهندى جنوبى غردفون حتى الخط الثامن من خطوط العرض وهو أحد اقسامها الثلاثة التى ثانيها السيف الطويل فى الوسط بين هذا الخط والخط الخامس وثالثها بر البنادر . ومجموعها يسميه العرب بر العجم أو العجم فقط ويسميه أهلها بر الصومال أو بلاد الصومال .

المصورات الجغرافية

هى الخرط أو الخرائط سماها بالمصور الجغرافى قدماء مؤلفى العرب فى علم الجغرافيا وسموها كذلك صور الأقاليم قال ياقوت الحموى : « كنت فى عام ٦٠٧ قد توجهت الى الشام وفى صحبتى كتب العلم اتجر فيها وكان فى جملتها كتاب صور الأقاليم للبلخى نسخة رائقة الخط والتصوير فقلت فى نفسى لو كانت هذه النسخة لمن يجتدى بها بعض الملوك ويكتب معها هذه الأبيات (وقلتها ارتجالا) لكان حسناً وهى :

ولما رأيت الدهر جار ولم أجد
من الناس من يعدى على الدهر عدواكا

ركبت الفلا يحدو بى الأمل الذى
يدنى على بعد التنائف مثواكا

ورمت بأن أهدي اليك هدية
فلم أر ما يهديه مثلى لشرواكا

فجئتك بالأرضين جمعاً تفاؤلا
لعلمى بأن الفال رائد عقباكا

فخذ هذه واستخدم الفلك الذى
يراه الهى كى يدور بيغياكا

الجزائر اليافطية Iles Jaffatéennes

ليس فى الجزر ما هو موصوف بهذا الوصف والحقيقة ان اسم تلك الجزر هو « الجافتين » ويسميها عوام الملاحين « الشفتين » وهى جزر فى البحر الأحمر توجد تجاه سواحل ابو شعر التي فيها ساحة آبار البترول المعروفة بالغردقة وهى على الدرجة ٢٧ من درجات العرض الشمالى المار بمديرية أسيوط عند منقباد وقد ذكرها أغاثرشيد فى جغرافيته .

برنيس Bérénice

مرفأ فى البحر الأحمر على سواحل مصر قال بعضهم أنه كان قريباً من ميوس هورموس (القصير القديمة) وفيها طريق كان يوصل الى قفط وقال البعض الآخر أنها كانت فى موقع رأس بناس الآن أى على خط العرض المار باسوان والذى انشأها هو بطليموس فيلاذلفوس وبرينيس اسم والدته .

ادوليس Adulis

من ثغور الحبشة كانت واقعة جنوبى بطوليمائيس ثيرون (راجع هذا الاسم فيما تقدم) وعلى مقربة من باب المندب أسسها بطليموس فيلاذلفوس .

دیری أو دیره Deiré

بلدة على سواحل البحر الأحمر ذكرها بطليموس ، وهى يونانية معناها الرقبة .

أفاليتس Avalitès

اسم مدينة تبعد عن باب المندب بخمسين ميلا فى موقعها توجد مدينة زيلع .

الدكتور كولى Dr Cooley

عالم انكليزى له فى مجموعة الجمعية الجغرافية الملكية لندن بحث فى تحقيق مواقع ثغور الصومال .

ملاؤ Malao

ثغر قديم يبعد بقدر ٨٠ ميلا عن زيلع توجد فى موقعه الآن مدينة بربرة .

موندوس Moondus

ثغر قديم على مسافة ٨٠٠ استادة من ملاؤ .

نيلو بطولوميون Nilo - Ptoléméon

ثغر قديم يقوم مكانه الآن بندر خور .

تابا تيجة (ثغر آخر) Tapae Tégé
دفنون الصغرى Petite Daphnon

ثغر قديم من سواحل خليج البربر يوجد الآن فى مكانه بندر أم رعيه .

اكناى (ثغر آخر) Akannay

أبوكرب Apocope

كلمة يونانية معناها القطع سمى بها مكان فى أبعد موقع من الصومال الى الشرق بشكل خليج صالح لرسو السفن . والملاحة فى جواره خطرة لتعرضه لرياح الشمال حتى انه كلما هبت هذه الرياح اضطرب ماؤه واعترته كدورة شديدة .

تابه أو تابو Taboe

رأس كبير هو الطرف الشمالى الغربى من شبه جزيرة أو رأس حافون وفيه مرسى أمين للسفن وربما كان رسمه طبا

شرسونيز Chersonèse

كلمة مركبة من كلمتين يونانيتين شرسوس ومعناها القارة ونيزوس الجزيرة وقد اطلقت على مواضع كثيرة عرفت بكثرة الجزر القريبة من القارة كالدردنيل والقرم والدانمرك والهند الصينية وسواحل الصومال .

أبونة Opône

مكان من الصومال تنجذب عنده سواحلها الى الجنوب وقد ذكرها الأدريسى بهذا الرسم .

سرابيون Sérapéon

أو سرابيوم أمكنة عديدة لعبادة سرابيس المعبود المصرى اشهرها اللذان كانا فى الأسكندرية ومنفيس . وهو هنا أول مرسى من بر الخزائن يلى أبونه .

Nikôn نيكون

مرفأ فى بر الخزائن يلى سرابيون وعلى مقربة منه مجارى مياه عديدة يبعد أحدها عن الآخر بمسيرة يوم تقريباً .

Pyralaon بيرالاون

جزر من بر الخزائن تبعد عن نيكون جنوباً بسبعة من مجارى السفن .

Nouveau Canal القنال الجديد

موقع يبعد عن بيرالاؤن ذكره بطليموس فى جغرافيته

Ménou thésias مينو تيزياس

جزر من بر الخزائن على بعد مجريين ليلا ونهاراً من القنال الجديد وبعد ٧٠٠ استادة من القارة وهى كثيرة النباتات والحيوانات .

Musa موسي

قبيلة اشتهرت بالحذق فى صناعة الأسلحة وبكثرة سفنها التجارية التى كان يتولى قيادتها ربابنة من العرب .

Ras Assouad رأس أسود (بقرب رأس حافون)
Delgado دلغادو (رأس قريب منه)
Ras Hafoun راس حافون

وتسمى أيضاً جرد حافون او راس الشناريف موقعها على مسافة عشرة أميال ونصف من جنوب جردفون الى

غرب . وهو رأس حجرى يرتفع كالمدرج الى ٨٨٥ مترا . والملاحون يخشون السير بسفنهم فى جواره ولهذا السبب ذهب بعض المحققين الى أن صحة اسمه «خافونى» كأنه يأمرهم بالخوف منه . وبينه والارض القارة برزخ طوله عشرون كيلو مترا .

وارشيخ (بلدة بالصومال جنوب حافون) Oar Cheikh
رأس ماء بور Ras - Maabeur

مرفأ صالح للسفن مدخله متجه الى الشمال والسفن تأوى اليه فى أيام الشلى أى أيام الريح الموسمية الصيفية . وبور بلغة الصومال معناه الجبل فيكون اسم الرأس ماء الجبل والا كانت كلمتا « ماء بور » تحريفاً لأحدى كلمتى معبر أو معبور .

رأس الخيل (مرة كالمتقدم) Ras - el - Khil
رأس عوض (مثلها) Ras - Aouad
رأس مروتى (كالرؤوس الثلاثة السالفة) Ras M'routi
رأس ماء بور الصغير (من بر الخزائن) Ras Maabeur es - Serir
دار صلاح (جنوب رأس ماء بور الصغير) Drasalahh
وادى نجال Ouadi Nougal

النجال أو النجل تحريف لكلمة النجا وهى اسم الوادى الذى قال الأدريسى عنه أنه آخر أرض البرابر وقد اسماه أيضاً بلد النجا حين قال : « هذا الجزء السادس من الأقليم الأول يتضمن من ناحية الجنوب مدينة قرفونه

ومركه والنجا » وعلى ساحل وادى النجا دخلة فى الأرض ومرفأ صالح .

نهر الجب DJoub

نهر فى الصومال يتصل ببحر الهند من بر الخزائن ويسمى أيضا الدنق ونيل مقدشو ذلك لأنه يصل الى البحر عند هذه المدينة . ولنهر الجب رافد يسمى الاخضر يشق بحيرة وشكواما وله ثلاثة فروع .

مقدشو Maguedechou
مركا Meurka
براوه Baraoua

ثلاث مرافئ ببر الخزائن ذكر الأولى منها ابو الفدا وياقوت فقال انها مدينة فى أول بلاد الزنج يجلب منها الصندل والأبنوس والعنبر والعاج وقد يكون ذلك مجلوبا اليها وذكر الثانية الأدريسى وهى قائمة فى موقع نيكون القديمة وفى الملخص بحث مستفاض عن المرافئ الثلاثة فليرجع اليه .

رأس الاسير Ras Acir

رأس بقرب جردفون ويطلقه العرب توسعاً على رأس جردفون نفسه .

جردفون Gardafoui

رأس جردفون شبه جزيرة من الصومال ابعد

ما يكون من أرضها إيغالا فى البحر من ناحية الشرق . وقد أسماه بطليموس بقرن الجنوب وأسماه العرب رأس الأسير (راجع المادة السابقة) وكانت هى أقصى ما وصل اليه اليونان فى جولاتهم ببحر الهند فقد قال ارثيميدور : « لم نحصل على بيان من الثغور والأماكن التى تلى ذلك الرأس جنوباً لأن معلوماتنا عن السواحل تقف عند هذا الحد » . ويسمى أيضاً رأس الاطياب أوالبهار أو الأفاويه . ووصفه أنه رأس صخرى ارتفاعه ٢٣٨ مترا يحيط به الضباب جملة الوقت والتيار عنده شديد ولا سيما فى وقت الرياح الموسمية التى تهب من الجنوب (أيام الدنانه) . وقد ذكره ابن ماجد مرارا فى كتابه الفوائد قال: « جردفون وقرطلا » وقال : « وجردفون يرجع البر الى الجنوب الى حافونى » الخ .

وادى طحون wadi Tohhun
خليج بنه Benna

خليج بنة ويسمى أيضاً قطع بنة ، قال ابن ماجد : « وقطع بنة قرب حافون » كان مفضلا كرفأ على وادى طحون ولكنه خطر على السفن فى الرياح الموسمية الشمالية الشرقية .

خور هرديه Khor HardiJé

هو الجون الواقع شمالى شبه جزيرة حافون وبساحله الشمالى القرية المسماة بهذا الاسم . وهو يرسم بحسب اللفظ الأفرنكى خور هرديجة فهل هو محرف كلمة خديجة ؟ انا لا نميل الى الاخذ بهذا الظن تجاه ما ورد فى أبى الفداء من وجود جون وقرية فى هـذه الجهة باسم هدية فاذا صح استنتاجنا يكون الاسم هو خور هدية لا خديجة ولا هردية .

مجرتين (قبيلة) MadJertine

لا يبعد أن تكون هذه الكلمة تحريف كلمة مرتان وهى اسم لاحدى جزيرتين بسواحل الصومال واسم الاخرى حرتان وقد ذكرهما الادريسى .

الابجال (قبيلة) Abgal
بندل فلهو Bandal Velho

أى البندر القديم باللغة البرتقالية وكلمة بندل تحريف بندر .

جزائر كويو (بشرق افريقية) Kouiyou
مندره (ماذره ؟) Mandra
لامو Lamou

بلد بشرق افريقية . قاله أبو المحاسن .

بمبا Pemba

جزيرة ببر الزنوج معروفة ومعنى بمبا باللغة السواحلية العاج .

مافيا Mafia

جزيرة ببر الزنوج تسمى أيضاً منفية بضم الميم قال ياقوت « منفية بلد مشهور فى ساحل بر الزنج » .

اوفيجي OfidJi.

قال ياقوت الأفيق نهر فى بر الزنج .

أم طبا (بضم الطاء) M' tébé

طاليس Thalès

فيلسوف يونانى عاش فى القرنين السادس والخامس ق . م . له مصنف فى قسمولوجيا أى علم نواميس الكون

انجزاجور Anaxagore

فيلسوف يونانى من أهل القرن الخامس ق . م . تلقى عليه سقراط وبرقليس العلم له مصنف فى وجود الله .

اروطو أو ارسطوطاليس Aristote

فيلسوف يونانى من أهل القرن الرابع ق . م . صنف فى حياة الحيوان وفى السياسة والآثار العلوية وشرح فلسفته الوليد محمد بن رشد الفيلسوف العربى المغربى المشهور المعروف عند الفرنجة باسم Averrhoes

ماران الصورى Marin de Tyr
ديوسقور Dioscore

الاثنان أول من رسما المصورات الجغرافية ولأولهما جغرافية عن سواحل أفريقية الشرقية ومؤلفات لم يعثر عليها .

بيلوزه Péluse

من مدن مصر القديمة كانت قائمة عند مصب الفرع الأخير لناحية الشرق من فروع النيل السبعة وكانت تسمى بالتينة وتعرف الآن بالفرمة . وعليه فغير مطابق للصواب ماذكره لاروس فى قواميسه من أن بور سعيد قامت على اطلالها ، ذلك لأن موقع التينة كان بين موقع هذا الثغر وبحيرة بردويل .

كوزماس Cosmas

راهب مصرى من أهل القرن السادس ب . م ألف كتاب طبوغرافية العالم المسيحى الذى عارض فيه فكرة دوران الأرض لمنافاتها الدين ، وله أيضاً كتاب اسمه رأى المسيحى كوزماس فى العالم .

طير الصرفا Supha , Suspha

اسماه بهذا الاسم القس كوزماس الآنف الذكر ووصفه بأن حجمه ضعف حجم الحدأة ونحن نعلم أن من الطيور الكبيرة التي تطير فوق البحر ويراها المسافرون طيراً اسمه

أم الصنانى وصفه ابن ماجد بقوله « أم الصنانى طيرة زرقاء فى بطنها بياض تكدر بالزرقة » ويرى فى جهة الصومال وسقطرة وهناك طير آخر يسمى الزمج بتشديد كل من الزاى والميم بضم الأولى وفتح الثانية فهل الصوفا أحد هذين النوعين أم هو نوع ثالث ؟

الكلمات الواردة فى الباب الثالث

مسروق الحبشى Masrouk

مسروق ابن الأشرم كان قائدا لجيش اليمن . وقد اجتمع أهل اليمن فى أيامه الى سيف بن يزن الحميرى واشتكوا اليه ما يجدونه من تحكم الأحباش فيهم فقام واستخلص البلاد من أيديهم بواسطة كسرى أنو شروان ولم يبق بينهم فيها سوى مائة نفس اتخذهم عبيدا له فتربصوا به الى أن خرج ذات يوم الى الصحراء متصيداً فقتلوه بحرابهم وولوا الأدبار فأرسل كسرى عند ما بلغه ذلك وهرز بن كامجار حاكما عليها من قبله فبقيت تابعة لفارس من ذلك الحين الى أن افتتحها المسلمون فى سنة ٦٣٤ من الميلاد و١٣ من الهجرة .

ثيفيت Thévet

مؤلف له كتاب القسموغرافيا العامة .

انجزيجة AngazidJa

ليفومة أو روفومة Livouma ou Rouvouma

انجزيجة هى جزيرة القمر الكبيرة . وقد سماها الأدريسى أنفرنجة أو جزيرة الزانج ، ولكن لعل هذا تصحيف ناسخ . وليفومة اوروفومه نهر تجاهها .

جوان دى باروس Joan de Barros

أجان AJan

وجدنا فى ياقوت كلمة أجان اسما لمدينة ولكن ليست بالصومال وقال جوبير انها تحريف لكلمة النجا (راجع هذه الكلمة) والأقرب للصواب هو أن تكون تحريفا لكلمة العجم أو الأعجام . فأنه من المعلوم ان الأعجام هاجروا قبل الأسلام بقرون كثيرة الى السواحل الشرقية من الصومال وانتشروا فيها . وقد استمر ذلك الى العهد الأسلامي الذى هاجر فيه الأخوة السبعة الخ ما هو مسطور من أمرهم فى الملخص .

مقدشو Moguedchou

دهربلو (مؤلف فرنسي) D ’ Herbelot

عبد المتعال Abd - el - Moal

بحسب الرسم الفرنجى عبد المعال وهو جغرافى فارسى لعل صحة اسمه عبد المتعال .

شيراز Chiraz

إحدى مدن العجم المشهورة بجودة نبيذها وهي موطن الشاعرين سعدي وحافظ .

صونجو أو سندو Songo

شنجا أو شنغا Changa

منبانا Monpana

علي بومال (لعله علي بوعلي) Ali - Bumale

علي بو سلقيت Ali - Bou - Sologuète

مطاطه مندليما Matata Mandalima

تالوت (لعله طالب أو ثعلب) Talut

علي بوى (لعله البولى) Ali - Boui

بيرو دى نهايا Pero da Nhaya

شومبو Chumbo

الفضايل (اقرأ الفضيل) Alfudaïl

بدرو الفاريز كابرال Pedro Alfarez Capral

جوان دى نوفا Joan de Nova

فاسكو دى غاما Vasco de Gama

التاجر سليمان Le marchand Soleyman

تاجر عربي ممن جابوا الأقطار المحيطة ببحر الهند وصنفوا فيها التصانيف . قال جبريل فران ناشر مصنفات أحمد بن ماجد أسد البحر في باريس سنة ١٩٢٢ بالفوتوتيبيا في المقدمة الفرنسية التي صدر بها هذه الطبعة ما يأتي : « ومصنفات بن ماجد وسليمان المهري تحتوي خلاصة المعلومات التي اهتدى اليها نوتية بحر الهند » ،

داوى أو داريوس Darius

داريوس بن هستاسب ملك العجم من سنة ٥٢١ الى سنة ٤٨٠ ق . م .

البيرونى (كاتب عربى مؤلف) Albeyrouni

سومنات Soumenate

مدينة بالصومال ذكرها ابن ماجد بهذا الرسم .

الجوزرات Gouzerate

الجوزرات من بلاد الهند ذكرها ابن ماجد بهذا الرسم فقال : « ان الذى يستقبل الخايج البربرى إن كان لمنيبار أو جوزرات » وقال : « ومن جوزرات الى الزنج » وقال : « بندر الجوزراتى » .

ملك صقليه

اراد به القومندان جيان فى مؤلفه الوثائق التاريخية والجغرافية والتجارية رجار صاحب جزيرة صقلية الذى ألف الشريف الادريسى ، برسمه وبطلب منه ، مصنفه الجغرافى المسمى (نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق) . وكان أهل الشرق يسمون هذا الكتاب (كتاب رجار) وأهل المغرب يسمونه (كتاب أجار) . وقبل هذا التأليف كان رجار طلب من الشريف الادريسى واسمه الشريف ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس أن يصنع له

كرة مثل الأرض من الفضة الخالصة فصنعها وبقى من الفضة التي كان دفعها اليه مقدار كبير أراد أن يرده الى الملك رجار فأبى . وقد نقل جغرافية الادريسى الى اللاطينية جبريل الصهيونى ويوحنا الحصرونى السوريان وطبع بالعربية فى رومية سنة ١٥٩٢ .

سقطرة Socotra

جزيرة كبيرة الى شرق الصومال تجاه رأس جردفون وبينها وبينه جزيرة عبد الكورى أوردها ابن ماجد بهذا الرسم فى قوله : « أو يسقط بالكوسى على سمحة ودرزة وسقطرة » وقوله : « وربما يختص بشمال سقطرة » الخ . ورسمها ياقوت الحموى والادريسى سقطرى بضم أوله وثانيه وسكون ثالثه وراء ألف مقصورة ورسمها ابن القطاع سقطراء بالمد فى كتاب الأبنية .

مركة Markah.

ضبطها ياقوت بفتح الميم والكاف وسكون الراء وقال: « مدينة بالزنجبار لبربر السودان وليس لبربر المغرب » .

الملندة (بفتح الميم واللام وسكون النون) Melinde
منبسة Mombase

بهذا الرسم أوردها ياقوت فى معجمه إذ قال : « منبسة مدينة كبيرة بأرض الزنج ترفأ اليها المراكب » وكتبها ابن

بطوطه فى رحلته منبسى قال : « جزيرة منبسى وضبط اسمها ميم مفتوح ونون مسكن وباء موحدة مفتوحة وسين مهمل مفتوح وياء جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر » .

Diego Fernandez Pereire دييجو فرننديس بيريرة
Christopher كرستوفر .
Haine's River نهر هينز
P. A. Joubert جوبير

مترجم كتاب نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق للشريف الأدريسى الى اللغة الفرنسية .

Khakonï جبل خاقونى

ذكره الأدريسى بهذا الرسم وقال انه على أقل من ٣٠٠ ميل من مركه .

Mont de la quille جبل الحراب
Ras Terma ترمة

ترمة أو ثرمة بساحل شرق الصومال . ذكر الأدريسى أنها على مائة ميل من غرب جردفون وهو ما يفيد أنها بساحل شمال الصومال على خليج البرابر وهو خطأ ومثله قوله أنها على البحر الأحمر فى حين ان سياق كلامه يعنى وجودها على ساحل شرق الصومال .

Carfouna قرفونه

أوردها واحد ، مأبور رأس وموضع موضعها .

الأدريسى وابو الفداء بهذا الرسم ورسمها غيرهما قرقونة وفرفونة وقربوة ، وهذا من غلط النساخ وتحريفهم .

جوة DJouah (Goa)

ضبطها الأدريسى بضم الجيم وفتح الواو وقال : «ومن جوة الى قرفونة يومان » وجوة هذه غير جوة سندابور مدينة بالهند اتخذها البرتقاليون كرسيا عاما للاكليروس الكاثوليكى فى الشرق على عهدهم .

بندر قاسم Bendeur Gacem

ورد بهذا الرسم فى حاوية الاختصار فى أصول علم البحار لابن ماجد . هو بندر بساحل شمال الصومال على خليج عدن أو بحر البرابر .

أم رعية M 'Raïah

مكان بسواحل الصومال الشمالية يليه من ناحية بندر قاسم ثغر جوة .

بندر دجوه (بالبرتقالية بندل) Bandel D ' Agoa
الهاوية Haouia

الهاوية جملة قرى فى جبل خاقونى على ساحل الصومال الشرقى قاله ابن سعيد وابو الفداء فقد جاء : «ويلى رؤوس هذا الجبل مدن صغار كالقرى يقال لها الهاوية » وورد فى بعض نسخ الأدريسى أنها الهادية ولكنه خطأ . وزعم آخر

أنها الحوية وهو خطأ أيضا لأن الحوية اسم قوم في الصومال بجهة حافون .

مليسة (اقرأ : منيسة) Manisa

قال الأدريسي أنها مدينة متاخمة لسفالية ويذهب آخرون الى أنها تحريف منبسة التي تسمى باللغة السواحلية مفيته والى ان النساخ حرفوا هذه الكلمة الى منيسة .

اليابس (اقرأ : البانس) El - Banés

في الأدريسي : « من منبسة الى قرية البانس » ولكن هرتمن (انظر هرتمن فيما بعد) حقق هذه الكلمة فقال انها اليابس ، وان رسمها بالبانس من تحريف النساخ .

نبهنة أو باناعانا (قاله الادريسي) Nebhena
رأس كوريانتس Cap Corrientes
واسين (جزيرة عند منحنى رأس بونا) Ouacine
رأس بونا Pointe Pouna
عجود (جبل) AdJoud

تحريف مجرد جاء على لسان الأدريسي وصفا للجبل الذي في رأس دلجادو يعني به أنه جبل يباب أو أنه كثير الصوت بسبب ما يسمع عنده من صوت تلاطم الامواج.

ثهنة Thonet

بلد على حدود الزنج من سفالية جنوب رأس دلجادو.

هارتمن Hartmann

عالم محقق المانى شرح الشطر الخاص بأفريقية من

جغرافية الادريسى .

مكندانى (خليج) Mikendany
لندى (نهر) Lindy
سونده (جزائر) La Sonde

جزر فى بلاد الملايو (ماليزيا) بعد شبه جزيرة ملعقة (ملاقة) منها جاوه وشمطره الخ وبين هاتين الجزيرتين مضيق مشهور ببوغاز السوند . ورسم ابن ماجد الاسم هكذا وفى كتاب الفوائد فى أصول البحر والقواعد : « وفى جزيرة جاوه المغارب بندر يقال له سونده » .

ملوقة (جزائر) Les Moluques

جزر فى بلاد الملايو (ماليزيا) مشهوزة بجودة أفاويهها لها مضيق وبحر بهذا الاسم وتسمى فى كتب الجغرافيا الحديثة بجزائر الملوك وقد أسماها ابن ماجد «جزائر ملوقة» فى موضع و « جزر ملوكو » فى موضع آخر من مصنفاته فالأخذ بأى الأسمين صحيح .

سرندة (هي سرنديب) Saranda
الانجبة El - AndJebeh

أطلق الأدريسى هذا الأسم على جزيرة ينطبق وصفها على جزيرة مدغشقر :

ملغاش أو ماجاش Malgache

اسم سكان جزيرة مدغشقر ولغتهم .

Anfoudja أنفوجة

أطلق الأدريسى هذا الأسم على مدينة فى جزيرة الأنجبة تسمى بلغة أهل البلاد انجزيجة .

Kermedet كرمديت أو كرموه

اسم لجزيرة ذكرها الأدريسى ولكنها لم تكن فى بحر الزنج .

El - Cotroba , Cotorié القطربة أو قطورية

جزيرتان ذكرهما الأدريسى باعتبار أنهما فى الزنج ولكن وضعهما لا ينطبق على جزيرة ما من جزر هذا البحر وانما ينطبق على جزيرتى خوريامورِيا ومصيره ببحر البربر .

Roïbahat روبيهات أو الرابحات (جزر)

جزر ذكرها الأدريسى باعتبار أنها فى بحر الزنج على مقربة من الأنجبة (مدغشقر) ولكنها ليست فيه لوجودها بين سيلان ومدغشقر ولأن وصفها لا ينطبق على الجزر القريبة منها .

Dadou . Derou , Dadoua ددق (اقرأ : ددو) دارو ، دادوا

اسم مدينة من موسامبيق ذكرها الأدريسى على كونها من مدن واق واق .

Yana'ana (انظر نبهنة) يانا عانا
Daghdagha ou Dargha (قرب نبهنة) دغدغه أو درغا
Dendema دندمه
Banyna بنينه
Sayouna صيونة

المدن الثلاث المتقدمة بسفالية فدندمة من أكبر مدنها وعلى مقربة من موقعها توجد الآن مدينة كليمانى وبنينه على الساحل وصيونة على مقربة منه .

Makoua ماقوا

اسم لقوم فى موسامبيق يسمون واماقوا جمع مفرده ماقوا . وقد رأى بعض المحققين أنهم الذين سميت بلادهم واق واق مستدلا على ذلك بالشبه اللفظى بين (واماقوا) و (واق واق) .

Cena سينا
DJentama جنطمة

مدينتان فى سفالية يرجح أن تكون الأولى هى صيونة . أما الثانية فواقعة على مصب ليكونغو .

Likongo (نهر) ليكونغو
Killimane (مدينة فى موقع دندمة) كليمانى
Boukha بوخة

مدينة على فرع من نهر زمبيز يدعى لوابو رسم فى إحدى نسخ الأدريسى « بركه »

لوابو « فرع نهر ليكونو » Louabo

جبسطه أو جسطه DJabesta , DJesta

قال الأدريسى أنها المكان الذى كانت تقام فيه سوق سفالية وكانت هذه السوق قائمة وقتما وفد البرتقاليون على سواحل افريقية الشرقية .

انهمبانى Inhambane

مدينة فى الخليج القريب من رأس كورينتس .

ياقوت الحموى Yacût

هو الشيخ الأمام شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبدالله الحموى الرومى البغدادى المتوفى سنة ٦٢٦ هجرية ، له مصنفات عديدة منها معجم البلدان فى مجلدات ضخمة وهو مرتب على طريقة المعاجم الأفرنكية . وكان ياقوت أديبا ناثرا شاعرا وتاجرا حاذقا لبقا ورحالة عالما بجغرافية أقاليم الأرض وأمصارها .

رينو « شارح جغرافية الادريسى ومجلدها » Reinaud

شمطره Sumatra

رسمها ابن ماجد هكذا فى قوله : « ومكفنج من جزيرة شمطرة » وقوله : « وميقاماروس جبل فى شمطرة »

جاوه Java

جزيرة من أرخبيل سونده النسبة اليها جاوى وعند الأفرنج جاوانى . وسكانها نحو ٣٠ مليونا أكثرهم مسلمون

وقاعدتها بتاوة والجزيرة تابعة لهولندة .

ملاى أو ملايو Malay

الواحد من سكان جزر ماليزيا ولعل هذه الجزر هى التي أسماها ابن ماجد بر الملى . وقد خلط ابن سعيد بينها وبين جزيرة القمر .

كورا « بحيرة » Koura

رسمها هكذا ابن فاطمة وقال إن النيل يخرج منها تحت خط الاستواء .

فرموزة « الى الغرب من ملنده » Farmosa

الاورى « اقرأ : الاوزى » . نهر يصب فى خليج فرموزه Ouzi

راباى « جبل بقرب منبسة » Rabay

زمبيز « نهر يصب فى خليج موسامبيق » Zambése

جزر انجوكس Iles d ' Angoxe

جزر بازاروت Bazaroute

قناة القمة « اقرأ قناة القمر » Canal Comr

هى خليج موسامبيق . والقمر جزيرة ينطبق وصفها على مدغشقر . قال ابن سعيد وياقوت . القمر بضم القاف وسكون الميم . ووصفها ياقوت بقوله أنها جزيرة فى وسط بحر الزنج ليس فى ذلك البحر أكبر منها . فيها عدة مدن وملوك الخ . وقال آخرون القمر بفتح القاف والميم وغيرهم بضمهما .

بلبق « ثغر فى آخر خليج موسامبيق » Balbeuq, Balaba

ابو حفص عمر بن الوردى ibn el - wardl

من أعيان المؤلفين فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر من الميلاد) له كتاب خريدة العجائب وتحفة الغرائب ذكر فيه افريقية وبلاد العرب والشام وما زالت خريطته عن الأرض محفوظة بدار كتب باريس ومطابقة لأول ما نشره مسيحيو الغرب فى بدء النهضة الاوربية مما يدل على أنه مأخوذ عنه . وقد ترجم خريدة العجائب الى الفرنسية العلامة لند وكان العلامة دى جينيه قد سبقه الى ترجمتها ملخصا .

البقوى El - Bakaoui

هو عبد الرشيد بن صالح البقوى نسبة الى باقو (باكو) من ثغور قزوين المشهوره بينابيع زيت البترول . ألف كتاب غرائب القدرة وكان من أهل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

هوفا أو هوفاس Hovas

جيل من أهل جزيرة مدغشقر ، يرجع أصله الى جنس الملايو وتتألف منه الطبقة العليا فيها .

هركند Herkend

رسمها الأدريسي بالكاف فقال جزر هركند وتكلم

عليها ياقوت الحموى فى معجمه عرضاً فى مادة سرنديب فقال : «ان سرنديب جزيرة عظيمة فى بحر هركند بأقصى بلاد الهند » الخ .

ليرانا «مدينة يقال انها بعدفشقر» Lyrana
دهمي «مدينة يقال انها بعدفشقر» Dehemi
جزائر المند Iles Mend

راجع مادة « قوج » فيما بعد .

الرانج « جزائر » Ranehh

قال العالم جويير إن هذا الرسم خطأ من النساخ صحته الزابج ، ذلك لأن المسعودى وضع جزيرة سريرة وهى كبرى تلك الجزر فى أملاك المهراج ملوك بحر سنف الذى فيه مملكة الزابج لا الزانج .

سريره Serira

إحدى جزر الزابج ذكرها بهذا الرسم ابن سعيد .

شمس الدين « من المؤلفين في تقويم البلدان » Schems Eddin
قوج « جزيرة » Cutch

قوج أو كوتش شبه جزيرة بقرب الجوزرات وتسمى أيضا منديو أو منديف بحسب نطق الفرنجة وهى مؤلفة من كلمتين « مند » و « ديو » أى الجزيرة فيكون معنى منديو جزر المند، واذاً يبطل قول القائل ان المند من جزر

كلوه التي على سواحل زنجبار .

El - Cazouini القزوينى
Noaïri النويرى
Omary العمرى
Abd - el - Razak El - Samarakandy عبد الرزاق السمرقندى

هؤلاء الأربعة من كبار المؤلفين فى تقويم البلدان ولهم مصنفات قيمة فيه .

BandJouïa بنجويه

كتبت على ضروب شتى : لنجويه ، ليخونه ، انجويه ، لنحويه ، بنجويه . للدلالة على مدينة زنجبار وهى تعرف فى لسان السواحلية بأنجويه ورسمها يافوت فى معجمه لنحويه بضم الحاء وفتح الواو إذ قال : « هى جزيرة عظيمة بأرض الزنج فيها سرير ملك الزنج واليها تقصد المراكب من جميع النواحى الخ » والمفهوم ان هذا الاختلاف من خطأ النساخ وان الأقرب الى مطابقة الحقيقة من تلك الاسماء كلها هو انجويه .

Diaz دياز « رجل برتقالى »
Colomb كولب « هو كريستوف مستكشف امريكا »
Magellan ماجلان

بحار برتقالى أول من حاول الطواف حول الارض فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وقتل بجزر الفلبين .

مارکو بولو Marco Polo

الشبله Chebelléh

بتشديد اللام وكسرها مقاطعة من بلاد الصومال الشرقية قرب نهر الجب ، وهى غير وداى أو وابى شبلى الذى هو أحد الأنهار فى تلك البقعة .

الاجران Odgourane

قبائل صومالية ضاربة فى فسيح الأرض بين نهر الجب والشبله .

جليب Dgellib

مدينة قرب مقدشو كانت تابعة لها قديما ، وهى غير جلب بضم الجيم وجلب بكسرها موضعين فى غير الصومال

كندر شيخ « ثغر بالصومال » Gondeur Cheikh

لو جارينا الرسم الأفرنكى لهذا الاسم لوجب أن نكتب « جندور شيخ » ولكننا قرأنا مرسوما بالكاف هكذا « كندر » فى ابن ماجد فى ذكره لبلدة بالهند تسمى « كندر دهى غبة » . وفى مادة كندر بمعجم البلدان لياقوت ان كندر بضم الكاف والدال وسكون النون بينهما موضع فى نواحى نيسابور وموضع فى قزوين .

ابن المجد الموصلى Ibn - el - Magd de Moussoul

له كتاب مزيل الارتياب ذكر فيه سواحل شرق افريقية .

Abgal الابجل

قبيلة من سواحل شرق الصومال وهى فخذ من قبائل الهاوية .

Ouanika الوانيكا « قبيلة فى سفالية »
Zimbos الزمبوس

قبائل على سواحل افريقية المقابلة لمنبسة ، أسماها البرتقاليون بهذا الاسم .

Thomè Souza Coutinho تومى سوزا كوتنهو
Yoûfi يوفى

قال ابن بطوطة : « بين سفالية ويوفى من بلاد الليميين مسيرة شهر » ويذهب القومنوان جيان الى أنها قد تكون « نوفى » .

الكلمات الواردة فى الباب الرابع

Cap Noun رأس نون
Cap BoJodor رأس بجادر

رأسان فى غرب أفريقيا على بحر اقيانوس أى المحيط الاطلنطى .

Zarko Vaz زاركو فاز
Bartholomeu Perestrello بارتولميو بيريسترللو
Gil Eanes جيل اينس
Aytam Goncalves أتتام كونسالف
Nuno Tristam نونو ترستام

ريودى أورو « نهر الذهب » غرب أفريقية Rio - de - Ouro
فيسنت دى لاغوس Vicente de Lagos
ألويز دى سادا موستا Aluise da Cà - da - Mosta
انتونيو دى نوفا Antonio de Nova
فرناندو غومز Fernando Gomes
فرناندو بو « جزيرة غربى افريقيا » Fernando Pô
انوبون « جزيره غربى افريقيا » Annobon
خليج بينين « غربى افريقيا » Baie de Bénin
خليج بيافرا « غربى افريقيا » Baie de Biafra
الزائر « اسم نهر الكونغو قبل أن يسمى كذلك » Zaïre
بيرو دا كوفيلهام Péro da Covilham
الفونسو دى بايفا Affonso de Payva
بارتولوميو دياز Bartholomeu Diaz
خليج دوس فاكيروس « أى خليج البقارة رعاة البقر » Dos Vaqueiros
سنتا كروز « جزيرة فى غرب افريقيا » Santa Cruz
خليج دالاجوا « فى غرب افريقية » Baie da - Lagoa
كننور (مدينة بالهند) Cananor
زاكويجة ZacoëJa

والى موسامبيق من قبل سلطان كلوا وقيما وصل اليها دى غاما للمرة الأولى .

واجراج Ouagerage

سلطان أو صاحب أو شيخ ملنده الذى عاهد البرتقال بواسطة دى غاما . وقد تبرأ المؤلف جيان من عهدة رسم هذا الاسم وما جرى مجراه كزاكويجة وعنكونيج الخ قائلا انه ينقلها كما كتبها المؤلفون البرتقاليون والاسبانيون فى تاريخ شرق أفريقية على عهد البرتقال (راجع مقدمة هذا التعريب) .

ترسيرة (جزيرة قرب مدينة الرأس من ناحية الاطلنطي) Terceire

بدرو الفاريز كبرال Pedro Alvares Cabral

ڤيسنت سودرى Vicente Sodré

دون استفام داغاما Don Stevam da Gama

محمد عنكونيج Mohhammed AnconidJ

افونسو وفرنسسكو البوكرك

Affonso et Francisco d' Albuquerque

كوشيم (ثغر بالهند بقرب كاليكوت) Cochim

انطونيو دى سلدانها Antonio de Saldanha

دييجو فرنندس بريرا Diego Fernandes Pereira

رودريجو لورنسو رافاسكو Rodrigo Lourenco Ravasco

القنج (نهر الهند المقدس ورسمه ابن بطوطة : الكنك) Le Gange

تيمور (مدينة بالهند) Timor

برنى (جزيرة) Bornéo

بفتح الباء وسكون الراء جاء ضبطها هكذا فى حاوية الاختصار لابن ماجد فقد قال : « جزر برنى » . وجزيرة برنى من أرخبيل سوندة وهى أكبر جزر الأرض بعد استراليا .

بيجو Pégu

مدينة فى برمانيا كانت فى القدم عاصمة لمملكة بهذا الاسم . والنسبة اليها بيجوانى .

بنقالة Bengale

قطر كبير من أقطار الهند عاصمته كلكتة واليها ينسب الخليج المشهور باسمها . وقد رسمها ابن ماجد على وجهين الأول بنقالة والآخر بنجالة ولكنه للرسم الثانى

أكثر استعمالا حيث قال : « تجارى برالسـيام حتى تنتهى الى أرض بنجاله » وقال : « اذا كنت طالباً أرض السند أو أرض بنجاله » وقال : « فى بر بنجاله والسيام وبرالنات » الخ

نورسنجا (من بلاد الهند) Norsinga
كنباية Cambaye

أحد ثغور الهند ويسمى أيضاً زهر كنباية وخليجها يسمى خور كنبـاية . ذكرها ابن ماجد بهذا الرسم مراراً فى كتبه .

هرموز Hormuz

كتبها المصنفون العرب على ضروب مختلفة فابن ماجد رسمهـا هراميز فى قوله : « جزيرة برخت قرب هراميز » و « فأذا خلفت أرض الجواسك جئت الى هراميز » و « ان كان لجوزرات أو ظفار أو هراميز » الخ ورسمها هرموز فى قوله : « وأما ان جئت من هرموز » ، أما ابن بطوطة فقد كتبها هرمز فى قوله : « قطب الدين صاحب هرمز » والمؤلفون المحدثون فى الجغرافيا على هذا الرسم .

جرون (جزيرة) Gérun

جرون هى الجزيرة التى توجد بها مدينة هرمز . قال ابن بطوطة : « ثم سافرنا من جرون » .

Ras Assein رأس أسين
Borée رأس بوريا
Golfe Larazze خليج لاراز

مواقع ثلاث يظهر أنها على سواحل البحر الأحمر .

Bir بير (موقع على نهر الفرات)
Zamorin الزامورين (لقب حاكم المدينة في الهند)
Dom Francisco d'Almeïda دوم فرنسسكو داليدا
AnJedives انجديو (جزر بالهند)
Cyde Barbudo سيد باربودو
Pedro Quaresma بدرو كوارسما
Joao de Queiros جواو دى كويروس
Manoel Fernandes مانويل فرناندس
Mengo Musaf منجو موزاف (صهر حاكم سفالية)
Acote اكوت (اسم رجل حبشي)
Benomotapa بينوموتابا (يعدل لقب امبراطور أو ملك فى سفالية)
Facuig فاكويج (اسم النيل فى لسان الحبش)
Tacazig تكازيج (أحد روافد النيل فى لسان الزنوج)
Abanhi ابانهى (اسم أحد روافد النيل بلسان الزنوج ومعناه أبو الماء)
Barcena برسينا (اسم بحيرة كبيرة فى لغة الزنوج تمد النيل)
Couama كواما (اسم فرع من نهر الزمبيز)
Panhamca , Louamgoua , Arrouya , Mangouo ,
Inadire , Rouenia بانهامكا ، لوامجوا ، أرويا ، مانجوو، ايناديره، روينيا

روافد لنهر الزمبيز تلتقى بفروع كواما وتروى أراضى مينوموتابا .

Manica مانيكا
Matouca ماتوكا
Botounga بوتونجا

مانيكا منطقة مناجم الذهب فى سفالية ، وماتوكا

المقاطعة التي تحتوى هذه المنطقة ، وبوتونجا العمال المشتغلون باستخراج الذهب .

Taroa طاروا
Boutoua بوتوا

طاروا إحدى مناطق سفالية الكثيرة المناجم وبوتوا المملكة التي فيها هذه المنطقة وذلك بحسب التقسيم الجغرافى لعهد البرتقاليين .

Symbaoë , Zimbaoë سيمباوى أو زمباوى
SymbacaiJo سيمبا كايجو

سيمباوى قصر ملوك مينوموتابا وسيمبا كايجو حارس بناء هذا القصر .

Vicente Pegado ڤيسنت بيجادو
Agyzimba اجيزامبا
Mozimo موزيمو

اجيزامبا الاسم الذى أطلقه بطليموس الجغرافى على منطقة زمباوى ، وموزيمو الاله الفرد الذى كان يعبده أهل مناطق الذهب .

Tirendiconde تيرانديكوند (مكان قريب من كاوا)
Goncalo Vaz de Goes جونسالو ڤاز دى جويس
Tristam da Cunha تريستام دا كنها
Mougna Mongo موجنا مونجو

اسم زعيم زنجى وكلمة موجنا هنا محرفة من كلمة

مواجنى التى معناها بالزنجية السيد أو الرئيس .

فرنسسكو فريرا بستانا Francisco Ferreira Pestana

موجنا كامى أوكام Mougna Came

اسم زعيم زنجى وأصل كلمة موجنا هو مواجنى بمعنى السيد كما ذكرنا فى مادة موجنا موبجو .

غومز دابرو Gomez d' Abrou

كيرمبا Quirimba

التاج «نهر فى البرتغال» Le Tage

الونسو لوبز داكوستا Affonso Lopes da Costa

الفارس تاس Alvares Telles

روى بيريرا Ruy Pereira

الموجاء « قرب منبسة » OJa

كيتو Quitau

قال القومندان جيان ان الأهالى الوطنيين فى زنجبار لا يعرفون بلداً بهذا الاسم الآن .

جاكا « بلدة من زنجبار على مقربة من الموجاء » Jaca

كيونة « بلدة واقعة الى جنوب ملندة هى المسماة الآن شيونى » Kiona

كيليفى « بجوار السابقة » Kilifi

كشم Kechen

كشم جزيره قرب مسقط تجاه سقطره . وفى معجم البلدان انقشم بالقاف موضع باليمن ولكنه لم يقل أنه جزيرة

الاونسو دى نورنها « اقرأ : الونسو » Affcnso de Norenha

رأس الحد Roselgaad

قال ابن ماجد : « رأس الحد كل رأس حايل بين دير تين

مثل مسقط وقرتك » وقال: « ورأس الحد يسمى رأس الجمجة وهو رأس منحدب الى البحر اقرب مايكون من بر العرب للهند ويسمى بره بر الأطواح » . وقال ياقوت: « الجمجة بضم فسكون سن خارجة فى البحر بأقصى عمان بينها وبين عدن يسميه البحريون رأس الجمجة له عندهم ذكر كثير فانه مما يستدل به راكب البحر الى الهند والآتى منه.

كنجرانور « امارة فى الهند » Cangranor

كولم « امارة في الهند » Coulam

بفتح الكاف وسكون اللام . ذكرها ابن بطوطة فقال: « وهى من أحسن بلاد المليبار وتجارها يسمون الصوليان » .

تريومبارا « لقب ملك كوتيم بالهند » Trimumpara

واجيبي « جزيرة في الهند » VaïJpi

ربلين « امارة فى الهند قرب كاليكوت » Replin

دانور « اقرأ: دنور . امارة فى الهند » Tanor

باسبور « اقرأ: بسبور . امارة فى الهند » Bespour

طوطاجام « امارة فى الهند » Cottugham

كوديم « اقرأ: كورين . امارة فى الهند » Corin

دوم دوارتى باشيكو Dom Duarte Pacheco

لوبو سوارس Lopo Suares

فناني « بالماء » Banané

قال ابن ماجد . « فنانى قرب كاليكوت »

جوة سندابور Goa

بضم الجيم وتشديد الواو جزيرة في الهند اتخذها

البرتقاليون إبان فتوحاتهم قاعدة ممالكهم فى المحيط الهندى ومركزاً للتبشير وما برحت تابعة لهم وأورد ابن ماجد اسمها فى كتبه .

قلهات Calayate , Keulhât

بفتح القاف وسكون اللام . بهذا ضبطها ياقوت فى معجمه ثم قال : « وهى مدينة بعمان على ساحل البحر اليها ترفأ أكثر سفن الهند وهى الآن فرضة تلك البلاد وأمثل اعمال عمان . . . وهى لصاحب هرمز وأهلها كلهم خوارج اباضية» . وفي حاوية الاختصار لابن ماجد : «قلهات» ايضا

كوريات « اقرأ : الخوريات » Curiat , Kériat

ذكر ابن ماجد الخوريات ولعله أراد بها مجموع الأخوار الواقعة على جنوب بلاد العرب المتصلة بالمحيط الهندى أو أراد بها خوريا موريا التي قال عنها : « أنها كثيرة الزلزلة والسحاب والأرياح » وأشار ياقوت فى معجمه الى الأخوار فقال انها جمع خور مثل ثوب وأثواب وانه اضيف الى عدة مواضع ، ثم ذكر من هذه خور سيف بكسر السين قرب سيراف . وقد عرف الخور فقال : «انه عند عرب السواحل الخليج يند من البحر . »

مسقط Mascate

بفتح الميم وسكون السين وفتح القاف قال ياقوت . «مدينة من نواحي عمان فى آخر حدودها على ساحل البحر» وهى غير مسقط الرمل فى طريق البصرة ومسقط ساحل بحر الخزر . ومع أن ابن ماجد أوردها بهذا الرسم أى بالقاف فى مواضع من كتبه فقد أوردها بالكاف فى أخر حيث قال : « ومن جاس الى مسكت » و «.. جزيرة حمراء عالية يقال لها الفحل قرب مسكت » .

سحار Soar , Sohhar

رسمها ابن ماجد بالسين مراراً فى كتبه فقال : « ثم يدور البر من مسندم الى سحار وبينهما مدن كثيرة » و « ومن سحار الى مسكت البندر المشهور فى الدنيا » ولكن ياقوت الحموى رسمها بالصاد إذ قال : «صحار قصبة عمان مما يلى الجبل وتؤام قصبتها مما يلى الساحل . وهى مدينة طيبة . . . وقيل انما سميت بصحار بن إرم بن سام بن نوح » . وقال البشارى : « صحار قصبة عمان ليس على بحر الصين بلد أجل منه . . . وهو دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومعونة اليمن واليها ينسب أبو علي محمد بن زوزان ـ الصحارى ـ العمانى الشاعر » .

خور فكن Orfaoan

أورده ابن ماجد بهذا الرسم وخالفه فى رسمها ياقوت الحموى إذ قال فى مادة خور ما يأتى : « وخورفكان بلد على ساحل عمان يحول بينه وبين البحر الأعظم جبل وبه نخل وعيون عذبة » ضابطا إياه بفتح الخاء وسكون الواو وضم الفاء .

جوغستان « اقرأ : موغستان » Mogostan

رسمها ابن بطوطة موغ استان فقال : « وهرمز مدينة على ساحل البحر وتسمى أيضاً موغ استان وتقابلها فى البحر هرمز الجديدة » .

لارك « اقرأ : اللار » Larek

رسمت فى الاصل الفرنسى بما يرد الى هذا اللفظ . ولكننا مع طول البحث فى مظان وجودها لم نعثر لها على أثر . وإذ كان فى الموقع الذى هو مدلول هذه الكلمة جهة تسمى (لار) لا (لارك) فليس ببعيد أن تكون زيادة الكاف من تحريف الالفاظ الكثير التواتر فى اسماء الاعلام الشرقية . وقد كتب ابن بطوطة اللار تحت عنوان (ذكر سلطان لار) عن تلك الجزيرة وذكرها ياقوت فى معجمه فقال فى تعريفها « جزيرة بين سيراف وقيس » .

سيرافيم « اقرأ : سيرافين » Seraphin

السيرافين نقد يعدل الواحد منه ستة ريالات ونصف من نقود البرتقال فى عهد سلطانهم ببحر الهند ومفهوم ان سيرافين تصحيف سيرافى نسبة الى سيراف الثغر الكبير على ساحل خليج فارس .

رأس فرتك Ras Feurtok

رسمها ابن ماجد هكذا فى كل مواضعها من كتبه حيث قال فى تعريفه رأس الحد وضرب المثل عليه : « مثل مسقط وفرتك » وقال : « وفى نتخمات مثل فرتك وظفار » الخ .

دابول ، خور دابول Daboul

وردت فى ابن ماجد بهذا الرسم وبالياء فى موقع وبالباء فى غيره ولعله من تحريف النساخ . وقد أوردها ياقوت فى معجمه برسم آخر حيث قال : « خور الديبل من ناحية السند والديبل مدينة على ساحل بحر الهند » وضبط الديبل بفتح الدال المشددة وسكون الياء وضم الباء .

لوبو سوارس دالبرجريا Lopo Soares d' Alborgaria
ديوجو دى ملاو Diogo de Millo
دوم بدرو دى كسترو Dom Bedro de Çastro
جواو دا ماتا Joao da Mata

اوتندو « قرية قرب منبسة » Otondo.
امتنجاتا « قرية على الساحل تجاه جنوب جزيرة بمبا » M'tangata
متوتو « اسم رجل من أهل منبسة » Mototo
كرنيليوس هوتمن « تاجر هولندى » Cornélius Houtman
ملديو أو ملديف Maldives

مجموعة جزر صغيرة الى الجنوب الغربى من سيلان .

الفلندر Flandre

اسم كان قبل اجيال يطلق على البلاد المحصورة فى اروبا بين أسفل نهر الاسكوت وبحر الشمال ومقاطعات ارتوا وهينو وبرابانت .

قطاى Le Cathay

قطاى أو قطى هو الاسم الذى يطلقه على بلاد الصين كلها مؤلفو القرون الوسطى الجغرافيون وتعرف به الآن البلاد الواقعة الى الشمال الغربى من الصين .

فرنسيس دريك Francis Drake
ستيفنس « ربان انكليزى » Stéphens
كافنديش Cavendish
كولبير Colbert

من فطاحل وزراء فرنسا فى القرن السابع عشر على عهد لويس الرابع عشر وهو تلميذ مازران .

فاريا ايسوزا Faria y Souza
اسبادارت « اسم سفينة » Espadarte
دوم بدرو دى مسكارينها Dom Pedro de Mascarenhas

جو نسالف دا سلفيرا Goncalves da Sylveira
فرنسسكو بوراتو « اقرأ : باريتو » Francisco Barreto
ايراناپولا « موضع فى موسامبيق » Iranapola
مونجاس « أحد الملوك التابعين لمونوموتابا » Mongas
فاسكو فرنندو هومم Vasco Fernando Homem
مونسكلاروس « رئيس الآباء اليسوعيين فى موسامبيق » Monclaros
مانشيكا اسم « مملكة فى شيكانغا » Manchica
كيترفا « مملكة بجوار شيكانغا » Quiterve
زمباز « ربما كان المراد بها سمباوي أو زمباوة Zimbase
شيكانغا « مملكة فى أراضي موناتابا » Chicanga
مانيناس « مناجم فى مملكة كيترفا » Manninas
شيكوفا « مملكة كانت تدفع الجزية لمونوموتابا » Chicova
انطونيو كودوزو دالميدا Antonio Cordoso d' Almeida
لوزيفا « بلدة قريبة من كيتو وبقدشو » Louziva
روك دى بريتو Roque de Brito
أمبازا « مدينة بسواحل زنجبار » Ampaza
يوجو Jougo

لايوجد هذا اللفظ اسما لمدينة فى زنجبار ولكن لعله كوجو أو جوبو .

دوم دوارتى دى مينزس Dom Duarte de Menezes
ماتيوس ماندس دى فسكنسلاوس .
Mattheos Mendes de Vasconcellos
مانويل دى سوزا كوتنهو Monoel de Souza coutinho
زمبا Zimba
وازمبا Ouazimba

زمبا البلاد التى يسكنها قوم وازمبا أو هو الدلالة على شخص واحد من هؤلاء القوم والوازمبا من اكلة اللحوم

البشرية ويسكنون احدى ضفتي نهر الزمبيز ولم يخضعوا قط للبرتقال فى أيام دولتهم .

Diogo de Couto دیوجو دی کوتو
Sihoui , Sio سیهوی « بسواحل زنجبار »
Paza بازا « بسواحل زنجبار »
Ouacegueyo واسیجیو

كتبها المصنفون البرتقاليون موسيجيو للدلالة على قبائل سواحل مانده والاراضى التي ينزلونها . وهم مشهورون بالضراوة وحب القتال .

Lancaster لنكاستر

هو جاك لنكاستر مؤلف كتاب (التاريخ العام للرحلات) .

Encosses « انكوس « اقب مشائخ قبائل الكفر
Moumbos مونبوس

قوم كالوازيبا من اكلة اللحوم البشرية مستقرون على احدى ضفتي نهر الزمبيز ويزيدون على كونهم يأكلون اللحم البشرى أنهم يتجرون به ويقيمون له اسواقا .

Pedro Fernandes de Chaves بیدرو فرناندس دی شافس
Chicarougo شیکاروجو « بلدة من بلاد الكفر »
André de Santiago اندره دی سنتیاغو
Chaho ben M'chahham شاهو بن مشحم

شوار موفيتا « اقرأ : شاؤ و مفتا » Charo Mou M'vita

شاهو بن مشجم آخر سلاطين أو مشائخ منبسة من الأسرة الشيرازية وقد كتب المؤرخون البرتقاليون اسمه شاؤ مومفيتا بتحريف غير معالم اسمه الصحيح .

انطونيو دي كوتنهو داندراد Antonio Godinho d'Andrade

كنتجونة « ثغر جنوبي موسامبق » Quintagone

استفام داتائيد Estevam d'Ataïde

فيرهوفن « اميرال هولندي » Verhoeven

شاربي « ربان انكليزي الف رحلة في الهند الشرقية » Charpey

رولس « ربان سفينة انكليزية » Rowles

منجاناجي MounganaJe

هو أحد أعمام احمد سلطان منبسة ولعل لفظة موجنا تحريف لفظة مواجني التي معناها السيد واذن يكون اسمه السيد ناجي .

ديجو سيمونس ماديرا Diogo Simoens Madeira

انكوني (اسم أحد الملوك التابعين لمونوموتابا) Ancogne

باروي (اسم احدى الممالك التابعة لمونوموتابا) Baroë

ماتوزياني (اسم أحد الملوك التابعين لمونوموتابا) Matouziagne

نونو الفارس بيريرا Nuno Alvares Pereira

كيزنجا (أحد اقاليم مونوموتابا) Quizinga

ماسابا (أحد اقاليم مونوموتابا) Massapa

ديوجو دي كارفالهو Diogo de Carvalho

دوم جواو دازفيدو Dom Joao d'Azevido

شومبا (أحد زعماء السكنر) Chomba

ديوجو بيرس براندم Diogo Pires Brandam

كيتامبو (زعيم من السكنر موال للبرتقال) Quitambo

انيانشنج (أحد أقرباء مونوموتابا) Ignanchangue
بوروورو (أحد اقاليم بلاد الكفار) Bororo
فرنسسكو دى فونسكا بنتو Francisco de Fonseca Pinto
روى دى ميلو اسمبايو Ruy de Melo e Sampayo
مارنجا (بلدة فى مونوموتابا) Marenga
انيامبنزو (بلدة فى مونوموتابا) Ignambanzo
قمران أو جمرون Comoran

بما أن الذى يؤخذ من سياق كلام المؤلف أن قمران على سواحل عمان فيكون رسمها بالقاف خطأ صوابه كمران بالكاف . وقد أوردها ابن ماجد بهذا الرسم فى ذكر بعض مدن سواحل عمان واليمن إذ قال : « حجف وكمران وبطن بنه » الخ . أما قمران فرأس فى جنوب الهند وقامران هو ابن عابر بن سام الذى قال ابن ماجد أن جزيرة القمر (مدغشقر) منسوبة اليه .

كيكسوم . Queixome

كيكسوم جزيرة بجوار الخليج الفارسي هى نفس جزيرة كشم التى سبق الكلام عليها وتسمى أيضاً جزيرة قيس قال ابن بطوطه : « جزيرة قيس حيث مغاص اللؤلؤ ومدينة قيس تسمى أيضا بسيراف » .

روى فريرا داندراد Ruy Fereira d' Andrade
دوم جيرونيمو شنجوليا Dom Géromino Chingoulia
بدرو ليتام جمبوا Pedro Leytam de Gamboa

متنجاتا ، تنجاتا ، موتونا M' tanggata , Tanggata , Motona
جهات بجوار منبسة ولكن الثالثة منها معروفة الآن
باسم متونى .

كونت دى لنهارس Comte de Linhares
فرنسسكو دى مورا Francisco de Moura
امكوبا (قرية عند الخاتمة بين منبسة والساحل) M' coupa
رودريجز دى بوتلهو Pedro Rodrigues Botelho
الشحر Chaïl (Chehheur)

الشحر كما ذكر ياقوت فى معجمه الشط الضيق وهو
صقع على ساحل بحر الهند بين عدن وعمان ، واليه ينسب
العنبر الشحرى ويلفظه الفرنجة شايل وهو غير شيول
التى سيرد ذكرها بعد .

مساج Masselege

اسم مملكة عربية فى جزيرة مدغشقر قرب خليج
بوينى وكان أهلها جالية من مختلف عرب أفريقية الشرقية
وبخاصة جزيرة باتا . ولم نهتد الى حقيقة رسم اسمها فى
العربية ولعله كما أوردناه هنا بحسب النطق الافرنجى .
والكلمة عربية من ساج الشراب واستلجه ألح فى شربه
كأنه ملأ به سلجانه بكسر السين واللام المشددة أى
الحلقوم فأطلقوا ذلك الاسم على المكان الذى وجدوا به
من ما أطفأ عطشهم أو على المكان الذي وجدوا به اصدافا

بحرية تؤكل اسمها السليج .

Roques Borges روك بورجس

Antonio de Oliveiro انطونيو دى اوليفيرو

Francisco de Sexas e Cabra فرنسسكو دى سكساس اكبرا

Faquevalle الدقيه على « اسمه غرة »

Lorenço Marques لورنسو ماركو « هو خليج دلاجوا »

Tongue, Otongue تونجا أو اوتونجا « مملكة على ساحل موسامبيق »

Sedenda سيدندا

Le Quitéve كيتيفا « لقب الملوك بحدود سفالية »

Tendanculo تندنكولو « نهر فى موسامبيق »

Mazoura موزورا « اقرأ : مازورا اسم احد مشائخ موسامبيق »

Samoroco سامورو كو « صقع فى شمال موسامبيق »

Morabone مورابونا « صقع على ٥ فراسخ من كليماق »

Foumo فومو « لقب المشائخ الوطنيين فى سفالية »

Botonga بوتنجا « اقليم على ضفة نهر الزمبيز »

Arvenga ارفنجا « نهر فى سفالية »

Baro بارو « مملكة فى مونوموتابا »

Machone ماشونى « لقب شيخ مملكة بارو »

Chipangoura شيبانجورا (حصن فى سفالية)

Mocranga مكرانجا (مملكة فى سفالية)

Mayavo , Louenze , Amberane , Matafouma , Chiporivici مايافو ، لوازه ، امبيران ، ماتوفوما ، شيبريفيسى حصون فى سفالية

Rios de Couama ريوس دى كواما اسمى بالبرتغالى جزر دلتا زمبيز)

Ojbo , Malacoe (اوابيو ، ملاكوى (جزيرتان قرب ساحل موسامبيق

Daman داماں (مدينة هندية بحرى بومباى) .

Bacaïm بسائم (مدينة هندية فى خليج بومباى)

Chaul شيول

وردت بهذا الرسم فى مواضع شتى من ابن ماجد وقال ان خليجها يسمى خورشيول .

مازونجالوس (قبيلة من الكفار قرب منبسة) Mazongalous
مكدس أو مكندس (مكيال للارز فى زنجبار كالمدل) Macandas
أكسولي ، كوا ، زيبوندو (جزر قرب الهند)
Auxoley , Goa , Zibonda

الكلمات الواردة فى الباب الخامس

نزوة Nazoua

بفتح فسكون . قال ياقوت : « نزوة جبل بعمان وليس بالساحل، عنده عدة قرى كبار يسمى مجموعها بهذا الاسم » ثم ذكر ان أهلها خوارج اباضية وان بها تعمل ثياب منمقة بالحرير وأنه رآها فاستحسنها .

سالست « جزيرة صغيرة قرب بومباى » Salsette
كرناتيك ، برسلور ، منجلور
Carnatic , Barsalore , Mangalors

أقاليم من بلاد الهند .

سيداروميا « من قواد افريقية الشرقية » Sécé - Rom 'bé
احمد ابن القبائى « ؟ » Ahmed ben Koubaï
موانا تامو مكوهو Mouana Tamou M' kouhou
محمد بن سعيد المعمرى Mohamed ben Saïd El - maamiri
فومو شاه على Foumo Schah Ali
وامفيتا « قبيلة » Ouam ' vita

معناه أهل مفيتا وهو اسم منبسة باللغة السواحلية .

امريرا « قرية » M' rera
ميلانى جنيومبي Melani Gniombè

موانا ميمى Mouana Mimi

معنى كلمة موانا باللغة السواحلية السيدة .

كوالى « صنع » Qouavi

جافانا Gavana

لعنتم الحى البرتقالى فى منبسة وهو مختزل من كلمة جوفرنو البرتقالية التى معناها الحكومة . أما الحى الوطنى فكان يسمى « الحارة القديمة » .

فوم ألوت « اسم أمير » Foum Alout

واجوجنى « قبيلة » Ouagougni

جرياما « بلدة » Guerriama

جاسى Gassi

امطاوه M'taoué

سولنييه مونديفى Saulnier mondevit

قبالة « مكيال » Kibala

سيزينى « قرية شمال جزيرة يمبا » Sizini

« فونزى جهة بسواحل شرق افريقية » Fon' zi

شالى قرية « قرب فونزى » Tchalé

أوين « ربان انكليزى » Owen

براكوته ، لفن « سفينتان انكليزيتان » Barracouta , Leven

بنجانى « نهر قرب ملندة » Panggani

ل . ف كول « حاكم » ، نورس « كومودور »

L. F. Cole , Comm. Nourse

سيراكوپا « جهة فى منبسة » Sera - Koupa

بلوشى ، زدغالى « اقوام » Beloutchi , Zeudgali

منتيس « اسم سفينة لامام منبسة » Men' tés

كيساوينى ، نيزنجانى « قرب منبسة » Kissaouèni ; Nizingani

امجيو قاله « الحارة القديمة و منبسة » w' djioua - Kalé

مينو أو مينه « بين مسقط وبندر عباس »

وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية
عن
افريقية الشرقية

فهرست الكتاب

صحيفة

صحيفة


Bibliotheca Alexandrina
0420096